

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد II

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

رسالة ٢





الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد الحادي عشر

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. ساي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ٣٧ ٥٥ / ١٤ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

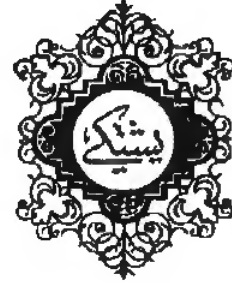
الاجله
٢

جميع الحقوق محفوظة

الأبله (Idiote) ، كتبت هذه
الرواية بين سنتي ١٨٦٧ ، ١٨٦٩ ونشرت
مسلسلة في مجلة « الرسول الروسي »

الجزء الثالث

الفصل الأول



عندنا دائماً من أننا يعوزنا أناس عمليون • فيقال مثلاً ان هناك وفرة في رجال السياسة ، وان هناك كثيراً من الجرالات ، واننا اذا احتجنا الى رؤساء للمشروعات ، أياً كان العدد الذي نريده منهم ، فسوف نجد ضالتنا من جميع أنواعهم فوراً • أما الناس العمليون فلا تقع عليهم ، أو قل على الأقل ان جميع الملائ يتشكون من أنهم لا يقومون عليهم • حتى يقال ان بعض الخطوط الحديدية لا وجود فيها لموظفين يحسنون القيام بأعمالهم البتة ؛ ويزعم بعضهم انه يستحيل كل الاستحالة على شركة من شركات الملاحة أن يتوفر لها موظفون قنيون ولو على درجة متوسطة من الكفاءة • فتارةً يصل الى علمنا أن عربات الركاب ، على خط جديد من خطوط السكك الحديدية ، قد تصادمت أو تهاوت مع جسر من الجسور • وتارةً نقرأ أن قطاراً بقي متعطلاً وسط حقل من الثلج حتى أوشك أن يعجز عن استئناف المسير طوال فصل الشتاء فاذا بالمسافرين الذين كانوا يظنون أنهم لن يسيروا الا بضع ساعات ، يلبثون في الثلج خمسة أيام • وتارةً يروى أن ألوفاً كثيرة من أطال البضائع قد فسدت لبقائها في مكانها شهرين أو ثلاثة أشهر بانتظار نقلها • وتارةً يُذكر (وهذا شيء لا يكاد يُصدق) أن واحداً من موظفي الادارة ، هو مراقب من المراقبين مثلاً ، لم يجد ما يردُّ به على طلب مندوب أحد التجار ، الذي

كان يستعجله شحن البضاعة ، الا أن يصفه على وجهه ، فلما سئل عن فعلته لم يزد على أن صرّح بأنه « غضب » . والمكاتب تبلغ من الكثرة في دوائر الدولة أن المرء يرتعش حين يفكّر فيها . ان جميع الناس عملوا موظفين في الحكومة ، أو يعملون موظفين أو يأملون أن يعملوا موظفين . هل يصدّق العقل أن لا نستطيع أن نشر بين هذه الوفرة الهائلة من الناس على قلة قليلة تصلح لأن تعمل في شركة ملاحه ؟

هذا سؤال يجيب عنه بعضهم اجابة مسرفة في البساطة ، حتى لتبلغ من اسرافها في البساطة أن المرء يصعب عليه أن يقبلها . يقول هؤلاء : ان جميع الناس في بلادنا قد عملوا موظفين أو ما يزالون يعملون موظفين ، فهذا يدوم في الواقع منذ مائتي عام ، يتوارثه الناس أحفاداً عن أجداد ، على غرار خير قدوة أخذناها عن الألمان . والذين يعملون في الوظائف هم بأعينهم أبعد الناس عن الروح العملية ؛ حتى ان الفكر التجريدي وفقدان المعرفة العملية كانا ما يزالان الى عهد قريب يُعدّان بين الموظفين أنفسهم فضيلة بارزة ولقباً رفيعاً .

ولكن علام تكلم عن الموظفين بينما كان غرضنا في الواقع أن نتحدث عن الناس العمليين عامة ؟ هنا نستطيع أن نقول في غير شبهة ان الوجع وفقدان المبادرة الشخصية كانا يُعدّان دائماً في بلادنا خيراً علامة أساسية يُعرف بها الانسان العملي . وحتى في زماننا هذا ما يزال الناس يرون هذا الرأي . ولكن لماذا تهم أنفسنا ، هذا اذا صحّ أن في هذا الرأي اتهاماً ؟ ان فقدان التفرد والأصالة قد عدّ في جميع البلاد وفي جميع الأزمان ميزة أولى ومدخلاً مضموناً لشخص قادر على النجاح في الأعمال وعلى امتلاك الحس العملي ، أو قل ان تسعة وتسعين في المائة من الناس

(على الأقل) كانوا يرون هذا الرأى دائماً ، وإن واحداً فى المائة منهم
(على الأكثر) كان دائماً وما يزال لا يرى ذلك الرأى •

إن المخترعين والعباقرة قد نظر اليهم المجتمع فى جميع الأزمان تقريباً
نظرتهم الى أناس حمقى ، وذلك فى بداية حياتهم (وإلى آخرها فى كثير
جداً من الأحيان) • هذه ملاحظة معروفة شائعة حتى لتكاد تكون مبدولة •
فطوال عشرات السنين مثلاً ظل الناس يودعون أموالهم فى مصرف
لومبارد * مخترعين المليارات بفائدة ٤٪ ، فلما توقف مصرف لومبارد عن
العمل ، فصار كل انسان متروكاً لمبادرته الشخصية ، كان لا بد أن نرى
أكثر تلك الملايين تسبحر بين أيدي محتالين فى غمرة حمى من المضاربات ،
فتلك هى النهاية المنطقية للآداب الاجتماعية والأخلاق الحسنة ، وإنما أقول
« الأخلاق الحسنة » ، لأنه إذا كان الحجل المناسب والابتعاد المحتشم عن
التفرد والأصالة قد عدّهما مجتمعنا فى رأى جميع الناس ميزة ملازمة
لكل انسان جاد محترم ، فإن تغير المراء طريقة سلوكه وأسلوب حياته
فجأة لا بد أن يشتمل ، إذا هو حدث ، على تناقض قوى واضطراب
شديد وتفكك كبير ، بل لا بد أن يكون فيه شىء من مجافاة اللياقة
وقلة الأدب •

من هى ، على سبيل المثال ، الأم التى لا يجعلها حبها لأولادها
وحنانها عليهم تخاف خوفاً قد يهوى بها الى المرض اذا هى رأت ابنها
أو بنتها يتعدان ولو قليلاً عن السكة المرسومة والطريق الممهّد ؟ انها
تقول لنفسها : « لا ، لا ، لا نريد تفرداً وأصالة ! انى لأؤثر له السعادة
وأن يعيش فى يسر » • ان كل أم تفكر هذا التفكير وهى تدلل ولدها •
أما المربيات عندنا فانهن من قديم الزمان يهددن أولادنا فى مهودهم
بأغنيتهن الأبديّة : « الذهب سيحوطك ، وجزراً لا سوف تصبح » • هكذا
نرى أن مربيات أولادنا أنفسهن قد نظرن دائماً الى لقب الجنرال على أنه

المقياس الأعلى للسعادة الروسية • معنى ذلك أن هذه الرتبة تعد هي
المثل الأعلى الذي يحظى باحترام الناس كافة ، وتعد الرمز الى هناءة
فاتة هادئة • وفي الواقع ، أى رجل فى روسيا لم يكن متأكد من
أنه بالغ رتبة جنرال فى يوم من الأيام ، وصائر الى اختزان مبلغ من المال
فى مصرف لومبارد ، متى استطاع أن ينجح فى الامتحانات المطلوبة ،
بعضاً وراء بعض ، ومتى خدم الدولة خمسة وثلاثين عاماً ؟ على هذا النحو
انما كان الروسى يصل آخر الأمر ، دون جهد تقريباً ، على سمعة أنه
رجل قادر على • والواقع أنه ليس فى روسيا الا افراد فئة واحدة
لا يستطيعون أن يصلوا الى رتبة جنرال : أولئك هم ذوو الأفكار المتفردة
الأصيلة ، أعنى أهل القلق الذين لا يستقرون على حال • قد يشتمل
كلامى هذا على سوء فهم • ولكن هذه الملاحظة تبدو صحيحة صادقة ،
ولقد كان المجتمع الروسى مبنياً على تعريف مثله الأعلى فى الانسان
العملى هذا النحو من التعريف •

ولكن ها نحن اولاء قد تأينا كثيراً عن موضوعنا ، وهو أن تقدم
بضع ايضاحات عن أسرة ايباتشين •

ان أفراد أسرة ايباتشين أو ان الميائلين منهم الى التأمل أكثر
من الباقين ، يعانون من خصلة مشتركة بينهم جميعاً هي نقیض تلك
الميزات التى تحدثنا عنها منذ قليل • واقد كانوا يشبهون أحياناً فى أن
الأمر عندهم لا تجرى كما تجرى عند سائر الناس ، دون أن يدركوا
ذلك ادراكاً تاماً (وهو أمر صعب إدراكه على كل حال) • ان الطريق
المستوية الممهدة بالنسبة الى الآخرين هي بالنسبة اليهم وعرة ملأى
بالحجارة • الناس ينزلقون على السكة انزلاقاً سهلاً ليناً ، أما هم
فينزلقون عنها فى كل لحظة • لدى الآخرين يسير وجل شديد وخوف
حفيف ، أما لديهم فلا شيء من ذلك • صحيح أن اليزابت بروكوفينا

كانت تتأبها مخاوف فيها غلو ، ولكن تلك المخاوف لا تشبه فى شيء ذلك
الوجل اللاتق وذلك الحجل المفيد للذين كان يحزن أفراد أسرة
ايباتشين حرماتهم منهما . ولعل اليزابت بروكوفينا كانت الوحيدة التى
يحزنها ذلك على كل حال . لقد كانت الأمسات ، رغم صغر سنهن ، ينعمن
منذ الآن بفكر نقاد ساحر فيه تحد ، وفيه ذكاء وفطنة ونباهة . أما الجنرال
فكان ينفذ الى غور الأشياء (ولو بشيء من البطء) ، لكنه فى الحالات
المربكة لا يزيد على أن يهمهم قائلا « هم » ، ثم ينتهى به الأمر الى
الاعتماد على اليزابت بروكوفينا اعتماداً كاملاً بحيث تقع التبعة كلها عليها
وتكون وحدها المسؤلة .

لا يمكن أن نقول مع ذلك ان هذه الأسرة تتميز الى درجة بعيدة
بروح المبادرة الخاصة ولا انها تسبح لنفسها أن تنقاد ليل واعي الى التفرد
والأصالة ، والا كان ذلك شذوذاً غير لائق . لا ، لا ، لم يكن ثمة شيء
من هذا فى حقيقة الأمر ، لم يكن ثمة شيء يشتمل من جهتها على سابق
قصد وعمد . ومع هذا لم تكن هذه الأسرة ، مهما نقل انها أسرة
محترمة ، لم تكن فى الحساب الأخير ما ينبغى لها أن تكون على وجه الدقة
والتمام حتى يصدق عليها التعريف الشائع للأسرة المحترمة . وقد اعتقدت
اليزابت بروكوفينا فى الآونة الأخيرة أنها وحدها ، بما تتصف به من
طبع « شقى » ، هى سبب هذا الشذوذ فى الأسرة ، فما كان من هذا
الاعتقاد الا أن زاد آلامها وضاعف تباريحها . فكانت تؤاخذ نفسها فى كل
لحظة على « جموحها الطائش غير اللائق » ، حتى لقد أخذت تفقد صوابها
مغمومة مغمومة خائفة مرتابة . فلا تجد مخرجاً من أسير التعقيدات
ولا تجد حلاً لأبسط المشكلات ، وماتنكفئ غمضى بالأمور من سوء الى أسوأ .

لقد قلنا منذ بداية قصتنا ان أسرة ايباتشين كانت تحظى بتقدير
ينعقد عليه اجماع الناس حقاً . فالجنرال ايفان فيدوروفتش نفسه ، رغم

انه مغمور الأصل ، كان يُستقبل في كل مكان بتعظيم لا مرأى فيه . ولقد كان يستحق هذا التعظيم على كل حال ، أولاً لأنه ليس « أى شخص » ، ولأنه رجل طائل الثراء ؛ وثانياً لأنه رفيع التهذيب رقيق الحاشية ، فليس يضيره أن يكون محدود المواهب . غير أن شيئاً من ثقل الفكر وكثافة الذهن ميزة تكاد تكون ضرورية فيما يظهر ، فإن لم تكن ضرورية لكل رجل منخرط في الأعمال ، فهي ضرورية على الأقل لكل رجل حريص على الانتفاع سارع الى الفائدة . ثم انه كان راقي الآداب والسلوك . كان متواضعاً ، وكان يعرف كيف يصمت ، دون أن يشجع لأحد مع ذلك أن يدوس على قدميه ، لا بسبب رتبته فحسب ، بل لأنه رجل يحترم نفسه ويحترمه غيره . وهو فوق ذلك كله رجل له سند قوى يحميه .

أما اليزابت بروكوفينا فهي تنحدر من أسرة طيبة كما سبق أن قلنا . والمحتد لا يكون له وزن كبير في بلادنا ان لم تشفعه علاقات وصلات لا بد منها . وقد حصلت اليزابت بروكوفينا هذه العلاقات والصلات آخر الأمر ، فكانت تُحترم وتُقدر ، حتى لقد ظفرت بمودة أناس كان لا بد للجميع أن يقتدوا بهم فيعظموها ويستقبلوها . ومما لا شك فيه أن أحزانها العائلية لم يكن لها أسباب تسوِّغها ، أو هي ترجع الى أسباب تافهة يضخمها خيالها تضخيماً مضحكاً . ولكن يكفي أن يكون للمرء ثؤلول في أنفه أو جبينه حتى يتخيل أن جميع الناس لا يفكرون الا في النظر الى هذا الثؤلول ، وفي الضحك منه ، وفي نقد صاحبه ، ولو كان صاحبه هذا هو مكتشف أمريكا . ومما لا شك فيه أيضاً أن اليزابت بروكوفينا كانت تُعد في المجتمع « شاذة » بعض الشئ ، دون أن يقلل هذا من الاحترام الذي كانت تُحاط به . لكنها أصبحت تشك في هذا الاحترام آخر الأمر ، فكان هذا هو شقاءها كله . فهي حين تنظر الى بناتها تتخيل مثالة أن طبعها المضحك ، غير اللائق ، الذي لا يطاق ،

يؤدي حالة بناتها ويسىء الى مستقبلهن ، ومع ذلك كان هذا نفسه هو ما تنهم به بناتها وتأخذهن عليهن وتأخذهن على ايغان فيدوروفتش ، فهي تشاجرهن وتشجره أياها بكاملها ، دون أن تكف رغم ذلك عن أن تحبهم جميعاً حباً يمضي الى حد التضحية بالنفس ، ويبلغ درجة الهوى العارم .

وكان يعدّها خاصةً أن تتصور أن بناتها قد أخذن يصبحن « شاذات » مثلها هن أيضاً ، وأنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد على وجه الأرض فتيات من نوعهن . كانت ماتفك تردد على نفسها قولها : « لسوف يصبحن من أنصار المذهب المدمى » . وقد أخذت هذه الفكرة الحزينة ترسخ في ذهنها مزيداً من الترسخ العميق منذ سنة . وكانت تتساءل : « فأولاً : لماذا لا يتزوجن ؟ انهن وُجِدن لتضيق أمهن + ذلك هو هدف وجودهن . و لاغربة في هذا على كل حال + فهو ثمرة الأفكار الجديدة ، وهو خاصةً ثمرة تلك القضية اللعينة ، قضية المرأة ! ألم تتخيل آجلايا منذ ستة أشهر أن تقص شعرها الرائع ؟ يا رب ! ألا ان شعري أنا لم يكن جيلاً هذا الجمال في غضارة صباى ! لقد أمسكت المقص بيدها ، وأوشكت أن تفعل فعلتها لولا أن تضرعت اليها جاثيةً على ركبتي . . . ولنسلم أن آجلايا انما تظاهرت تظاهراً بأنها تريد أن تقص شعرها ، لا لشيء الا أن تثير حق أمها ، فهي فتاة شريرة ، طاغية ، مدلّلة ، شريرة خاصةً ، نعم شريرة . . . ولكن ما قولنا بالكسندرا الكبيرة ؟ ألم توشك أن تقلّدها فتقص شعرها ؟ لم يكن الأمر عند الكسندرا مكرراً أو نزوة ، بل كان عن بساطة تامة . لقد أدخلت آجلايا في روع تلك الحماة أنها اذا حطقت رأسها فسوف تنام نوماً أهدأ وسوف تتخلص من الصداق الذي يلم بها ! وما أكثر الرجال اللاتقين الذي تقدموا يخطبونها منذ خمس سنين الى الآن ! ان بينهم رجالاً كانوا ممتازين حقاً ، بل رائعين ! وماذا

ينتظرون ؟ لماذا لا يتزوجن اذا لم يكن هدفهن الا أن ينقضن امهن ؟
لا شك أن اسباب الوحيد هو هذا ! » •

ولكن هذا يوم جميل يسطع أخيراً أمام قلبها ، قلب الأم . ان احدى بناتها ، آديلايد على الأقل ، تهم أن تتزوج • • هذه واحدة تنزل عن ذراعى ! ، كذلك قالت الأم حين أتمح لها أن تعبر عن ذات نفسها بصوت عال (ولكنها كانت في قرارة قلبها تجد ألفاظاً أَمْلاً بالماطفة والحنو) :
« ولقد تمّ الأمر على أحسن نحو ، وأليق صورة ! فحق في المجتمع الراقى تحدث الناس عن الخطوبة بتقدير واحترام • ان الخطيب رجل معروف • انه أمير • وهو ثرى • وهو حسن الطبع • وقد حظى فوق ذلك باستلطافها • هل يرغب المرء في أكثر من ذلك ؟ على أن مستقبل آديلايد كان دائماً لا يثير في نفس الأم من المخاوف مثل الذى يثيره مستقبل أختها ، رغم أن الميول الفنية لدى هذه البنت الوسطى قد ألقت اضطراباً عميقاً في قلب الأم الذى كان يعتذبه شك متصل لا ينقطع • ، ولكن الأم قد انتهت الى القول من باب تعزية نفسها : « ان للفتاة طبعاً مرحاً فى مقابل ذلك ، وان لها فوق هذا كثيراً من سداد الرأى وسلامة الحس • »

وكانت الأم تخاف على آجلايا خاصة • أما عن الكسندرا فكانت الأم لا تدرى هى نفسها فى حقيقة الأمر أينبغى لها أن تقلق عليها أم لا . كان يخيّل اليها أحياناً أن هذه البنت « لم يبق لها مستقبل • » انها فى الخامسة والعشرين من عمرها • فأغلب الظن أنها ستبقى عانساً • « وما أجملها مع ذلك ! » • وكانت الأم تبلّغ من الحزن عندئذ أنها تأخذ تبكى ليالى بكاملها مفكّرة فى الكسندرا ، بينما تكون الكسندرا فى تلك الليالى نفسها غارقة فى نوم هادى هادى ! • « ما حقيقة أمر هذه البنت ؟ أمى من أنصار المذهب العدمى ، أم هى غيبة حمقاء لا أكثر من ذلك ؟ • » اما انها ليست غيبة حمقاء ، فذلك أمر كانت تعرفه اليزابت بروكوفيتسا

حق المعرفة ، حتى لقد كانت تحترم آراء ألكسندرا احتراماً كبيراً ، وكان يسرها أن تستشيرها . ولكن لا شك في أن ألكسندرا « دجاجة مبتلة » : « انها تبلغ من فرط الهدوء أن لا سبيل الى تعكير صفوها . آه ! .. انهن يفقدن صوابي ! » كانت محس نحو الكسندرا بحب رقيق وحنان شديد لعله أقوى من شعور الحنان الذي تحسه نحو آجلايا ، مع أن آجلايا هي معبودتها . غير أن تلك الاندفاعات الغاضبة (التي كانت المظهر الرئيسى لا يضطرم في نفسها من عطف الأم وحنونها وحدها) وكذلك تلك الاستغزازات وتلك الألقاب ، كقولها « دجاجة مبتلة » لم تكن تزيد على أن تثير في الكسندرا الابتسام .

وكانت أنفه الأمور تخرجها في بعض الأحيان عن طورها . من ذلك ، على سبيل المثال ، أن ألكسندرا كانت تحت أن تنام مدة طويلة ، وكانت ترى في البادة أحلاماً كثيرة . ولكن تلك الأحلام كانت تتميز دائماً بتفاهة نادرة ، وكانت بريئة براءة أحلام طفل في السابعة من عمره . فكانت هذه البرادة نفسها تقيظ الأم وتحققها ، لا يدرى أحد لماذا . من ذلك أن الفتاة رأت في حلمها ذات ليلة تسع دجاجات ، فما كان أعنف الشجار الذي قام بينها وبين أمها بسبب ذلك الحلم ! لماذا ؟ انه يصعب على المرء أن يجيب عن هذا السؤال . وفي مرة من المرات ، في مرة واحدة ، اتفق لها أن رأت حلماً فيه شيء من الطرافة : رأت راهباً معتكفاً في نوع من غرفة مظلمة خافت أن تدخلها . فلما فصّت حلمها على أختها انفجرتا تضحكان ، وأسرعتا الى اليزابت بروكوفينا منتصرتين تقصان عليها ذلك الحلم . ففضبت الأم من جديد ووصفتهم جميعاً بأنهن « بلهاوات » . وقالت تحدث نفسها « هم » .. انها متبلدة الاحساس كبهيمة . هي « دجاجة مبتلة » تماماً . لا سبيل الى اخراجها من تخدر الشمور . ثم انها حزينة . ان نظرتها تتجلى أحياناً بأسى وكآبة .

ما مصدر حزنها ؟ » • وكانت الزبابت بروكوفينا تلقى هذا السؤال أحياناً على ايفان فيدوروفتش ، تلقيه متجهة الهبة بلهجة مهددة تطلب جواباً على الفور • فكان الجنرال يجمع ويهمهم « همم همم همم » • ويقطب حاجبيه ، ويرفع كتفيه ، ثم يعلن أخيراً وهو باعد ذراعيه :

— هي في حاجة الى زوج !

فاذا بالزبابت بروكوفينا تفجر انفجار قبلة ، وتصرخ قائلة :

— أسأل الله ، على الأقل ، أن لا يكون ذلك الزوج مثلك • انتهى

أمل أن لا يشهت لا قى آرائك ولا فى أحكامك يا ايفان فيدوروفتش !
أمل أن لا يكون فظاً غليظ القلب مثلك يا ايفان فيدوروفتش ! • • •

فكان الجنرال يولى هادباً ، ثم تهدأ الزبابت بروكوفينا بعد « انفجارها » • ثم لا يفوتها ، طبعاً ، فى مساء ذلك اليوم نفسه أن تبدى بشاشة عظيمة ولطافة غير معهودة ، فهى تظهر رقة وعذوبة ولطفاً وتحبباً واحتراماً وتوقيراً لزوجها « الفظ الغليظ القلب » ايفان فيدوروفتش ، لزوجها الطيب العزيز الحبيب المعبود ايفان فيدوروفتش • ذلك أنها قد أحبت طوال حياتها ، أحبت حباً قوياً صادقاً ، وذلك ما كان ايفان فيدوروفتش نفسه يعمل على حق العلم ، ويكافى عليه الزبابت بروكوفينا بتقدير لا حدود له •

ولكن العذاب الأسامى ، العذاب الدائم المقيم فى قلب الزبابت بروكوفينا إنما كان منتها آجلايا • كانت الأم تقول لنفسها : « انها مثلى تماماً » • هى صورتي من جميع النواحي : شيطان مستبد صغير ! عنمية ، شاذة ، طائشة ، شريرة ، شريرة ! آه • • • يا رب ! ما أكثر ما ستلقى فى حياتها من شقاء ! • • • • •

غير أن الشمس كانت قد طلعت فأنازلت ولطفت كل شيء ، فترة قصيرة على الأقل • لقد عاشت الزبابت بروكوفينا قرابة شهر ، منحجرة

من جميع أنواع القلق والغم التي كانت تستبد بها . أخذ الناس في المجتمع الراقى ، بمناسبة زواج آديلايد القريب ، يتكلمون أيضاً عن آجلآيا . وكانت آجلآيا تتصرف في كل مكان تصرفاً لطيفاً كئساً ! كانت لبقة السلوك متوقدة الذهن في آن واحد . وكانت هيئتها الأسرة ، التي يمازجها شيء من كبرياء ، تناسبها كثيراً ! وهي منذ شهر كامل تعامل أمها معاملة فيها أكبر الملاطفة وأعظم البشاشة ! (« صحيح أنه ما يزال ينبغي أن يُدرس أوجين بافلوفتش هذا دراسة جيدة » وأن تُعرف حقيقته معرفةً صحيحة . ثم إن آجلآيا نفسها لا تظهر له من المودة أكثر مما تظهر للآخرين على كل حال ») . ولكن آجلآيا قد أصبحت فتاةً نازعة الفتنة رائحة الجمال على حين فجأة ! رباه رباه ! ما أجملها ! وانها لتزداد جمالاً في كل يوم !

ولكن ...

ولكن ما إن ظهر هذا الأمير الصغير الوغد ، ما إن ظهر هذا الأبله المصنوع ، حتى انقلب كل شيء رأساً على عقب من جديد ، وانقلب البيت عاليه سافله ! فماذا حدث ؟

الحق أنه لم يحدث شيء إلا في نظر إليزابيت بروكوفينا . ولكن إليزابيت بروكوفينا إنما كانت تتميز بأن ترابط وتسلسل حوادث عادية جداً كأنها يحدثان في نفسها القلقة مخاوف أليمة ينفذها الخيال ولا يمكن أن يفسرها عقل ، حتى لقد كانت تسقط بسبب ذلك مريضةً في بعض الأحيان . ففي وسعكم أن تتصوروا ما لا بد أن تكون قد عانتها من ألم حين ابتثق في وسط عدد كبير من الهواجس السخيفة الوهمية حادث بدا أن له خطورة حقيقية فكأنه يسوِّغ القلق والاضطراب والشك والريب . قالت إليزابيت بروكوفينا محدثةً نفسها طوال الطريق بينما كانت

تقود الأمير ، ثم فى دارها حين أجلسته الى المائدة المستديرة التى كانت
تخلق حولها الأسرة كلها : « كيف تجرأوا أن يكتبوا الى تلك الرسالة
المنحوسة النفل التى تدعى أن لهذا « المخلوق » علاقات بأجلايا ؟ ...
بل كيف أمكن أن تخطر هذه الفكرة على بال انسان ؟ لسوف أموت من
شعورى بالعار لو صدقت كلمة واحدة منها ، أو أظهرت أجلايا على
الرسالة ! أيسخرون هذا السخر منا نحن آل ايباتشين ! وذلك كله
بسبب ايفان فيدوروفتش . ذلك كله بسببك أنت يا ايفان فيدوروفتش !
آه ... لماذا لم نذهب الى جزيرة يا لاجين فنسكن الفيللا التى نملكها
هناك ؟ لقد قلت ان علينا أن نذهب الى يالاجين ! ربما كانت فاريا هى
التي كتبت تلك الرسالة ! نعم ، أنا أعلم ذلك ؛ أو ربما كان ... آه ...
ذلك كله ذنب ايفان فيدوروفتش ! لقد تخيلت تلك المخلوقة أن تدر له
مثل هذه المكيده تذكيراً بعلاقات قديمة لتجعله فى وضع مضحك . هذا
يذكر بالزمان الذى كان يحمل اليها فيه لآلىء بينما كانت هى تضحك عليه
وتشده من طرف أنفه كمتسوه ! ... ولكن ها نحن أولاء قد تعرضت
سمعتا للسوء نحن أيضاً . نعم يا ايفان فيدوروفتش ، لقد تعرضت سمعة
بناتك للسوء ، بناتك اللواتى هن أوانس أرقى مجتمع ، وفتيات على أهبة
الزواج . لقد كن حاضرات ؟ بقين هناك ، فسمعنا كل شيء ، حتى لقد
أفحصنا فى تلك الأمور السيئة . هل سررت الآن ؟ هناك أيضاً كن
حاضرات وسمعنا الكلام . لن أغفر لهذا الأمير الصغير الشقى فى يوم
من الأيام . لا ، لن أغفر له فى يوم من الأيام ! ولماذا أرى أجلايا مهتاجة
الأعصاب الى هذا الحد منذ ثلاثة أيام ؟ لماذا أراها فيما يشبه الشجار مع
أختها ، حتى مع الكسندرا التى كانت من شدة احترامها لها تقبل يدها
كأم ؟ ما بالها تلقى على جميع الناس ألغازاً وأحاجى ؟ وما مجيء جبريل
ايفولجين الى هنا ؟ لماذا أخذت تكيل له المديح أمس واليوم ، ثم انفجرت

باكية متحبة ؟ لماذا تتكلم تلك الرسالة اللعينة عن هذا « الفارس الفقير »
بينما لم تطلع آجلايا أختها على رسالة الأمير ؟ ولماذا ... أسرعت إليه
كالمجنونة واقدته بنفسى الى هنا ؟ يا الهى ! لقد فقدت صوابى . ما هذا
الذى صنعته ؟ كيف أمكننى أن أتكلم مع شاب عن أسرار بنتى ، لا سيما
... حين تكون هذه الأسرار متعلقة به أو تكاد ؟ رباه ! الحمد لله على
أنه أبله ... وأنه ... وأنه .. صديق الأسرة . ولكن هل يمكن أن
تفتن آجلايا بمثل هذا الطرح ؟ ما هذا الذى أقوله ؟ آه ... اننا
شاذون ... يحسن أن نوضع فى قفص ليتفرج الناس علينا بعشرة
كوبكات ... ولا سيما أنا ! لن أغفر لك هذا يوماً يا ايفان فيدوروفتش ،
لن أغفر لك فى يوم من الأيام ! ولماذا لا تسىء هى معاملته ؟ لقد وعدت
بأن تسىء معاملته . ثم هى لا تفعل من ذلك شيئاً ! انظروا ! انها تلتهمه
بعينها التهاماً ، وتبقى صامته ولا تعزم أمرها على الابتعاد . وهى التى
حظرت عليه مع ذلك أن يعود ! ... أما هو فانه شاحب الوجه شحوباً
شديداً ! وما القول فى هذا الثرثار أوجين بافلوفتش الذى يحتكر الحديث
كله ؟ ما من أحد يستطيع ، ازاء هذا السيل المتدفق من ثروته ، أن
يدس كلمة واحدة . فى وسمى أن أخرج كل شىء الى النور لو أمكننى
أن أدير دفة الحديث ... »

كان الأمير جالساً الى المائدة المستديرة ، شاحب الوجه حقاً . كان
يلوح عليه أن هلعاً شديداً يسيطر عليه ، هلعاً يخالطه فى بعض اللحظات
نوع من نفسوة يفزق قلبه ولا يستطيع هو نفسه أن يفهمه . لشدة
ما كان يخشى أن يختلس نظرة مواربة الى ذلك الركن الذى تحدث الى
منه عينا سوداوان يعرفهما حق المعرفة ! ومع ذلك ما كان أعظم السعادة
التي كانت تغمره حين يتصور أنه يجد نفسه مرة أخرى فى هذه الأسرة ،
ويسمع ذلك الصوت المألوف ، وذلك بعد الذى كتبته إليه ! ...

« ما عساه تقول الآن يا رب ! » • لم يكن قد فتح فاه بعد ، وكان يصيح
بسمعه الى أحاديث أوجين بافلوفتش الذى كان « يتدفق فى الكلام تدفقاً
غزيراً » ، وكان يعانى فى ذلك المساء نوبة قوية من الرضى عن النفس
والرغبة فى الكلام • أصاخ اليه الأمير بسمعه دون أن يفهم شيئاً مما كان
يقوله • وكانت الأسرة كلها حاضرة ، الا ايفان فيدوروفتش الذى لم
يكن قد رجع من بطرسبرج بعد • وكان الأمير « شتت • • • » أحد
الحضور ، وكان واضحاً أن هؤلاء كانوا ينتوون أن ينصرفوا بعد قليل ،
قبل موعد الشاي ، ليذهبوا الى سماع الموسيقى * •

كان الحديث يدور على موضوع يبدو أنه طُرح على مائدة البحث
قبل وصول الأمير • ولم يلبث أن ظهر كوليّا على الشرفة ، لا يدرى أحد
من أين انبجس ! قال الأمير يحدث نفسه : « عجيب ! ما زال يُستقبل
اذن كما كان يُستقبل فى الماضى ! » •

ان مسكن آل ايباتشين فيلا فخمة مبنية على طراز الشاليهات
السويسرية ، قد أُحسنت العناية بها ، وأُحيطت بأزهار وخضرة تتألف
منها مربعات ان كانت صغيرة الابعاد فانها رائعة الجمال • وكان الحفل كله
مجمعاً على الشرفة ، كما فى بيت الأمير ، لكن الشرفة هنا أفسح قليلاً
وألطف ترتيباً •

ولم يكن يبدو أن موضوع الحديث يناسب ذوق جميع الحضور ،
ويلقى من نفوسهم كلهم هوى • وأغلب الظن أنه بدأ بمناقشة حامية ،
وكان يمكن حتماً أن ينحرف الى شىء آخر لولا أن أوجين بافلوفتش قد
تظاهر بالعناد حول المسألة التى دارت عليها المناقشة ، دون أن يحفل بالأثر
الذى يحدثه فى النفوس • وكأن ظهور الأمير أثاره مزيداً من الانارة
وحرّضه مزيداً من التحريض • وقد عبست اليزابت بروكوفينا
وتجهمت سمحتها واربد وجهها دون أن تفهم كل ما كان يُقال • ولم

تنصرف أجلاً بل ظلت فى مكانها ، متتجية ، تصنى الى الكلام وتلتزم صمتاً عنيداً فلا تفتح فمها بكلمة واحدة •

أجاب أوجين بافلوفتش قائلاً بحرارة :

- اسمح لى ، أنا لا أعترض على اللبرالية أى اعتراض • ليست اللبرالية شراً • انها جزء متمم من مجموع كلى لا بد أن يتحلل وأن يزول اذا هى لم توجد • ان حق اللبرالية فى الوجود لا يختلف عن حق أى مذهب من المذاهب المتطرفة فى المحافظة • لكننى أعتقد اللبرالية الروسية • وأعود فأكرر لكم أنى اذا كنت أحاربها فلأن اللبرالى الروسى لبرالى ليس « روسياً » فى شىء • أرونى لبرالياً روسياً ، فأعاقه أمامكم على الفور •

قالت الكسندرا ايفانوفنا التى كانت نائرة الأعصاب ، وكانت خذاها أشد احمراراً منهما فى العادة :

- هذا اذا رضى هو أن يماثلك !

فحدثت البزابت نفسها تقول : « هذه واحدة لا يهزها شىء ولا يحرکها شىء » ، ولا تفكر الا فى النوم والطعام ، ثم اذا هى تندفع - مرة كل عام - اندفاعات تحريك ! » •

ولاحظ الأمير عرضاً أن ألكسندرا ايفانوفنا كانت تبدو مستاءة من أن ترى أوجين بافلوفتش يتكلم بلهجة تبلغ هذا المبلغ من التفاهة فى معالجة موضوع يبلغ هذا المبلغ من الجدد ، ويصطنع الاندفاع والمزاح فى آن واحد •

تابع أوجين بافلوفتش كلامه قائلاً :

- كنت أقول قبل وصولك يا أمير اتنا لم نعرف حتى الآن فى روسيا

الا فريقيين من اللبراليين تحدد بعضهم من طبقة مالكي الأقطان القدامى (وهذه طبقة ألغيت) وتحدد بعضهم الآخر من طبقة طلاب اللاهوت .
واذ أن هاتين الطبقتين قد استحالتا في النهاية الى فئتين منزلتين انزالا تاماً عن الأمة ، واذا أن انزالهما يشتد ويقوى جيلاً بعد جيل ، فانه ينتج عن ذلك أن جميع ما فعله أو يفعله هؤلاء اللبراليون لا يمثل أى طابع قومى ...

رد الأمير « شتش » يقول :

— كيف هذا ؟ هل كل ما فعلوه ليس فيه شىء روسى ؟

— ليس فيه شىء قومى على كل حال . فحتى لو كان عملهم روسياً فانه ليس قومياً . على أن اللبراليين عندنا ليس فيهم شىء روسى ، اطلاقاً ...
أبدأ ... تستطيع أن تكون على يقين من أن الأمة لن تعرف لا الآن ولا فى المستقبل ما يكون قد فعله هؤلاء الناس من قدامى مالكي الأقطان وطلاب اللاهوت ...

قال الأمير « شتش » محتجاً بحرارة :

— عجيب ! كيف يمكنك أن ترى مثل هذا الرأى الغريب المفارق ، اذا كنت جاداً فيما تقول ؟ لا أستطيع أن أسمع بمثل هذا التهجم على قدامى مالكي الأقطان الروس . ألسنت أنت نفسك واحداً من قدامى مالكي الأقطان الروس ؟ ...

ألقى عليه الأمير « شتش » هذا السؤال وقد ازداد حماسة واندفاعاً . فأجاب أوجين بافلوفتش قائلاً :

— ولكننى لا أتكلم عن مالك الأقطان الروسى القديم بالمعنى الذى يبدو أنك تفهمه . هذه طبقة محترمة مجيدة ، على الأقل لأننى واحد من أبنائها ، ولا سيما الآن ، بعد أن لم يبق لها وجود ...

قاطعته ألكسندرا ايفاتوفنا مسألة :

— هل صحيح أننا ، حتى في الأدب ، لم يكن لدينا أى شىء قومى ؟

— لست متبحراً في الأدب ، ولكننى أعتقد أن الأدب الروسى نفسه

ليس فيه شىء روسى ، ربما باستثناء لومونوسوف ، وبوشكين ، وجوجل.

قالت آديلايد ضاحكة :

— طيب . هذا وحده كف . ثم اذا كان أحد هؤلاء من أبناء الشعب

فإن الاثنين الآخرين هما من طبقة مالكي الأطيان القدماء .

— صحيح . ومع ذلك لا تمنجلى الفوز والانتصار . ان هؤلاء الثلاثة

هم حتى الآن الوحيدون الذين استطاعوا أن يقولوا شيئاً لم يكن مستعاراً

بل كان مستمداً من نفوسهم* . ان الروسى الذى يقول أو يكتب أو يفعل

شيئاً متصفاً بأنه روسى حقاً ، شيئاً مستمداً من ذاته فليس هو بالمحاكاة

أو الاستمارة ، ان هذا الروسى يصبح قومياً بالضرورة ، حتى ولو كانت

لغته الروسية رديئة . تلك عندى من المسلّمات البديهية . على أن ما بدأنا

الحديث عنه والكلام عليه ليس هو الأدب بل هو الاشتراكيون . فبصدد

الاشتراكيين انما اضطررنا فى المناقشة . وقد زعمت أنه لم يوجد عندنا

ولا يوجد عندنا اشتراكى واحد روسى . لماذا ؟ لأن جميع الاشتراكيين

عندنا انما اضحدروا هم أيضاً من طبقة قدامى مالكي الأطيان أو من طبقة

طلاب اللاهوت . ان جميع اشتراكيينا وجميع أولئك الذين يملنون عن

أنفسهم أنهم اشتراكيون ، سواء فى داخل البلاد أو فى الخارج ،

ليسوا الا لبراليين خرجوا من صفوف قدامى مالكي الأطيان فى عهد

القنانة . لماذا تضحكين ؟ أرينى كتبهم ، أرينى مذاهبهم ورسائلهم ،

فأعهد لك ، دون أن أكون ناقداً محترفاً ، بأن أكتب أصدق الآراء

الأدبية مبنياً بوضوح كوضوح النهار ان كل صفحة من صفحات كتبهم
وكراساتهم ورسائلهم انما هي قبل كل شيء من صنع مالك سابق من
قدامى مالكي الأطباء الروس . ان غضبهم ، وامتياعهم ، وحتى سخروهم
افكه ، ان ذلك كله نفوح منه رائحة مالك الأطباء القديم (حتى أن
مالك الأطباء القديم هذا هو من نموذج عتيق بال كنموذج قاموسوف *) .
قد تكون صادقة ، ولكنها حماسيات ودموع رجل من قدامى مالكي الأطباء ،
أو طلاب اللاهوت . أما تزالين تضحكين ؟ أنتضحك أنت أيضاً يا أمير ؟
ألمست نوافقي اذن على رأيي ؟

الحق أن الضحك كان عاماً شاملاً . وكان الأمير نفسه يتسم .
قال الأمير وقد انقطع عن الابتسام بفتة ، وانتفض انتفاضة تلميذ
فوجي . مذنباً :

— لا أستطيع بعد أن أقول جازماً أنا أوافقك على رأيك أم لا ،
ولكنيؤكد لك أنني أجد في الاصغاء الى كلامك لذة قصوى . . .

نطق الأمير بهذه الكلمات وكأنه يحتقن احتقافاً . وكان عرق بارد
يفشي جبينه كحببات اللؤلؤ . هذه هي الكلمات الأولى التي نطق بها منذ
وصوله . وأغراه أن يلقي نظرة حوالية ، لكنه لم يجسر ، ولاحظ أوجين
بافلوفتش حركته فابتسم ، ثم تابع كلامه قائلاً بتلك اللهجة نفسها من
الاندفاع المفتعل والحرارة المصطنعة التي يستشف المرء فيها رغبته في
الضحك حتى من أقواله :

— سأذكر لكم واقعة أيها السادة ، واقعة أعتقد أن قد كان لي فضل
اكتشافها وملاحظتها ، فما من أحد ، على الأقل ، سبق أن تكلم عليها أو
كتب عنها حتى الآن . ان هذه الواقعة تحدّد كل ماهية الليبرالية الروسية
التي أوصلها . وما هي الليبرالية على وجه العموم أولاً ؟ أليست هي

الميل الى تسفيه نظام الأمور القائم ؟ (خطأ أو صواباً ، تلك مسألة أخرى) أليست الليبرالية هي هذا ؟ فاليكم الآن الواقعة التي لاحظتها : ان الليبرالية الروسية لا تهاجم نظاماً للأمور قائماً • ان ما تستهدفه هو جوهر الحياة القومية ، هو هذه الحياة نفسها لا المؤسسات ، هو روسيا لا التنظيم الروسي • ان الليبرالي الذي أحدثكم عنه يمتضى الى حد جحود روسيا نفسها ، اى انه ينفص ويضرب أمه التي ولدته • ان كل شقاء يلهم بروسيا ، وكل اخفاق تمنى به روسيا ، يحمله على الضحك ويبعث في نفسه الفرح أو ما يشبه الفرح • انه يشتمز من العادات الشعبية ويكره تاريخ روسيا ويغض كل شيء • وعذره الوحيد ، اذا كان له عذر ، هو أنه لا يدرك ما يفصل ، ويظن أن هذا الكره الذى يحمله لروسيا هو الليبرالية الخبيثة • ما أكثر الليبراليين الذين تصادفهم في بلادنا وبصفتهم الناس ، وهم في حقيقة أمرهم وربما على غير علم منهم ، أشد المحافظين غباء وأكثرهم عتواً ! لقد كان كره روسيا هو الحب الحقيقي للوطن في نظر بعض الليبراليين الذين كانوا يفاخرون بأنهم يدركون حقيقة حب الوطن ادراكاً أوضح من ادراك غيرهم له • ثم صارت الأمور مع الزمن أصرح ، فاذا نحن نرى أن تعبير « حب الوطن » أصبح يعدّ غير لائق ، واذا بالفكرة التي تقابل هذا التعبير أصبحت توهم بأنها ضارة ، وتوصف بأنها جوفاء خالية من المعنى • تلكم واقعة أكيدة محققة • ينبغي أن نعزم أمرنا على ذكر الحقيقة بكل بساطة وصدق • نحن ههنا ازاء ظاهرة لم يسبق لها مثيل في أى زمان ولا في أى مكان • ما من قرن من القرون ، وما من شعب من الشعوب ، بدت فيه هذه الظاهرة • وهذا يدل على أنها عارضة وأنها قد تكون زائلة • ذلك أمر لا أنفيه • ولكن امرء لا يستطيع أن يرى في أى مكان غير روسيا لبرالياً يكره وطنه • فكيف نفسّر ظهور هذه الحالة في بلادنا ان لم نفسرها بالسبب الذى ذكرته منذ قليل وهو أن

الليبرالى الروسى ليس روسياً فى شيء ؟ اننى لا أرى تعليلاً أصح من هذا التعليق .

ردَّ الأمير « شتت ... » قائلاً برصانة :

— اننى أعد كل ما قلته الآن مزاحاً يا أوجين بافلوفتش ...

قالت الكسندرا اي فانوفنا :

— أنا لم أرَ جميع الليبراليين ، ولكننى استأثت أثناء سماعى كلامك .

فانك قد بدأت من حالة خاصة فعممتها فوقعت فى التعجى .

أجاب أوجين بافلوفتش :

— حالة خاصة ؟ آ ... هذه بعينها الكلمة التى كنت أنتظرها ! أهى

حالة خاصة أم لا ؟

وأضاف يسأل الأمير :

ما رأيك يا أمير ؟ أهذه حالة خاصة أم لا ؟

قال الأمير :

— يجب أن أعترف أنا أيضاً أن خبرتى ضئيلة وانى لم أعاشر ...

الليبراليين كثيراً . ولكن يبدو لى أنك قد تكون على صواب ، وأن تلك

الليبرالية الروسية التى تحدثت عنها مبالغة فى الواقع الى ابتغاض روسيا

لنفسها لا للنظام السائد فيها . طبعاً ، ليس هذا صادقاً الا بعض الصدق ،

فنحن لا نستطيع أن نأخذ هذا المأخذ على جميع الليبراليين بغير استثناء اذا

نحن أردنا الانصاف ...

وقطع الأمير كلامه فجأة . وكان رغم انفاله كله قد تابع الحديث

باهتمام شديد . ان من سماعه المميّزة أن وجهه يكتسى هيئة السداجة

العقيقة فى اصغائه الى الحديث عن الموضوعات التى تثير انتباهه . وهذه

السداجة تلاحظ فى أجوبته التى يجيب بها أولئك الذين يسألونه عن

هذه الموضوعات نفسها ؟ وهى تظهر فى سحنته وتظهر حتى فى اشاراته ، وتكشف فى هذه وتلك عن ايمان هو فى حى من اصابات السخرية والتهكم . ولقد اعتاد أوجين بافلوفتش منذ زمن طويل أن لا يخاطبه الا وعلى شفقيه ابتسامة صغيرة خاصة ، أما الآن فانه حين سمع اجابته نظر اليه مبهوراً ، بكثير من الجدل والرصانة ، ثم ججم يقول :

— هكذا !... انك لتدهشنى حقاً . هل كنت فى اجابتك جاداً

يا أمير ؟

فسأله الأمير مستغرباً :

— ألم يكن سؤالك أنت جاداً ؟

فاستقبل الحضور هذه الكلمات بضحك شامل .

قالت آديلايد :

— ألا امحضوه تفنكم ! ان أوجين بافلوفتش لا يحب شيئاً كما

يجب التضليل والمخادعة ! ليتكم تعرفون ما يستطيع أن يفعل من مناقشات ، متظاهراً بالكبر الجدل !

وقالت الكسندرا بلهجة قاطعة :

— فى رأى أن هذا الحديث شاق متعب ، وأنه كان من الأفضل أن

لا نتخوط فيه . لقد كنا نتنوى القيام بنزهة ...

فهمت أوجين بافلوفتش يقول :

— حلموا بنا ! الأمسية رائعة ! لكننى أحرص على أن أبرهن اننى ،

فى هذه المرة ، قد تكلمت جاداً كل الجدل . أريد خاصة أن أبين هذا للأمير . (لقد أثرت اهتمامى اثاره قوية يا أمير ، وانى لأحلف لك صادقاً اننى أقل عبثاً وخفة مما يبدو على ، رغم أن العبث والخفة من عيوبى فى

حقيقة الأمر) • لذلك سألقى على الأمير ، بعد استئذان الحضور ، سؤالاً
آخرى لا شبايح حب الاطلاع فى نفسى شخصياً ، ثم أقف عند هذا الحد
مكتفياً به فلا أتعدها • أن هذا السؤال قد خطر ببالى ، بمصادفة تشبه
العمد ، منذ ساعتين (هانت ذا ترى يا أمير أنه يتفق لى أيضاً أن أفكر فى
أمر جدية) • ولقد اهتمت الى حل لذلك السؤال ، لكننى أريد أن
أعرف رأى الأمير • لقد كنا نتحدث منذ لحظة عمّا يسمى «حالة خاصة» •
ان هذا التعبير دوراً كبيراً فى مجتمعنا ، وان مجتمعنا يحب استعمال
هذا التعبير • فى الآونة الأخيرة وقعت حادثة اغتيال رهينة أثار اهتمام
الصحافة والرأى العام ، هى حادثة مصرع ستة أشخاص بيد شاب قتلهم
جميعاً • ولقد تحدث الناس عندئذ كثيراً عن تلك المرافعة الغريبة التى قام
بها المحامى ، اذ أعلن أن فكرة قتل هؤلاء الأشخاص الستة كان «طبيعياً»
ان تخطر ببال القاتل لأنه كان فى حالة فقر شديد • ليست هذه هى
الكلمات التى استعملت ، ولكنى أعتقد أن المعنى هو هذا • وأحسب أن
المحامى حين أصدر ذلك الرأى الغريب وصاغ تلك الفكرة العجيبة انما
كان يؤمن صادقاً بأنه يستلهم أسمى مفاهيم عصرنا فيما يتصل بالبرالية
والانسانية والتقدم • فما رأيكم ؟ أيجب أن نرى فى مثل هذا الفساد
الذى أصاب العقل والضمير ، وفى مثل هذا الانحراف والانحطاط اللذين
صار اليهما الرأى ، أيجب أن نرى ههنا حالة خاصة أم ظاهرة عامة ؟
انفجر الجميع يضحكون •

قالت ألكسندرا واديلمايد ضاحكتين :

— بل هذه حالة خاصة طبعاً •

وقال الأمير « شش • • • » :

— اسمع لى أن أذكرك يا أوجين يا فلوفتشس أن مزاحاتك قد أخذت

تفقد طرافتها !

لم يسمع أوجين بافلوفتش هذه الملاحظة ، وكان يحس بثقل نظرة الأمير ليون يقولانفتش الرصينة المتفحصة ، فتابع كلامه سائلاً :

— ما رأيك يا أمير ؟ ماذا تعتقد ؟ أمى حالة خاصة أم ظاهرة عامة ؟ اعترف لك باننى وضعت هذا السؤال لالتائه عليك أنت .
قال الأمير برفق وهدوء ، ولكن بشات وصلابة :

— لا ، ما هذه حالة خاصة .

صاح الأمير « شئت . . . » قائلاً فى شيء من غضب :

— هيه يا ليون يقولانفتش ، ألا ترى أنه يمد لك شباكاً ، ألا ترى أنه ينصب لك فخاً ؟ واضح أنه يسخر ، وأنه أراد أن تكون أنت مدار سخريته .

قال الأمير وقد احمر وجهه :

— كنت أظن أنه يتكلم جاداً .

وخفض عينيه .

واستأنف الأمير « شئت . . . » كلامه فقال :

— يا عزيزى الأمير ، هلاً تذكرت الحديث الذى جرى بيننا منذ ثلاثة أشهر ! لقد لاحظنا ، بحق ، أن محاكمنا القنية ، رغم أن تشووها حديث ، قد أبرزت محامين ممتازين يملكون أعظم المواهب . وما أكرر الأحكام التى صدرت عن محاكم الجنايات والتى تستحق أكبر الثناء والمدح ! لقد أسعدنى كثيراً حينذاك أن أدرك تقبيل بهذا التقدم وانفقنا على أن من حقنا أن نعتز وأن نفخر . . . فما تلك المرافعة الحمقاء وتلك الحججة العجيبة اذن الا حادث عارض ، الا حالة من ألف .

فكر الأمير ليون نيقولا يفتش لحظة ، ثم أجاب بلهجة تدل على أكبر الاقتناع ، ولكن دون أن يرفع نبرته ، حتى لقد كان في صوته شيء من خجل :

- كى ما أردت أن أقوله هو أن هذا الفساد والتدهور في الأفكار والعقل (إذا نحن شئنا أن نستعمل تعبير أوجين بافلوفتش) يصادفان في أحيان كثيرة جداً ، فهما - وأأسفاه - أقرب الى أن يكونا ظاهرة عامة منهما الى أن يُعدّا حالة خاصة . فلولا أنهما شائكان هذا الشيوع كله فلعلنا كنا لا نرى جرائم كهذه الجرائم التي لا يتصورها الخيال ...

- جرائم لا يتصورها الخيال ؟ أؤكد لك أن الجرائم في الماضي كانت لا تقف فضاة وشناعة ، ولعلها كانت أقسى وأبشع . هذه الجرائم قد عرفتها جميع الأزمان ، لا في بلادنا وحدها بل في كل مكان ، وأعتقد أنها ستظل تُرتكب زمناً طويلاً . كل ما هالك من فرق هو أننا لم تكن نملك في الماضي أدوات لنشر الأخبار واسعة هذا الاتساع كله في حين أن الصحافة والجمهور سرعان ما يلحان بأبائنا في هذا الزمان . فذلك هو مصدر شعورنا بأننا ازاء ظاهرة جديدة . هذا هو خطؤك يا أمير ، هذا هو خطؤك الساذج البريء . صدقني .

بهذا ختم الأمير « شتت » ... كلامه وهو يتسم ابتسامة ساخرة .
قال الأمير :

- أعرف تماماً أن الجرائم كانت في الماضي لا تقل عدداً ولا تقل هولاً . لقد زوت سجوناً منذ زمن غير طويل ، فأتيح لي أن أعرف عدداً من المحكوم عليهم . ان بينهم مجرمين أقطع من أولئك الذين جرى عليهم حديثنا . ان منهم أناساً لا يشعر أحدهم بشيء من عذاب الضمير بعد أن يكون قد قتل «دسته» أشخاص . ولكن اليك ملاحظته : ان أعنى أولئك المجرمين وأكثرهم خلواً من عذاب الضمير يحس مع ذلك أنه «مجرم» ،

أى انه فى شعوره ووعيه يدرك أنه أذنب وان كان لا يحس بأى ندم •
تلك كانت حالة جميع أولئك السجناء • لكن المجرمين الذين يتكلم عنهم
أوجين بافلوفتش أصبحوا لا يريدون أن يعدوا أنفسهم مجرمين • فهم
فى قرارة أنفسهم يعتقدون أنهم على حق وأنهم أحسنوا صنأ ، أو
يعتقدون بشئ من هذا القبيل • هنا فى رأى فارق كبير • ولاحظ أن
هؤلاء جميعاً شبان ، أى أن سنهم هى السن التى يكون فيها الانسان أعجز
ما يكون عن مقاومة تأثير الأفكار المنحرفة •

كان الأمير « شنتش » قد كف عن الضحك فهو يصغى الى
الأمير وقد لاح فى وجهه الارتباك • وكانت الكسندرا ايفانوفنا تريد منذ
مدة طويلة أن تبدى ملاحظة لكنها لم تلمت الصمت كأن سبباً معيناً صدّها
عن ذلك • أما أوجين بافلوفتش فكان ينظر الى الأمير بهشة واضحة ،
وبدون أية سخرية فى هذه المرة •

وتدخلت الزابت بروكوفينا فجأة تقول :

— ما بالك ، أيها السيد العزيز ، تحدّث الى هذا التحديق ، مشدود
الهيئة ؟ أكنت تظنه أغبى منك ، وعاجزاً عن التفكير على غرارك ؟
قال أوجين بافلوفتش :

— لا يا سيدتى ، لم أكن أظن ذلك ، غير أن هناك شيئاً يثير دهشتى
يا أمير (اغفر لى سؤالى) : اذا كنت ترى الأمور هذه الرؤية الواضحة ،
فكيف أمكنك (معذرة مرة أخرى) ••• كيف أمكنك ••• فى تلك
القضية الغريبة ••• القضية التى حدثت ذلك اليوم ••• بشأن ذلك
الرجل ••• بوردوفسكى فيما أظن •• كيف أمكنك أن لا تلاحظ هذا
الفساد نفسه وهذا التردى نفسه فى الأفكار والأخلاق ؟ لقد كان الأمر
أمر هذا الفساد نفسه وذلك التردى ذاته مع ذلك • لقد ترامى لى حينذاك
أنك لم تدرك هذا البتة •

انبرت اليزابت بروكوفينا تقول متحسنة :

- أيها السيد العزيز ، اذا كنا نحن ، جميع الحاضرين هنا ، قد أدركنا ذلك واستنتجنا من سداد رأينا وبراعة ادراكنا شعوراً بالتفوق على الأمير ، فان الأمير هو الذى تلقى اليوم رسالة من أحد رفاق بوردوفسكى ، من أبرزهم ، من ذلك الذى كان مبثور الوجه ، هل تتذكرينه يا ألكسندرا ؟ وفى هذه الرسالة يستغفر الشاب الأمير - بطريقته طبعاً - ويعلن له أنه قطع صلته بالرفيق الذى حرّضه فى ذلك اليوم . هل تتذكرين يا ألكسندرا ؟ وهو يضيف الى هذا أنه بعد الآن لا يثق بأحد كما يثق بالأمير . ما من أحد منا تلقى رسالة كهذه الرسالة حتى الآن ، وان كنا قد ألقنا أن نعامل الشخص الذى وصلته هذه الرسالة معاملة تعال .

صاح كوليناً قائلاً :

- وهيويليت أيضاً ترك بيته وجاء يقيم عندنا .

فقال الأمير سائلاً بشيء من القلق :

- كيف ؟ أهو هنا الآن ؟

- وصل فور انصرافك مع اليزابت بروكوفينا . أنا أحضرته

بعربة .

فما ان سمعت اليزابت بروكوفينا هذا الكلام حتى غلت وفارت ، ناسية أنها قد مدحت الأمير منذ هنيهة ، وقالت :

- أراهن على أنه قد مضى أمس الى المسكن الحقيقى الذى يقيم فيه هذا الولد الفاسد ، فركب امامه طالباً غفرانه ، راجياً منه أن يجيئ فيقيم هنا . لقد اعترفت أنت نفسك بذلك منذ قليل . أذهبت اليه أم لا ؟ أركمت أمامه أم لا ؟

هتف كوليا يقول :

- انه لم يركع • بالعكس تماماً • هيوليت هو الذى تناول بالأمس يدَ الأمير فقبلها مرتين • رأيت المشهد بعيني • على هذا اقتصر العتاب بينهما • واذ أضاف الأمير أن صحة هيوليت ستحسن فى القيللاء ، أجاب هيوليت فوراً أنه سيجيء للاقامة بها متى شعر ببعض التخفف من آلامه •

قال الأمير وهو ينهض ويتناول قبعته :

- أخطأت يا كوليا • لماذا تفص هذا ؟ اننى ...

فسألته الزابت بروكوفينا وهى تستوقفه :

- الى أين تذهب ؟

واستأنف كوليا كلامه فقال بحرارة :

- لا تعذب نفسك يا أمير • لا تذهب اليه فتفسد عليه راحته • لقد تام بعد متاعب الرحلة • وهو مقتبط سعيد • أوكد لك بصراحة يا أمير اننى أعتقد بأن من الأفضل كثيراً أن لا تلتقيا اليوم • أرجى • لقاء الى غد حتى لا تخرجه مرة أخرى • لقد قال فى هذا الصباح انه منذ ستة أشهر لم يشعر بمثل ما يشعر به اليوم من ارتياح وقوة • حتى ان سعاله قلَّ الى الثلث •

لاحظ الأمير أن آجلايا قد غيّرت مكانها فجأة لتقترب من المائدة • كان لا يجرو أن ينظر اليها ، لكنه كان بكل كيانه يشعر أن عيني الفتاة السوداوين كانتا فى تلك اللحظة تحدقان اليه وتفرسان فيه • لا شك أن هاتين العينين كانتا تعبران عن الاستياء ، وربما كانتا تعبران عن تهديد • لا شك أن وجه آجلايا قد تخضب بحمرة شديدة •

قال أوجين بافلوفتش :

- يخيل الىّ يا نيقولا آرداليونوفتش انك قد اسأت صنعا اذ جئت به الى هنا ، اذا كان هو ذلك الفتى المصدور الذى انفجر فى ذلك اليوم باكياً بدموع غريزة ، ودعا الحضور الى الاحتفال بدفنه • لقد تكلم عن الجدار الذى ينتصب أمام بيته ، تكلم عنه ببلاغة تبلغ من القوة أنه سيندم على فراق ذلك الجدار • صدقنى •

- لا أصدق من هذا الكلام • لسوف يشاكرك ، وسوف يصل به الأمر الى حد الاقتال معك ، ثم ينصرف • هذا أكيد •

قالت اليزابت بروكوفيتسا ذلك ، ثم شدت اليها سلّة حياكنها بحركة تتم على الاستياء ، ناسية أن الجميع كانوا قد نهضوا عن أماكنهم قاصدين القيام بنزهة •

وامتأنف أوجين بافلوفتش كلامه فقال :

- اثنى أتذكر حماسه فى الكلام على ذلك الجدار • لقد قال انه بدون ذلك الجدار لن يستطيع أن يموت ميتة فيها بلاغة • وهو يحرص على أن يموت ميتة فيها بلاغة •
دمدم الأمير قائلاً :

- وماذا بعد ذلك ؟ اذا لم تتشأ أن تغفر له فسوف يستغنى عن غفرانك ويموت على كل حال ... انه من أجل الأشجار انما جاء يقيم هنا •

- هه ! أنا من جهتى أغفر له كل شئ • تستطيع أن تبلمه هذا •
قال الأمير برفق وكأنه يتكلم على مريض ، وما زالت عيناه مطرقتين الى نقطة ثابتة فى الأرض :

- ما هكذا يجب أن يفهم الأمر • يجب أن توافق أنت على قبول غفرانه لك •

— لماذا ؟ أى ذنب جنيت فى حقك ؟

— اذا كنت لا تفهم ، فلن ألح ،،،، ولكنك تفهم حق الفهم + لقد
كانت رغبته حينذاك ،،،، هى أن يباركنا جميعاً وأن يتلقى مباركتنا له +
ذلك هو الأمر كله +

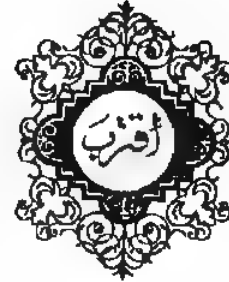
تبادل الأمير « شتت » ،،،، نظرة سريعة مع بعض الحضور + ثم قال
بشئ من الحرارة ، ولكنه كان يزن كلماته :

— يا عزيزى الأمير الطيب ، ليست إقامة اللجنة على الأرض بالأمر
السهل كثيراً ؛ وما تسعى اليه أنت إنما هو الجنة + الأمر صعب يا أمير ،
أصعب كثيراً مما يصور لك قلبك الطيب + وحسبنا هذا ، صدّقنى + والا
اضطرب أمرنا من جديد ، وعندئذ ،،،،

قالت الزايت بروكوفيتنا بلهجة آمرة :

— ها نمض الى سماع الموسيقى +
ثم نهضت عن مكانها بحركة فيها غضب +
وحاكاها الجميع +

الفصل الثاني



الأمير من أوجين بافلوفتش فجاء وأمسك يده ،
وقال له بلمهجة فيها حمياً غريبة :
- أوجين بافلوفتش ، ثق أنني أقدرك واعتبرك
رغم كل شيء ، لأنني أعدك رجلاً نبيل القلب
وأعدك أحسن الناس . أحلف لك على هذا .

دهش أوجين بافلوفتش ، وبلغ من الدهشة أنه تراجع خطوة الى
وراء . وخلال لحظة من الوقت ، كظم رغبةً عنيفة قوية في الضحك .
لكنه حين أنعم النظر في الأمير تبين له أن الأمير ليس في حالة طبيعية أو
هو على الأقل في حالة غير مألوفة . وهتف يقول :

- أراهن يا أمير أن هذا ليس ما كنت تنوي أن تقوله لي ، بل ربما
كنت تريد أن توجه هذه الكلمات الى غيري لا اليّ أنا ! ... ولكن ماذا
بك ؟ أثراك مريضاً ؟

- جائز ، جائز جداً . لقد برهنت على أنك تملك كثيراً من دقة
الملاحظة ولطافة الادراك اذ قلت أنني ربما كنت أريد أن أوجه أقوالى
تلك الى غيرك لا اليك أنت .

قال الأمير ذلك وابتسم ابتسامة خاصة يمكن أن توصف بأنها
مضحكة . ثم بدت عليه الحماسة والحرارة فجاء فقال صائحاً :

- لا تذكرنى بسلوكى الذى سلكته قبل ثلاثة أيام * * * اننى ما برحت
أشعر بالحجل والحزى والعار منذ ذلك الوقت * * * أنا أعلم اننى أخطأت *
- ولكن * * * ما هو الشئ الرهيب الذى فعلته ، ما هو الذنب الهائل
الذى اقترفته ؟

- أوى أنك ربما كنت تشعر بالحجل لى أكثر من الآخرين جميعاً *
ان وجهك يحمر ، وهذه علامة نبيل القلب * سأصرف فوراً * نى بهذا *
اتجهت اليزابت بروكوفينا بالكلام الى كولىا فسألته مروعة الهیة :
- ماذا دهاء ؟ هل نوباته تبدأ هكذا ؟

- لا تذكرنى يا اليزابت بروكوفينا * ليست لى نوبة ، وسأصرف
بعد قليل * أنا أعلم اننى * * * انسان حرته الطبيعة * لقد لبثت مريضاً
طوال أربع وعشرين سنة ، أو قولوا الى السنة الرابعة والعشرين من
عمرى * فاحسبوا اننى ما أزال مريضاً * سأصرف فوراً ، فوراً ، تقى
بهذا * ليس يحمر وجهى خجلاً ، فانه ليكون شيئاً غريباً - أليس
كذلك ؟ - أن يحمر وجهى خجلاً من مرضى هذا * لكن وجودى فى
المجتمع زیادة * لا أبدى هذه الملاحظة من باب الشعور بالكرامة * لقد
فكرت ملياً خلال هذه الأيام الثلاثة فانتبهت الى أن من واجبى أن أنبئكم
بذلك صادقاً عند أول مناسبة * نمة أفكار معينة ، أفكار رفيعة سوف
أمسك عن الكلام عنها حتى لا أضحك جميع الناس * * * لقد ألمع الأمير
« شتف * * * الى هذا منذ قليل * ما من حركة من حركاتى تخلو من
شدوذ * اننى لا أعرف القصد والاعتدال * لغتى لا تتألمب المعانى التى
فى ذهنى ، فهى لذلك تغض من قيمتها وتفسدها * لذلك لا يحق لى أن
* * * ثم اننى شديد الاشتباه والارتباب * صحيح اننى * * * اننى مقتنع بأن
أحدلاً لا يمكن أن يهيننى فى هذا المنزل ، واننى محبوب فيه أكثر مما

استحق • ولكنى أعلم (علماً لا مجال للشك فيه) أن أربعة وعشرين عاماً من المرض لا يمكن إلا أن تختلف آثاراً ، وأن من المستحيل أن لا يسخر الناس منى ويتهكموا على ... من حين الى حين ... أليس هذا صحيحاً ؟

قال الأمير ذلك وأدار بصره على الحضور كأنه ينتظر جواباً أو قراراً • كان الجميع قد دُهِشوا من هذه الاندفاع المرضية التى لم يتوقعها أحد ، والتى لم يكن ثمة ما يدعو اليها ويحث عليها ، فكانت سبباً لوقوع حادث غريب هو أن آجلانيا صاحت فجأة تسأل الأمير :

— لماذا تقول هذا هنا ؟ لماذا تقول هذا لهم • هم • ... لهؤلاء الناس ؟

كانت تبدو فى ذروة الاستياء والامتناع • وكانت عيناها تسطعان • لبث الأمير أمامها صامتاً كالأخرس ، واجتاحت وجهه صفرة مفاجئة • وانفجرت آجلانيا تقول :

— ليس هنا شخص واحد يستحق أن يسمع هذه الكلمات ! انهم جميعاً لا يسألون خنصر يدك ، لا فكراً ولا قلباً ! أنت أشرف منهم قاطبة • أنت تفوقهم نبلاً وطيباً وذكاءً ! هنا أناس لا يستحقون أن يشيلوا المنديل الذى سقط من يدك الآن على الأرض ... فلماذا تُذل كبريائك وتضع نفسك تحتهم ؟ لماذا قلبت كل شيء فى نفسك رأساً على عقب ؟ لماذا لا تكون لك عزة وأنفة ؟

قالت اليزابت بروكوفينا وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى :

— رباه ! من كان يمكن أن يصدق هذا ؟

وصاح كوليا يقول متحمساً :

- مرحى ! الفارس الفقير !...+

فقال له آجلايا :

- اسكت !

وأضافت تقول لأمها وقد استبد بها انفجار من انفجارات الالتهاب .
التي لا تعرف حدوداً ولا عقبات ، قالت بقسوة وخشونة :

- كيف يجروُ أحد أن يهيننى هنا فى دارك ؟ لماذا يضطهدوننى هنا
جيماً من أولهم الى آخرهم ؟ لماذا يرهقوننى منذ ثلاثة أيام بسبيك يا أمير ؟
لن أتزوجك فى يوم من الأيام بحال من الأحوال ! اعلم أننى لن أفعل
هذا فى يوم من الأيام بحال من الأحوال ! ضعْ هذا فى رأسك ! هل
تتزوج فتاة انساناً مضحكاً مثلك ! أنظر الى وجهك فى المرأة لترى كيف
هو فى هذه اللحظة ! لماذا يناكدوننى زاعمين أننى سأأتزوجك ؟ يجب
عليك أن تعرف هذا ! لا شك أنك متواطئ معهم ! لا شك أنك شريكهم
فى المؤامرة !

تمتت أدبلايد تقول مذهورة :

- لم يناكدها أحد فى وقت من الأوقات !

وهتفت الكسندرا ايفانوفنا تضيف قائلة :

- لم يخطر ببال أحد أن يناكدها فى لحظة من اللحظات !
وقالت اليزابت بروكوفينا تسأل جميع الحضور وهى ترتعش
غضباً :

- من ناكدها ؟ متى ناكدها أحد ؟ من ذا تجرأ أن يقول لها كلاماً
كذلك الكلام ؟ أمى تهذى أم هى مالكة رشدها محتفظة بعقلها ؟
فأجابت آجلايا بلهجة تمزق القلب ألماً :

- هم جميعاً قالوا هذا الكلام ! هم جميعاً صدّعوا أذني به خلال هذه الأيام الثلاثة ! لا أستسي منهم أحداً .

ثم انفجرت تبكى بدموع غزيرة ، وأخفت وجهها بمنديلها وتهاكت على كرسى .

- ولكنه حتى الآن لم يخطب ...

قال الأمير كمن يتكلم بنير ارادة :

- أنا لم أخطبك يا آجلایا ایفانوفنا .

فصاحت الیزابت بروكوفینا تقول بلهجة تميز في الدهشة بالاستياء بالهلع :

- ماذا ؟ ما معنى هذا ؟

كانت لا تستطيع أن تصدق أذنيها ، فأخذ الأمير يقول بكلمات متقطعة :

- قصدت ... قصدت أردت أن أقول ... أردت أن أشرح لآجلایا ایفانوفنا .. بل أردت أن أشرف بأن أشرح لها اننى لم أتو ... أن أشرف بخطبتها ... وحتى في المستقبل ! ... ليس لي في هذا الأمر أى ذنب أؤاخذ عليه يا آجلایا ایفانوفنا ، الله يشهد اننى ليس لي أى ذنب أؤاخذ عليه ! أنا لم أتو أن أخطبك في يوم من الأيام ، حتى ان هذه الفكرة لم تخطر على بالي قط ، ولن تخطر على بالي أبداً ؛ لسوف ترين هذا ! لا تشككى في صدق ما أقول ! لا بد أن شخصاً شريراً سيء السنة وشى بي اليك متجنياً . ولكن في وسعك أن تهدئي نفسك وأن تطمئني بالآ !

كان وهو يتكلم قد اقترب من آجلایا . فأزاحت المنديل الذي كان يغطي وجهها وألقت على الأمير نظرة سريعة . فرأت سحنه الثقلبة

وهيئة المروعة ، فأدركت معنى أقواله ، فاتفجرت ضاحكة مقهققة أمام
أنفه . وقد بلغت ضحكها من قوة الصراخة وشدة السخرية أنها انتقلت
إلى آديلايد ، فاحتضنت آديلايد أختها بكلتا يديها وانطلقت تضحك معها
ذلك الضحك نفسه ، ذلك الضحك الطفولي الذي لا يقاوم ولا يغالب .
فلما رآهما الأمير على هذه الحال أخذ يشتم هو نفسه ، وراح يقول معبراً
عن الفرح والسعادة :

— آه ... الحمد لله ... الحمد لله ... الحمد لله ! ...

ولم تستطع الكسندرا نفسها عندئذ أن تقاوم ، فأخذت تضحك هي
أيضاً من أعماق قلبها . وطال ضحك الأخوات الثلاث حتى لكانه لا يريد
أن ينتهى .

قالت الزابت بروكوفينا مدممة :

— انهن لمجنونات ، فتارةً يروئنك ، وتارةً ...

ولكن عدوى الضحك كانت قد سرت إلى الأمير « شتت ... » ،
والى أوجين بافلوفتش ، وحتى إلى كوليا الذى أصبح لا يسيطر على نفسه ،
وراح ينقل بصره بين هؤلاء وأولئك . فأخذ الأمير يضحك مثلما
يضحكون !

هتفت آديلايد تقول :

— هلموا ننزه ! هلموا ! ليأت الجميع ، ولنضم إلينا الأمير ! ليس
هناك أى سبب يدعو إلى انسحابك يا أمير وأنت على ما أنت عليه من لطف
وتهذيب . أليس لطيفاً مهذباً يا أجلايا ؟ أليس هذا صحيحاً يا ماما ؟
وفوق ذلك ، يجب علىّ حتماً أن أقبله ... تقديرًا للتوضيح الذى
قدّمه بين يدي أجلايا . يجب علىّ أن أقبله . ماما ، عزيزتى ماما ،
هل تأذنين لى أن أقبله ؟ وأنت يا أجلايا ، اسمحى لى أن أقبل «أميرك» !

بهذا هتفت الفتاة الماكرة ...

وقرنت القول بالعمل فاندفعت الى الأمير وقبلته على جيئه • فتناول الأمير يديها ، وشدها عليها شداً بلغ من القوة أن آديلايد كادت تصرخ من الألم ؛ ونظر اليها بفرح لا نهاية له ، ثم حمل يد الفتاة الى شفتيه فجأة فقبلها ثلاث مرات •

قالت آجلايا :

— هلموا ، فلنمش ! يا أمير ، ستكون أنت مرافقي • هل تأذنين يا ماما ؟ أليس الأمير خطيباً رفض خطبتي منذ هنيهة ؟ ألم تعدل عني الى الأبد يا أمير ؟ ولكن ما هكذا يمد رجل ذراعه الى سيده لتناولها ؟ ألا تعرف كيف تمد الذراع لتناولها سيده ؟ حسن ، الآن مددتها مدأً صحيحاً • هلم نسر ، ولنكن في المقدمة • هل تقبل أن نسير في طليمة السائرين ، وأن نكون « وحيدين » ؟ *

كانت تتكلم دون توقف وما تهرح تضحك فجأة من حين الى حين • وكانت اليزابت بروكوفينا تقول مرددةً ، دون أن تعرف على وجه الدقة ما الذي كان يهيجها ومم كانت تنشط :

— الحمد لله ! الحمد لله !

وحدث الأمير « شتت » ... نفسه قائلاً : « هؤلاء أناس عجيب أمرهم » • لقد قال هذه العبارة ربما للمرة المائة منذ أن أصبح يختلف اليهم ، ولكنه ... كان يحب هؤلاء الناس الذين يرى أن أمرهم عجيب ! لعله كان لا يحس هذا الشعور نفسه تماماً تجاه الأمير • وحين خرجوا للنزهة اريد وجهه واكتست هيئته معنى الهم •

ان أوجين بافلوفتش هو الذي كان يبدو أكثرهم ارتياحاً • ولقد ظل طوال الطريق الى الفوكسهول يسلي الكسندرا وآديلايد • فكانت

هاتان تضحكان ضحكاً فيه من المجاملة والمسايرة لمزاحه أنه انتهى الى
الاشتباه في أنهما ربما كانتا لا تصفيان الى كلامه ، فإذا هو ، دون أن
يستطيع تفسير ذلك لنفسه ، ينفجر ضاحكاً ضحكاً فيه من الصراحة مثل
ما فيه من الانطلاق الذى لا تكلف فيه ولا اصطناع (ذلك كان طبعه !) .
كانت الأختان مشرقتى المزاج ، لا تبرحان تنظران الى أختهما الصغرى
التي كانت تسير مع الأمير فى طليعة السائرين . كان واضحاً أن وضع
آجلایا يبدو لهما لغزاً لا تفهماه ، أو أحجية لا سبيل الى حلها . وكان
الأمير « شتب » . . . ما ينفك بجهد فى التحدث الى اليزابث بروكوفينا
عن أمور لا قيمة لها ، فلمله كان يريد أن يصرفها عن أفكارها وخواطرها ،
لكنه لم يستطع الا أن يبت فى نفسها سأمًا شديدًا وضجراً رهيباً . كان
يبدو أنها فى حالة غير طبيعية . فهي توجب فى كلامها خبط عشواء ،
أو هى لا توجب البتة .

على أن آجلایا ايفانوفنا لم تكن قد فرغت من بث الحيرة فى نفوس
من كانوا حولها ذلك المساء . وقد احتفظت للأمير بآخر لغز تحييره به
دون سواء . فحين أصبحت على مسافة مائة خطوة من الفيلا أسرع
تتمس فى اذن مرافقها الذى ما برح صامتاً صمتاً عنيداً ، فتقول له :

— انظر يمنة .

فأطاعها الأمير ونظر يمنة .

— انظر بمزيد من الانتباه ، هل ترى دكة ، فى الحديقة ، هناك ،
قرب تلك الشجرات الثلاث . . . دكة خضراء ؟

فأجاب الأمير بأنه يرى الدكة . فسألته :

— هل يعجبك ذلك المكان ؟ اننى فى بعض الأحيان أجيء مبكرة ،

فى نحو الساعة السابعة ، حين يكون الجميع ما يزالون نائمين ، فأجلس هنالك وحيدة .

وافقها الأمير مستمعاً على أن المكان رائع .

قالت له :

— والآن ابتعد ! لا أريد الآن أن أسير متأبطة ذراعك ؛ بل هات ذراعك ، ولكن لا تقل لى الآن كلمة واحدة . أريد أن أدخل الى أفكاري +++

الحق أن هذا الطلب كان نافلاً . فان الأمير ما كان له أن ينطق بكلمة واحدة أثناء النزعة ولو لم تأمره هى بالصمت . خفق قلبه خفقاناً شديداً عنيقاً حين سمع كلامها المتعلق بالدكة . ولكنه غير رأيه بعد دقيقة ، وخجل من نفسه طارداً الفكرة التى خطرت بهاله .

يعرف الناس ، أو يؤكد جميع الناس ، أن الجمهور الذى يرتاد الفوركس هول بمدينة بافلوفسك هو فى غير أيام الأحد . أرقى منه فى أيام الأحد أو فى أيام الأعياد ، أى الأيام التى يتوافد فيها اليه من بطرسبرج « أنواع شتى » من الناس . ولئن لم تكن الثياب التى يرتديها الجمهور فى تلك الأيام هى ثياب يوم الأحد ، فانها أكثر أناقة وأرفع ذوقاً من الثياب التى يرتديها جمهور يوم الأحد . ان من العادات الراقية أن تأتى الصفوة الى هذا المكان تسمع الموسيقى . ولعل الأوركسترا هنا أن يكون أحسن من جميع الأوركسترات التى تعزف فى الحدائق العامة عندنا ، ومن المعروف أن معزوفاتها تتضمن طرائف جديدة . وان ما يسيطر على هذه الاجتماعات من جو عائلى بل ومن تعارف حميم لا ينفى أن يلتزم أصحابها أعلى آداب اللباقة وأقصى أصول التعامل . ولأن الجمهور يكاد يخلو الا من الأسر المصطافة فى بافلوفسك ، فان الجميع يجيئون الى هذا

المكان ليلتقى بعضهم ببعض . ان اناساً كثيرين يجدون متعة كبرى فى هذا النوع من تربية الوقت لا يدفعهم الى المجيء الا هذا الباعث وحده ، غير أن هناك أناساً آخرين انما يجيئون من أجل الموسيقى وفى سبيلها . والفنصائح نادرة هنا أشد الندرة ، ولكن لا يخلو أن تقع فضيحة من حين الى حين ، حتى فى غير أيام الأحد . ذلك أمر لا يمكن تجاهيه .

كان المساء فى ذلك اليوم رائياً ، وكان الجمهور كبيراً . ان جميع الأماكن المجاورة للأوركسترا مشغولة ، فجلس أفراد جماعتنا على كراسى بميدة بعض البعد ، قرب باب الخروج الأيسر . ان جمهرة الناس وألحان الموسيقى قد سرت عن الزايت بروكوفينا قليلاً ، وروّحت عن بناتها وسلّتهن . وقد تبادلت البنات بعض النظرات مع عدد من معارفهن ، وهزرن رموسهن بتحيات صغيرة لطيفة أرسلتها الى آخرين . وقد انصم وتغنن كذلك لأن يدققن النظر فى ثياب الحضور وزيناتهن وأن يلاحظ بعض أنواع الشنوذ والأغراب فيها فعلقن عليها بابتسامات ساخرة . وقد أغدق أوجين بافلوفتش تحيات كثيرة هو أيضاً . كما لوحظ أن آجلاليا والأمير كانا معاً . وسرعان ما اقترب من الأم والبنات شباب من معارفهن . وبقي منهم اثنان أو ثلاثة يترثرون . انهم أصدقاء أوجين بافلوفتش . احدهما ضابط شاب هو فنى وسيم جميل زاخر نشاطاً وحماسة ، سرعان ما عقد حديثاً بينه وبين آجلاليا ، وبذل كل جهوده ليأسر انتباه الفتاة التى أظهرت له كثيراً من اللطف والمرح . وقد طلب أوجين بافلوفتش من الأمير أن يأذن له بتعريفه بهذا الصديق ، فلم يدرك الأمير ما طُلب منه الا نصف ادراك ، ولكن التعارف تم ، فحيا الرجلان كل منهما الآخر وتصافحا . وألقى صديق أوجين بافلوفتش على الأمير سؤالاً لم يجب عنه الأمير ، أو قل انه أجاب عنه بجمجمة بلغت من الغرابة أن الضابط حدّق الى عينيه ثم نظر الى أوجين بافلوفتش . فلما أدرك عندئذ لماذا

مرّقه صاحبه بالأمير ابتسم ابتسامة خفيفة لا تكاد تلاحظ والتفت نحو آجلایا من جدید • فكان أوجین بافلوفتش الشخص الوحيد الذى لاحظ عندئذ أن آجلایا احمرت فى تلك اللحظة فجأة •

أما الأمير فانه لم يلاحظ حتى وجود آخرين يحدثون آجلایا ويلطفونها ويتوددون اليها • أكثر من ذلك أن هناك لحظات كان يبدو عليه أثناءها أنه ناس وجود آجلایا الى جانبه • وفى بعض الأحيان كانت تستولى عليه رغبة فى أن ينصرف ذاهباً الى أى مكان ، وأن يغيب غيباً تاماً وأن يحتفى اختفاءً كاملاً • كان يتمنى أن يلبأ الى ملاذ مظلم معتم يخلو فيه الى أفكاره ولا يستطيع أحد أن يهتدى اليه • أو كان على الأقل يتمنى أن يكون فى داره ، على الشرفة ، شريطة أن لا يكون الى جانبه أحد ، لا ليدف ولا أولاد • كان يتمنى أن يجد نفسه هناك ، فيرمى على الديوان دافئاً رأسه فى الوسادة ، فلو أتبع له هذا اذن لبقى على تلك الحال يوماً فليلاً فيوماً آخر • وكان فى لحظات أخرى يحلم بالجبال ، ولا سيما بموقع على جبال الألب كان يحب كثيراً أن يستحضر ذكراه ، وهو المكان الذى كان يقوم فيه بنزهته المفضلة عنده الأميرة لديه حين كان يعيش هناك • فمن ذلك المكان يرى المرء القرية فى حضن الوادى ، ويستشف مساقط مياه الشلال الصغير التى تمازجها الثلوج ، ويصر السحب البيضاء ، ويلمح قصرأ قديماً مهجوراً • لشد ما يتمنى أن يجد نفسه الآن هناك ، وأن يكون رأسه خالياً الا من فكرة واحدة • • • فكرة واحدة طوال حياته ، ولو دامت حياته ألف سنة ! لا يهمه فى الواقع أن ينسى هنا نسياناً تاماً • بل ان هذا لضرورى • ولعله كان من الأفضل أن لا يعرف هنا قط ، وأن لا تكون جميع الصور التى مرت أمام عينيه الا حلماً ! ومهما يكن من أمر ، ألم يكن الحلم والواقع شيئاً واحداً ؟

ثم أخذ الأمير يلاحظ آجلایا على حين فجأة ، ولبت خمس دقائق

لا يحوّل بصره عن وجه الفتاة ، لكن نظرتّه كانت غريبة غير مألوفة :
فكأنّه كان يحدّق الى شيء يقع منه على مسافة فرسخين ، أو كأنّه كان ينظر
الى صورة لا الى الشخص نفسه .

قالت آجلایا تسألّه وقد توقفت عن الكلام والضحك مع من حولها
فجأة :

— ما بالك تتفرّس فيّ هكذا يا أمير ؟ انك لتخيّني . يترامى لى في
كل لحظة أنك تريد أن تمد يدك لتلمس وجهي وتحسه . ما رأيك
يا أوجين بافلوفتش ؟ أليس هذا ما يحسه المرء حين يرى نظرتّه ؟

أصغى الأمير الى كلماتها ، وكأنما أدهشه أن يراها تخاطبه هو .
بدا عليه أنه أدرك معنى أقوالها ، ولو ادراكاً ناقصاً في أغلب الظن . ولم
يجب بحرف واحد ، لكنه اذ لاحظ أن آجلایا تضحك وأن الجميع
يضحكون معها ، انفرج فمه وأخذ يفعل مثلهم . وتضاعف الضحك من
حوله حينذاك . أما الضابط الذي كان بطبعه شديد المرح فيما يبدو فقد
أخذ يقهقه قهقهة شديدة . ودمدمت آجلایا تقول لنفسها وقد استبد بها
غضب شديد مفاجئ :

— أبله !

قدمت اليزابت بروكوفينا تقول حاتمة :

— كيف يمكن ، يا رب ، أن تختار مثل هذا ال . . . أثراها فقدت
عقلها تماماً ؟

فقالت الكسندرا تهمس في اذن أمها واقعة مطمئنة :

— هذه مزحة . هذا تكرار لمزحتها في ذلك اليوم مع « الفارس
الفقير » ، لا أكثر من ذلك . لقد عادت تناكده بطريقتها . ولكن هذه

المزحة تفوق وتتجاوز حدود القصد . فيجب أن نضع لها نهاية يا أمي !
منذ قليل أخذت تتلاعب بحركات وجهها كمثلة ، فارتنا من ذلك أشد
الارتياح .

دعمت اليزابت بروكوفينا تقول وقد خفت عنها ملاحظة ابتها
رغم كل شيء :

— من حسن الخط أن من تعامله هذه المعاملة أبله كهذا الأبله .
وكان الأمير قد سمع أنه يوصف بأنه أبله ، وها هو ذا يرتعش ،
لكنه لم يرتعش بسبب هذا التعت الذي سرعان ما نسيه فوراً . وانما
ارتعش لأنه لمح بين الجمهور ، غير بعيد من المكان الذي كان جالساً فيه ،
لمح من جانب (وهو لا يستطيع أن يحدد على وجه الدقة لا الموضع
ولا الاتجاه) ، لمح وجهاً شاحماً ، له شعر أدكن مضفور ، وله ابتسامة
ونظرة يعرفها حق المعرفة . ان هذا الوجه لم يزد على أن يظهر ظهوراً
خاطفاً . ربما كانت هذه الرؤية ثمرة خياله . لم يبق من هذه الرؤية
في ذاكرته الا ابتسامة مصعرة ، وعينان ، ورباط عنق أخضر فاتح يدل
على طموح الى الأناقة لدى الشخص الذي ظهر ذلك الظهور الخاطف .
ترى هل اندس الشخص في الجمهور فخاب فيه أم هو تسلل في
الفوكسهول ؟ ذلك ما لا يستطيع الأمير أن يحدده .

لكنه أخذ يتفحص الأمكنة القريبة ، قلقاً مهموماً مغموماً ، بعد
لحظة ، على حين فجأة . ان ظهور ذلك الشخص الأول يمكن أن يندر أو
أن ينسى . بظهور شخص آخر . بل ان هذا لا أكد لا شك فيه . كيف
تسى امكان حدوث مثل هذا اللقاء حين ماروا متجهين الى الفوكسهول ؟
صحيح أنه لم يدرك عندئذ الى أين كان ذاهباً ، وذلك سبب ما كان عليه
من حالة نفسية خاصة . ولو استطاع أن يكون أكثر انتباهاً وبقطة للاحظ
أن أجلايا كانت منذ أكثر من ربع ساعة تتلفت قلقة من حين الى حين

وكانها تبحث بعينها عن شيء ما حولها • أما وقد أصبح هو نفسه متوتر الأعصاب مزيداً من التوتر ، فإن انفعال آجلايا واضطرابها قد اشتد وتفاقماً ، فكلما نظر هو الى وراء أسرع تقوم هي بهذه الحركة نفسها • وما لبثت هذه المخاوف أن وجدت ما يبررها •

فهذه عصابة يبلغ عدد أفرادها عشرة أشخاص على الأقل تلج المدخل الجانبى الذى كان الأمير وآل ايباتشين قد اتخذوا أماكنهم على مقربة منه • وفى مقدمة هذه العصابة تسير ثلاث نساء كانت اثنتان منهن جميلتين جمالاً ساحراً لا يستغرب المرء أن يجزّ ورائه هذا العدد الكبير كله من العبياد • ولكن هؤلاء العبياد ، وشأنهم فى ذلك شأن أولئك النساء أنفسهن ، كانت لهم هيئة خاصة تميزهم تمييزاً عن الجمهور المتجمع حول الموسيقى • وقد لاحظهم جميع الحضور تقريباً منذ دخلوا ، ولكن أكثر الناس تظاهروا بأنهم لم يحسوا بحضورهم ، الا عدداً من الشباب ابتسموا وتبادلوا بعض الملاحظات بصوت خافت • وكان من المستحيل على كل حال أن لا يرى المرء هؤلاء القادمين ، لأنهم دخلوا يعرضون أنفسهم ويتكلمون فى صخب ، ويضحكون ضحكاً مجلجلاً • من الجائز أن يكون بينهم أفراد سكارى ، رغم أن كثيرين منهم كانوا يرتدون ثياباً فيها كثير من الأناقة والذوق • ولكن الناظر اليهم يلاحظ بينهم كذلك أفراداً يلفتون الانتباه بغرابة سلوكهم وثيابهم معاً ، كما أن وجوههم تبدو ملتفة التهاّباً شديداً • وكان بين أفراد هذه العصابة أخيراً بضعة عسكريين ، بل كان بينهم أيضاً أناس متقدمون فى السن • كان بعضهم يرتدى ملابس متأقفة فضفاضة على آخر زى ، ويضعون فى أصابعهم خواتم ، ويزينون عرى أكمامهم بأزرار فضة • وعلى رؤوسهم ووجناتهم شعر مستعار فاحم السواد • وهم يصطنعون مظهر النبالة ، ولكن هيئاتهم تعبر عن التعالى المقتل • انهم من أولئك الناس الذين يفر منهم الآخرون ، فى المجتمع

الرافى ، فرارهم من الطاعون . طبعى أن فى مراكز التجمع التى تقع قرب المدن ببلادنا ، محلات تميز بحرص شديد على حسن المعاملة ، وتمتع بشهرة طيبة وسمعة عطرة . ولكن أشد الناس حذراً وأكثرهم حيلة لا يضمن أن لا تسقط على رأسه فى أى لحظة من لحظات حياته قرميدة من سطح المنزل المجاور . ان هذه القرميدة هى التى ستقع على رأس الجمهور المصطفى المتجمع حول الموسيقى .

للاتصال من الكازينو الى الأرض الممهدة التى يستقر فيها الأوركستر ، يجب هبوط درجات ثلاث . وقد وقفت العصابة أمام هذه الدرجات مترددة أن تهبط . غير أن إحدى السيدات تقدمت ، فلم يجرؤ أن يتبعها من صحبها الا رجلان . فأما الأول فهو رجل متوسط العمر متواضع الهيئة حسن المظهر من جميع النواحي ، ولكن الناظر اليه يدرك أنه من أولئك الناس الذين ليس لهم جنود ، فلا يعرفون أحداً ولا يعرفهم أحد . وأما الثانى فهو رجل سيء الهندام مشبه الهيئة . ولم يصحب السيدة الغريبة الأطوار أحد غير هذين الرجلين . ثم ان السيدة ، حين هبطت الدرجات الثلاث ، لم تشأ حتى أن تلتفت الى وراء ، فهى لا تبالى أن يتبعها أحد أو أن لا يتبعها أحد . وما برحت تضحك ضحكاً صاحباً مجلجلاً . ان عيب أنافتها القصوى وثيابها الفاخرة وزينتها الثرية أنها مسرقة فى خطف الأبصار وشدة الالتباه . ومرّت أمام الأوركسترا لتنتقل الى الجهة الأخرى من الأرض الممهدة التى يستقر عليها العازفون ، حيث توجد مركبة فخمة ترابط عند حافة الطريق ويبدو أنها تنتظر أحداً .

ان الأمير لم يرها منذ أكثر من ثلاثة أشهر . انه منذ أن عاد الى بطرسبرج لم ينقض عليه يوم واحد الا انتوى أن يزورها . لكن لعل توجساً خفياً كان يصده عن ذلك . وهو لم يستطع ، على الأقل ، أن

يدرك الشعور الذى يمكن أن يحسه اذا هو لقيها ، رغم أنه يحاول ، مع غير قليل من الخوف ، أن يتصور بخياله ذلك اللقاء . ان الشيء الوحيد الذى كان يبدو له واضحاً هو أن اللقاء سيكون شاقاً أليماً . لقد استحضّر عدة مرات خلال هذه الأشهر الستة الاحساس الأول الذى أيقظه فى نفسه وجه هذه المرأة . فحتى حين لم يكن تحت بصره الا صورة ذلك الوجه ، كان احساسه احساساً موجعاً جداً . انه يتذكر هذا . وان الشهر الذى قضاه بالأقاليم وكان يلقاها أثناءه كل يوم تقريباً ، قد أحدث فى نفسه من المخاوف ما حمله يطرد من ذهنه فى بعض الأحيان حتى ذكرى ذلك الماضى القريب . لقد كان فى وجه تلك المرأة دائماً شيء يعذب نفسه عذاباً مبرحاً . انه فى حديث جرى بينه وبين روجوين قد وصف شعوره بأنه « عاطفة شفقة لا نهاية لها » . وهذه هى الحقيقة : ان مجرد النظر الى صورة هذه المرأة الشابة يوقظ فى نفسه جميع آلام الشفقة . ان عاطفة الشفقة هذه التى بلغت حدّ الألم لم تبارحه فى يوم من الأيام ، وما تزال مستبدة به الى الآن ، بل انها لتشتدّ مزيداً من الاشتداد يوماً بعد يوم . ومع ذلك كان التفسير الذى قدّمه لروجوين لا يكتفيه . فالآن فقط يكشف له ظهورها المباغت ، بحديث مباشر ، عن نقص ذلك التفسير ، وهو نقص لا يمكن أن تملأه الا كلمات يمكن أن تعبّر عن ذعره ، نعم عن ذعره ! لقد كانت هنالك أسباب تدعوه الى الاقتناع الكامل المطلق بأنها مجنونة . تصوروا رجلاً يحب امرأة أكثر مما يحب أى شيء فى هذا العالم ، أو يحس ، بما يشبه النبوة ، أنه يحبها هذا الحب ، ثم اذا هو يتصور هذه المرأة مكبلّة بالسلاسل وراء قضبان حديدية على حين فجأة ، يشهر عليها المصاحرس بهم أن يهوى بها فوقها : تلكم هى على وجه التقريب طبيعة الانفعال الذى نشب فى نفس الأمير .

همست أجلايا تسأله بسرعة وحى تنظر اليه وتشدّه من يده
بسنّاجة :

— ماذا بك ؟

قالت اليها وتفرس فيها ورأى فى عينيها السوداوين التماع شعلة لم يفهمها حينذاك • وجهد أن يتسم للفتاة ، لكنه لم يلبث أن نسيها وحوّل عنها بصره • يمتهن وقد بهرته رؤية خارقة من جديد •

ففى تلك اللحظة كانت ناستاسيا فيليوفنا تمر قرب الكراسى التى تشغلها الآسأت • وكان أوجين بافلوفتش يقص على الكسندرا ايفانوفنا حكاية لا بد أنها كانت شائعة ومضحكة جداً فلقد كان يرويها بكثير من الحرارة والنشاط • لقد تذكر الأمير فيما بعد أن آجلانيا قالت عندئذ بصوت خافت : « آ ••• ما أروع ••• » ثم أمسكت فجأة عن الكلام ولم تكمل جملتها • غير أن ما قالته كان كافياً • وكانت ناستاسيا فيليوفنا تمر مرور من لا ترى أحداً ، ثم اذا هى تلتفت نحوها فجأة ، وتظاهر بأنها تكتشف وجود أوجين بافلوفتش على غير توقع ، فتصيح وهى تتوقف عن السير حالاً :

— ها ••• تارة يعجز المرء عن لقائه بأية طريقة من الطرق ، ولو بحث اليه الرسل ، وتارة يعثر به حين لا يتوقع أن يراه ••• كنت أظن هناك ••• عند عمك ! •••

احمر وجه أوجين بافلوفتش احمراراً شديداً ، ورشق ناستاسيا فيليوفنا بنظرة زاخرة بالغضب والحلق ، ثم أشاح بوجهه الى جهة أخرى •

— ماذا ؟ ألا تعلم ؟ انه لم يعرف شيئاً بعد ! هل تصدقون هذا ؟ لقد انتحر عمك ! أطلق فى رأسه رصاصة هذا الصباح ! علمت بذلك منذ قليل ، فى الساعة الثانية • ونصف سكان المدينة يعرفون النبأ الآن • لقد اختلس ثلاثمائة وخمسين ألف روبل من خزينة الدولة • بعضهم يقول

انه اختلس خمسمائة ألف • هه ! وأنا كنت أعول على أنه سيورثك
ثروة طائلة ! لقد أكل كل شيء • ذلك الشيخ الفاجر الداعر • الخلاصة:
وداعاً • « أتمنى لك التوفيق » * ! ألن تذهب حقاً ؟ لقد عرفت كيف تقدم
استفالتك فى الوقت المناسب • انك لماكر صاحب حيلة ! ولكن ما هذا
الذى أقوله ؟ لا شك أنك كنت تعرف كل شيء • لا شك أنك كنت تعرف
كل شيء سلفاً • ربما كنت على علم بالأمر منذ أمس •••

واضح أن ناستاسيا فيليوفنا • اذ اتخذت لهجة الاستفزاز الوقحة
هذه • واذ أعلنت بهذا الأسلوب عن وجود صلة حميمة وهمية بينهما وبين
من تخاطبه • انما كانت ترمى الى غاية وتسمى الى هدف • لم يكن فى
الامكان أن يبقى ثمة ظل من شك • وقد ظن أوجين بافلوفتش أن فى
وسمه أن يخرج من المأزق دون فضيحة اذا هو تظاهر بأنه لا يولى المرأة
المستفزة أى انتباه • لكن أقوال ناستاسيا فيليوفنا سقطت على رأسه ؛
فحين ذكرت أن عمه مات صار وجهه كالأبيض من فرط اصفراره •
والتفت نحو المرأة الوقحة • فما كان من الزيات بروكوفينا الا أن
أسرعت تنهض وتنصرف بما يشبه الركض • مقتادة كل عالمها • الا ليون
نيقولاييفتش وأوجين بافلوفتش اللذين تلبسا برهة : فأما الأول فكان
يبدو مرتبكاً متحيراً • وأما الثانى فكان ما يزال منفعللاً مضطرباً • ولكن
ما كاد آل ايباتشين يقطعون عشرين خطوة حتى وقعت فضيحة رهيبة •

فان الضابط الذى كان يحدث آجلايا • وهو صديق أوجين
بافلوفتش الحميم • قد استاء استياءً شديداً وامتنع امتناعاً قوياً • فها هو
ذا يقول بصوت يكاد يكون عالياً :

— انما نحن فى حاجة هنا الى سوط • فما من وسيلة أخرى يمكن
أن تهدئى هذه المخلوقة !

(واضح أن أوجين بافلوفتش كان يطلعه على شمشونه ، ويبوح له
بأموره) •

فما ان سمعت ناستاسيا فيليوفا هذا الكلام من الضابط حتى أسرع
اليه متقدة العينين • ثم انتزعت من يدي شاب كان جالساً على مسافة
خطوتين وكانت هي لا تعرفه ، انتزعت من يديه عصا دقيقة من خيزران
فهوت بها على وجه الضابط الذي أهانها ، بكل ما أوتيت من قوة • وقد
حدث هذا المشهد كله بسرعة كسرعة البرق • وخرج الضابط عن
طوره فهجم على المرأة الشابة التي سرعان ما تركها تابعها : فأما الأول ،
وهو الرجل المتوسط العمر ، فقد اختفى اختفاء تاماً ، وأما الثاني فقد
اتحى جانباً وأخذ يضحك ملء حلقه • لا شك في أن الشرطة كانت
ستدخل بعد دقيقة ، ولكن ناستاسيا فيليوفا كان يمكن أن تلقى أثناء تلك
الدقيقة شراً كبيراً لولا أن جاءت نجدة لم تكن في الحسبان : ان الأمير ،
وكان على مسافة خطوتين منها أيضاً ، قد استطاع أن يمسك يدي الضابط
من وراء • وقد خلّص الضابط يديه منه ، ولطمه على صدره لكمة بلغت
من القوة أن الأمير مضى يسقط على بعد ثلاث خطوات فوق كرسي • ولكن
ناستاسيا فيليوفا كان قد أصبح الى جانبها الآن مدافعان آخران • فأمام
الضابط المهاجم كان قد وقف صاحبنا الملاك - كاتب المقالة التي يعرف
القارئ من أمرها ما يعرف ، وأحد الأعضاء العاملين القدامى في عصبة
روجووين ؟ وما هو ذا يتقدم من الضابط برصانة وثقل ويقول له :

- اسمي كيلر ، ليوتنان متقاعد ! فإذا كنت يا كابتن ، تريد استعمال
الأيدي وتبذلني مدافعاً عن الجنس الضعيف فأنا تحت أمرك ورهن
إشارتك ! انني قوى من الطراز الأول في الملاكمة الانجليزية • لا تدفني
يا كابتن ! انني أشاركك ألمك من الالهة « الدامية » التي تلقيتها ، ولكنني
لا أستطيع أن اسمح باستعمال قبضات الأيدي ضد امرأة على مرأى من

الناس • فاذا شئت أن تسوّى الأمر بطريقة أخرى ، كما يليق ذلك
برجل مهذّب • مهذّب ، فإن عليك طبعاً أن تفهمنى ، يا كاتبتى •••
ولكن الكاتبتى كان قد تاب الى نفسه ، وأصبح لا يصغى الى كلام
كيلر •

وفى تلك اللحظة خرج دوجوين من بين الجمهور فأمسك ذراع
ناستاسيا فيليوفنا بسرعة ، واقتادها • كان يبدو منفِعلاً أشد الانفعال هو
أيضاً : كان صاحب الوجه وكان يرتجف • وأتيح له وهو يقتاد المرأة أن
يقهقه أمام أنف الضابط ، وأن يقول ببلهجة بائع متنصر :

— هه ! ماذا أخذ من ذلك ؟ دماً فى بوقه !

سيطر الضابط على نفسه سيطرة تامة ، وأدرك نوع هؤلاء الناس
الذين يواجههم ، فلم يزد على أن غطى وجهه بمنديلته ثم التفت بأدب نحو
الأمير الذى كان قد قام من سقطته ، وقال له :

— أأنت الأمير ميشكين ؟

— انها مجنونة ! انها ملثثة العقل ! أوكد لك !

كذلك أجابه الأمير بصوت متقطع وهو يمد اليه يديه المرتعشتين
مدّاً آلياً •

قال الضابط :

— لا شك فى أنك أعلم منى بالأمر • ولكن يهمنى أن أعرف

اسمك •

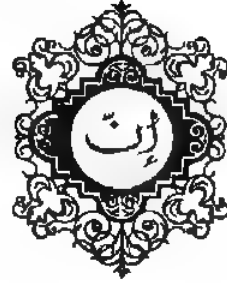
ثم حياً بحركة من رأسه وانصرف ، فما هى الا خمس ثوان حتى
كانت الشرطة قد وصلت فعلاً ، ولكن بعد أن كان أواخر ممثلى المشهد
قد غابوا عن المسرح • ولم تدم الفضيحة أكثر من دقيقتين على كل حال •

وقد قام جزء من الجمهور وانصرف • واكتفى عدد من الأشخاص بأن
غيروا أماكنهم • وسرّ بعض الناس بالحادث سروراً عظيماً • ووجد فيه
آخرون موضوعاً مثيراً تدور عليه أحاديثهم • الخلاصة أن الأمر انتهى
كما تنتهي أمثاله عادة • واستأنف الأوركستر عزفه •

تبع الأمير أسرة ابنتيه • ولو أنه ، بعد أن ضربه الرجل على
صدره فسقط على كرسي ، ولو أنه خطر بباله أن ينظر الى يساره أو اتسع
وقه لأن ينظر الى يساره ، لكان رأى أجاليا واقفة على بعد عشرين
خطوة منه ترقب المشهد رغم نداءات أمها وأخواتها اللواتي كن قد قطعن
مسافة طويلة • وقد هرع اليها الأمير « شتت • • • » واستطاع أن
يحملها على الانصراف بأقصى سرعة • فأدركت الרכب (ان اليزابت
بروكوفينا قد تذكرت هذا فيما بعد) وهي في حالة من الاضطراب تبعث
على الاعتقاد بأنها لم تكن قد سمعت نداءاتهن • ولكنها بعد دقيقتين ، عند
دخول الحديقة ، قالت بلهجة تحمل معنى الاستخفاف ، وهي لهجة
ممهودة فيها :

— انما أردت أن أعرف كيف يمكن أن تنتهي المهزلة !

الفصل الثالث



الحادث الذي وقع في الفوكسهول قد صق الأم
والبنات صعقاً ان صح التعبير . فكانت اليزابت
بروكوفينا ، وهي تحت وطأة الاضطراب
والانفعال والقلق ، تقتاد بناتها هاربة بما يشبه
الركض على طول الطريق المؤدى من المحطة الى الدار . وكان في رأيها
أن أموراً كبيرة قد انكشفت أثناء ذلك الحادث ، حتى لقد أخذت تنب
في ذهنها ، رغم الاضطراب والذعر ، أفكار معينة حاسمة . وأدرك
الجميع على كل حال أن شيئاً شاذاً غير عادي قد وقع ، وأن هناك سرّاً
خارقاً لعله أخذ ينكشف . ان أوجين بافلوفتش ، رغم التأكيدات
والشروح السابقة التي قدمها الأمير « شتش » قد « سقط القناع
عن وجهه » و « ظهر على حقيقته » ، و « ثبت ثبوتاً قاطعاً أن له علاقة
بتلك المخلوقة » . ذلك كان رأى اليزابت بروكوفينا ، وحتى رأى
بنتيها الكبيرين أيضاً . غير أن هذا الاستنتاج لم يزد على أن ضاعف
الأنغاز والأحجيات . ان الآستين ، في قرارة نفسيهما ، قد ساءهما ذلك
الذعر الرهيب وذلك الفرار الفاضح من جهة أمهما . ولكنهما لم تشاءا
في غمرة اضطراب اللحظة الأولى ، أن تروعاها مزيداً من الترويع
بأسئلتهما . لقد كانتا تحسان أن أختهما الصغرى ، آجلايا ايفانوفنا ، ربما
كانت تعلم من أمر هذه القضية ما لا تعلمان وما لا تعلم أمهما . أما الأمير
« شتش » فكان مكفهر الهيئة مظلم الوجه ، غارقاً في تأملاته

هو أيضاً • لم توجه إليه اليزابت بروكوفيتنا ، طوال الطريق ، كلمة واحدة ؛ ولكن لم يد عليه أنه اتبه الى صحتها هذا • وقد ألقت عليه أدلايد مراراً هذا السؤال : « من هو ذلك العم ؟ وما الذى حدث بطرسبرج ؟ » ، فكان لا يزيد على أن يجمعهم بلهجة مريرة ، مجيئاً اجابة غامضة ، قائلاً ان هناك معلومات يجب السؤال عنها ، وان المسألة كلها عجيبة مستحيلة على كل حال • فقالت أدلايد تحييه وقد عدلت عن الالحاح فى السؤال : « لا شك فى هذا » • وأظهرت آجلايا هدوءاً خارقاً • كل ما هنالك أنها أثناء الطريق نبّهت الى أن سيرهم سريع مسرف فى السرعة • وفى لحظة من اللحظات نظرت وراءها فلمحت الأمير محاولاً اللحاق بهم • فابتسمت ابتسامة فيها شئ من السخرية ، ثم لم تلتفت بعد ذلك الى جهته قط •

وعند عتبة الفيلا تقريباً ، التقوا بايفان فيدوروفتش الذى كان قد وصل من بطرسبرج منذ برهة فهبّ الآن الى لقائهم • وكانت الكلمة الأولى التى قالها هى أنه سأل عن أوجين بافلوفتش • ولكن زوجته مرت بقربه متوحشة الهيئة ضاربة السحنة ، دون أن تحييه بل ودون أن تنظر اليه • وسرعان ما قرأ فى أعين بناته وفى عيني الأمير « شتت • • • » ، أن عاصفة قد أملت بالمنزل • وعلى كل حال فقد كان وجهه ، حتى قبل أن يدرك ذلك ، يعبرّ هو نفسه عن قلق غير مألوف • فلم يلبث أن أمسك ذراع الأمير « شتت • • • » ، فأوقفه أمام الفيلا ، وتبادل معه بضع كلمات بصوت خافت • فلما صعدا الى الشرفة بعد ذلك للحاق باليزابت بروكوفيتنا كان الناظر اليهما يستطيع أن يعرف من رؤية وجهيهما أنهما قد اطلعا على تبا خارق •

والتأم الجميع كله أخيراً فى أعلى ، بجناح اليزابت بروكوفيتنا ؛ ولم يبق الا الأمير ، جلس فى ركن كأنه ينتظر شيئاً ما • كان هو نفسه

لا يعلم ما بقاؤه هنالك ، ولم يخطر بباله أن ينصرف وهو يرى هذا الاضطراب الذى شمل المنزل . لكأنه قد نسي السكون بأسره ، وكأنه مستعد لأن يبقى مسمرّاً سنتين متواصلتين فى المكان الذى يمكن أن تضعه فيه . وكانت تصل الى مسامعه من فوق ، بين الفينة والفينة ، أصدااء مناقشة حامية الوطيس . لا بدرى كم قضى من الوقت جالساً فى ذلك الركن . ولكن المساء قد جاء ، وأخذ الظلام يعم . وفجأة ظهرت آجلايا على الشرفة . كانت تبدو هادئة ، ولكنها شاحبة الوجه قليلاً . وابشمت انشامة يخالطها شيء من الدهشة حين رأت الأمير الذى كانت لا تتوقع طبعاً أن تراه هنالك جالساً على كرسي .

سألته وهى تدنو منه :

— ماذا تفعل هنا ؟

فتنم الأمير بوضوح كلمات مضطرباً ، وأسرع ينهض . ولكن آجلايا لم تلبث أن جلست قريبه فعاد يجلس . تفرست فيه بنظرة سريعة لكنها متفحصة ، ثم سرحت ببصرها من خلال النافذة دون أن تكون لها نية معينة ظاهرة ، وعادت تحدق الى الأمير وتتفرس فيه .

قال الأمير يحدث نفسه : « أتراها تريد أن تأخذ فى الضحك ؟ لا ، لو كانت تريد ذلك لما أمسكت عنه ! » .

قالت بعد صمت :

— هل تريد أن تصيب قليلاً من الشىء ؟ ان شئت أمرت لك بشىء .

— لا ... لا أدري ...

— كيف لا تدري أن تشرب شيئاً من الشىء أم لا تريد ؟

آ... بالناسبة : اذا دعاك أحد الى مبارزة فما عساك تفعل ؟ هذا سؤال كنت أريد أن ألقيه عليك .

— ولكن من ذا الذى ... لا يمكن أن يتتوى أحد دعوتى الى مبارزة !

— هب ذلك حدث ، فهل تخاف ؟

— أعتقد اننى سأخاف ... سأرتاع ارتياحاً شديداً ؟

— حقاً ؟ أنت اذن جبان ؟

— ل ... لا ، قد لا أكون جباناً ، فمن خاف ولم يهرب فليس جباناً .

كذلك قال الأمير وهو يتسم بعد لحظة تفكير . فسألته آجلانيا :

— وأنت ؟ ألا تهرب ؟

فقال وهو يضحك أخيراً لهذه الأسئلة :

— قد لا أهرب .

فقالت بشيء من الغضب :

— أما أنا فلا أهرب بحال من الأحوال ، رغم اننى امرأة . ثم انك

تسخر منى ، وتلاعب علاعبك المعهود ، لتزيد الاهتمام بك . قل لى :

هل جرت العادة بأن يتم اطلاق النار فى المبارزات على مسافة اثنتى عشرة

خطوة ؟ بل وعلى مسافة عشر خطوات أحياناً ؟ اذا صدق هذا كان مؤكداً

أن يقتل المتبارز أو أن يجرح !

— يندر أن لا تطيش الطلقة فى المبارزات .

— كيف ؟ لقد قُتل بوشكين .

— ربما كان ذلك مصادفة .

- لا : كانت المباراة مبارزة موت ، وقتل !

- لا شك أن الرصاصة أصابته فى موضع أدنى من النقطة التى صوّب إليها داتيس ، وهى الصدر أو الرأس • ما من أحد يصوّب الى النقطة التى يصيبها • ولقد كان جرح بوشكين اذن نتيجة مصادفة ، وثمرة خطأ فى التسديد • ان أناساً متخصصين هم الذين قالوا لى هذا الكلام *.

- وأنا كلمت فى الأمر جندياً ذكر لى أن النظام يوجب على الجنود أن يصوّبوا الى منتصف الجسم حين يصوّبون • ذلك هو التعبير الوارد فى النظام : « منتصف الجسم » • فالتسديد لا يكون اذن لا الى الصدر ولا الى الرأس ، وإنما يكون الى وسط الجسم • وحين سألت أحد الضباط بعد ذلك فى هذا الموضوع أكد لى صحة هذا الزعم •

- هذا يصدق على التصويب من مسافة بعيدة •

- وهل تحسن أنت التصويب ؟

- لم أطلق رصاصة فى حياتى •

- هل يمكن أن يكون صحيحاً أن لا تعرف حتى كيف تحشو مسدساً ؟

- لا أعرف • بل أعرف الطريقة لكننى لم أحاول أن أمارسها

بنفسى •

- معنى هذا أنك لا تعرف • فهذه عملية تقتضى ممارسة عملية ! أصغ الىّ واحفظ ما أقوله لك : تشتري فى أول الأمر باروداً من بارود المسدس • يجب أن لا يكون البارود رطباً بل جافاً جداً (يبدو أن هذا ضرورة لا غنى عنها) • ويجب أن يكون مسحوقاً دقيقاً ناعماً • اطلب هذا النوع من البارود ، وإياك أن تشتري باروداً من بارود المدفع •

أما الرصاصات فيظهر أن على المرء أن يتولى صبّها بنفسه • هل عندك مسدسات ؟

أجاب الأمير وهو يضحك قهجاً :

— لا ، ولا حاجة بي إليها !

— آه ... يا للحماقة ! لا تنس أن تشتري مسدسات ، مسدسات جيدة اختر منها نوعاً فرنسياً أو انجليزياً • يقال ان المسدسات الفرنسية والانجليزية هي خير المسدسات • وخذ بعد ذلك مقداراً من البارود ، مقداراً يكفي للماء كستبان خياطة ، أو كستبانين اثنين ، وأفرغ البارود في ماسورة المسدس • ولأن يكون مقدار البارود أكثر من اللازم خير من أن يكون أقل • ثم احش الماسورة لباداً (يظهر أن اللباد لا غنى عنه ، لا أدري لماذا) • في وسعك أن تحصل على اللباد من أى مكان ، في وسعك أن تأخذه من فراش مثلاً ، أو من أيازم الباب • وبعد أن تنس الحشوة تدخل الرصاصات • هل فهمت ؟ البارود أولاً والرصاصات بعد ذلك • والا لم تخرج الطلقة • اذا تضحك ؟ أريد أن تمرن على اطلاق النار كل يوم عدة مرات ، وأن تعلم كيف تسدّد الى هدف قصصيه • هل ستفعل ؟

كان الأمير ما يزال يضحك • فقرعت آجاليا الأرض بقدمها غاضبةً • تحير الأمير من كل هذا الجدل في حديث كهذا الحديث • كان يحس احساساً غامضاً بأن عليه أن يستعلمها بعض النقاط ، وأن يلقي عليها بعض الأسئلة عن موضوعات هي أخطر شأنًا من طريقة حشو المسدسات على كل حال • ولكنه نسي • لم يبق لديه الا احساس واحد هو أنه يراها جالسةً أمامه وحيدة وأنه ينظر اليها • أما ما قد تحدثه عنه وتكلمه عليه في تلك اللحظة فأمر لا يكاد يعنيه •

وأخيراً نزل ايفان فيدوروفتش نفسه من الطابق الأعلى وظهر على الشرفة . كان يهم أن يخرج ، وكان كالحج الهيثم متجهم الوجه مشغول البال ثابت العزم . فلما رأى الأمير هتف يسأله ، رغم أن الأمير لم تبد عليه أية حركة تدل على أنه يريد الانصراف .

- آه ... ليون نيقولايفتش ... هذا أنت ... الى أين أنت ذاهب الآن ؟ تعال ... هناك كلمة أريد أن أقولها لك ...

قالت آجلايا وهي تمد يدها للأمير :

- الى اللقاء يا أمير !

كانت الشرفة قد خيَّم عليها الظلام بحيث أن الأمير لم يستطع في تلك اللحظة أن يميّز سمات الفتاة تمييزاً واضحاً . وبعد دقيقة ، بينما كان هو والجنرال قد خرجا من الفيلا ، احمر احمراراً رهيباً على حين ضجّة وقلّص يده اليمنى تقليصاً قوياً .

واتفق ان كان على ايفان فيدوروفتش أن يسير في طريق الأمير ذاته . انه ، رغم تأخر الوقت ، يريد الذهاب الى شخص من الأشخاص بسرعة لابرام صفقة . فأخذ أثناء الطريق يحدث الأمير بلهجة متمجّلة وكلام مضطرب مفكك . كان اسم اليزابت بروكوفينا يتردد ذكره على لسانه كثيراً . فلو كان الأمير أقدر على الانتباه في تلك اللحظة ، فلربما استطاع أن يدرك أن محدثه كان يحاول أن يستمد منه بعض المعلومات ، أو قل أن يلقي عليه سؤالاً معيناً ، ولكن دون أن يستطيع مواجهة النقطة الأساسية . يجب أن نذكر أن الأمير كان من الاضطراب والبلبل والذهول بحيث لم يسمع بداية الكلام الذي فاه له الجنرال ، فلما تسمّر الجنرال أمامه ليلقي عليه سؤالاً حاداً ، اضطر أن يعترف بأنه لم يفهم شيئاً .

فما كان من الجنرال الا أن رفع كفيه • ثم استأنف كلامه فعاد يقول متدفقاً :

- ما أعجبكم كلكم ، من جميع النواحي ! أقول لك اننى لا أفهم شيئاً البتة من خواطر الزايت بروكوفيتسا وأنواع الخزع والهلم التى تتناهبها ! انها تقلب بين جميع حالات الاضطراب ، وتنشج باكية ، وتقول اتنا احتقرنا وازدُرنا ، وان سمعنا سامت وكرامتنا أهيت وشرفنا تلتطخ • من فعل بنا هذا ؟ كيف تم ؟ مع من جرى ؟ متى حدث ؟ لماذا وقع ؟ اننى اعترف بأن لى عيوباً فادحة وأخطاء كبيرة ، ولكن طيش تلك المرأة المضطربة (التى تسلك فوق ذلك سلوكاً شائناً) أمر يمكن أن تضع به الشرطة حداً • اننى أنوى منذ اليوم أن أذهب الى أحد وأن أتخذ اجرامات • وكل شيء يمكن أن يسوّى بهلوه وسكينه ورفق ، بل وبمداواة ومراعاة ، ودون أية فضيحة أو جرسه ، وذلك بالاعتماد على بعض العلاقات • وانى لأعترف أيضاً بأن المستقبل يحمل أحداثاً كبيرة ، وأن أموراً كثيرة تحتاج الى ابضاح • نحن بصدد مؤامرة • ولكن اذا كان لا يوجد هنا أحد يعرف شيئاً ، واذا كان لا يوجد هناك أحد يعرف شيئاً كذلك ؟ اذا كنت أنا لم أسمع بشيء ، واذا كنت أنت لم تسمع بشيء ، واذا لم يكن ثالث ولا رابع ولا خامس قد سمع بشيء أيضاً ، فتنى لأسألك : فمن ترى تكون على علم بالأمر ؟ كيف تعلق أنت هذا ؟ اللهم الا أن نسلّم أننا ازاء سراب أو شبه سراب ، وأننا ازاء ظاهرة لا تمت الى الواقع بسبب ، كضوء القمر أو طيوف الأشباح ؟

تصم الأمير يقول وقد تذكر فجأة ، على ألم شديد ، كل ما جرى فى النهار :

- « هى » مجنونة !

- لنسلّم بهذا ، اذا كنت عن تلك المرأة تتكلم ! لقد فكّرت أنا فى

الأمر مثل تفكيرك تقريباً ، وارتحت الى هذا الرأي . لكننى ألاحظ أن تفكيرهم هم كان أسلم ، وأصبحت لا أعتقد بأنها مجنونة . صحيح أن هذه المرأة يعوزها الحس السليم ، ولكنها مجنونة . ان اندفاعتها فى الكلام اليوم بصدد كاييتون الكسيفتش يدل على ذلك دلالة قاطعة . انها تصرف تصرف وغد حقير ، أو تصرف يسوعى ماكر لتبلغ هدفاً معيناً .

— من كاييتون الكسيفتش ؟

— آه ... ليون يقول لايفتش ! انك اذن لا تصنى الى البنة ! لقد كانت بداية كلامى اليك عن كاييتون الكسيفتش . لقد بنيت من الاضطراب لهذا الأمر أن ذراعىّ وساقىّ ما تزال ترتعد . وذلك هو السبب فى أتنى رجعت اليوم من المدينة متأخراً هذا التأخر كله . كاييتون الكسيفتش رادومسكى ، عم أوجين بافلتش ...

هتف الأمير :

— ماذا ؟

— اطلق النار فى رأسه هذا الصباح ، عند الفجر ، الساعة السابعة . كان شيخاً محترماً فى نحو السبعين من عمره ، أيقورياً . وكما قالت هى تماماً ، اختلس من مال الدولة ، اختلس مبلغاً ضخماً !

— من أين استطاعت أن ...

— أن تعرف هذا ؟ ها ها ... لقد تكونت لها « أركان عامة » بكاملها . هل تعرف أية شخصيات تختلف إليها الآن أو تلتمس « شرف التعرف بها » ؟ فلا عجب أن يكون بعض زوارها الذين وصلوا من المدينة قد أطلعوها على شيء ما ، لأن بطرسبرج كلها تعرف النبأ الآن ، كما يعرفه على كل حال نصف سكان بافلوفسك أو ربما جميعهم . ولكن ما أكرر الملاحظة التى قالتها ، على ما رُوى لى ، عن وظيفة أوجين بافلوفتش ،

أى عن حسن اختياره الوقت المناسب للاستقالة ! يا لها من غمزة جهنمية !
لا ، لا ، ان هذا لا يدل على جنون ! طبعاً أنا أرفض أن أصدق أن
أوجين بافلوفتش قد أمكنه أن يتنبأ بالكارثة ، أى أن يعلم أنها ستحدث
يوم كذا ، ساعة كذا من الصباح ، الخ . ولكن لعله أوجس هذا قبل
حدوثه . هه ! حين أتذكر كيف أن الأمير « شتش » ، وأنا ، ونحن
جميعاً ، كنا مقتنعين بأنه سيرث عمه . . . هه ! . . . شيء فظيع ، فظيع !
على كل حال ، افهم عنى ما أقول : اتى لا أنهم أوجين بافلوفتش أى
اتهم . هانذا أسارع الى اعلان ذلك لك . غير أن فى الأمر شيئاً مشبوهاً .
هذا لا شك فيه . ان الأمير « شتش » قد بلغ ذروة التعجب والذهول .
لقد جرت الأمور كلها مجرى غريباً لا حدّاً لغرابته ! . . .

— ولكن ما هو الشيء المشبوه فى سلوك أوجين بافلوفتش ؟

— لا شيء البتة . لقد تصرف تصرفاً سليماً لا غبار عليه . ثم اننى
لم أعمر أى غمز يقدر فيه . أظن ان ثروته الشخصية لا مرأى فيها .
ان الزايت بروكوفيتسا لا تطيق طبعاً حتى أن تسمع ذكر اسمه . . . ولكن
الأمر الأخطر هو الكوارث المنزلية كلها أو قل هذه الهومو العائلية . . .
أوه . . . أصبحت لا أعرف كيف اسميها . . . انك أنت يا ليون
نيقولايفتش صديق للأسرة حقاً . فإليك إذن ما عرفناه منذ قليل (رغم
أن الأمر ليس مؤكداً محققاً بعد) : لقد عرفنا أن أوجين بافلوفتش قد
صارح آجلايا منذ أكثر من شهر ، وأنه فيما يظهر قد تلقى منها رفضاً
قاطعاً !

هتف الأمير قائلاً بحماسة :

— غير ممكن !

قال الجنرال وهو يرتعش دهشةً ويقف متسماً فى مكانه :

- ولكن هل أنت على علم بشيء ؟ لعننى يا صديقى العزيز قد
أخطأت وجافيت الكياسة واللباقة حين حدثتك عن هذا ... ولكنى انما
فعلت لأنك ... لأنك شخص ... قد يكون مثله على علم بشيء . أترك
تعرف شيئاً ما ؟

دمدم الأمير يقول :

- لا أعرف شيئاً ... عن أوجين بافلوتش .

- ولا أنا ! أنا ... يا صديقى العزيز قد حلفوا ليدفننى ،
ليقبرننى . انهم لا يريدون أن يدركوا أن هذا يشق على نفس رجل ،
واننى لن أحتمله . منذ قليل قام مشهد رهيب ! اننى أكلمك كما يكلم
أب ابنه . أقسى ما فى الأمر أن أجلايا تشبه أن تسخر من أمها وتهزأ
بها . أما الرفض الذى لعلها قابلت به أوجين بافلوتش منذ شهر ، وأما
المصارحة القاطمة التى لعلها تمت بينهما ، فهذه تخمينات أختها . وهى
تخمينات قد تكون صحيحة على كل حال . لكن أجلايا انسانة متسلطة
مستبعدة غريبة الأطوار ذات نزوات ، الى حد لا يستطيع المرء أن
يتصوره . صحيح أنها تملك جميع اندفاعات الروح النبيلة ، وجميع
مزايا القلب والفكر اللامعة . اننى أسلمت بهذا . لكنها ذات بدوات عجيبة ،
وسخرية مسرفة . ان لها طبعاً شيطانياً ، وان لها سطحات شاذة ! منذ
قليل ، تهكمت صراحة على أمها ، وعلى أختها ، وعلى الأمير «شتت» ؛
ناهيك عنى أنا ، أنا الذى قلما أنجو من سخرياتها ... ولكن من أنا ؟
أنت تعلم مدى ما أحملها لها من حب حتى فى سخرياتها . ويخيل الى
أن هذا هو السبب فى أن هذه الشيطانة الصغيرة تحبنى حباً خاصاً ، أعنى
أنها تحبنى أكثر من سائر الآخرين . أراهن انها قد أتبع لها أن تمارس
سخريتها عليك أنت أيضاً . لقد رأيتهما منذ قليل منهماكين فى الحديث

بعد الزويدة التي قامت فوق • كانت جالسة الى جانبك كأن شيئاً لم يحدث •

احمر الأمير احمراراً رهيباً ، وقلص يده ، لكنه لم ينطق بكلمة .
قال الجنرال فجأة ، بحرارة وتدفق :

- يا عزيزى الطيب ليون نيقولايفتش أنا ، وحتى ايزابت بروكوفينا (التي عادت تحمل عليك وتقول فيك السوء ، وتعاملني هذه المعاملة نفسها أنا أيضاً بسبك ، لا أدري لماذا !) ، نحن نجبك مع ذلك ، نجبك حباً صادقاً ونقدتُك رغم كل شيء ، أغنى رغم المظاهر • ولكن اعترف أنت نفسك يا صديقي العزيز ، اعترف أنت نفسك أنه لغز مفاجئ . ونبأ فطيع أن نسمع هذه الشيطانة الصغيرة (وكانت عندئذ واقفة أمام أمها هناك ، متسمة ، تصطنع أعماق الاحتقار لجميع أسئلتنا ، ولا سيما الأسئلة التي كنت ألقها عليها أنا • ذلك أنني قد ارتكبت حماقة فتكلمت باللهجة القامية التي ينبغي أن يتكلم بها رب أسرة ! نبأ لي ! لقد كنت أحمق غيياً) أقول أن نسمع هذه الشيطانة الصغيرة تذكر تفسيراً لا يدور بخلد أحد ، تذكره باللهجة باردة وهيئة ساخرة ، فتقول : « ان تلك » المجنونة » (تلك هي الكلمة التي استعملتها ، وقد أدهشني أن اسمك تكرر جملتها نفسها) • • • كيف لم تستطيعوا أن تلاحظوا ذلك من قبل ؟ - ان تلك « المجنونة » قد وضعت في رأسها أن تجعلني أنزوج الأمير ليون نيقولايفتش مهما كلف الأمر ، وذلك هو السبب في أنها تحاول اجلاء أوجين بافلوفتش عن بيتنا • ذلك هو كل ما قالته • ثم انفجرت ضاحكة ضحكاً مجلجلاً قبل ان تضيف أية شروح أخرى • ففترت أفواهنا من شدة الذهول ، وخرجت هي صافقة باب الغرفة صفاً قوياً • ثم روى لي الحادث الذي وقع اليوم بينها وبينك ، و • • • و اسمع يا صديقي العزيز ، ما أنت بالرجل الذي يتأذى بسرعة ، بل أنت رجل عاقل رصين

كما لاحظتُ أنا ذلك ، ولكن لا تزعل اذا قلت لك انها تضحك عليك .
يمينا انها تضحك عليك ! تضحك عليك ضحك طفلة ، فما ينبغي لك أن
تأخذها وأن تحمل لها مودةً وضغناً . ولكن الأمر هو كذلك .
لا يذهبن بك الحيال بعيداً . انها تسلى بك كما تسلى بنا نحن أيضاً ،
ترجيةً للوقت ومثلًا للفراغ لا أكثر . هيّا ، الى اللقاء ! انك تعرف
عواطفنا نحوك . وتعرف مدى صدقها . وهي ثابتة لن يثربها شيء . . .
ولكن يجب على أن ادخل هنا . ندر أن كنت في حياتي معتكز المزاج
(أهذا هو التعبير المستعمل ؟) كما كنت اليوم . يا له من اصطيف !

بقى الأمير وحده في المنعطف ، ثم ألقى نظرةً حوالية ، وأسرع
يقطع شارعاً فيقترب من نافذة مضادة باحدى القللات ، فيفرض هنالك
ورقة صغيرة ظل قابضاً عليها قبضاً قوياً بيده اليمنى طوال مدة الحديث
الذي جرى بينه وبين ايفان فيدوروفتش ؛ فيقرأ عليها في الضوء الضعيف
الحارج من تلك النافذة ، ما يلي :

« غداً ، في الساعة السابعة من الصباح ، سأكون على الدكة
الحضراء في الحديقة ، وسأنتظرك . لقد قررت أن أحدثك في أمر هام
جداً ، يتعلق بك مباشرة » .

« حاشية : آمل أن لا تطلع على هذه الرسالة أحداً . لقد شعرت
بشيء من تأنيب الضمير وأنا أسطر لك هذه التوصية بالكتمان ، ولكن اذا
فكرنا في الأمر ملياً وجدنا أنك تستحقها . وحين أضفتها تصورت طبعك
المضحك ، فاحمر وجهي شعوراً بالحجل .

« حاشية ثانية : هي تلك الدكة نفسها التي أريتك اياها منذ قليل .
لا بد أن تشمر بالحزى من اضطراري الى التوضيح والتحديد مرة
أخرى » .

كانت الرسالة قد كُتبت على عجل ، وطُويت باهمال ، قبل نزول
آجلايا الى الشرفة بلحظة قصيرة فى أغلب الظن .

شعر الأمير بانفعال عارم عنيف لا يغالِب ، انفعال يشبه أن يكون
جزعاً ؟ ثم قبض على الورقة الصغيرة بيده قبضاً قوياً من جديد ، وابتعد
عن النافذة المضاء متعجلاً تعجلَ لصق فاجأه أحد . ولكن هذه الحركة
المباغتة القته الى سيد كان وراءه تملأ .

قال هذا السيد :

- اننى أرقبك وأرصدك يا أمير .

فهتف الأمير يقول مدهوشاً :

- أهذا أنت يا كيللر ؟

- كنت أبحث عنك يا أمير . انتظرتك عند حواف فيلا أسرة
ايباتشين ، التى لا أستطيع دخولها طبعاً . وتابعتك خطوة خطوة أثب
سيرك مع الجنرال . أنا رهن أوامرك يا أمير . لك أن تتصرف بى كما
تشاء . اننى مستعد أن أضحي بنفسي ، بل وأن أموت اذا لزم الأمر .

- ولكن ... لماذا ؟

- لأن مبارزة ستحدث حتماً ! ان هذا الليوتان مولوفستوف ، وأنا
أعرفه ... لا معرفة شخصية ... لن يبلغ الاهانة . وهو ينظر الى أمثال
روجوين وأمثالى نظراته الى أوغاد طبعاً ، ولمه فى هذا على حق ؛ فستكون
أنت المسئول تجاهه اذن . لا بد من دفع الثمن يا أمير . وقد سمعت أنه
استعلم عنك ، ولا بد أن يجيئك فى الغد أحد من أصدقائه ، هذا اذا لم
يكن فى انتظارك بمنزلك منذ الآن . فاذا شرقتى باختيارى شاهداً ،

فاننى مستعد حتى لتحمل خطر السجن • من أجل أن أقول لك هذا انما
بحث عنك يا أمير •

صاح الأمير يقول وهو ينفجر مقهقها ، على دهشة شديدة من كيللر :

- أأنت أيضاً تجيء تحدثنى عن مبارزة ؟

وبلغ من شدة الضحك أنه أمسك أضلاع صدره • أما كيللر الذى
بدا عليه أنه كان كالواقف على رموس الابن ما لم يقم بواجبه فيعرض على
الأمير أن يختاره شاهداً ، فانه كاد يشعر بأنه يُهان بهذا الضحك القزير
من الأمير •

- تذكر يا أمير أنك قد قبضت على ذراعيه فى أصيل هذا اليوم ؟
ما من رجل شريف يمكن أن يحتمل هذا ، ولا سيما اذا حدث على مرأى
من الناس •

صاح الأمير يقول وهو ما يزال يضحك :

- ولكنه لكننى فى صدرى لكمة قوية • ولا داعى الى أن نقتل ،
فسأعذر له فينتهى كل شيء • واذا كان لا بد من الاقتال فسوف نقتل !
ألا فيلجأ الى السلاح • أنا لا أطلب خيراً من هذا • ها ها ! اننى أعرف
الآن كيف أحشو مسدساً • تصور أننى علّمت هذا منذ برهة ! هل
تجيد حشو مسدس يا كيللر ؟ يجب أولاً شراء بارود من بارود
المسدسات ، أى بارود لا يكون رطباً بل جافاً ، ولا يكون كبيراً كالبارود
الذى يُستعمل فى حشو المدافع • فاذا اشتريت البارود وضعته فى ماسورة
المسدس قبل كل شيء ، ثم انتزعت لباداً من ايزيم أحد الأبواب ، ثم
وضعت الرصاصة بعد اللباد • حذار أن تضع الرصاصة قبل البارود ،
لأن الرصاصة لن تنطلق عندئذ • هل فهمت يا كيللر ؟ الرصاصة لن

تطلق ... ها ها ! ... أليس هذا سيباً رائعاً يا صديقي كيللر ؟ آ ...
كيللر ، هل تعلم انتى سأقبلك فوراً ؟ ها ها ها ! كيف تصرفت حتى
استطعت أن تصل اليه فتقف أمامه فجأة ؟ تعال اشرب عندى شمبانيا متى
استطعت • سنسكر بشمبانيا ! هل تعلم أن عندى اثنتى عشرة زجاجة
فى قبو ليديف ؟ لقد عرضها على أمس الأول بسعر قال انه « فرصة » ،
فاشتريتها منه كلها • حدث هذا غداة وصولى • لسوف أجمع حفلاً
بكامله ! قل لى : هل ستنام هذه الليلة ؟

— كالعادة يا أمير •

— أتمنى لك اذن أحلاماً جميلة ! ها ها ! ...

وقطع الأمير الشارع ، وغاب فى الحديقة ، تاركاً كيللر فى حيرة
وبلبلة وشيء من خيبة الأمل • ان كيللر لم يسبق له أن رأى الأمير فى
حالة نفسية كهذه الحالة غريبة ، لا ولا كان فى وسعه أن يتخيه فى هذه
الصورة !

قال كيللر يحدث نفسه : « لعله مصاب بحمى » فانه رجل عصبى
قد أثرت فيه هذه الأحداث كلها ، ولكنه لن يخاف حتماً ! يا الهى ! ان
أمثال هذا الانسان لا يهابون • هم ... شمبانيا ! هذا خبر مثاق • اثنتا
عشرة زجاجة ! دنته زجاجات ! مثونة محترمة • أراهن أن ليديف قد
أخذها من أحد الذين يقترضون منه مالاً على رهن • هم ... الحق
أنه لطيف ، هذا الأمير • يميناً انه نوع الرجل الذى يعجبني • على كل
حال ، ليس هذا أوان التردد ... فاذا كان هناك شمبانيا ، فيجب انتهاز
الفرصة ... •

لقد كان صحيحاً فى الواقع أن الأمير كان فى حالة قريبة من
الحمى •

ظل يطوّف مدة طويلة في ظلمات الحديقة ، واكتشف أخيراً أنه
يذرع ممرّاً من ممرات الحديقة بين الأشجار . شعر أنه قد قطع هذا
الممر ثلاثين أو أربعين مرة بين الدكة وبين شجرة قديمة مرتفعة يسهل
تعرفها تقع على بعد مائة خطوة . أما أن يتذكر فيم كان يفكر أثناء هذا
التجوال الذي دام ساعة على الأقل ، فلقد كان يستحيل عليه ذلك ولو
أراد . ثم انه قد اهتدى الى فكرة سرعان ما جعلته ينفجر ضاحكاً على
حين فجأة . ولم يكن في الفكرة ما يضحك مع ذلك ، غير أن كل شيء
كان يثير فيه الضحك الشديد . خطر بباله أن افترض تشوب مارزة
ربما نبت في رموس أخرى غير رأس كيللر ، وأن الدرس الذي ألقى
عليه في طريقة حشو المسدس لم يكن اذن ثمرة مصادفة . قال يحدث
نفسه فجأة وهو يتوقف كأنما باقنته فكرة أخرى : « عجيب ! منذ قليل ،
حين نزلت الى الشرفة ووجدتني في ذلك الركن أذهلها أن ترائي هناك .
وابتسمت ... وكلمتني عن الشاي . ولكن الرسالة كانت مع ذلك
في يدها . هذا دليل قاطع على أنها لم تكن تشك في أنني هناك ، على
الشرفة . فما الذي أدهشها اذن ؟ ها ها ها ! ... »

واستلّ الرسالة من جيبه فقبلها ، ولكنه سرعان ما توقف وشرّد
فكره ثانية وقال يحدث نفسه بعد دقيقة بلهجة فيها ألم : « أمر غريب
جداً ، نعم ، غريب جداً » . انه في لحظات الفرح الشديد يشعر دائماً
بالحزن يحتاج قلبه ، لا يدرى هو نفسه لماذا !

وألقي حواليه نظرة متحيرة ، وأدهشه أن يكون قد جاء الى هذا
المكان . وشعرت بتعب شديد واعياء قوى ، فاقرب من الدكة وجلس
عليها . كان يرين على الجوّ حوله صمت عميق . ان الموسيقى قد انقطعت
في الفوكسهول . ولعل الحديقة كلها خلت من كل انسان . الليل ساج
هادئ رطب مضيء . هي ليلة من ليالى بطرسبرج في شهر حزيران

(يونيه) • غير أن الحديقة الكثيفة الظليلة في ممر الأشجار الذي كان هو فيه ، كانت تامة الظلمة تقريباً •

لو قال له أحد في تلك اللحظة انه عاشق ، وانه موله ، لرفض هذه الفكرة مذهولاً مشدوهاً ، وربما مستكراً مستاءً • ولو أضاف أحد الى ذلك أن الرسالة الصغيرة التي كتبها له أجلايا هي رسالة غرام ودعوة الى لقاء غرامى ، لاحمر خجلاً عن صاحب مثل هذا الافتراض ، وربما دعاه الى مبارزة • كان صادقاً في هذا كل الصدق ، وانه لم يراوده فيه شك واحد يوماً من الأيام ، ولا ساوره أى لبس في أن تحبه هذه الفتاة بل وفي أن يحبها هو نفسه • فلو خطرت بباله فكرة كهذه الفكرة للأنه شعوراً بالخرى : لقد كان يرى أن احتمال أن تحب فتاة « رجلاً مثله » شئ شاذ غريب • وكل ما يمكن أن تشتمل عليه هذه القضية من واقع لا يبدو أن يكون « شيطنة » من الفتاة ، وهي « شيطنة » كان الأمير يقبلها غير مكترث ولا عابئ • لأنه كان يراها من طبيعة الأمور فما ينبغي أن يهتز لها أو أن تثير فيه أى انفعال • وكانت مشاغله وهمومه منصبه على موضوع آخر مختلف كل الاختلاف • لقد صدّق الجنرال تصديقاً كاملاً حين كشف له الجنرال بأقواله عرضاً أثناء الانفعال أنها تضحك على الجميع ، وتضحك عليه هو خاصة ، الأمير • لم يجرح شعوره هذا الكلام ولم يؤلمه أى ايلام • كان في رأيه أن الأمر لا يمكن أن يكون غير هذا الشئ الأساسي في نظره الآن هو أنه في الصباح الباكر من الغد سوف يراها الى جانبته على هذه الدكة الخضراء ، وسوف يتأملها مصناً الى ما ستقوله عن طريقة تعبئة المسدسات • ولم يكن في حاجة الى أكثر من هذا • مرة أو مرتين تصال عن الموضوع الذي تريد أن تكلمه فيه ، وعن تلك المسألة الهامة التي تعنيه مباشرة ما عساها تكون ؟ على أنه لم

يراوده في لحظة من اللحظات أي^٢ شك في حقيقة هذه القضية « الهامة »
التي ضربت له موعداً من أجلها • ولكنه لا يكاد يفكر الآن في هذا
الأمر ، ولا كان يفريه أن يثلبت عليه بذهنه •

وهذا وقع خطور بطيء على الرمل في المر بين الأشجار يجعله
يرفع راسه • وهذ رجل يصعب تمييز قسماات وجهه في انظلام يقترب
منه ويجلس الى جانبه •

مال الأمير على الرجل ، حتى كاد يلمسه ، فاذا هو يرى وجه
روجوين أصفر شاحباً •

جمعهم روجوين يقول من بين أسنانه :

— قدرت أنك تحوم ههنا في مكان ما •

هذه اول مرة يلتقيان فيها منذ لقائهما الأخير في دهلز الفندق •
وقد بلغ الأمير من ادهشة لظهور روجوين المباشت الذي لم يكن في
البال أنه لبث مدة من الوقت ثارد اللب لا يستطيع أن يثوب الى رشده •
ان احساساً كاوياً قد شب قوياً في قلبه • وأدرك روجوين الأثر الذي
أحدثه في الأمير • ورغم أنه بدا في أول الأمر مضطرباً ، فقد تكلم بيسر
كأنه مصطنع ، سكن الأمير لم يلبث أن لاحظ أن الأمر ليس اضطراباً
ولا اصطناعاً • ولئن كان في حركاته وفي حديثه خراقة ، فان ذلك ليس
الا مظهرأ ، أما في قرارة نفسه فان هذا الرجل لا يمكن أن يكون قد تغير •

سأله الأمير ليقول شيئاً ما :

— كيف أمكنت أن تكتشفني ... هنا ؟

— أعلمني كيلر قائلاً : « ذهب الى الحديقة » (مررت ببيتك) ،

فقلت لنفسي : هذا حسن • نلت المطلوب •

- ماذا تعنى بقولك : « نلت المطلوب » ؟

كذلك سأله الأمير فى قلق .

فابتسم روجوين ابتسامة مأكرة ، ونهرّب من الشرح ، قائلاً :

- تلقيت رسالتك يا ليون نيقولايفتش . لا فائدة من تكليف نفسك

هذا العذاب كله . . . فى غير طائل . أنا الآن آت اليك رسولاً منها .

انها تطلب منك أن تذهب اليها حتماً . هناك شيء مستعجل تريد أن تقوله

لك . حتى انها تنتظرك فى هذا اليوم نفسه .

- سأذهب اليها غداً . أنا الآن عائد الى البيت فوراً . هل

تجىء . . . معى ؟

- علام أجيء معك ؟ لقد قلت لك كل شيء . استودعك الله .

سأله الأمير فى رفق :

- ألن تجىء اذن ؟

- انك لرجل عجيب يا ليون نيقولايفتش . لا يملك المرء الا أن

يجدك باعثاً على الدهشة والاستغراب .

قال روجوين ذلك وابتسم ابتسامة مأكرة .

سأله الأمير بحرارة ، ولكن بشيء من الحزن أيضاً :

- لماذا هذا الكلام ؟ من أين جاءتك هذه العداوة لى الآن ؟ لماذا

تبغضنى هذا البغض كله ؟ هأنت ذا ترى أن جميع تخميناتك كانت

لا تقوم على أساس . على اننى كنت أقدر أن كرهك لى لم ينقض ، وهل

تدرى لماذا ؟ لأنك حاولت قتلى . ذلك هو السبب فى أن مقتك باق

لا يزول . أما أنا فأقول لك اننى لا أعرف الا بارفيون روجوين واحداً ،

هو ذلك الذى تأخيت معه فى ذلك اليوم حين تبادلنا صليينا . لقد كتبت

للك هذا فى الرسالة التى بعثتها اليك أمس من أجل أن تسمى حتى لحظة الهذيان تلك ، فما تكلمنى عنها بعد الآن قط . لماذا تبتعد عني ؟ لماذا تخبىء يدك ؟ أكرر لك أنتى أرى أن ما حدث فى المرة الماضية لم يكن الا لحظة جنون وهذيان . انتى أقرأ فى نفسك الآن كل ما جرى ذلك اليوم كأننى أقرأ فى ذات نفسى . ان ما تخيلته لم يوجد ولا كان يمكن أن يوجد . فلماذا العداوة بيننا اذن ؟

قال روجوين ضاحكاً ساخراً من جديد ، فى الجواب على الكلمات الحارة التى انطلقت من الأمير عفواً الحاطر بلا تصنع :

- ولكن أنت قادر على أن يكون فى نفسك عداوة ؟

وكان روجوين يقف على بعد خطوتين من الأمير ، مخفياً يديه حقاً . وأضاف يقول ، ختاماً للحديث ، بلهجة بطيئة رصينة :

- أصبح يستحيل على استحالة تامة بعد الآن أن اختلف اليك يا ليون نيقولايفتش .

- أتكرهنى اذن الى هذا الحد ؟

- لا أحبك يا ليون نيقولايفتش . فعلام اختلف اليك ؟ هيه يا أمير . . . ان لك من الطفل كل صفاته . اذا أراد لعبة أرادها فوراً ، ولكنه لا يفهم من أمرها شيئاً . ان كل ما تقوله لى الآن قد كتبه أمس فى رسالتك كما هو ، ولكن أنا لا أصدّقك ؟ بلى ! انتى أصدّق كل كلمة من كلماتك . انتى أعلم أنك لم تخدعنى فى يوم من الأيام ، وأنت لى تخدعنى أبداً . ومع ذلك لا أحبك . لقد كتبت لى أنك نسيت كل شيء ، وأنت تتذكر روجوين الذى بادلكه صلييك ، لا روجوين الذى أشهر عليك خنجرأ . ولكن من أين تعرف عواطفى ؟ (قال ذلك وضحك

ضحكة ساخرة من جديد) لعلى منذ ذلك اليوم لم أشعر بالندم على فعلتي مرة واحدة ، بينما أنت أرسلت الى غفرانك الأخوى . ولعلنى في مساء ذلك اليوم نفسه قد انصرف فكري الى شيء آخر تماماً و ...

- نسيت ذلك الأمر ...

بهذا أكمل له الأمير جملته وأردف يقول :

- أقدر هذا ! بل اننى لأراهن على أنك ذهبت توأ الى المحطة فركبت القطار الى بافلوفسك ، وجئت تسمع الموسيقى ، وتبعتها وتجلست عليها في الجمهور ، كما فعلت اليوم . أتظن أنك أدعشتني ؟ ولكن لولا أنك كنت عندئذ في حالة نسيية لا تسمح لك أن تفكر الا في شيء واحد ، لكان من الجائز أن لا تشهر على خنجرك ... لقد أوجست ما ستقدم عليه من فملة منذ الصباح ، حين رأيت وجهك ؟ أتعرف ما الذي كان يلوح في هيتك ؟ لعل هذه الفكرة قد ومضت في ذهني لحظة تبادلنا فيها صليبتنا . لماذا أخذتني في تلك اللحظة الى أمك المجوز ؟ هل كنت تأمل أن توقف بذلك ذراعك ؟ لا ، لا يمكن أن يكون هذا ما خطر ببالك . أنك متى قد أحسست احساساً فحسب ... لقد احسنا احساساً واحداً . لولا أنك أشهرت على يدك (والله هو الذي حوّلها) أكان يمكنني أن أحتمل اليوم نظرتك ؟ لقد اشتبهت فيك ، ومعنى ذلك أننا ارتكبنا كلانا اثم الريبة (لا تقطب حاجبيك ! لماذا تضحك ؟) . تقول أنك لم تندم . ألا أنك ما كنت لتستطيع أن تندم ولو أردت ، لأنك لا تحبني ، زيادة على ذلك ! حتى لو كنت ازامك بريثاً كملاك ، لما أمكنك أن تطبق احتمالي ، وستبقى على هذه الحال ما ظلت تظن أنها لا تحبك أنت بل تحبني أنا . هذا غيرة . ولكن اليك الفكرة التي شغلت ذهني في خلال هذا الأسبوع والتي أحرص على أن أطلعك عليها يا بارفيون : هل تعلم أنها تحبك الآن

أكثر مما تحب أى انسان آخر ، وأن حبها من نوع يجعلها تحبك مزيداً من الحب كلما عذبتك مزيداً من التعذيب • لن تقول هى هذا فى يوم من الأيام ، ولكن يجب على المرء أن يعرف كيف يفهمه • لماذا تريد أن تتزوجك رغم كل شئ ؟ سوف تكشف لك عن هذا فى ذات يوم • ان بين النساء من يردن أن يحبهن الرجل هذا النوع من الحب • وهى واحدة من هاته النساء • لا شك فى أن طبعك وحبك قد فتناها • هل تعلم أن فى وسع امرأة أن تعذب رجلاً تعذيباً قاسياً ، وأن تتخذه أضحوكة وتجعله موضع سخرية وتهكم ، دون أن يشعر ضميرها من ذلك بأى عذاب ؟ ذلك أنها ، كلما رأته ، تقول لنفسها : « سوف أعذبه الآن تعذيباً قاتلاً » ، ولكننى سأعوضه عن هذا فى المستقبل حباً • • • • •

أصغى روجوين الى كلام الأمير حتى النهاية ، ثم اذا هو ينفجر ضاحكاً ، ويسأله :

— قل لى يا أمير ، أتراك وقعت أنت نفسك على امرأة من هذا النوع؟ هل ما سمعته عنك صحيح ؟

فارتعش الأمير باختلاجة مفاجئة • وسأله :

— ماذا ؟ ماذا سمعت بنى ؟

ووقف وقد استبد به اضطراب هائل •

ظل روجوين يضحك • كان قد أصغى الى كلام الأمير بشئ من حب الاطلاع وربما بشئ من التلذذ : ان ما كان يبدو فى الأمير من مزاج مشرق وحماسة حارة قد أثر فيه تأثيراً قوياً وسرّى عنه كثيراً • قال :

— لم أسمع عنك فقط ، وانما اقتنع الآن وأنا أراك أن ما سمعته هو الحقيقة • هل تكلمت فى لحظة من اللحظات كما تكلمت فى هذه اللحظة ؟

لكأن رجلاً آخر كان يتكلم الآن بلسانك • لولا اننى سمعت عنك شيئاً
من هذا القيل لما جئت الى هنا ساعياً اليك فى الحديقة وقد انتصف الليل •

— لا أفهم البتة يا بارفيون سيميوتشس !

— لقد شرحتُ لى أمرك منذ مدة طويلة ، واستطعت أن أتحقق من
صدق شروحا حين رأيت ، فى هذا اليوم ، المرأة التى كنت جالساً الى
جانبها أثناء سماع الموسيقى • لقد حلفتُ لى أمس واليوم أنك مولّه بحب
آجلايا ايباتشين • وهذا أمر لا يعنينى كثيراً يا أمير ، ولا علاقة له بشأنى •
فلئن أصبحت أنت لا تحبها فانها هى ما تزال تحبك • هل تعلم أنها تريد
أن تزوّجك الأخرى مهما كلف الأمر ؟ لقد حلفت لتفعلن ذلك !
هى • هى • قالت لى : « لن أتزوجك ما لم يتحقق هذا • ويومَ يذهبان
هما الى الكنيسة نذهب نحن أيضاً » • هذا شيء لا أفهمه ولا استطعت أن
أفهمه يوماً : فاما أنها تحبك حباً لا حدود له واما ... ولكن اذا كانت
تحبك فكيف يمكن أن تريد تزويجك امرأة أخرى ؟ ... وهى تقول
أيضاً : « أريد أن أراه سعيداً » • اذن فهى تحبك •

قال الأمير وقد أصغى الى روجوين متألماً :

— قلتُ لك وكتبت انها لا تملك عقلها كاملاً ...

— الله أعلم ! قد تكون مخطئاً فى هذا !... على كل حال ، حين
اصطحبتها اليوم عائدين من سماع الموسيقى ، حدثت لى اليوم قائلة :
« ستزوج حتماً بعد ثلاثة أسابيع ، وربما بعد أقل من ذلك » • حلفت
على ذلك أمام الأيقونة وقبلتها • هكذا يكون الأمر الآن مرهوناً بك
متوقفاً عليك يا أمير • هى • هى • ...

- هذا كله هذيان ! ان ما تنبأ لى به لن يحدث أبداً ، لن يحدث أبداً • سوف أجيء اليك غداً ...

قال روجوين :

- كيف تستطيع أن تقول انها معجونة ؟ لماذا تكون سليمة العقل فى نظر جميع الناس ، وتكون مختلفة فى نظرك وحدك ؟ كيف كان يمكنها أن تكتب رسائل الى هناك ؟ ولو كانت معجونة للوخط ذلك من قراءة رسائلها ؟

سأله الأمير مرتاعاً :

- أية رسائل ؟

- انها تكتب رسائل الى هناك ، الى « الأخرى » ، وهذه تقرأ رسائلها • ألا تعرف هذا ؟ سوف تعرفه اذن • ستريك الرسائل هي نفسها حتماً •

هتف الأمير قائلاً :

- مستحيل تصديق هذا !

- هبه ! أرى يا ليون نيقولا يفتش أنك ما زلت فى بداية الطريق • انتظر قليلاً : لسوف تصل من الأمر الى حيث يصبح لك شرطة خاصة تكلفها بالتجسس ، والى حيث تتولى الحراسة بنفسك نهائياً وليلاً ، فتعرف كل خطوة تتم ، متى ...

صاح الأمير يقول :

- كفى ! ولا تكلمنى فى هذا مرة أخرى أبداً • اسمع يا بارفيون :

قبل وصولك بلحظة ، كنت أطوّف هنا • وفجأة أخذت أضحك ، دون أن أعرف لماذا ! تذكرت أن غداً عيد ميلادى • والليل يوشك الآن أن ينتصف • فتعال انتظر معى صبح هذا اليوم • عندى خمرة ، سوف تشرب • وسوف تمنى لى ما لا أملك أن أتمناه لنفسى فى هذه اللحظة • عنك أنت انما يجب أن يصدر هذا التمنى لى • أما أنا فسوف أتمنى لك السعادة الكاملة • اذا لم تقبل أن تحب معى فهات صليبي ا ردة الى ا انك لم ترجعه الى فى اليوم التالى • أأنت تحمله الآن ؟

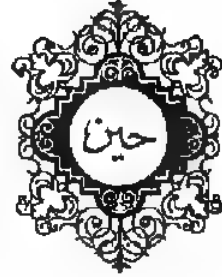
أجاب روجوين :

— نعم أحمله •

— اذن تعال ! لا أريد أن أدخل حياة جديدة بدونك ، وان حياة جديدة لتبدأ بالنسبة الى ! ألا تعلم يا بارفيون أن حياتى الجديدة قد بدأت اليوم ؟

— الآن أرى وأعرف بنفسي أنها بدأت • وسوف أبلغها • هى • ذلك • لست فى حالتك الطبيعية يا ليون بقولا يقتش •

الفصل الرابع



اقرب الأمير بصحبة روجويين من منزله ،
أدهشه أشد الدهشة أن يرى شرفته تسطع بضياء
قوى ويملؤها حفل كبير صاحب • كان الحفل
يزخر نشاطاً وحمامة ، ويضحك متقهقها ،
ويتدفق في الكلام تدفقاً قوياً ، ويتناقش بصرخات عالية • ان المرء ليدرك
من أول لحظة أن الحشد يقضى وقتاً مرحاً • فلما صعد الأمير الى الشرفة
تحقق تقديره ، اذ وجد الجميع يشربون ، بل وجدهم شربون شمبانيا •
ولا بد أن تكون هذه اللحظة قد بدأت منذ وقت غير قصير ، لأن كثيراً من
الحضور كان قد أتبع لهم حتى تلك اللحظة أن ينالوا قسطاً كبيراً من
الانشراح • وكانوا جميعاً من معارف الأمير ، ولكن الغريب في الأمر هو
أن يراهم مجتمعين اجتماع من دُعوا دعوة ، مع أنه لم يوجه أية دعوة ،
فهو لم يتذكر عيد ميلاده الا عرضاً منذ برهة قصيرة •

دمدم روجويين يقول للأمير وهو يتبعه على الشرفة :

— لا بد أنك ذكرت لأحد أنك ستقدم شمبانيا ، فهرعوا على هذا
التحو •

ثم أضاف يقول بلهجة فيها حنق ومرارة ، لأنه تذكر ماضياً غير
بعيد في أغلب الظن :

— نحن نعرف هذا ! يكفي أن تصفر لهم ...

أسرع الجمع كله يحيط بالأمير بعد أن استقبله بصيحات وتمنيات • وكان بعض الضيوف مسرفين في الصخب ، وكان بعضهم الآخر أهدأ كثيراً • ولكن ما إن عُرف أن اليوم عيد ميلاد الأمير حتى اقتربوا منه يهشونه واحداً بعد واحد بكثير من الحرارة • وقد تعجب الأمير من حضور بعض الأشخاص ، من حضور بوردوفسكى مثلاً • غير أن ما أدهشه أكثر من أى شيء آخر هو أن يجد أوجين بافلوفتش في صحبة مثل هذا الحشد • حتى أنه لم يكذب يصدق عينيه ، وانتابه ما يشبه الذعر حين تعرفه •

وفي هذه الأثناء ، هرع ليديف ، وكان شديد احمرار الوجه بل قل كان مشتعل الوجه ، هرع يشرح الأمور ، وكان قد سكر بعض السكر • فقال إن هذا المللأ كله قد اجتمع شمله على نحو طبيعي تماماً ، بل وبمصادفة • فكان هيبوليت أول الوافدين ، لأنه وصل في بداية المساء • انه وقد شعر بتحسن كبير في حالة صحته ، واذ أراد أن ينتظر الأمير في الشرفة ، قد اضطجع على ديوان • ثم التحق به ليديف الذي لم يلبث أن تبعته أسرته كلها أو قل بناته والجنرال ايفولجين • أما بوردوفسكى فقد وصل مع هيبوليت وكان يصحبه • ومررت جانبا مع بتسين بالفيلا فدخلا ، منذ مدة قصيرة فيما يبدو ، (دخلا في الوقت الذي كان يقع فيه حادث الفوكسهول) • وبعد ذلك ظهر كيلر ، فأعلن أن اليوم عيد ميلاد الأمير ، وطالب بشمبانيا • أما أوجين بافلوفتش فإنه لم يحضر الا منذ نصف ساعة • وقد ألح كولا ، بكل ما أوتى من قوة ، على ضرورة تقديم الشمبانيا واقامة احتفال • فأسرع ليديف يأتى بالحمر •

قال ليديف مخاطب الأمير :

— ولكن هذه خموتى أنا • أنا أتحمل النفقات ، لأحتفل بعيد ميلادك

ولأهنتك • وسنولم كذلك وليمة صغيرة ، ستقدم عشاء بارداً • ان بتنى
تهبىء العشاء • آ • • • يا أمير • • • لبتك تعرف الموضوع الذى كنا
تناقض فيه • هل تذكر جملة هاملت هذه : « تكون أو لا تكون » ٩ انه
لموضوع عصرى ، عصرى جداً ! أسئلة وأجوبة • • • والسيد تيرتيف
ممتلئ بالنشاط زآخر بالحلمة • • • لا يريد أن يرقد ! على أنه لم يشرب
الا جرعة شعبانيا واحدة ، جرعة واحدة ، هذا لا يمكن أن يؤذيه • • •
اقرب يا أمير ، واحسم المناقشة ! ان الجميع ينتظرونك ، ان الجميع
ينتظرونك ، ان الجميع يعتمدون على ثاقب بصرك ، وسديد رأيك • • •

ولاحظ الأمير النظرة العذبة الملائكة التى كانت تلقىها عليه فيرا
ليديف وهى تشق لنفسها طريقاً من أجل أن تصل اليه • فكانت أول من
مد الأمير اليه يده • فاحمرت سروراً وهنأته بعيد ميلاده متمنية له حياة
سعيدة « منذ هذا اليوم » • ثم أسرعتمضى الى المطبخ حيث كانت تهبىء
وجبة الطعام الخفيفة • ولكنها كانت ، حتى قبل عودة الأمير ، تجبىء الى
الشرقة ، متى سنحت لها أول فرصة للتحرر من انشغالها بتهيئة الطعام ،
وذلك لتصنى بكل سمعها الى المناقشة الحامية التى تدور بين الضيوف الى
غير نهاية بعد أن أهاجتهم الحمرة ، والتى كانت تتناول مسائل مجردة الى
أبعد حدود التجريد ، غريبة عن الفتاة الى أقصى درجات الغرابة • وكانت
أختها الصغرى قد نامت فى الغرفة المجاورة ، فاعرة الفم جالسة على
صندوق • أما الصبى ابن ليديف ، فقد بقى قرب كوليأ وهيبوليت • فإذا
رأى الرأى وجهه أدرك أن الصبى مستعد لأن يبقى جالساً فى مكانه دون
حرك ، عشر ساعات متالية ، مستمتعاً بالحديث •

قال هيبوليت للأمير حين تناول الأمير يده بعد مصافحة فيرا فوراً :
- كنت انتظرلك على أحر من الجمر ، ويسرنى جداً أن أراك سعيداً
هذه السعادة كلها •

- وكيف عرفت ابني « سعيد » ؟

- يرى المرء هذا في وجهك • سلّم على هؤلاء السادة ثم تعال
اجلس هنا ، قريباً منا ، بسرعة •

وكرر يقول ، ضاعطاً على هذه الجملة ضغطاً ذا دلالة :

- انتظرتك على أحر من الجمر !

سأله الأمير أليس خطراً على صحته ان يسهر الى مثل هذه الساعة
المتأخرة من الليل ، فأجابه بأنه يستغرب هو نفسه أنه لم يشعر يوماً بمثل
ما يشعر به في هذا المساء من تحسن في صحته ، بينما كان منذ ثلاثة أيام
على شفا الموت •

نهض بوردوفسكى فجأة ، فمضم يقول انه جاء « هكذا » ، « مصطحباً »
هيبوليت • وانه سعيد برؤية الأمير • وانه كتب في رسالته « مخافات
وحماقات » ولكن يسعد الان حقاً أن ... لكنه لم يكمل جملته ، وشدّ
على يد الأمير مصافحاً بقوة ، ثم جلس •

حتى اذا فرغ الأمير من تحية الجميع ، اقترب من أوجين بافلوفتش ،
فسرعان ما أمسكه هذا من ذراعه وقال له هامساً :

- أريد أن أقول لك كلمتين ... كلمتين لا أكثر • الأمر أمر
حادث هام جداً • فلتنفرد دقيقة •

وهمس في الأذن الأخرى من أذني الأمير صوت آخر ، بينما أمسكته
يد ثانية من ذراعه الثانية :

- أريد أن أقول لك كلمتين •

فما كان أشد دهشة الأمير حين التفت فرأى أمامه وجهاً مشعثاً ،
أحمر ، ضاحكاً ، مكثراً ، سرعان ما عرفه الأمير : انه فردتشنسكو ،
لا بدري أحد من أين انبجس !

سأله فردشتشكو :

- هل تتذكر فردشتشكو ؟

وصاح كيلر الذى أسرع يقرب منهما ، صاح يقول :

- انه نادم • لقد كان مخبئاً لأنه لم يشأ أن يظهر أمامك • كان مخبئاً هناك ، فى ركن • انه نادم يا أمير • يشعر بأنه مذنب •
- ولكن ما ذنبه ؟

- أنا لقيته يا أمير ، فجئت به فوراً • انه من خيرة اصداقائى •
لكنه نادم •

قال الأمير أخيراً ليتخلص منهما :

- تشرفت بحضوركما يا سيدى ! اتخذنا لكما مكاناً بين الحفل •
كان الأمير يستعجل التحدث مع أوجين بافلوفتش •
قال أوجين بافلوفتش :

- يتبهج المرء فى بيتك • لقد قضيت فى انتظارك نصف ساعة ، فكان وقتاً ممتعاً • اليك المسألة يا صديقى العزيز جداً ليون نيقولايفتش • لقد رتبت كل شيء مع كورمشفيف ، فجئت أطمئنت وأهدىء بالث • لا تقلق •
لقد نظر الى الأمر نظرة فيها كثير من التعقل • لا سيما وأنه ، فى رأى ،
كان هو المخطئ •

- من هو كورمشفيف هذا ؟

- عجيب هو ذلك الذى أمسكت ذراعيه من خلف فى الحديقة العامة لقد بلغ من الغضب أنه كان يريد أن يرسل اليك فى القدر شهوده يطلبون منك الاستعداد للمبارزة •
- هيأ دمعك من هذه السخافة !

- هي مخافة طبعاً ... ولا شك أن الأمر كان سينتهي نهاية سيئة
... غير أن بلادنا فيها أناس من هذا النوع ...
- أترك قد أثبت لغرض آخر يا أوجين بافلوفتش ؟
قال أوجين بافلوفتش ضاحكاً :

- آ ... طبعاً ! هناك غرض آخر + غداً يا عزيزى الأمير ، عند
مطلع الصبح ، سأسافر الى بطرسبرج بسبب تلك الحكاية المشؤمة (قضية
عمى ، هل تتذكر ؟) + تصوّر أن كل ما قيل صحيح فعلاً ، وأن جميع
الناس كانوا يعترفون إلا أنا + وقد بلغت من الاضطراب للأمر أننى لم
يتسع وقتى حتى للذهاب الى « هناك » (الى أسرة ايباتشين) ، لا ولن
أستطيع ذلك غداً ، لأننى سأكون غداً ببطرسبرج + هل تفهم ؟ وقد لا أعود
من بطرسبرج الا بعد ثلاثة أيام + لا أريد أن أبلغ فى تقدير خطورة
الحادث ولا أن أضخم شأنه ، ومع ذلك رأيت أن على أن أصرحك فى
الأمر صادقاً تون مزيد من الارجاء والتأجيل ، أى أن أصرحك فى الأمر
قبل سفرى + اذا سمحت لى فسأبقى الآن هنا أنتظر انصراف الناس +
وليس هناك شئ يفضل هذا الانتظار عندى ، لأننى مضطرب اضطراباً
شديداً فلا سبيل لى الى نوم + الخلاصة أننى ، رغم ما يشتمل عليه هذا
التسبب بأحد الناس من مجافاة لمباقة والكياسة والأدب ، أقول لك بصراحة
أننى انما جئت اليك ملتصقاً صداقتك يا عزيزى الأمير + انك انسان
لا نظير له ، بمعنى أنك لا تكذب فى كل لحظة وربما كنت لا تكذب فى
أية لحظة + وهناك قضية أحتاج فيها الى صديق صادق وناصح أمين ، فأنا
الآن فى عداد الأشقياء فعلاً ...

وأخذ يضحك من جديد

قال الأمير بعد دقيقة من تفكير :

- ليس هناك الا مزعج واحد : انك تريد انتظار انصرفهم ، ولكن لا يعلم الا الله متى ينصرفون ! أفليس الأفضل أن نضى الآن الى الحديقة العامة ؟ سوف يتظفروننى حتماً ، فأعذر لهم •

- لا ، لا ، هناك أسباب تجعلنى أحب أن لا ينتبهوا الى اننى أبغى اجراء حديث غير عادى معك • ان بين هؤلاء الناس أفراداً يهتمون بالعلاقات بيننا اهتماماً شديداً ، ألا تعرف ذلك يا أمير ؟ فالأفضل كثيراً أن يلاحظوا أن علاقتنا هى أطيّب العلاقات لا فى الظروف الاستثنائية فحسب ، بل فى الحياة الجارية أيضاً ، هل فهمت ؟ سوف ينصرفون بعد نحو ساعتين • وسأشغل من وقتك قرابة عشرين دقيقة ، أو نصف ساعة فى أكثر تقدير •••

- عفوك عفوك ! اننى سعيد بك جداً • ما كنت فى حاجة الى مثل هذا الاعتذار • ثم اننى أحرص على أن أشكر لك أحرّ الشكر كلماتك عن علاقات الصداقة بيننا • هل تعلم أننى يستحيل علىّ استحالة مطلقة فى هذه اللحظة أن أركز انتباهى ؟

دعهم أوجين بافلوفتش يقول وهو يتسم ابتسامة خفيفة :

- هذا واضح ! هذا واضح !

كان أوجين بافلوفتش مرح المزاج جداً فى ذلك المساء •

سأله الأمير مرتعشاً :

- ماذا بك ؟

فتابع أوجين بافلوفتش كلامه دون أن يعيب عن السؤال اجابة مباشرة ، وهو ما يزال يتسم :

- أترك لا تشبهه ، يا عزيزى الأمير ، فى أن لا يكون لزيارتى هذه

من هدف إلا أن أحاصرك وأن استخرج منك بعض المعلومات دون أن يبدو على ذلك ، هه ؟

قال الأمير وقد أخذ يضحك هو أيضاً :

- أما أنك جئت لتحملنى على الكلام فذلك أمر لا ريب فيه البتة ! بل لعلك آليت على نفسك لتسرقن في استغلال سذاجتى • لكننى فى الواقع لا أخشاك • ثم اننى فى هذه اللحظة لا يهمنى هذا الأمر ، هل تصدق ؟ ثم ... لما كنت قبل كل شيء مقتنعاً بأنك انسان ممتاز فسوف تنتهى دائماً ، فى آخر الأمر ، الى أن نصبح صديقين ! لقد أعجبتى كثيراً يا أوجين بافلوفتش • لأنك ... فى رأى ... رجل محترم جداً ... جداً ! ...

قال أوجين بافلوفتش يختم الحديث :

- هياً ... ان التعامل معك ممتع على كل حال ، أياً كان الباعث اليه • سوف أشرب كأساً نخباً صحتك • اننى سعيد جداً بلقائك ... وقطع كلامه يسأله فجأة :

- آ ... هل أقام هذا السيد هيوليت عندك ؟

- نعم •

- أظن أنه لن يموت الآن ، أليس كذلك ؟

- لماذا هذا السؤال ؟

- لا لشيء ! لقد قضيت فى صحبته نصف ساعة ...

ان هيوليت ، الذى كان ينتظر الأمير ، لم يحوّل عينيه ، طوال مدة الحديث الذى جرى بين الرجلين ، لم يحوّل عينيه لا عن الأمير ولا عن أوجين بافلوفتش • فلما عادا نحو المائدة انتعش انتعاشاً محموماً • لقد كان قلقاً ، مهتاجاً احتياجاً شديداً • وكان العرق يلتصق على جبينه كمجبات

اللؤلؤ • وكانت عيناها المتقدتين الزائفتين تعبران عن خوف متصل لا ينقطع ، وعن نوع من نفاق الصبر لا يمكن تحديده • كانت نظراته تنتقل دون هدف من شيء الى آخر ، ومن شخص الى شخص ، دون أن تثبت على أى موضع • ورغم أنه كان حتى ذلك الحين قد شارك مشاركة فعالة فى الحديث الصاخب والمناقشة الحامية التى كانت تدور من حوله ، فلقد كانت حماسته حماسة حمى لا أكثر • وحقيقة الأمر أنه لم يكن منصرفاً الى تلك المناقشة • كان تفكيره متقطعاً مفككاً ، وكان يعبر عن آرائه بلهجة فيها سخر وإهمال ومفارقة • كان لا يكمل جملة ، وينقطع عن الكلام فجأة فى منتصف المناقشة التى يكون قد أثارها هو نفسه بحرارة قبل ذلك بدقيقة واحدة • وقد شعر الأمير بدهشة وأسف حين علم أنهم أباحوا له فى ذلك المساء أن يشرب كأسين من الشمبانيا • فالكأس التى توجد على المائدة أمامه والتى تجرع بعضها كانت هى الكأس الثالثة • ولكن الأمير لم يعلم بهذا الا فيما بعد • أما الآن فإنه لم يكن قادراً على أن يلاحظ أى شيء •

صاح هيبوليت يقول :

— هل تعلم أنتى سعيد جداً بأن يقع عيد ميلادك فى هذا اليوم ؟

— لماذا ؟

— سوف ترى لماذا • اجلس بسرعة الى المائدة • أولاً : لأن جميع أصحابك ... حاضرون • لقد قدّرت أنهم سيحيونك عدداً كبيراً ، وصدق تقديري لأول مرة فى حياتى ! خسارة أنتى لم أعلم بيوم عيد ميلادك من قبل ... فلو علمت لحملت اليك هدية ... ها ها ! ولكن من يدري ؟ قد تكون الهدية فى جيبى ؟ هل مطلع الصبح بعيد ؟

قال بتسعين بعد أن نظر فى ساعته :

- يطلع الفجر بعد ساعتين في أكثر تقدير •

قال أحدهم :

- ولكن ما شأننا والفجر اذا كان في وسعنا أن نستغنى عنه الآن
لنقرأ في الخارج ؟ *

- ذلك أنتى أريد أن أرى قليلاً من شمس • هل نستطيع أن
نشرب نخب الشمس يا أمير ؟ ما رأيك ؟

كان هبوليت يلقي أسئلة بلهجة قاسية ، مخاطباً جميع الناس
مخاطبة فارمن من الفرسان ، كأنه يصدر أوامر • ولكن كان يبدو أنه
هو نفسه لا يلاحظ ذلك ولا يشعر به •

- ليكن ما تشاء ! فلنشرب ! ولكن يجدر بك أن تسكن وتهدأ
يا هبوليت ، أليس كذلك ؟

- أنت تصحني دائماً بأن أمضى أمام يا أمير ، فتعاملني كما تعامل
الطفل مربيته • متى طلعت الشمس وأخذت « تسطع في قبة السماء »
(من قائل هذا البيت من الشعر : « سطعت الشمس في قبة السماء » * ؟
ليس لهذا الكلام معنى ، ولكنه جميل) فعدنذ سوف نرقد يا ليديف ؟
هل الشمس بنوع الحياة ! ما معنى هاتين الكلمتين « بنوع الحياة » في رؤيا
القديس يوحنا ؟ هل سمعت الكلام عن « الكوكب الأفسستى » * يا أمير ؟
- قيل لى ان ليديف يرى أن الكوكب الأفسستى هو شبكة السكك
الحديدية هذه في أوروبا •

فاتفض ليديف وصاح يقول ملوحاً بذراعيه كأنه كان يريد أن
يلجم الضحك الذى انطلق من صدور الجميع :

- ها ... لا ... اسمحوا لى ... اسمحوا لى !

ثم التفت نحو الأمير فجأة فقال له :

- مع هؤلاء السادة ... مع هؤلاء السادة جميعهم .. هناك مسائل لا يمكن أن ... انهم لا يستحقون الا هذا ...
قال ذلك ونقر المائدة نفرتين ، فما كان من هذا الا ضاعف الضحك وفاقم الهرج والمرج .

كانت حالة ليديف في هذا المساء كحالته في كل مساء ، ولكنه كان في هذه المرة أشد حرارة واندفاعاً مما يكون في العادة ، وذلك بسبب تلك المناقشة الطويلة « الفقيهة » التي سبقت . انه في مثل هذه الحال يبدى لمعارضيه ازدياء لا حدود له .

- لا يُستحسن هذا أيها السادة ! لقد اتفقنا منذ نصف ساعة على أن لا تقاطع ولا تضحك حين يكون أحدنا بسبيل الكلام ، وأن نفسح لكل فرد مجال التعبير عن فكره واسمًا كاملاً . وللملحدين أنفسهم بعد ذلك أن يعلنوا اعتراضاتهم اذا حرصوا على ذلك . لقد أقمنا الجنرال رئيساً للمجادلات . فما هذا الذي تعبدون اليه ؟ انكم بهذه الوسيلة تستطيعون أن تجعلوا أي انسان يفتقد تسلسل أفكاره مهما تكن رفيعة سامية عميقة ! ...

صاح الجميع يقولون بصوت واحد :

- ولكن تكلم ، تكلم ! ما من أحد سيمنعك من الكلام !

- تكلم ، ولكن لا تهذر وتستطرد !

سأل أحدهم :

- ما « الكوكب الأضئى » هذا الذي أتيتم على ذكره ؟

فقال الجنرال وقد عاد الى مجلس الرئاسة وقور الهيئة مهيب المنظر :

- لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً البتة !

عندئذ تغمتم كيللر يقول وهو يترحزع على كرسية بحركات قوية ،
وهيئة تم على النسوة والشوق :

— اننى أحب هذه المناقشات وهذه المشاجرات حب العادة !

ثم التفت فجأة الى أوجين بافلوفتش الذى كان جالساً بقربه ،
فقال له :

— موضوعات علمية سياسية • لشد ما يشوقنى ما أقرؤه فى الصحف
من خلاصات عن امجادلات والمناقشات التى تحدث فى مجلس النواب
البريطانى • ليس جوهر هذه المجادلات هو الذى يفتنى (فما أنا
سياسى ، تعلم ذلك) ، وانما تفتنى الطريقة التى يتعامل بها الخطباء ،
والأسلوب الذى يستعملونه فى القيام بدورهم من حيث سياسيون : « ان
الفيكوت النبيل الذى يتخذ مكانه قبالتي • • » ، « ان الكونت النبيل الذى
يشاطرنى رأى • • » ، « ان معارضى النبيل الذى أثار اقتراحه دهشة
أوروبا • • » فهذه العبارات الجميلة كلها ، هذه الروح البرلمانية لدى
شعب حر ، هى ما يسحرنى ويأخذ بلبى ! اننى أتلذذ بهذا يا أمير ! لقد
كنت فى قرارة نفسى فنأنا على الدوام ، أحلف لك يا أوجين بافلوفتش !
صاح جانبا من مكانه قائلاً بلهجة هجومية :

— أنت تستمتع اذن أن طرق السكة الحديدية شر لعين ، وأنها
ستكون السبب فى هلاك الانسانية ، وانها السم الذى سينزل على الأرض
فيلوٲ « ينابيع الحياة » ؟

كان جبريل آرداليونوفتش ، ذلك المساء ، متعشاً ابتعاشاً خاصاً ،
وكان فرح المزاج حتى ليكاد يكون شاعراً بالانتصار والظفر فيما بدا
للأمير • وواضح أن سؤاله لم يكن الا مزحة أراد بها استفزاز ليديف ،
ولكنه لم يلبث أن تحمس هو نفسه •

أجابه ليديف وقد شعر أنه أخرج عن طوره وأنه فى الوقت نفسه
سكران لذه :

— لا ، لا طرق السكة الحديدية ! ان هذه الطرق لا تستطيع بذاتها
أن تلوّث ينبيع الحياة • وانما الشر اللعين هو جملة الحال كله ؟ هو هذه
الروح العلمية العممية التى سيطرت ميولها فى هذه القرون الأخيرة !
سأل أوجين بافلوفتش :

— هل اللعنة محققة أم هى ممكنة فحسب ؟ لا بد لك من معرفة
المقصود هنا على وجه الدقة •

قال ليديف مؤكداً باندفاع وحماسة :

— بل اللعنة محققة !

قال بتسعين مبتسماً :

— لا تندفع يا ليديف ! انك تكون فى الصباح أحسن حالاً وأخلى
بالاً !

قال ليديف يجييه بحرارة وهو يلتفت اليه :

— نعم ، ولكننى فى المساء ، أصرح مقالاً ! أنا فى المساء أكثر مودة ،
وأصدق صدقاً ! أنا فى المساء أبسط وأوضح وأشرف • ولعلنى بهذا
أمنح لكم أن تمطرونى بانتقاداتكم • ولكننى أيها السادة لا أعابى بهذه
الانتقادات • وانى لأتحذركم الآن جميعاً أيها الملاحدة : كيف ستتقنون
العالم ؟ ما هى الطريق السوية التى شققتموها له نحو اسلامة أتم أيضاً ،
يا أيها الصناعيون وأنصار نظام الاشتراك ونظام الأجور وما الى ذلك ؟
بأى شىء ستتقنون العالم ؟ بالتسليف ؟ ما التسليف ؟ الى أين سيؤدى بكم
الاقتراض ؟

قال أوجين بافلوفتش :

- انك شديد الاهتمام بهذه المسائل !

- ورأيت أن من لا يهتم بهذه المسائل ليس الا انساناً تافهاً لا قيمة

له ! نعم يا سيدى !

قال بتسين :

- التسليف يؤدى على الأقل الى التضامن العام ، الى توازن المصالح .

- ولكن لا أكثر من هذا ! ان الأساس الأخلاقى الوحيد الذى تقيم

عليه رأيك هو ارضاء الأنانية الفردية واشباع الحاجات المادية + السلام

الشامل ، والسعادة الجماعية الناشئة عن الحاجة ! اسمع لى أن أسألك :

أليس هذا هو ما يجب أن أفهمه من كلامك أيها السيد العزيز ؟

قال جانبا وقد بدأ يتحمس فملاً :

- ولكن الحاجة المشتركة بين جميع البشر الى أن يعيشوا ويشربوا

ويأكلوا ، وكذلك الاقتناع المطلق العلمى بأن هذه الحاجات لا يمكن

ارضائها الا بالاشتراك الشامل وبالتكافل والتضامن فى المصالح ، ذلك

فيما يبدو لى رأى قادر على أن يكون دعامة و « ينبوع حياة » للانسانية

فى العصور المقبلة .

- ضرورة الشراب والطعام ، أى غريزة البقاء وحدها ...

- ولكن أليست هذه الغريزة شيئاً ؟ انها قانون الانسانية الطبيعى

السوى .

صاح أوجين بافلوفتش فجأة :

- من قال لك هذا ؟ هى قانون ، نعم ، ولكن هذا القانون ليس

سويّاً أو طبعياً أكثر من قانون التدمير ، وحتى تدمير الذات . هل البقاء

هو القانون الطبيعى السوى الوحيد الذى يحكم الانسانية ؟

هتف هيبوليت قائلاً وهو يلتفت بقوة الى جهة أوجين بافلوفتش :

— هيه ! هيه !

وتفرس فيه باهتمام قوى واستطلاع شديد ، ولكنه حين لاحظ أنه يضحك ، أخذ يضحك هو أيضاً ، ثم لكز كولي الذي كان جالساً الى جانبه وعاد يسأله كم الساعة الآن ، حتى لقد شدَّ اليه ساعة الفتى الفضية ونظر في عقربها بشراهة • وتمدد أخيراً على الديوان كأنما ليغيب في غياهب النسيان ، جاعلاً يديه وراء رأسه ، وأخذ يحدث إلى السقف • ولكن ما ان انقضى نصف دقيقة حتى عاد يجلس الى المائدة ، منهضاً صدره ، مصغياً الى هذر ليديف الذى بلغ ذروة الحماسة •

قال ليديف وهو يتهجم بعنف على الرأى المفارق الذى عبّر عنه أوجين بافلوفتش :

— هذه فكرة بارعة ساخرة ، هذه فكرة مثيرة ! ولكنها فكرة صحيحة صادقة ، رغم انك لم تقلها الا فى سيل أن تضرم المناقشة مزيداً من الاضرار • ان رجلاً ربيعاً مثلك ، رجلاً من أبناء المجتمع الراقى ، ضابطاً من سلاح الفرسان (موهوباً على كل حال) لا يستطيع أن يدرك هو نفسه كل ما تشتمل عليه هذه الفكرة من عمق وصواب ! نعم ياسيدى ! ان قانون تدمير الذات وقانون المحافظة على الذات لهما فى هذا العالم قوة واحدة • وسيظل يستعملها الشيطان كليهما للسيطرة على الانسانية خلال زمن لا نعرف له حداً • أتضحكون ؟ ألا تؤمنون بوجود الشيطان ؟ ان انكار وجود الشيطان فكرة فرنسية ، فكرة تافهة ؟ هل تعرفون من هو الشيطان ؟ هل تعرفون اسمه ؟ انكم وأنتم تجهلون حتى اسمه ، تسخرون من صورته ، على غرار فولتير • تضحكون من قدميه المشرومتين ومن ذنبه ومن قرنيه ، وذلك كله من اختراع خيالكم أنتم ، ذلك ان الروح

الشريرة روح ضخمة هائلة لا شأن لها لا بالأقدام المشرومة ولا بالقرون
التي تنسبون لها • ولكن ليست الروح الشريرة موضوعنا الآن •••

صاح هيوليت بسأله وهو ينفجر فجأة فى ضحك متشنج :

- ما يدريك ؟ لعل الشيطان هو موضوعنا الآن !

قال ليديف مؤيداً :

هذه ملاحظة سديدة موحية ! لكننى أكرر أن الأمر ليس هو هذا

الآن • وإنما المسألة هى أن نعلم ألم يصف التطور « ينباع الحياة » ؟

هتف كوليا سائلاً :

- تقصد المواصلات بالسكك الحديدية ؟

- لا ، لا المواصلات بالسكك الحديدية ، أيها الفتى المتهور

الطاش ، بل الاتجاه الذى يمكن أن تعد السكك الحديدية صورة له ،

أو تمثيلاً له ، أو تجسيداً فنياً أن صبح التمييز • أن الناس الآن فى عجلة

من أمرها ، تتحرك هنا وهناك ، وتنخبط وتضج وتصرخ ، وتزاحم

وتتصادم ، وتحت الخطى وتغذ السير ، ندعوى العمل لسعادة الإنسانية !

ان مفكراً معتزلاً لهذا العالم قد ندب حظ ابشر فقال : « أصبحت

الإنسانية مسرقة فى الجلبة والضوضاء ، مفرطة فى الصناعة ، على حطام

الهدوء النفسى والنبهة الروحية » • فأجابه مفكر آخر يطوف هنا وهناك

وشيح بوجهه عن الأول منتصراً متعالياً : « ليكن • ولكن ضجة العربات

التي تحمل الحيز للبشر الجياح قد تكون أفضل من الهدوء النفسى والنبهة

الروحية ! » • أما أنا ، أنا ليديف الحقير ، فأننى لا أؤمن بالعربات التي

تحمل الحيز للبشرية ! لأن هذه العربات ، ان لم تقدها فكرة اخلاقية

روحية ، يمكنها برود وهدوء أن تحرم من حق الحيز الذى تنقله جزءاً

كبيراً من النوع الإنسانى • وقد رأينا هذا فعلاً •••

قال أحدهم معترضاً :

- هل العربات هي التي تستطيع بهدوء وبرود أن تحرم ... ؟
كرر ليديف كلامه قائلاً دون أن يتنازل فيؤلى السؤال أى انتباه :
- لقد رأينا هذا فعلاً . لقد كان مالتوس رجلاً من محبى البشر .
لكن محب البشر هو من أكلة لحوم البشر اذا كان الأساس الأخلاقى
الذى يقف عليه مهتزاً مترنجاً . ناهيك عن غروره ... انه ليكفى أن
تجرح كبرياء أى واحد من محبى البشر هؤلاء الذين لا يحصى عددهم
حتى يكون مستعداً لأن يحرق على الفور أركان الأرض الأربعة ارضاءً
لحفده الصغير ! ... على أننى يجب أن أضيف ، حتى أكون منصفاً غير
متحيز ، أن كل واحد منا ، وأنا فى الطليعة ، مستعد لأن يفعل مثل هذا ،
فلعلنى أكون أول من يحمل حزم الحطب لاضرام النار ، ثم يولى هارباً .
ولكننى أعود فأقول ان المسألة ليست هذه !

- فما هي المسألة اذن ؟

- انه يزعجنا حقاً !

- المسألة هي مسألة حكاية ترجع الى القرون الماضية ، ذلك اننى
مضطر أن أحدثكم عن عهد بعيد . ففى عصرنا هذا ، وفى وطننا الذى
تجبنه ، فيما أرجو ، كما أحبه أنا ... ذلك أننى من جهتى أيتها السادة
مستعد لأن أبذل فى سبيله آخر قطرة من دمنى ...

- طيب طيب ، وبعد ؟

- نعم ... فى وطننا ، كما فى أوروبا ، تنتاب الاسامية مجاعات
عامة شديدة مرة كل ربع قرن فى أكثر تقدير ، اذا صحت الحسابات
وصدقت ذاكرتى ، أى كل خمس وعشرين سنة . لست أناقش صحة
الرقم ، ولكن الواقع الذى أريد أن أقرره هو أن المجاعات نادرة نسبياً .

– نسبياً ؟ تعنى بالنسبة الى ماذا ؟

– بالنسبة الى القرن الثانى عشر ، الى القرون التى سبقته وأعقبته .
ذلك أن المجاعات العامة ، فى ذلك العهد ، كانت تحتاج الانسانية كلَّ
ستين أو كل ثلاث سنين ، على الأقل – هذا ما يشهد به المؤرخون –
حتى ان الانسان فى مثل تلك الظروف كان يعمد الى أكل لحم البشر ،
ولكن خفية . وقد روى طفيلى من ذلك الزمان ، حين دلف الى
الشيخوخة ، روى من تلقاء نفسه ، دون أى ضغط أو اكراه ، أنه فى أثناء
حياته الطويلة التيسية قد قتل وأكل فى السر ستين راهباً وعدة أطفال ،
سته فى أكثر تقدير ، وهو عدد ضئيل بالقياس الى عدد رجال الدين
الذين أكلهم . أما الكبار من غير رجال الدين فيظهر أنه لم يمسس أحداً
منهم فى يوم من الأيام .

هتف الرئيس نفسه يقول بلهجة فيها ما يشبه الاستياء :

– هذا غير ممكن . اتنى كثيراً ما أناقشه وأجاده ابها السادة فى
موضوعات من هذا النوع دائماً . فإذا هو يطالعنى بمثل هذه الأضاليل
التي تقشعر لها الأبدان ، وتُصم منها الأذان . . أشياء لا يمكن أن
يسلم بها العقل !

– يا جنرال ، تذكر حصار كارس * ! وأتم أيها السادة ، اعلموا
ان حكايتى هى الحقيقة صافية . وأضيف من جهنى أن الواقع ، رغم
خضوعه لقوانين ثابتة لا تتغير ، يكاد يكون دائماً صعب التصديق بعيداً عن
المقول . وفى بعض الأحيان ترى الحوادث أبعد عن المقول كلما كان
الصق بالواقع .

سأله السامعون ضاحكين :

– ولكن هل يستطيع امرؤ أن يأكل هكذا ستين راهباً ؟

- انه لم يأكلهم دفعة واحدة بطبيعة الحال . لعله أكلهم خلال خمس عشرة سنة أو عشرين . ففى هذه الحالة يكون الأمر مفهوماً وطبيعياً الى أبعد الحدود . . .

- وطبيعياً أيضاً ؟

- نعم ، طبيعياً !

كذلك أجاب ليديف بسلامة المدعى واصرار المتفقيه . وتابع يقول :

- ثم ان الراهب الكاثوليكي هو بطبيعته انسان يحب التواصل بالكلام ويكثر من الاستطلاع ، فلا أسهل من استدراجه الى غابة أو الى مكان ناء ، ليلقى هنالك المصير الذى وصفته آنفاً . ولست أجد مع ذلك أن عدد الأشخاص المأكولين فيه اسراف ، وأنه يدل على الشراهة .

قال الأمير فجأة :

- ربما كان هذا صحيحاً أيها السادة .

كان قد لزم الصمت حتى ذلك الحين ، وتابع المناقشة دون أن يتدخل فيها . وقد ضحك من كل قلبه مراراً حين أخذ الجميع يضحكون . كان واضحاً أنه لفتن بأن يرى نفسه محاطاً بهذا المرح ، وبكل هذه الضوضاء ، بل وأن يلاحظ أن الضيوف يشربون بهذا الاندفاع كله وهذه الحمياً كلها . كان يمكن أن لا يفتح فمه طوال السهرة ، ولكن خطر بباله فجأة أن يقول كلمة ، ففعل ذلك بجدة ورصانة يلفتان من الشدة أن جميع الضيوف التفتوا نحوه وفي أعينهم نظرات حيرة وتمجب !

- أريد أن أوضح نقطة أيها السادة ، هى كثرة تكرار المعاجات فى الماضى . لقد سمعت عن هذا الأمر أنا أيضاً ، وان كنت لا أعرف التاريخ معرفة جيدة . يبدو لى أن الأمر كان على هذا النحو حقاً . انتهى

أثناء إقامتي في جبال سويسرا قد أعجبت كثيراً بأطلال القصور الاقطاعية القديمة ، القائمة في جنبات الجبال ، فوق صخور وعرة ، على ارتفاع لا يقل عن نصف فرسخ (أى عدة قراسخ سيرا في الطرقات المؤدية اليها) . تعرفون ما القصر : انه جبل من حجارة حقاً . ان بناءه يتطلب عملاً رهيباً ، عملاً لا يتصوره الخيال ، عملاً لا شك في أنه قد قام به جميع أولئك الفقراء الذين كانوا أقتاناً . وكان على هؤلاء ، بالإضافة الى ذلك ، أن يدفعوا انواعاً من الاتوات وأن يعملوا رجال الكهنوت . كيف كانوا يجدون في وقتهم متسعاً لأن يقيموا أود أنفسهم وأن يزرعوا الأرض ؟ لقد كان عددهم في ذلك الزمان أقل من أن يستطيعوا النهوض بتلك الأعباء كلها ، وكان أكثرهم يموتون جوعاً ، لأنهم لا يجدون ما يأكلونه فعلاً . حتى لقد اتفق لي أن تساءلت كيف لم يندثر أولئك السكان كافة ، كيف قاوموا واستطاعوا أن يتحملوا تلك الحياة ؟ فإذا قال ليديف انه حدث في ذلك الزمان أن أكل بعض الناس لحوم بشر ، فصدّقوه لأنه على حق حتماً . ولكني لا أدري لماذا أقحم الرهبان في هذه القضية ، ولا أعلم ما الذي أرادته .

قال جبريل آرداليونوفتش :

— لا شك أنه أراد أن يقول ان المرء في القرن الثاني عشر كان لا يستطيع أن يأكل من البشر الا الرهبان ، لأن الرهبان وحدهم كانت بهم سمعة .

فصاح ليديف يقول :

— هذه ملاحظة رائعة وصحيحة كل الصحة ، ذلك أن صاحبنا لم يمسس أحداً من غير رجال الدين ! لم يأكل رجلاً واحداً من غير رجال الدين وأكل ستين عينة من هؤلاء : هذه واقعة فظيعة ، لها دلالة تاريخية

وقيمة احصائية • هي واقعة من الوقائع التي يستطيع بواسطتها رجل ذكى أن يتصور الماضي تصوراً صحيحاً ، أذ يبرهن بدقة حسابية على أن رجال الكهنوت كانوا فى ذلك الزمان أكثر رخاء وأفضل تغذية من سائر البشر ستين مرة على الأقل ، وربما كانوا أسمن من سائر البشر ستين مرة أيضاً •

صاح بعض الحاضرين يقول وسط انفجارات الضحك :

— ما أشد مبالفتك يا ليديف ، ما أشد مبالفتك !

عاد الأمير يقول سائلاً :

— أنا أسلم بأن لهذه الفكرة دلالة تاريخية ، ولكن ما النى تريد أن تخلص إليه ؟

كان الأمير يتكلم بجديبلغ من الشدة ، ولهجة قبلغ من خلوها من السحرية أو التهكم على ليديف الذى كان يتندر به الحضور كافة ، أن التناقض بين لهجته وبين لهجة الآخرين كان يخرج منه تأثير هزلى مضحك بدون قصد ، حتى لقد أوشك أن يصيح الأمير نفسه محل ضحك واستهزاء ، ولكن الأمير لم ينتبه الى هذا •

همس أوجين بافلوفتش يسأل الأمير :

— ألا ترى يا أمير أنه مجنون ؟ لقد قيل لى ها منذ قليل ان المبل الى مرافعات المحاماة وجلسات المحاكم قد فتن عقله وذهب بصوابه وانه يريد أن يتقدم الى امتحان • اننى أتوقع محاكاة مضحكة لمرافعة يتولاها محام من المحامين !

تابع ليديف كلامه قائلاً بصوت مدو :

— اننى أخلص الى نتيجة ضخمة • ولكن يجب أن نحلل قبل كل شئ الوضع السيکولوجى والقضائى لهذا المجرم • انما نرى أن هذا

المجرم (ولنسسه موكلی ان ششم) ، رغم استحالة عشوره على غذاء آخر ، قد أبدى مراراً ، طوال مدة حياته القريبة ، رغبةً في التوبة وفي العدول عن لحم رجال الدين . وهذا يتجلى واضحاً في وقائع ثابتة : لقد أكل خمسة أطفال أو ستة فيما قبل لنا . صحيح أن هذا الرقم الأخير ضئيل نافه . ولكنه من وجهة نظر أخرى يحمل دلالة بليغة . واضح أن موكلی قد حاصرته نوبات رهيبية من عذاب الضمير (ذلك أنه كان رجلاً متديناً ، رجلاً ذا وجدان ، أستطيع أن أبرهن على ذلك) : فلقد أراد أن يخفف ذنبه ، في حدود الامكان ، فأحلّ محل النظام الغذائي القسام على أكل لحوم رجال الدين نظاماً غذائياً قائماً على أكل لحوم غير رجال الدين : فعل ذلك ست مرات على سبيل التجربة أو المحاولة . فأما أن ما فعله عندئذ كان تجارب أو محاولات ، فذلك أيضاً أمر لا سبيل الى جحوده . ذلك أنه لو كان لا يريد الا أن يبدل قائمة طعامه من باب التنويع ، لما كان لعدد الستة قيمة ! لماذا كان العدد ستة ولم يكن ثلاثين ؟ (اننى هنا أقسم البشر الذين أكلهم نصفين : نصفاً من رجال الدين ونصفاً من غير رجال الدين) . أما اذا كان الأمر أمر تجربة أو محاولة لم يدفعه اليها الا التآلم والجزع من الاعتداء على الدين والاساءة الى الكنيسة ، فان عدد الستة يكون عندئذ معقولاً بل أكثر من معقول . ان ست محاولات يقوم بها لتهدئة ما يعانيه من عذاب الضمير لهي أكثر من كافية ، اذ لا يمكن أن تؤدي الى نتيجة مرضية . أولاً في رأيي لأن الطفل صغير جداً ، أو قولوا هزيل جداً : فلو أكل موكلی أطفالاً بدلاً من أن يأكل رهباناً خلال مدة معينة لكان عليه أن يتلع من الأطفال ثلاثة أضعاف بل خمسة أضعاف ما يتلع من رهبان . وبذلك تكون جريرته قد خفّت من جهة الكيف ، ولكن ثقلت من جهة الكم . لاحظوا أيها السادة اننى اذ أفكر في الأمر على هذا النحو وأناقسه بهذه الطريقة ، انما أضع

ذاتى فى الحامة النفسية التى كان عليها انسان القرن الثانى عشر • أما أنا ، رجل القرن التاسع عشر ، فمن الممكن أن أفكّر فى الأمر تفكيراً آخر غير هذا التفكير • انتى ألقت نظرکم الى هذا يا سادتى حتى لا يبقی محل لسخرکم منى وتهكمکم على • أما أنت يا جنرال ، فلقد أصبح موقفک غير لائق حقاً • ذلك أولاً ، أما ثانياً فان لحم الطفل - وهذا رأى شخصى لى - لا يشتمل على غذاء كبير ، وربما كان مذاقه غير لذيذ ، فلا يترك فيمن يأكله الا عذاب الضمير •

« اليکم الآن ، أيها السادة ، النتيجة التى أخلص اليها ، اليکم الحامة التى تحل لکم مشكلة من أكبر المشكلات فى ذلك الزمان وفى هذا الزمان على السواء • ان المجرم قد انتهى به الأمر الى الوشاية بنفسه للكهنوت ، والنول بين أيدي السلطة • فلتتصور أنواع التعذيب التى كانت تنتظره فى ذلك الزمان ، لتتصور العجلات التى يربط بها ويشد اليها ، لتتصور النيران التى يلقى فيها ! فما الذى دفعه الى الوشاية بنفسه والاعتراف بجريمته ؟ لماذا ، بعد أن وقف عند العدد ستين ، لم يحتفظ بسرّه الى آخر رفق من حياته ؟ لماذا لم يقتصر على الاستغناء عن أكل لحم الرهبان ، والتكفير عن نفسه بأن يعيش ناسكاً ؟ لماذا لم يصبح راهباً هو نفسه ؟ تلكم هى كلمة السر ! كان هنالك اذن قوة فوق قوة نيران التعذيب ، وفوق قوة العادة التى ترسخت طوال عشرين عاماً ! كان هنالك فكرة أقوى من جميع الكوارث والمجاعات والتعذيب والطاعون والجذام وكل ذلك الجحيم الذى ما كان للانسانية أن تحتمله لولا تلك الفكرة نفسها التى كانت تُخضع القلوب وتوجهها ، وتُخصب ينابيع الحياة ! هيّا أرونى شيئاً يشبه تلك القوة ، فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عصر الرذائل والسكك الحديدية • • • كان ينبغى أن أقول : « عصر السفن البخارية والسكك الحديدية » • • • كان ينبغى أن أقول « عصر الرذائل والسكك الحديدية » * ، لأننى سكران ، ولكنى صادق أقول الحقيقة • أرونى فى زماننا

هذا فكرة تؤثر في الانسانية نصف التأثير الذي كانت تحدثه تلك
الفكرة في ذلك الزمان ! هل تجرؤن أن تقولوا بعد هذا ان ينابيع الحياة
لم تضعف ، ولم تضطرب ، تحت ذلك « الكوكب » ، تحت هذه الشبكة
الى التفكك بها البشرية؟ لا تظنوا أنكم ستزهبونى برخائكم وثرواتكم وندرة
المجاعات وسرعة وسائل المواصلات ! صحيح أن الثروات أوفر ، ولكن
القوى تنقص ! لم يبق ثمة فكر يخلق رابطة بين البشر ! نعم ، اتنا جميعاً ،
جميعاً ، جميعاً فاسدون ولكن كفى ! ليس هذا هو المهم الآن .
وانما المهم أن نقدم العشاء الذى أعددنا لضيوفنا ، أليس كذلك أيها الأمير
المحترم جداً ؟

أوشك ليديف أن يحدث فى نفوس بعض سامعيه استياءً حقيقياً
(يجب أن نذكر أن الحضور استمروا يفتحون الزجاجات أثناء ذلك
الوقت كله) . لكنه أسقط فى يد جميع خصومه فوراً بهذه الخاتمة غير
المتوقعة ، التى تزف بشرى وجبة الطعام ، وهى خاتمة وصفها هو نفسه
بأنها « حيلة بارعة يقوم بها محام حاذق لتغيير مجرى قضية » . وتعال
ضحكات فرحات من جديد ، وعاد الحفل الى نشاطه وحيائه . ونهض
الجميع عن المائدة ، وأخذوا يمشون على الرصيف ليحركوا أعضائهم
ويذهبوا عنها التخذر . وظل كيلر وحده مستاءً من خطاب ليديف ،
واتفعل انفعالاً شديداً ، واضطرب اضطراباً كبيراً ، وأخذ يستوقف
الضيوف بعضاً وراء بعض ، فيقول لهم بصوت عال :

— انه يهاجم الحضارة ، ويمجد تعصب القرن الثانى عشر ؟ وهذا
كله تشييل وتظاهر وتهريج . ان ليديف لا يملك من طهارة القلب
ونظافة اليد أسير اليسير . قولوا لى : بأى مال أصبح مالكا لهذا المنزل ؟

وقال الجنرال فى الركن المقابل لأشخاص آخرين من الحفل موجهاً
الكلام الى بتسين خاصة وهو يقبض على زر مئزره :

- لقد عرفت شارحاً حقيقياً لرؤيا القديس يوحنا ، هو المرحوم جريجور سيميونوفتش بورمستروف + كان هذا يُنفذ في القلوب ما يشه أن يكون سهماً من نار + كان يبدأ أولاً موضع نظاراته ، ثم يفتح كتاباً كبيراً قديماً مجلداً بجلد أسود + كانت له لحية شائبة ، وكان بزين صدره بوسامين فاز بهما لقيامه بأعمال بر كثيرة + كان يأخذ يقرأ بلمهجة شديدة قاسية + وكان الجنرالات ينحنون أمامه وكانت السيدات تفع مغشياً عليها + أما هذا فانه يختم كلامه بالتبشير بعشاء بارد للضيوف ! شيء عجيب !

كان يتسبن أثناء اصطافه الى كلام الجنرال يتسم محافظاً على هيئة من يريد أن يتناول قبعته وينصرف + ولكنه كان لا يعزم أمره عليه + وقبل النهوض عن المائدة كان جانباً قد انقطع عن الشراب فجأة ، ودفع الكأس بعيداً عنه ، وطاق بوجهه سحابة فأظلم + حتى اذا نهضوا عن المائدة اقترب من روجوين وجلس الى جانبه + فلو رآهما راء لاعتقد انهما على خير وفاق ، وأن العلاقات بينهما أحسن ما تكون العلاقات + ان روجوين الذي أوشك في البداية أن ينصرف متسللاً بهدوء ورفق ، عدة مرات ، يجلس الآن ساكناً خافض الرأس + كأنه هو أيضاً قد نسي اعتزاه الانصراف متسللاً + انه غارق في أفكاره + وهو رفع عينيه في بعض اللحظات فينفرس في جميع الحاضرين واحداً بعد واحد + ان وضعه الآن يحمل على الاعتقاد بأنه قد أوجاً انصرافه بانتظار شيء له عنده شأن خطير +

لم يكن الأمير قد شرب الا كأسين أو ثلاثاً + فكان فرحاً لا أكثر + فلما نهض عن المائدة وقعت عيناه على عيني أوجين بافلوفتش ، فتذكر أن هناك حديثاً يجب أن يجري بينهما فابتسم هائماً + فأولاً له أوجين بافلوفتش فجأة بحركة من رأسه ، مشيراً الى هيبوليت الذي كان نائماً على

الديوان والذي كان أوجين بافلوفتش يحدثُ اليه في تلك اللحظة بنظرة
فاحصة .

— قل لي يا أمير ؟ لماذا اندس هذا الصبي في بيتك ؟
ألقى أوجين بافلوفتش هذا السؤال على الأمير فجاءه ، وفي وجهه
غضب ظاهر بل وبنض بَيْن ، فلم يسمع الأمير الا يُدهش .
وأضاف أوجين بافلوفتش يقول :
— أراهن أن في رأسه نيةً ميتهً وغرضاً سيئاً !
فقال له الأمير :

— لقد لاحظت يا أوجين بافلوفتش ، أو خيّل اليّ ، أنك اهتممت
به اليوم كثيراً ، أهذا صحيح ؟

— أضف الى ذلك انني في الظروف الخاصة التي تحيط بي يجب
أن يكون رأسي مستلثاً بمشاكل أخرى ، لذلك فأنا أول المدعشين من
أنني لم أستطع طوال مدة السهرة أن أحوّل بصرى عن هذه الهيئة
المنقّرة الكريهة .

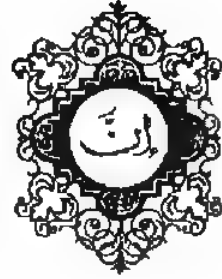
— ان وجهه جميل ...

صاح أوجين بافلوفتش يقول للأمير وهو يجره من ذراعه :

— انظر ، انظر ، انظر ...

فألقى الأمير على محدثه نظرة مشدوّهة من جديد .

الفصل الخامس



هيوليت الذي كان قد نام على الديوان فجأة بعد خطاب ليديف استيقظ الآن منتفضاً ، كان أحداً لكزه في جنبه ؛ وارتعش ، وجلس متكئاً على أحد كوعيه ، ونظر فيما حوله وشحب لونه . فلما رأى من يحيطون به عبّر وجهه عن شيء من الجزع . لكنه حين ثابت إليه ذاكرته واسترد وعيه ، استحال ذلك الجرع الى ما يشبه الذعر والهول ، فقال مغموماً وهو يمسك يد الأمير :

— ماذا ؟ أينصرفون ؟ انتهى ؟ أتقضى كل شيء ؟ هل طلعت الشمس ؟ كم الساعة الآن ؟ قل لي كم الساعة الآن ، ناشدتك الله ! لقد نمت . هل نمت مدةً طويلة ؟

أضاف هذه الجملة الأخيرة بلمحة تعبّر عما يكاد يكون ألماً كبيراً ويأساً شديداً فكانه قد فاتته أثناء النوم أمرٌ يتوقف عليه ويرتبط به مصيره كله على أقل تقدير .

أجابه أوجين بافلوفتش :

— نمت سبع دقائق أو ثمانى .

فنظر اليه هيوليت بشراهة ، وفكّر بضع لحظات ، ثم قال :

— آآآ فقط ! آآآ اذن آآآ .

وتنفس الهواء بقوة كأنه تخلص من حمل ثقيل وعبء هائل . لقد فهم أخيراً أنه « لم ينته كل شيء » ، وأن الفجر لا يسطع بعد ، وأن الحضور لم يقوموا عن المائدة الا ليمضوا الى تناول وجبة العشاء الخفيفة ، وأن الشيء الوحيد الذى انقطع انما هو ثرثرة ليديف . فابتسم وتخضبت وجنتاه ببقعتين حمراوين تكشفان عما به من مرض السل . ثم لم يلبث أن قال بلهجة ساخرة :

ـ وأنت يا أوجين بافلوفتش ، لقد عددت حتى الدقائق التى قضيتها أنا نائماً ! انك لم تحول بصرك عنى طوال السهرة ... لقد لاحظت ذلك ...

وأردف يهمس فى اذن الأمير ، مقطبا حاجبيه ، مشيراً بحركة من رأسه الى المكان الذين كان يجلس فيه بارقيون ميميونوفتش الى المائدة :

ـ آ ... روجوين ! لقد رأيته الآن فى الحلم ...

وتابع كلامه يقول قافزاً من موضوع الى موضوع فجأة :

ـ آ ... نعم ... أين الخطيب ؟ أين ليديف ؟ هل انتهى من القاء خطابه اذن ؟ عمّ تحدث ؟ هل صحیح يا أمير أنك قلت فى ذات يوم ان « الجمال » يمكن أن ينقذ العالم ؟

ثم صاح يقول مُشهداً جميع الحضور :

ـ اشهدوا أيها السادة أن الأمير يدعى أن الجمال سوف ينقذ العالم ؛ أما أنا فأقول : اذا كان للأمير آراء تبلغ هذا المبلغ من المرح فذلك دليل على أنه عاشق ! أيها السادة ، ان الأمير مولّه حباً ! لقد أيقنت بهذا منذ دخل علينا قبل مدة قصيرة ! لا تحمرّ خجلاً يا أمير ، والا أخذتنى بك شفقة ! أى جمال سوف ينقذ العالم ؟ ان كوليا هو الذى نقل الى حديثك

هذا ... هل أنت مسيحي قوى الايمان ؟ يقول كولييا انك أنت انذى
تمت نفسك بأنك مسيحي .
تأمله الأمير ملياً ولم يجبه .

فأضاف هيوليت يقول فجأة بلهجة خشنة كأن هذه الملاحظة قد
قالت :
- ألا تحيب ؟ أتراك تظن أنني أحبك كثيراً ؟

- لا ، لا أظن ذلك . أنا أعلم أنك لا تحبني .
- كيف ؟ حتى بعد انذى حدث أمس ؟ لقد كنت صادقاً معك أمس .
- أمس أيضاً كنت أعلم أنك لا تحبني .

- هل تعنى أن سبب ذلك هو أنني أحصدك ، هو أنني أغار منك ؟
انك قد ظننت هذا دائماً ، وما زلت تظننه ، ولكن ... لماذا أكلمك
فى هذا ؟ أريد أن أشرب مزيداً من الشمبانيا . يا كيللر ، صب لي
شمبانيا !

- ما ينبغي أن تشرب أكثر مما شربت يا هيوليت . لن أدع لك أن
تشرب ...

قال له الأمير ذلك ، وأبعد عنه الكأس .

فلم يلبث هيوليت أن قال موافقاً وقد شرد ذهنه :

- صحيح ... اذا شربت فلا بد أن يقولوا اننى ... ولكن ماشائى
بما قد يقولونه ! ... أليس كذلك ؟ هه ؟ ليقولوا فى المستقبل ما شاء لهم
هوامهم أن يقولوا ، أليس هذا صحيحاً يا أمير ؟ أى ضرر يمكن أن يصيبنا
جميعاً ، مما قد يقولونه « بعد » ؟ ... على كل حال ، أنا الآن خارج من
حلم . ألا ما كان أفضله حلاً ! فى هذه اللحظة انما أتذكره . لا أتعنى

لك أحلاماً كهذا الحلم يا أمير ، رغم أنني ربما كنت لا أحبك كثيراً .
على كل حال ، إذا كان امرؤ لا يحب شخصاً من الأشخاص فليس حتماً
عليه أن يريد له الشر ، وأن يتعمد له الضرر ، أليس هذا صحيحاً ؟ ولكن
ما بالي ألقى هذه الأسئلة كلها ؟ فيم هذه الأسئلة جميعها ؟ ناولني يدك
فأشد عليها شداً قوياً . نعم ، هكذا هانت ذا قد مددت الي يدك
رغم كل شيء . أنت تشعر اذن أنني أشد عليها صادقاً مخلصاً . . . طيب
. . . لن أشرب أكثر مما شربت . كم الساعة الآن ؟ ولكن لا داعي أن
تقولوا لي كم الساعة الآن . . . أنا أعرف . لقد دقت الساعة . آن
الأوان . أزف الوقت . ماذا ؟ هل تقدمون وجبة العشاء في ذلك الركن ؟
هل هذه المائدة خالية اذن ؟ عظيم . . . أيها السادة ، انني . . . جميع
هؤلاء الناس لا يريدون حتى أن يصغوا . . . انني أريد أن أقرأ مقالة
يا أمير . صحيح أن وجبة الطعام أهم شأنًا وأجل قدرًا ، ولكن . . .

قال هيبوليت هذا ثم استل من جيبه الجانبي ، بطريقة مفاجئة غير
متوقعة ، حزمة عريضة من قياس رسمي ، مختومة بخاتم كبير أحمر ،
ووضعها على المائدة أمامه .

أحدثت هذه الحركة المبالغنة أثرها في الحفل ، الذي كان « متهيأ » ،
ولكن . . . لا للقراءة .

نهض أوجين بافلوفتش عن كرسيه منتفضاً ، واقترب جانبا من
المائدة بحركة سريعة . وتبعه روجويين ، لكنه تبعه مشمئز الهيئة متجهم
الوجه كمن يعرف ما مدار القضية وما حقيقة الأمر . وكان ليديف قريباً
فتقدم محمق العينين وأخذ يتفحص الحزمة محاولاً أن يحزر ما تحويه .

سأله الأمير بلهجة قلقة :

— ما هذا الذي معك ؟

صاح هيبوليت يقول :

- سأرقد متى طلعت أولى أشعة الشمس يا أمير • لقد قلت ذلك •
يميناً • سوف ترى !

ثم أضاف وهو يلقي حوله نظرة تحدّ كأنه يواجه بها جميع
الحضور بغير استثناء :

- ولكن ... ولكن ... هل تظنون أنني لا أقدر أن أقض هذه
الحزمة ؟

لاحظ الأمير أن هيبوليت كان يرتجف بكل جسمه • فتكلم باسم
الجميع قائلاً :

- لم يدرك هذا الحائط في ذهن أحد منا ، فلماذا تتسبها إلينا وتظن
أننا ... ثم ما أقرب هذه الفكرة التي تراودك ، وهي أن تقرأ لنا مقالة ؟
ماذا بك يا هيبوليت ؟

وتساءل بعضهم من حوله :

- ما هذا ؟ ماذا دهام أيضاً ؟

واقترب الجميع ، وكان بعضهم قد بدأ يأكل • إن الحزمة وخائنها
الأحمر يجذبان الضيوف كالغناطيس •

قال هيبوليت مخاطب الأمير :

- هنا ما كتبته بنفسي أمس ، بعد أن قطعت لك عهداً بأن أجيء •
إليك لأقيم عندك يا أمير • قضيت في كتابته طول النهار والليل ، وأنهيته
في هذا الصباح • لقد رأيت حلماً قبل مطلع الصبح ...

قاطعه الأمير يقول في خجل ووجل :

- أليس الأفضل أن ترجىء القراءة الى غد ؟

فردَّ عليه هيبوليت قائلاً وهو يضحك ضحكة ساخرة متشنجة :

- غداً « لا يكون قد بقى وقت » • ولا تخف على كل حال ، فإن القراءة ستستغرق أربعين دقيقة ، أو ساعة في أكثر تقدير • انظر الى اهتمام الجميع بالأمر : ان كل واحد يقترب ، وان كل واحد ينظر الى حزمى المختومة • لولا أننى وضعت المقالة فى حزمة مختومة لما أثارت أى اهتمام ، ولما أيقظت فى نفس أحد أى فضول • ها ها ! هذه جاذبية السر •••

ثم هتف يقول ضاحكاً ضحكته الخاصة ، طائفاً على الحضور بنظرات عينيه التقتيتين :

- أأفرض أم لا أفرض أيها السادة ؟ سر ! سر ! هل تتذكر يا أمير من ذا الذى أعلن أنه « لن يكون قد بقى وقت » ؟ انه الملاك الكبير القوى الذى تحدثنا عنه رؤيا يوحنا •

هتف أوجين بافلوفتش فجأة يقول وقد ظهر عليه قلق بلغ من الشدة أنه خطف انتباه كثير من الأشخاص :

- الأفضل أن لا تقرأ !

وصاح الأمير يقول أيضاً وهو يضع يده على الحزمة :

- لا تقرأ !

وقال أحدهم :

- ماذا ؟ الآن نقرأ ؟ اننا نريد أن نتعشى !

وسأل آخر :

- مقالة ؟ لا بد أنها مقالة لمجلة ، هه ؟

وسأل الآخرون :

- ولكن ما الأمر ، ما المسألة ؟

ان حركة التخوف التي بدرت من الأمير قد أرهبت حتى هيولت
نفسه ! فقال يسأل الأمير همساً ، بلهجة خائفة ، بينما كانت تلمُّ بشفتيه
المزرقتين ابتسامة منصهرة :

- ألا أقرأ اذن ؟

ثم دمدم سائلاً وهو يتفحص حوله جميع الأعين وجميع الوجوه ،
محاولاً أن يشدَّ اليه الناس ، كما فعل منذ لحظة ، شاعراً بحاجة شرهة
الى البوح والافضاء :

- ألا أقرأ اذن ؟

وعاد يلتفت نحو الأمير مرة أخرى ويسأله :

- أأنت ... خائف ؟

فأجابه الأمير وكانت سحنته تنقلب وتتغير من دقيقة الى أخرى :

- ميمٌ أخاف ؟

فما كان من هيولت الا أن وثب عن مكانه على حين فجأة ، كأنه
اتسرع من كرسيه انتزاعاً ، وصاح يسأل :

- هل يعطيني أحد قرشاً ؟ هل مع أحد منكم قطعة نقدٍ بعشرين
كوبكاً ؟

فأسرع ليديف يناوله قطعة النقد قائلاً .

- خذ !

لقد استولى على ذهن ليديف أن المريض فقد عقله وأصابه جنون .
وسرعان ما صاح هيولت منادياً :

- فيرا لوكيانوفا • أمسكى هذا القرش وارميه على المائدة ، ثم
انظري : هل سقط على وجهه أم على قفاه • فان سقط على قفاه قرأت !

نظرت فيرا ، مذعورة ، الى القرش فالى هيوليت فالى أبيها ، ثم
رفعت رأسها لاعتقادها بأن عليها أن لا ترى القرش ، ورمته على المائدة
بحركة خرقاء • لقد سقط القرش على قفاه •

فدمدم هيوليت يقول وكأن قرار الحظ هذا قد سحقه سحقاً :

- يجب أن أقرأ •

ما كان لهيوليت أن يصطبغ وجهه بهذه الصفرة الرهية ولو سمع
قرار الحكم عليه بالأعدام •

هتف يقول مرتعشاً بعد نصف دقيقة من صمت :

- ما معنى هذا على كل حال ؟ كيف أمكن أن أقامر بمصيرى ؟

والقى على الحضور نظرة دائرة تفصح عن تلك الرغبة نفسها فى
البوح والافضاء ، وفى التماس الانتباه والاهتمام • ثم التفت نحو الأمير
فجأة وهتف يقول بلهجة فيها دهشة صادقة :

- هذه سمة غريبة من سمات النفس يا أمير ...

وكرر يقول متعشاً بلهجة انسان ثاب الى نفسه :

- سجل هذا وتذكّره ، ما دمت تجميع معلومات ومستندات عن
الحكم بالأعدام ، فيما قيل لى ... لقد قيل لى هذا ... ها ها ... هه ...
يا للسخف ! ...

وجلس على الديوان ، وأسند كوعيه الى المائدة ، وأمسك رأسه
بين يديه • ويتابع يقول :

— بل ... ويا للعار! ... ولكن ما يضيرني أن يكون في هذا عار! ...

وسرعان ما رفع رأسه فقال كمن انصاع لقرار مفاجئ :
— أيها السادة ، أيها السادة ... انني أقض حزمتي ، و ... و ...
لا أجبر أحداً على الاصفاء !

وبيدن مرتعتين من شدة الانفعال فضّ الحزمة وأخرج منها
ورقات من ورق الرسائل ، مطرزةً بكتابة صغيرة دقيقة ، فوضعها أمامه
وأخذ يفتحها .

دمدم عدد من الحاضرين يقولون عابسين :
— ما هذا ؟ ماذا هنالك ؟ ماذا يُراد أن يُقرأ علينا ؟

ولزم آخرون الصمت ، ولكن الجميع ظلوا جالسين يرقبون المشهد
باهتمام واستطلاع . لعلهم كانوا ينتظرون وقوع حادث خارق فعلاً .
وقد تشبّثت فيرا بكرسی أبيها ، وكانت تشعر بخوف يبلغ من الشدة أنها
لا تكاد تستطيع أن تحبس دموعها . ولم يكن كوليّا أقل ارتياحاً . أما
ليديف الذي كان قد جلس ، فانه نهض فجأة ، فتناول شموعاً وقرّبها
من هيوليت ليستطيع هيوليت أن يقرأ بوضوح أكبر .
أضاف هيوليت يقول ، لا يدري المرء لماذا :

— أيها السادة ، هذا ... سوف ترون ما هذا فوراً ...
ثم انتقل الى القراءة رأساً بلا تمهيد ، فقرأ : « شرح لا غنى عنه ،
تصدير : « من بعدى الطوفان » * . لكنه لم يلبث أن قال بלהجة من شعر
بنار تلسعه : أف ... كيف أمكن أن أصدر مقالتي بقول يبلغ هذا المبلغ
من الفباء والحلق ؟ ... ثم اتجه الى الحضور فقال لهم :

- اسمعوا أيها السادة !... أؤكد لكم أن هذا كله قد لا يكون في آخر حساب الا تفاهاات وترهات شنيعة !... ما هذه الا خواطر جالت في رأسي أنا ... فاذا كنتم تتوقعون شيئاً سرياً أو ... محظوراً ، أى ... فقاطعه جانبا قائلاً :

- الأفضل أن تقرأ بغير تمهيد ...

وأضاف آخر يقول :

- انه يلف ويدور •

وقال روجوين الذى ظل أخرس حتى ذلك الحين :

- هذا يعنيه ما يسمى هذراً وثرثرة !

فنظر اليه هيبوليت فجأة • فلما أن التقت نظرتهما ابتسم روجوين بتسامية مرة لاذعة ، ثم نطق بهذه الأقوال الغريبة :

- ما هكذا يجب التصرف ، فى هذه القضية ، أيها الصبي ، لا ...

ما من احد فهم ما يعنيه روجوين طبعاً • ولكن جملة أحدثت فى الحضور تأثيراً خاصاً : لكأن فكرة واحدة ساورت أذهانهم جميعاً • أما فى هيبوليت فقد أحدثت هذه الجملة تأثيراً رهيباً : أخذ يرتجف ارتجافاً بلغ من القوة أن الأمير همَّ أن يمد نحوه يديه ليحميه من السقوط : وكان لا بد ان يصرخ حتماً لولا أن ظل صوته محبوباً فى حلقه • ولبت دقيقة بكاملها لا يستطيع أن ينطق بكلمة • كان يتنفس بمشقة ، ولا يحول عن روجوين بصره • فلما استطاع أخيراً أن يسترد أنفاسه بجهود كبيرة نطق يقول مجحجماً :

- اذن أنت ... الذى ... أنت الذى ...

- الذى ماذا ؟

كذلك سأل روجوين بهيئة من لم يفهم •

ولكن هيوليت احمر احمراراً شديداً ، وصرخ يقول بصوت كاسر وحشى ، يدفعه اليه نوع من حنق مسعور مفاجئ :
- « أنت ، الذى جئت الى فى الأسبوع الماضى ، ليلاً ، بعد الساعة

الواحدة ، غداة ذلك اليوم الذى زرتك فيه • هو « أنت » ! اعترف بذلك : أأنت أم لا ؟

- الاسبوع الماضى ؟ ليلاً ؟ أتراك فقدت عقلك أيها الصبى ؟

سكت « الصبى » لحظةً أخرى ، ثم رفع ابهامه الى جبينه كمن يستجمع خواطره • ولكن تعبيراً عن المكر وحتى عن الفوز برز فى وجهه فجأة من تحت ابتسامته الصفراء التى جمدها الحروف • وكرر يقول بصوت يكاد يكون همساً ، ولكن بلهجة فيها اقتناع كامل مطلق :

- أنت ! « أنت » جئت الى ! لبت جالساً على كرسى قرب النافذة ساعة بل أكثر من ساعة : كان ذلك بين منتصف الليل والساعة الثانية • وانصرفت قبل الساعة الثالثة ••• نعم ، أنت أنت ! لماذا أخفنتى ؟ لماذا جئت تعذبنى ؟ اننى لا أفهم هذا ••• ولكنك أنت الذى جئت الى ! ••• واشتعل فى نظراته وميض بفيض على حين فجأة ، ولكنه ظل يرتعد هلعاً • وقال :

- فوراً أيها السادة ، ستعلمون كل شئ ••• اننى ••• اننى •••
أصغوا الى •••

وأسرع يتناول أوراق مخطوطته التى كانت قد تحركت من مكانها وتبهرت ، فأخذ يحاول ترتيبها • وكانت الأوراق ترتعش بين أصابعه المرتجفة ، ففضى فى ترتيبها وقتاً •

فهمهم روجويين يقول بصوت لا يكاد يفهم :

— اما أنه محزون ، واما أنه يهذى ...

وبدأت القراءة أخيراً • ففي الدقائق الخمس الأولى لقي كاتب «المقالة» التي لم تكن في الحسبان ، لقي عناءً كبيراً في استرداد أنفاسه ، فكان يقرأ قراءة مفككة متفاوته • لكن صوته ثبت وقوى شيئاً بعد شيء ، فاستطاع أن يؤدي معنى ما كان يقرؤه اداءً كاملاً • كل ما هنالك أن سمعاً شديداً كان يقطع القراءة من حين الى حين ؛ ولما وصل من القراءة الى نصفها كان صوته قد أصيب ببحة قوية • وكانت حماسته تشتد مزيداً من الاستداد لحظة بعد لحظة حتى بلغت الذروة ، وكان الاحساس الألم الذي يحدثه في نفوس مستمعيه يقوى لحظة بعد لحظة بتلك السرعة نفسها • واليكم نص المقالة كاملاً :

« شرح لا أغنى عنه »

« من بعدى الطوفان »

« في صباح أمس ، جاءني الأمير • فاقترح عليّ ، فيما اقترح ، أن أقيم عنده في الفيلا • كنت أعلم أنه لن يفوته أن يلحّ عليّ هذه النقطة • كنت على يقين من أنه سيقول لي فوراً « ان الأفضل لي أن أموت محاطاً بالناس والأشجار » ، علي حد تعبيره • لكنني في هذا اليوم لم يستعمل كلمة « أموت » ، بل قال « ان الأفضل لي أن أعيش هناك » ، والأمران في حالتي أمر واحد على كل حال • سألته ماذا يعني بكلمة « الأشجار » التي يكثر من استعمالها هذا الاكثار ، ولماذا يصدّع أذني بها دائماً • فما كان أشد دهشتي حين سمعته يجيبني بأنني أنا الذي صرحت في مساء فائت بأنني انما جئت الى بافلوفسك لأرى الأشجار مرةً أخيرةً فذكرت له أنه يستوى عندي تماماً أن أموت تحت الأشجار أو أن أموت وأنا أنظر

الى حائط من الأجر أمام نافذتى • فلا حاجة بى الى هذا العناء كله والى هذا الاحتفال كله فى سبيل أسبوعين اثنين يقيا لى فى هذه الحياة • فسرعان ما وافقنى على هذا الرأى ، لكنه قدّر أن الحاضرة والهواء الطلق سيؤثران فى حالتى الجسمية تأثيراً حسناً ولا ريب ، وسيدلان • أحلامى ، وسيغيران نتائج فرط احتياجى حتى لقد يجعلانها محتملة • فاعترضت عليه من جديد وقلت له ضاحكاً انه يتكلم كما يتكلم رجل مادى المذهب • فأجابنى وهو يتشم ابتسامته المألوفة بأنه كان دائماً مادى المذهب • واذا أنه رجل لا يكذب ، فلا شك أن قوله هذا ليس كلاماً جزافاً ألقاه فى الهواء • ان ابتسامته طيبة • وقد أنعمت النظر فيه عندئذ بمزيد من الالتباه • لا أدري أنا الآن أحبه أم لا أحبه • ولا يتسع وقتى الآن لأن أصدّع رأسى بمثل هذا السؤال • ان الكره الذى كنت أحمله له منذ خمسة أشهر – لاحظوا هذا – قد أخذ يهبط هبوطاً تاماً أثناء هذا الشهر الأخير • من يدري ؟ لعلى لم أذهب الى بافلوفسك الا فى سبيل أن أراه • ولكن ... لماذا تركت غرفتى اذن ؟ ان المحكوم عليه بالاعدام يجب أن لا يپارح الركن الذى هو فيه • فلو أننى لم أتخذ قراراً حاسماً ، لو أننى – على عكس ذلك – أذعنت لفكرة انتظار ساعتى الأخيرة ، اذن لما رضيت أن أجب • « أموت » عنده فى بافلوفسك •

« يجب أن أسارع لأنهى هذا » الشرح • كله حتماً قبل الغد • معنى ذلك أننى لن أملك من الوقت ما يشيح لى إعادة قراءته ويسمح لى بتصحيحه وتنقيحه • سوف أعيد قراءته غداً حين أقرؤه على الأمير وعلى شاهدين أو ثلاثة شهود آمل أن أجدهم عنده • واذا أن هذا الكلام لى يشتمل على كلمة واحدة ليست هى الحقيقة الصافية العليا الصريحة ، فأنى ليهمنى كثيراً أن أعرف الاحساس الذى سأشعر به أنا نفسى حين سأقرؤه عليهم • على اننى أخطأت اذ كتبت هذه الكلمات : « الحقيقة العليا

الصريحة ، ، فإن حياة لن تدوم الا خمسة عشر يوماً لا تستحق أن يحياها المرء (حاشية - هذه فكرة يجب أن لا تنيب عن البسال : ألسنت مجنوناً في هذه اللحظة ، أو قولوا في بعض اللحظات ؟ لقد أكد لي بعضهم أن المرضى بداء السل ، حين يصلون الى آخر مرحلة من مراحل مرضهم ، تختل عقولهم في بعض اللحظات . يجب التثبت من هذا غداً بالأثر الذي تخلفه في نفوس السامعين قراءة هذا الكلام . هذه مسألة يجب أن تحل أدق حل مهما كلف الأمر . وبدون ذلك لا يستطيع المرء أن يشرع في شيء أو أن يعمل شيئاً) .

« يخيل الى أنني قد كتبت الآن سخافة كبيرة . غير أن وقتي لا يشع للتصحيح ، كما سبق أن قلت ذلك من قبل . ثم انني أنهد نفسي عامداً أن أترك هذه المخطوطة خالية من أية تصحيح ، حتى ولو لاحظت أنني أنقض نفسي بنفسى كل خمسة أسطر . فأنما أريد أن أمتحن منطق تفكيري ، وأن أثأكد من انني ألاحظ أخطائي ، غداً عند القراءة . فبذلك أعرف هل الأفكار التي أنصّبها في هذه الغرفة خلال هذه الأشهر الستة ، حقيقة صادقة أم هذيان باطل .

« لو وجب عليّ ، منذ شهرين ، أن أهجر غرفتي هجراً تاماً ، كما سأفعل الآن ، وأن أودّع حائط ماير ، لكنت شعرت بحزن حتماً . أما الآن فقد أصبحت لا أشعر بشيء رغم أن عليّ أن أترك هذه الغرفة وهذا الحائط « الى الأبد » . معنى هذا أن كياني يستحوذ عليه الآن اقتناع بأن حياة أسبوعين لا تستحق أن تمتلئ نفس المرء فيها بمشاعر الأسف والحسرة ، وأن ينقاد المرء أتماءها لأي عاطفة من المواقف . ولعل جميع حواسي أصبحت تخضع لهذا الاقتناع منذ الآن . ولكن هل هذا صحيح حقاً ؟ هل صحيح أن طبعي قد تم لي قهرها وتحققت لي السيطرة عليها ؟ لو أنزل بي تعذيب في هذه اللحظة لأخذت أصرخ حتماً ، ولا قلت ان المرء ما ينبغي

له أن يصرخ ولا أن يشعر بالألم إذا لم يكن قد بقى له من الحياة الا خمسة عشر يوماً .

« ومع ذلك ، هل صحيح أنني لم يبق لي من الحياة الا خمسة عشر يوماً لا أكثر ؟ ان ما رويته في بافلوفسك كان كذباً : ان « ب . ن . » * لم يقل لي شيئاً البتة ، حتى انه لم يرني في يوم من الأيام . غير أنني قد جئ لي منذ اسبوعين بالطالب كيسلورودوف . انه شاب مادي المذهب ، ملحد ، عديمي . ومن أجل هذا انما طلبت أن يؤتى به الي . كنت في حاجة الى انسان يقول لي أخيراً الحقيقة صافية صريحة بلا مداراة أو مراعاة ، وبلا تصنع أو تكلف . وذلك ما فعله . ولم يفعله متعجبلاً بغير لف ودوران فحسب ، بل فعله وهو يشعر بلذة ظاهرة واضحة أيضاً (لذة جاوزت الحدود في رأيي) . لقد أعلن لي بفلطة وقسوة أنني قد بقى لي من الحياة نحو شهر ؟ وربما طال عمري أكثر من ذلك قليلاً اذا ساعدت الظروف ، ولكن قد يكون ما بقى لي من عمر أقل كثيراً من شهر . وهو يرى أن من الحائز أن أموت على حين غرة ، في غد مثلاً . فهذا أمر رثي مثله . فأنس الأول كانت سيدة شابة مصابة بداء السسل ، وهي تقطن حي كولومنا وتشبه حالتها حالتي ، كانت تنهياً للذهاب الى السوق من أجل أن تشتري مؤناً لها ، فاذا هي تشعر فجأة باعياء ، فلما اضطجعت على أريكة لترتاح زفرت زفرة وأسلمت روحها . لقد روى لي كيسلورودوف هذه التفاصيل كلها وهو يتصنع نوعاً من عدم التأثر وقلة الاكتراث ، كأنه يشعر أنني بأن يعدني ، أنا أيضاً ، رجلاً متفوقاً يذهب مذهب الجحود مثله ، ولا يؤله البتة أن يبارح هذه الحياة . المهم أن هناك أمراً أصبح ثابتاً هو أن ما بقى لي من حياة لا يزيد عن شهر ! فأنا مقتنع بأن من هذه الناحية لم يخطئ . »

« ولقد دُهِشت كثيراً حين حزر الأمير أنني أرى أحلاماً ثقيلة ،

واننى اعانى أثناء النوم من كوابيس • فقال ما نصه حرفاً حرفاً • ان نتائج فرط احتياجى وأحلامى ستغير فى بافلوفسك • لماذا تكلم عن أحلامى ؟ نعم ، انه طيب ، أو انه يملك فكراً ذا نفاذ خارق قادر على أن يحزر أموراً كثيرة (وأما أنه رغم كل شيء « أبله » ، فهذا لا مجال للشك فيه) • والحق اننى قبل وصوله بقليل كنت قد رأيت حلماً جميلاً (من تلك الأحلام التى أرى فى هذه الآونة مئات منها) • كنت قد نمت قبل زيارته بساعة فيما أظن ، فرأيتنى فى غرفة ليست غرفتى • انها أرحب من غرفتى سعةً ، وأعلى سقفاً ، وأحسن أثاثاً ، ويدخلها النور • الأثاث يتألف من خزانة للملابس ، ومنضدة ذات أدراج ، وديوان ، وسرير • والسرير واسع عريض ، له غطاء أخضر من حرير مضلّع • واننى لفتى هذه الغرفة اذا أنا أرى حيواناً مربعاً لا عهد لى بمثله ، فهو ليس من الحيوانات الطبيعية • انه يشبه عقرباً ، ولكنه ليس بعقرب • هو شيء أشنع من العقرب وأشنع وأدعى الى النفور وأبعث على الاشمئزاز • واعتقدت أن ثمة سرّاً فى عدم وجود حيوانات من هذا الجنس فى الطبيعة ، وفى أن واحداً منها قد ظهر عندى مع ذلك « خصيصاً » ! تفحصت الحيوان ملياً : هو نوع من الزواحف ، يكسوه درع كدرع السلحفاة داكن ، يبلغ طوله نحو عشرين سنتيمتراً ، ويبلغ سمك رأسه اصبعين ، ولكن جسمه يستدق تدريجياً حتى الذنب فلا يكاد يبلغ سمك ذيله نصف سنتيمتر • وعلى بعد خمسة سنتيمترات من الرأس تخرج من جسمه قدامان يبلغ طول كل منهما عشرة سنتيمترات ، وتنفرجان بزاوية قدرها خمس وأربعين درجة • فإذا نظرت من فوق ، ظهر لك الحيوان كله فى صورة من ذات ثلاثة أفرع • لم أر رأسه رؤية واضحة جداً ، ولكننى لاحظت فى الرأس مجسّين قصيرين جداً ، دكاوين هما أيضاً ، يشبهان ابرتين ضخمتين • وفى آخر الذيل يرى مجسّان مائلان ، وكذلك فى نهاية كل قدم •

فيكون مجموع المجسّات ثمانى . وكان الحيوان يجرى جرياً سريعاً جداً
فى أرجاء الغرفة كلها ، مستعيناً بقدميه وذنبه ؛ وفيما هو يجرى ، يتلوى
جسمه وتتلوى أعضاؤه كحية من الحيات بسرعة خارقة ، رغم الدرع
الذى يكسو ظهره . منظر مروّع رهيب . خفت خوفاً فظيماً من أن
يلسمنى هذا الحيوان ، فقد قيل لى انه سام . غير أن ما كان يعذبى أكثر
من أى شيء آخر هو أن أعرف من الذى أرسله الى غرفتى ، وما هى
المكيدة التى تُدبّر لى ، وماذا وراء هذا السر . وكان الحيوان يختبئ
تحت النضدة ذات الأدراج ، وتحت خزانة الملابس ، ويعتصم بأركان
الغرفة . جلست على كرسى وثيت ساقى تحتى . وأسرع الحيوان يقطع
الغرفة على مسار مائل ، ويختفى فى مكان ما قرب الكرسي الذى أجلس
عليه . بحثت عنه بعينى مرتاعاً ، لكننى وقد جعلت ساقى تحت جسمى ،
كنت أمل أن لا يتسلق الكرسي . فاذا أنا أسمع ورائى زفيراً خفيفاً قرب
نقرتى . فالتفت فاذا أنا أرى الحيوان الزاحف يتسلق الجدار . وكان قد
وصل من تسلقه الجدار الى مستوى رأسى ، حتى لقد لامس شعري بذنبه
الذى كان يتموج بخفة قصوى . فما كان منى إلا أن وثبت ، فاختفى
الحيوان الغريب . لم أجرو أن اضطلع على السرير ، خشية أن يتسلل
فيندس تحت المخذة . وعندئذ دخلت الغرفة أُمى وامرأة أخرى من
صاحباتها لا أعرفها . وأخذتا تطاردان الحيوان الزاحف . كانتا أهذا
منى ، بل كان لا يظهر عليهما أى رعب ، ولكنهما لم تفهما من الأمر
شيئاً . وفجأة ظهر الحيوان العجيب من جديد . فكان فى هذه المرة
يزحف بحركة بطيئة جداً كأنه يضم نية خاصة . ان تلوياته التى تتم
على قلة الاكرات تزيد منظره الآن بشاعة ، وتجعله أبعد على الاشتراز .
وقطع الغرفة من أولها الى آخرها كالمرّة الأولى ، متجهاً نحو العتبة . وفى
تلك اللحظة فتحت أُمى الباب ، ونادت كلبتش نورما . ان نورما كلبسة

سوداء جمعاء الشعر ، ماتت منذ خمس سنين . هرعنا الكلبة الى الغرفة ووقفت أمام الحيوان كالمتجمدة رعباً ، وتوقف الحيوان هو أيضاً عن التقدم ، لكنه ظل يتلوى ويضرب أرض الغرفة بقدميه وطرف ذيله . ان الحيوانات لا تستبد بها مخاوف غيبية فيما أظن . ولكن بدا لي في تلك اللحظة أن في ارتياح نورما شيئاً غريباً كل القسوة ، غيباً الى أبعد الحدود . فكأنها أدركت مثلي أن ظهور هذا الحيوان أمر يشتمل على سر وينذر بشؤم . فتقهقرت ببطء بينما أخذ الحيوان يتقدم محاذراً بخطى محسوبة معدودة . كانت هيئته تدل على أنه يستعد للوثوب على الكلبة من أجل ان يلسعها . ولكن نورما ، رغم ذعرها ورغم أن جميع أعضائها كانت ترتعش ارتعاشاً قوياً ، حدثت الى الحيوان بعينين تفيضان حقناً . وأخذت في لحظة من اللحظات تكشف عن أنيابها المموجة الرهية شيئاً بعد شيء ، ثم فتحت بوزها الضخم الأحمر ، ووثبت الى أمام ، فانقضت على الحيوان بعزم شديد ، وتلقفته بأسنانها . ويبدو ان الحيوان بذل جهداً كبيراً من أجل أن يخلص نفسه ، لأن نورما انقضت عليه ثانية وتلقفته بفكيها مرتين كأنها تحاول أن تبلعه . وقرقع الدرع متكسراً تحت أسنانها وظل ذيل الحيوان وقدماء في خارج قمها تتحركان تحركاً مرعياً . وفجأة صرخت نورما صرخة توجع وشكوى . فقد استطاع الحيوان أن يلسع لسانها رغم كل شيء . وانفجرت أنياب الكلبة وهي شن من الألم ، فראيت الحيوان في قمها شبه مهشم وما يزال يتخبط ؛ ومن جسمه المتورس يسيل على لسان الكلبة سائل أبيض غزير يشبه السائل الذي يخرج من خنفساء حين تُسحق ... وفي تلك اللحظة انما استيقظت من نومي ودخل على الأمير .

هنا قطع هيبوليت قراءته فجأة وكأنه يشعر بخجل :

— اننى أبها السادة لم أرجع المقالة ، ويخيل الى اننى ضمنتها

أشياء كثيرة لا داعي إليها ولا فائدة منها ، اعترف بذلك !... ان هذا الحلم ...

فأمزع جانباً يقول :

- اعترافك صحيح .

- انتى أسلم بأن ههنا احساسات شخصية كثيرة مسرفة فى الكثرة ... أقصد : احساسات لا علاقة لها الا بشخصى ...

حين قال هيوليت ذلك كان يبدو عليه الاعياء والارهاق ، وكان يجفف عرق جبينه بمنديله .

قال ليديف بصوت صافر :

- صحيح أيها السيد ! انك مفرط فى الاهتمام بنفسك !

- ولكنى أعود فأكرر أيها السادة أنتى لا أجبر أحداً على الاصغاء فالذين لا يريدون أن يسمعوا يستطيعون أن ينسحبوا ...
جمعهم ورجولين يقول بصوت لا يكاد يدرك :

- يطرده الناس ... من بيت غيره !

وانبرى فردشتشكو يقول بعد أن لم أن يتجاسر أن يرفع صوته حتى ذلك الحين :

- فما قولك اذا نهضنا جميعاً لنصرف ؟

فخفض هيوليت عينيه وأمسك مخطوطته . ولكنه لم يلبث أن رفع رأسه فوراً . كانت حدقاته تسطمان ، وكانت وجنتاه مصطبغتين ببقعتين حمراوين . حدثنى الى فردشتشكو وقال له :

- أمت لا تحبى البتة !

فانطلعت ضحكات ، لكن أكثر الحضور لم يستجيبوا لها . واحمر هيوليت احمراراً رهيباً .

قال الأمير :

.. يا هيبوليت ، لم أوراقك واعطيتها . واذهب الى النوم ، هنا في
غرفتي . ستتحدث قبل أن ننام وسنستأنف الحديث غداً ، ولكن على
شرط أن لا تعود الى هذه الأوراق . هل تريد ؟

قال هيبوليت وهو يلقي عليه نظرة تعبر عن الدهشة حقاً :
.. أهذا ممكن ؟

وأضاف يقول صائحاً وقد استبدت به نوبة جديدة من احتياج
محموم :

.. أيها السادة ، لم يكن ما قرأته عليكم الا جزءاً عرضياً نافهاً من
قصتي ، جزءاً لم أستطع أن أسيطر فيه على نفسي وأتحكم بقلمي .
لن أقطع قراءتي بعد الآن . فمن أراد أن يصفى فليصف . . .

قال ذلك وأسرع ببلع جرعة ماء ، ويضع كوعيه على المائدة ليتحاشى
النظرات ، واستأنف يقرأ في عناد . عني أن خجله لم يلبث أن تبدد . .
« ان الفكرة التي تذهب الى أن الحياة التي لن تدوم الا بضعة
أسابيع لا تستحق من المرء أن يحياها ، انما أخذت تحاصرني منذ شهر
فيما أظن ، وذلك حين أصبحت أقدر أنني لم يبق لي من الحياة الا أربعة
أسابيع . ولكنها لم تستحوذ عليّ استحواذاً كاملاً الا منذ ثلاثة أيام ،
في ذلك المساء الذي عدت فيه من بافلوفسك .

« لقد شعرت بنفاذ هذه الفكرة الى أعماق أعماق نفسي أول مرة ،
يوم كنت جالساً على الشرفة في بيت الأمير فقررت أن أجرب الحياة
تجربة أخيرة . كنت قد أردت أن أرى الناس والأشجار (لنسلم بانني
أنا الذي استعملت هذا التعبير) . وكنت قد تحمست مدافعاً عن
بودروفسكي « قريبي » ، متوهماً أن جميع الحضور سيفتحون لي أذرعهم

وبعاقونى ، وأنهم سيسألوننى الصبح والعفو ، وأتى سألهم مثل ذلك أيضاً . باختصار : لقد انتهت من كلامى غيباً بليداً بلا عبقرية . وعندئذ انما انكشف فى نفسى ذلك « الاقتناع الكامل » . وانى لأتساءل الآن كيف أمكن أعيش ستة أشهر بكاملها دون أن يتحقق لى ذلك « الاقتناع » ! لقد كنت أعلم علم اليقين اننى مصاب بسيل لا شفاء منه ؟ لم أكن مأخوذاً بوجع الصفة والعافية ، بل كنت أرى حالتى رؤية واضحة لكننى كنت ازداد نهماً الى الحياة على قدر ازدياد الوضوح فى معرفة واقعى ورؤية حالتى . كنت أتشبث بالحياة مزيداً من التشبث ، وكنت أريد أن أطيلها على أى نحو من الأنحاء . اعترف باننى لعلنى سخطت حينذاك على القدر الغاشم المظلم ، الذى كان أعمى عن رؤية وضعى وكان أصم عن سماع صوتى ، والذى قرر - لا أدري لماذا - أن يسحقنى سحق ذبابة . ولكن لماذا لم أكتف بالسخط وحده ؟ لماذا « بدأت » أعيش فعلاً ، مع أننى كنت أعلم أن ذلك غير مباح لى ؟ لماذا انتقدت لتلك المحاولة وأنا أعرف أنها لن تشر ؟ ومع ذلك انتهى بى الأمر الى أن أصبحت لا أستطيع أن أقرأ كتباً ، وعدلت عن القراءة . علام أقرأ ؟ علام أعلم ولم يبق لى من الحياة الا ستة أشهر ؟ ان هذه الفكرة قد جعلتلى أرمى عدة مرات الكتاب الذى بدأت قراءته .

« نعم ، ان حائط منزل ماير ذاك يستطيع أن يحدث طويلاً عن هذه الأمور . لقد طبعت عليه أشياء كثيرة . ليس على هذا الحائط القدر بقعة واحدة الا حفظتها على ظهر القلب وصرت أعرفها بالذاكرة . يا للحائط النحس ! ومع ذلك فهو أغلى فى نفسى وأحب الى قلبى من جميع أشجار بافلوفسك ، أو قد لا بد أن يكون كذلك لولا أن جميع الأمور أصبحت فى نظرى سواء !

« اننى أتذكر الآن شدة اهتمامى الشره النهم بمتابعة حياتهم «هم» .

لم أشعر قبل ذلك بمثل ذلك الفضول في يوم من الأيام . حتى لقد كنت أنتظر عودة كوليا على أحرّ من الجمر من نفاذ الصبر وشدة الغضب في بعض الأحيان ، أيامَ بلغ بي المرض حداً أقعدني عن الخروج فلا أستطيع أن أغادر غرفتي . وأخذت أنسقط التفاصيل الصغيرة تسقطاً يبلغ من الشراقة ، وأهتم بالأقاويل النافهة اهتماماً يبلغ من القوة ، انني أصبحت فيما أعتقد كواحد من أولئك الذين يروّجون الشائعات ويذيعون النائم . كنت لا أفهم مثلاً كيف لا يظفر الناس الذين يملكون كل ما يملكون من حياة ، كيف لا يظفرون بالثني والثراء (والحق انني الى الآن لا أفهم هذا) . لقد عرفت رجلاً عجيباً مسكيناً قيل لي ، فيما بعد ، انه مات من الجوع . اني لا أتذكر كيف أن هذا النبأ أثار غضبي وأخرجني عن طوري ، فلو بُعث ذلك الشقي حياً لانقضضت أجهز عليه في أغلب ظني .

« كان يتفق لي في بعض الأحيان أن أشعر بتحسن في صحتي خلال أسابيع طويلة ، فأستطيع أن أنزل الى الشارع . غير أن الشارع أصبح يثير حقتي حتى صرت أقبع في بيتي بارادتي أياً ما كاملة ، رغم أنني كان في وسعي أن أخرج كما يخرج سائر الناس . أصبحت لا أطيق أن أرى أولئك الخلق الذين يسمعون ويضطربون من حولي على الأرصفة ، ويفورون ويغفلون ، مهمومين مغمومين دائماً ، متجهمين قلقين بنير انقطاع . علام يحزنون هذا الحزن السخيف المستمر ، ويضطربون هذا الاضطراب الباطل المتصل ، ويبسسون ذلك العبوس الحائق الذي لا بهداً ولا يسكن (ذلك أنهم أشرار ، أشرار ، أشرار) ؟ من المذنب اذا هم كانوا أشقياء تمساء ، واذا هم كانوا لا يعرفون كيف يحيون ، مع أن آفاق أملهم في الحياة تمتد ستين عاماً الى أمام ؟ لماذا رضي زارتسين أن يموت جوعاً ، مع أن أمامه ستين سنة يمكن أن يعيشها ؟ وهذا كل واحد يبدى أسماه الرثة ويظهر يديه الكنباوين فيغضب ويصبح متشكياً : « ها نحن أولاء نعمل

كما تعمل الأبقار ، وتنع وتنع ، ونجوع ونسغب كالكلاب ، ونجر
 معنا البؤس جراً ، بينما يوجد أناس آخرون لا يعملون ، ولا يحملون
 أنفسهم أى عناء ثم هم أغنياء ! (الأغنية الأبدية ١) • وعلى موازاة هؤلاء ،
 يسعى ويركض ويتحرك ويضطرب ، من الصباح الى المساء ، كادح
 بأثس ، متقن الوجه ، لكنه « نيل المحتد » هو ايفان فومتشى سوريكوف
 القاطن فى الطابق الذى يقع فوق طابقنا من المنزل • ان كوعى كميه
 مثقبان دائماً ، وان أزرار ملابسه مخلّعة • وهو يتولى عن الناس شراء
 ما يكلفونه بشرائه لهم ، ويقوم بأعمال لا أدرى ما هى ، ويتفق فى ذلك
 يومه كله من الصباح الى المساء • حاولوا أن تحدثوا معه : سوف يقول
 لكم انه « فقير ، بأثس ؛ وان زوجته ماتت لأنه لم يجد ما يشتري لها به
 دواء ، وان ابنه الصغير مات فى الشتاء متجمداً من البرد ؛ وان ابنته
 الكبرى تلتبس رزقها عند الرجال • • • انه يئن ويتوجع ، ويشكو
 ويبكى بغير انقطاع • آه • • • اننى لم أشعر بأية شفقة ، لا فى ذلك الحين ،
 ولا فى هذا الوقت ، نحو هؤلاء الأغنياء الحقى • • • وأقول هذا فخوراً
 معتزاً ! لماذا لا يكون هذا الفرد رجلاً مثل روتشيلد ؟ من المذنب اذا كان
 لا يملك ملايين مثل روتشيلد ، اذا كان لا يملك جبلاً من الدنانير
 الامبراطورية * أو من الليرات الذهبية النابوليونية ، جبلاً لا يقل ارتفاعه
 عن ارتفاع الجبل الذى نراه فى المعرض أثناء الكرنفال ؟ ما دام قادراً
 على أن يحيا ، فان كل شئ فى طاقته • من المذنب اذا كان لا يفهم ذلك ؟
 • آه • • • لقد تساوت فى نظرى جميع الأمور الآن ، ولم يبق فى
 وقتى متسع لأن أغضب • أما فى ذلك الحين ، فقد كنت ، كما سبق أن
 قلت ذلك ، اعرض على وسادتى حقناً ، وأمزق غطائى سخطاً وغيطاً •
 آه • • • يا للحلم الذى كنت أحلمه حينذاك ، ويا للأمنية التى كنت
 أتمناها ! لقد كنت أتمنى راضياً مسروراً أن أرمى الى الشارع فوراً ، وأنا

في الثامنة عشرة من عمري ، أن أرمى شبه عار لا يكاد يسترني شيء ،
وأن أترك وحيداً وحده مطلقاً ، بلا مسكن ولا عمل ولا لقمة عيش ،
ولا أهل ولا صاحب واحد ، ولا أي انسان أعرفه ، في المدينة الكبيرة ،
جائعاً مضروباً (لا بأس ! ...) ، ولكن صحيح الجسم غير مريض .
« ما الذي كان يمكنني أن أظهره في تلك الحالة ؟ »

« آه ... هل تتصورون أنني لا أعني مدى الانحطاط والاسفاف
الذي بلغته قبل أن أقول هذا الكلام في « الشرح » الذي أقدمه ؟ فمن
ذا الذي لا يعدني والحالة هذه في ساذجاً غراً ، غريباً عن الحياة ، ناسياً
أن عمري ليس ثمانى عشرة سنة فحسب ، لأن الذي يحيا كما حيت
خلال هذه الأشهر الستة انما يكون قد عاش الى السن الذي يشيب فيها
الشعر ؟ ولكن استخروا اذا شاء لكم هواكم أن تسخروا ، وانظروا الى
هذه الأشياء كلها نظرتكم الى حكايات ! وما هي في الواقع الا حكايات
حكيتها لنفسى ، فملأت بها ليالى بكاملها ، واني لا تذكرها الآن جميعها .

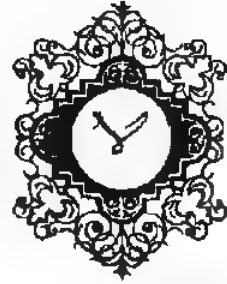
« ولكن هل يجب عليّ أن أكررها الآن بعد أن انقضى عهد الحكايات
حتى بالنسبة الى ؟ ولئن أكررها ؟ لقد تلذذت بها حين رأيت بوضوح
اتنى ممنوع حتى عن دراسة قواعد النحو اليوناني التي خطر ببالى أن
أدرسها ؟ فحين قدّرت اننى سوف أموت قبل أن أصل الى تعلم الاعراب ،
توقفت عن القراءة منذ الصفحة الأولى ورميت الكتاب تحت المائدة . وبقي
الكتاب راقداً هناك . وحفظت على ماتريونا أن تشيله .

« ان من ستقع مقالتي هذه بين يديه ، فيصبر على قراءتها حتى
النهاية ، قد يعدني مجنوناً ، أو قد يظنني تلميذاً في المدرسة الثانوية ،
أو لعله بتصور اننى رجل محكوم عليه بالأعدام يتراعى له بحق أنه ممن
انسان غيره يقدر الحياة حق قدرها ، وأن البشر يعيشون الحياة ويددونها

بكثير من الخفة والطيش ، وأنهم يستمتعون بها غير واعين ، وغير مبالين أو
مكرئين ، وأن الملائ جميعاً ، من أولهم الى آخرهم ، ليسوا اذن جديرين
بها ، وليسوا يستحقونها . فماذا أقول ؟ اننى أعلن أن هذا القارىء
سيخطئ اذا هو انقاد لهذا الظن ، وأن آرائى ليست متأثرة أى تأثر
بكونى محكوماً على بالموت ! اسألوهم ، اسألوهم فقط ، اسألوهم جميعاً
بغير استثناء كيف هم يتصورون السعادة ، كيف هم يفهمون اسعادة ؟
آه . . تقوا أن كريستوف كولومب لم يكن سعيداً حين اكتشف أمريكا ،
بل حين أشرف على اكتشاف أمريكا ، حين كان على وشك أن يكتشفها .
كونوا على يقين من أن لحظة سعادته اقصى كانت قبل اكتشافه العالم
الجديد بثلاثة أيام ، أى حين استبد اليأس بصحبه فتمردوا وأوشكوا أن
يرجعوا أدرجهم الى أوروبا . لم يكن المقصود هو العالم الجديد . لقد
حات كولومب وهو ك يكذب يراه ؟ وهو لم يعرف فى حقيقة الأمر ماذا
اكتشف . فانما الأمر المهم هو الحياة ، الحياة وحدها . . . هو البحث
المتصل عن الحياة ، هو السعى الأبدى الى الحياة ، وليس هو اكتشاف الحياة !
ولكن علام هذا اهذر ؟ أغلب ظنى أن هذا الكلام له من مظهر الأمور
المعروفة الشائعة المبذولة ما لعله يجعل القارىء يعتقد أن مثلى كمثلى تلميذ
فى الصفوف الدنيا من مدرسة ثانوية مكلف بكتابة موضوع انشاء عنوانه
« طلوع الشمس » . سوف يقال اننى ربما أردت أن أعبر عن شىء ما ،
لكننى رغم كل رغبتى لم أظفر بأن « أشرح » ما بنفسى . ومع ذلك فأتى
أضيف أن كل فكرة عبقرية ، وأن كل رأى جديد بل وكل رأى جاد
ينشأ فى دماغ انسان ، أقول ان كل شىء من هذا القليل انما يشتمل على
بقية لا يمكن نقلها الى الآخرين وبو وقف المرء على محاولة الافصاح عنها
كتباً بكاملها ، أو ظل يقلب الأمر على وجوهه مدة خمسة وثلاثين عاماً .
ان تلك البقية لن تخرج من رأسك بأى حال من الأحوال ، بل ستظل

باقية فيه أبد الأبدين • ستموت أنت قبل أن تستطيع نقلها الى أحد ،
وربما كانت هي التي تشتمل على الشيء الجوهرى من تفكيرك • فاذا لم
أستطع أنا أيضاً أن أجعلكم تشعرون الآن بكل ما قاسيته خلال تلك
الأشهر الستة ، فلسوف تفهمون على الأقل اننى لعلنى دفعت غالباً ثمن
ذلك « الاقتناع الكامل » الذى وصلت اليه الآن • ذلكم ما اعتقدت أن من
الضرورى أن أوضحه فى هذا « الشرح » الذى أقدمه اليكم لغاية أعرفها •
« ولكن هأنذا أعود الى مجرى قصتى •

الفصل السادس



أريد أن أكذب . ان الواقع قد أمسكنى عدة مرات فى أثناء هذه الأشهر ، فجرفنى جرفاً يبلغ من القوة أنه أمسانى موتى المحتم ، أو قل جعلنى لا أريد أن أفكر فيه وجعلنى أشرع فى العمل .

وسأصف الآن ، فى هذه المناسبة ، ظروف حياتى حينذاك . منذ قرابة ثمانية أشهر ، عندما تفاقم مرضى قطعت جميع علاقاتى وكففت عن رؤية رفاقى القدامى . واذا كان مزاجى مظلماً حزيناً على الدوام ، فإن رفاقى أولئك لم يصعب عليهم أن ينسونى . وعلى كل حال ، كان يمكن أن ينسونى ولو لم أتصف بذلك المزاج المظلم الحزين . أما حياتى فى البيت ، أى « مع الأسرة » فقد كانت حياة اعتزال وانزواء . لقد أغلقت على نفسى الباب منذ نحو خمسة أشهر ، واعتزلت ذوى اعتزالاً كاملاً . وكانوا قد اعتادوا طاعة رغباتى والرضوخ لارادتى ، فكان لا يأذن أحد لنفسه بأن يدخل الى غرفتى ، الا فى ساعات محددة معينة لتنظيفها وترتيبها ، ولا يأتى بطعامى . كانت أمى ترتعش أمام أوامرى ، ولا تجرؤ حتى أن تبكى وتدمع بحضورى اذا اتفق لى فى بعض الأحيان أن قررت السماح لها بالدخول على . وكانت تضرب الأولاد دائماً حتى لا يحدثوا ضجة فيزعجونى . نعم ، هذه هى الحقيقة . كثيراً ما كنت أشتكى من صراخهم ، اتنى أتخيل مدى الحب الذى لا بد أنهم يضمرونه لى الآن ! وأعتقد كذلك اننى عذبت كثيراً صاحبى « كوليأ الأمين » ، (هذا هو اللقب

الذى خلعت عليه) ولقد ثار منى فى الآونة الأخيرة فعذبني هو أيضاً :
ان ذلك فى طبيعة الأمور ، فالناس انما خلُقوا ليعذب بعضهم بعضاً . ومع
ذلك لاحظت أنه كان يتحمل مزاجى السيء ، كمن آلى على نفسه أن
يدارى مريضاً . وقد أحزننى ذلك بطبيعة الحال . وأحسست أيضاً أنه
قد قرر أن يقلد عقيدة « المذلة المسيحية » التى يعتنقها الأمير ، وكان لا بد
أن يبدو هذا سخيلاً مضحكاً بعض الشيء . ان هذا الفتى تزخر نفسه
بحماسة الشباب ؛ فلعله يقلد كل ما يقع عليه بصره . ولكن بدا لى
أحياناً أنه قد أن الأوان لأن يجعل من نفسه شخصية لها استقلالها . اننى
أحبه كثيراً . وقد عذبت أيضاً سوريكوف ، الذى يقطن فوق مسكننا ،
وانذى يقضى يومه كله ، من الصباح الى المساء ، فى القيام بمهام يكلفه
بها الناس ! لقد انفقت وقتاً طويلاً فى محاولة افهامه أن شقائه لا يرجع
سببه الا اليه وحده ، فخاف فى النهاية حتى أصبح لا يضع قدميه فى غرفتي
أبداً . انه انسان شديد المذلة جداً . (حاشية : يزعم بعضهم أن المذلة
قوة هائلة . يجب أن أسأل الأمير توضيحاً لهذا الكلام ، لأنه هو صاحب
هذا التمييز) . ولكن حين صعدت اليهم فى شهر آذار (مارس) لأرى
كيف تركوا ابنهم الصغير يموت «متجمداً» من البرد كما قالوا ، انشمت
أمام جثة الطفل بغير ارادة ، وعدت أشرح لسوريكوف «أنه هو المذنب» .
عندئذ أخذت شفتا الرجل اسكين الهزيل ترتعشان فجأة ، ثم وضع يده
على كفتي وأشار بيده الأخرى الى الباب قائلاً لى « أخرج يا سيدى ! » .
قالها برفق وهدوء ، بصوت يشبه أن يكون همساً . فخرجت . وأعجبتنى
فعلتى كثيراً ، أعجبتنى حتى بعد أن طردت . ومع ذلك ظلت كلماته
خلال مدة طويلة ، تحدث فى نفسى كلما تذكرتها أثراً غريباً أليماً ،
يشبه أن يكون شعوراً بشفقة مزدرية نحوه ، وهو شعور كنت اتمنى أن
لا أحسه . ان هذا الرجل كان عاجزاً عن الغضب حتى حين «أهين تلك
الاهانة (أنا أشعر فعلاً بأننى أهنته ، دون أن أقصد ذلك أو أتو به) » .

وإذا كانت شفتاه قد اخذتا تحتلجان فإن ذلك لم يحدث له بتأثير الغضب ،
أحلف لكم !... لقد أمسك ذراعى ونطق بجملته الرائعة دون أى
غضب : « اخرج يا سيدى ! » كان فى تلك اللحظة زاخراً بالكرامة ،
حتى ان تلك الكرامة كانت تتعارض مع جملة هيئته (وكان فى هذا ما يبعث
على الضحك فى الواقع) لكن نفسه لم تنطو عندئذ على أى غضب أو
حنق . لعله شعر نحوى باحتقار مفاجئ . • ولقد لقيته بعد ذلك مرتين أو
ثلاث مرات على سلّم المنزل . فكان يسارع الى تحيتى برفع قمته ، وذلك
ما لم يكن يفعله من قبل قط ؛ ولكنه أصبح لا يقف لى كما كان يقف
فى الماضى ، وانما هو يمر بجانبى مسرعاً خجلاً مضطرباً . فهو اذا كان
يحقرنى انما يحقرنى على طريقته ، أى يحقرنى بنوع من « المذلة » .
ولعله كان لا يرفع لى قمته محياً الا من قبيل الخوف والخشية ، لأننى ابن
دائته : فهو مدين لأمى دائماً بمبلغ من المال ، وهو عاجز عجزاً مطلقاً
عن سداد دينه . ربما كان هذا الافتراض أقرب الى الصحة . وقد خطر
بألى أن أناقشه فى الأمر . انى لعلى يقين من أنه كان سيسألنى العفو
والمغفرة لو فعلت . لكننى فكّرت فرأيت أن من الأفضل أن أدعه وشأنه .

« فى تلك الفترة ، أى فى نحو منتصف شهر آذار (مارس) ،
حين ترك سوريكوف ابنه « يتجمد » من البرد ، شعرت أنا بتحسّن كبير
فى صحتى ، ودام هذا التحسّن قرابة أسبوعين . فأخذت أخرج ، عند
هبوط الليل فى أكرّ الأحيان . اننى أحب ساعات الفسق فى شهر آذار
(مارس) ، حين يبدأ التجلد ويُسَمَل الغاز . وكنت أوغل فى نزهاتى
مسافات بعيدة أحياناً . ففى ذات يوم ، مرّاً أمامى فى الظلام ، بشارع
« الدكاكين الستة » ، شخص يبدو من هيئته أنه سيد ، لكننى لم اتبين
ملامحه تبيناً واضحاً . كان يحمل صرّة ملفوفة بورق ، وكان يرتدى
معطفاً عتيقاً مهترئاً ، عدا أنه معطف خفيف فى مثل ذلك البرد الذى كان

يسود الجو . فلما وصل الى قرب مصابيح الشارع ، رأيت شيئاً يسقط من جيبه . فأسرعت أتناول الشيء الذى سقط ، وأسرعت أتناوله فى الوقت المناسب ، ذلك أن شخصاً يرتدى قفطاناً طويلاً كان قد هرع يريد تناوله ، فلما رأى أنه صيار فى حوزتى ، لم يحاول أن ينافسنى واكتفى بأن ألقى نظرة على يدي ثم مضى فى سبيله . كان ذلك الشيء محفوظاً أوراق من جلد ، كبيرة الحجم قديمة الطراز ، محشوة بأوراق كثيرة حتى لتكاد تنمىج ؛ لكننى حذرت على الفور - لا أدري كيف ! - ان المحفظة قد تحتوى كل شيء الا المال . كان الرجل الذى سقطت منه المحفظة قد أصبح على مسافة أربعين خطوة أمامى ، فلن يلبث أن ينسب عني فى زحمة الجمهور . فركضت وراءه أناديه . ولكن لا كنت لا أستطيع أن أناديه الا بصرخة « هيه ! » ، فانه لم يلتفت . وغار فجأة على اليسار فى بوابة عمارة من العمارات . فلما وصلت الى تلك البوابة التى كان يخيم فيها ظلام حالك ، لم أجد هناك أحداً . ان العمارة واحدة من تلك المباني الضخمة التى يبنها التجار جاعلين منها عدداً كبيراً من المساكن الصغيرة . حتى ان بينها مباني تضم الواحدة منها مائة مسكن .

« حين اجتزت بوابة العمارة خيل الى انى ألتقي فى الزاوية اليمنى من قرارة فناء واسع رجلاً كان ينتعد ، لكن الظلمات جعلتني لا أرى أكثر من ذلك . فركضت حتى بلغت تلك الزاوية ، فاكشفت وجود مدخل لسلم ضيق قدر جداً ، بغير اضامة . واذا سمعت أصوات وقع أقدام فى أعلى ، فأدركت أن شخصاً يرقى السلم اندفعت أصعد آملاً أن أدرك أثره حين يُفتح له الباب . وذلك ما حدث . ان فسحات السلم متقاربة جداً ، ولكن عددها بدا لي بغير نهاية ، حتى لقد تقطعت أنفاسي من شدة التعب بالركض . وسمعت صوت باب يُفتح وينلق فى الطابق الخامس . سمعت هذا حين كنت ما أزال تحت الطابق الخامس بثلاث

فسمحات • فقضيت بضع دقائق حتى بلغت الطابق الخامس واسترددت أنفاسي وبحثت عن جرس الباب • فجاءت تفتح لي امرأة^١ كانت بسبيل اضرام النار في السماور بمطبخ صغير مفرط في الصغر • فاستمعت الى أسئلتي صامتة^٢ ، ولا شك أنها لم تفهم منها شيئاً ، لكنها ادخلتني الى غرفة مجاورة دون أن تفتح فمها بكلمة واحدة • هي غرفة صغيرة جداً ، منخفض سقفها انخفاضاً شديداً ، ولا يشتمل أثاثها الفقير الا على الضروري الذي لا بد منه ولا غنى عنه •

« كان يرقد على سرير عريض ذي أسجاف رجل^٣ نادته المرأة باسم « تيرنتش » ، وبدأ لي تملأ^٤ • وكان نمة بقية من شمعة تشتعل قرب منضدة في شمعدان من حديد ، الى جانب قنينة من الفودكا توشك أن تكون فارغة • تطلق تيرنتش ببضعة أصوات غير جلية يخاطبني بها ، ويوميء لي بيده الى غرفة مجاورة ، دون أن ينهض • كانت المرأة قد غابت ، فلم يبق لي الا أن أدفع ذلك الباب • وذلك ما فعلته : فتحت الباب الذي دلتني عليه ودخلت الى الغرفة المصاوبة •

« ان هذه الغرفة الأخرى أقل سعة وأكثر ازدحاماً من الغرفة الأولى ، حتى انني لم أعرف كيف أستطيع التحرك فيها • كان في الزاوية سرير ضيق يكاد يملأ الغرفة كلها • أما باقي الأثاث فلا يعدو ثلاثة كراسي عادية تكدست عليها أنواع شتى من الأسماك البالية والأطمار الخلقية ، ومائدة غليظة من موائد المطابخ وضعت أمام ديوان عتيق مغطى بقماش مشمع ، وقد تقاربت هذه الأشياء كلها تقارباً يكاد يكون التصاقاً ، فلا يدرى المرء كيف يتسلل بين المائدة والسرير •

« وعلى المائدة كانت تشتعل شمعة في شمعدان من حديد يشبه شمعدان الغرفة الأخرى ؟ وثمة طفل وليد لا يكاد يتجاوز من عمره ثلاثة أسابيع كان يصرخ راقداً على السرير ، وبقربه امرأة مريضة شاحبة

كانت « تغبر » له أو قل تبعه تقطيعه • ان المرء ليدرك أنها خارجة من فترة النفاس • أما الطفل فهو لا ينقطع عن الصراخ ، بانتظار مدى أمه الهزيل • وعلى الديوان كان ينام طفل آخر ، هو بنت في السنة الثالثة من عمرها قد ألقى عليها رداء يوحى منظره بأنه « فراك » • وقرب المائدة كان يقف رجل يرتدى رديجوتا مهترتا متنسلا (كان الرجل قد خلع معطفه ووضعه على السرير) ، وهو بسبيل قض صرة ملفوفة بورق أزرق فيها رطلان من خبز أسود وقطعتان صغيرتان من مقانق • وكان على المائدة أيضاً إبريق شاي ملآن ، وبقايا خبز أسود • وتحت السرير يستطيع المرء أن يرى حنية مفتوحة ورزمتان محشوتان أسملاً •

« الخلاصة : فوضى رهية ! وقد أوحى الى السيد والسيدة منذ النظرة الأولى أنهما شخصان محترمان ، ولكن الفقر المدقع هو الذى هوى بهما الى هذه الحالة من التردى التى تصبح الفوضى فيها أمراً مفروضاً يكف المرء عن مقاومته ثم يألفه ويستاده ، وينتهى به الأمر لا الى المعجز عن الاستغناء عنه فحسب ، بل كذلك الى أن يجد فى تزايد يوماً بعد يوم لذة مريبة من لذائذ الانتقام لا أدري ما هى !

• كان السيد حين دخلت بيده دخوله يفض حزمة ما اشترى من طعام ويتحدث الى امرأته بلهجة فيها كثير من احتياج الأعصاب • ولم تكن السيدة قد فرقت من تقطيع الوليد ، وكانت قد أخذت عيناها تدمعان بكاء • من الجائز أن الأبناء التى حملها اليها زوجها كانت سيئة كالعادة • ونهر الى السيد رجلاً محترماً بطمان اليه بل ويؤنس به • انه فى نحو الثامنة والعشرين من عمره ، اسمر اللون ، جاف البشرة ، مخلوق شعر الدقن ، الى حيتين صغيرتين فى العارضين • كان مكفهر الوجه عابس النظرة ، ولكن على شيء من كبرياء مرآية يسهل أن ثور • ولقد أحدث وصولي مشهداً غريباً •

« ان من الناس من يجدون في احتياجهم لذة عظمى ولا سيما حين يبلغ هذا الاحتياج أعلى ذروة له (وهذا ما يحدث لهم بسرعة) ؟ حتى يمكن أن يقال ان ايذاءهم واهانتهم في مثل تلك اللحظة أحب اليهم من أن لا يلحق بهم أذى ولا تُنزل فيهم اهانة . لكن هؤلاء الأشخاص الغضوبين يشعرون بعد ذلك بالآلام الدائمة ، هذا اذا كانوا أذكياء طبعاً وكانوا قادرين على أن يدركوا أنهم اندفعوا اندفاعاً أقوى عشر مرات من الاندفاع الذي يقبله العقل .

« نظر الى الرجل خلال لحظة مذهولاً ، بينما كان وجه امرأته يعبر عن الفزع ، كأن ظهور كائن انساني في غرفتهم حادث رهيب ! ولكنه لم يلبث فجأة ، قبل أن يتسع وقتي لأن أقول كلمتين ، لم يلبث أن هجم على بنوع من الحلق المسعور . لقد جرح شعوره كثيراً أن يرى رجلاً حسن الثياب لائق الهندام يسمع لنفسه بأن يدخل الى مسكنه الحقير بغير كلفة أو تخرج ، فيأخذ يتأمل بنظراته هذا البيت الحقير الذي يشعر هو نفسه منه بخجل وعار . ولا شك أن هذه الفرصة التي أتت له ، وهي أن يصب على شخص من الأشخاص ما كان يعمل في نفسه من غضب سببه ضروب الاخفاق التي يعني بها ، أقول لا شك أن هذه الفرصة قد أحدثت له لذة ؟ حتى لقد اعتقدت في لحظة من اللحظات أنه سوف يضربني . وقد شحب وجهه كشحوب وجه امرأة أصابتها نوبة هستريا ، فارتفعت زوجته من ذلك ارتياحاً شديداً .

« صرخ يقول مرتجفاً مرتعشاً حتى ليكاد يعجز عن النطق بكلماته :

« - كيف تجاسرت أن تدخل هكذا ! اخرج !

« ولكنه سرعان ما رأى محفظته في يدي .

« قلت بلهجة فيها أكثر ما يمكن من هدوء وجفاف (وتلك هي

اللهجة المناسبة في هذا المقام على كل حال) :

« - أحسب أن هذه المحفظة قد سقطت منك »

« ظل الرجل واقفاً أمامي بعض الوقت مروّعاً مذعوراً كأنه لا يفهم شيئاً » ثم نلّمس جيبه بحركة سريعة ، وفتح فمه مشدوهاً ، ولطم جيبه ، وقال :

« - عثرت عليها ؟ كيف عثرت عليها ؟

« فشرحت له بكلمات قليلة وبلمهجة أكثر جفافاً كيف التقطت المحفظة بعد سقوطها منه ، وكيف ركضت وراءه نادياً إياه بغير طائل ، وكيف تعقبته صاعداً درجات السلم أربعاً أربعاً ، على غير هدى وبدون يقين ، وانما بنوع من الظن والتخمين »
« صاح يقول متجهاً الى امرأته :

« - هذه أوراقى ! هذه آخسر ما أملك من وسائل ! هي كل ما بقى لى !

« وأضاف يقول لى :

« - آه يا سيدى !... هل تعلم ما أسديت الى من جميل ؟ لولا أنك عثرت لى على هذه الأوراق لضمت وهلك !... »

« فى أثناء ذلك كنت قد أمسكت زر الباب لأخرج دون أن أجيّب ، لكننى شعرت باختناق وألمت بى نوبة سعال مفاجئة بلغت من القوة والشدة أتتى أصبحت لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمي ! ورأيت السيد يلتفت الى كل جهة ليجد لى كرسيّاً خالياً . ثم يعمد الى أحد المقاعد فينزع كل ما كان ملقى عليه من أطمار ويرميها الى الأرض ويجلسنى على الكرسي بسرعة ولكن على حذر . وطال سعالى ثلاث دقائق أخرى على الأقل . فلما ثبت الى نفسى كان جالساً بجانبى على كرسي آخر لا شك أنه أخلاء هو أيضاً مما كان عليه من أسمال ، وكان ينظر الىّ محدقاً .

« قال لى باللهجة التى يتكلم بها الأطباء عادة حين يواجهون مرضاهم :

« - ظاهر عليك أنك ... مريض ! اننى ... طيب . (لم يستعمل كلمة « دكتور ») .

« قال ذلك وأشار لى الى الترفة كأنما ليحتج على ما هو فيه من ظرف خاص ووضع شاذ . وأضاف :

« - أرى أنك ...

« فقلت موجزاً وأنا أنهض :

« - أنا مريض بالسل ...

« فنهض هو أيضاً بوثبة . وقال :

« - لعلك تبلغ ... انك اذا عاجلت مرضك ...

« لقد كان مضطرباً أشد الاضطراب فلا يستطيع أن يثوب الى نفسه . وكان يحمل المحفظة بيده اليسرى .

« قاطعته من جديد ، وأنا أمسك زر الباب :

« - لا تقلق ... لقد فحصنى الدكتور « ب ين » فى الأسبوع

الماضى ، ومسألتنى واضحة (هنا أيضاً ذكرت اسم « ب ين . ») معذرة !

« وأردت أن افتح الباب فأخرج تاركاً الطبيب خجلاً ممتناً يسحبه

الشعور بالعار ، لكن معالى اللعين رجع يمسك بخناقى فى تلك اللحظة

نفسها . فعاد الدكتور يجلسنى وألحَّ علىَّ أن أرتاح . والتفت نحو

امرأته فوجَّهت الىَّ امرأته بضع كلمات لطيفة عبَّرت بها عن الشكر

والامتنان ، دون أن تتحرك من مكانها . وقد بلغت من اضطراب أثناء

ذلك أن خديها الجافين الحائل لونهما تخضبا بحمرة شديدة . وبقيت .

لكن هيتى كانت هيئة من يريد أن يظهر في كل لحظة بمظهر من يخاف أن يكون وجوده مزعجاً (تلك هي الهيئة المناسبة للاتقة) • لاحظت أن الندم قد أخذ يعذب صاحبي الدكتور آخر الأمر •

« بدأ يتكلم فقال وهو يقطع نفسه في كل لحظة قافزاً من جملة الى جملة قفزاً :

« لو أننى ... أنا أشكر لك جميلك اجزل الشكر ... وقد أسأت اليك اساءة بالغة ... اننى ... أنت ترى ... (أراني الغرفة من جديد) ... اننى الآن ... في وضع ...

« قلت :

« - كل شئ واضح • لا جديد في الأمر • لملك فقدت وظيفتك فجئت الى العاصمة تشرح أمرك وتلتبس وظيفه أخرى ، أليس كذلك ؟ « سألتني مدهوشاً :

« - من أين ... عرفت هذا ؟

« قلت بلهجة ساخرة غير مقصودة :

« - هذا يرى من أول نظرة • كثير من الناس يصلون من الأقاليم بآمال كهذه الآمال • يبذلون جهوداً ويقومون بمساعٍ ، ويعيشون حياتهم هكذا ، يوماً يوماً ...

« فأخذ يتكلم بحرارة مفاجئة • وكانت شفقتاه تختلجان • يجب أن أقول أن شكواؤه وقصته قد أثرت في نفسي • مكثت عنده قرابة ساعة • قصص على حكايته ، وهي لا تحوى شيئاً خارقاً على كل حال • انه موظف بالأقاليم في خدمة الدولة ، وقع ضحية دسائس ومكائد أقحم فيها حتى اسم زوجته • ثارت كبرياؤه وتمردت أنفقه وعيل صبره • وحدثت عندئذ

تقلات في أعضاء هيئة الموظفين تناسب خصومه ، فأخذ خصومه يدسون
الدسائس ويدبرون المكائد . وقدّمت في حقه شكوى . واضطر أن
يترك وظيفته وأن يعفى بآخر ما يملك من مال الى بطرسبرج ليشرح
أمره ، ويرهن على برأته . وظال مكوثه ببطرسبرج قبل أن يظفر
بمقابلة المسئول . ثم أُصنى إليه ، ثم صُرف بخشونة ، ثم بُذلت له
وعود ، ثم عومل بقسوة ، ثم أمر بان يعرض قضيته كتابة ، ثم رُفض
استلام عريضته المكتوبة ، ثم طُلب منه أن يقدم التماساً ، التماس الخ .
الخلاصة أنه ظل يركض خمسة أشهر أكل خلالها كل ما كان يملك من
بقية مال ، حتى انه رهن أثواب زوجته الى آخر واحد منها . وفي تلك
الآونة انما ولد لهما ولد ! و . . . و . . . « اليوم أُبلغت رفض التماسي
رفضاً حاسماً . لم يبق لي خبز ان صبح التعبير ، لم يبق لي شيء البتة ،
وامراتي ناهضة من نفاسها . انني . . . انني . . . »

وانتصب واقفاً على حين فجأة ، وأشاح وجهه . كانت امرأته تبكي
في أحد الأركان . وعاد يصرخ . ففتحت دفتري الصغير وأخذت أدوّن
فيه بضع كلمات . فلما فرغت من ذلك ونهضت ، رأيته مفروساً أمامي
ينظر الى « باستطلاع خائف . قلت له :

« - لقد دونت اسمك وسائر الأمور : المكان الذي كنت تعمل فيه ،
واسم حاكم الاقليم ، والتواريخ والأشهر . ان بين رفاقي في المدرسة
شاباً اسمه باخموتوف ، وعمّه مستشار دولة ومدير قسم ، هو بطرس
ماتفنفتش باخموتوف . . . »

« هتف الطبيب يقول بنوع من الارتجاف :

« - بطرس ماتفنفتش باخموتوف ؟ . . . ان القضية كلها منوقفة
عليه مرهونة به . . . »

« الحق أن كل شيء في قصة هذا الطبيب وفي النهاية التي احتُتمت

بها ، وهى نهاية شاركت أنا فيها على هذا النحو الذى لا يخطر بالبال ،
ان كل شئ قد تسلسل وترتب كما تتسلسل الأمور وترتب فى رواية
من الروايات وفقاً لحطة موضوعة .

« طلبت من هذين الميكنين أن لا يئبيا أى أمل على كلامى ، لانى
لست أنا نفسى الا تلميذاً فقيراً فى المدرسة الثانوية (تمكنت أن أضخم
رضاعة شائى ، والحق أنى كنت قد أنهيت دراستى فى المدرسة الثانوية
منذ مدة طويلة) ، وأضفت أنهما ليسا فى حاجة الى أن يعرفا اسمى ،
ولكننى ذاهب فوراً الى فاسيلفسكى أوستروف لأرى رفيقى باخوتوف ،
وأنا واثق أن عمه ، مستشار الدولة ، وهو رجب متقدم فى السن ولكنه لم
يتزوج وليس له أولاد ، يحب ابن أخيه حباً عظيماً يبلغ درجة الوله ،
لأنه يده آخر نفس الأسرة . وقلت اختتم كلامى ان هذا الرفيق سوف
يستطيع أن يضع لكما شيئاً بالتأثير فى عمه ، ارضاءً لى .

« هتف الطيب يقول مرتضاً كأن به حمى ، بينما كانت عيناه
تلتعنان :

« لا أريد الا أن أسمع لى بشرح أمرى أمام صاحب السعادة !
ليتتى أظفر بأن أستطيع الحصول على شرف عرض ظلامتى وبسط
شكواى له !

« نعم ، هذا هو التعبير الذى استعمله : « ليتتى أظفر بأن أستطيع
الحصول على شرف ... » . ويعد أن كررت مرة أخرى أن المسعى قد
يخفق حتماً ، وأن جميع جهودنا قد تظل عقيمة ، أضفت أعلن أن عليهما ،
إذا لم اجىء اليهم فى صباح غد ، أن يفهما أن المسعى لم يشر ، فلا يتوقعا
شيئاً . لن أنسى ، ما حيت ، تعبير وجهيهما حينذاك . وركبت عربة
ومضيت الى فاسيلفسكى أوستروف رأساً .

« كما قد عشنا فى عداوة متصلة ، انا وباخوتوف هذا ، خلال عدة

سنتين بالمدرسة • كان يُعَدُّ عندنا ادرستقراطياً ؛ أو هذا على الأقل ماوصفته
أنا به • كان دائماً حسن الهمدَام أتيق الملبس ، يصل الى المدرسة بمركبته
الخاصة • لم يكن متكبراً أو متعجرفاً • كان رفيقاً ممتازاً ، مشرق المزاج
حلو المعاشرة دائماً ، فكه الحديث مرح النكتة حاضر البديهة أحياناً ، دون
أن يكون ذا ذكاء عظيم ونباهة كبيرة • ومع ذلك كان هو الأول ترتيباً في
الصف على الدوام ؛ ولم أحصل أنا على الدرجة الأولى في أى شيء يوماً •
وكان جميع زملائه يحبونه ، الا أنا • وقد حاول التودد الىّ مراراً خلال
السنتين التي قضيناها في المدرسة معاً ، لكنني كنت في كل مرة أشيح
وجهي عنه متجهماً حانقاً •

« انتى لم أره منذ نحو سنة • هو الآن في الجامعة • فلما دخلت عليه
في نحو الساعة التاسعة من المساء (ولم أدخل عليه بدون رسميات ، فان
الخدم قد هبوا اليه يلبفونه حضوري) ، استقبلني في البداية مدهوشاً ،
بل استقبلني بغير كبير بشاشة لكنه لم يلبث أن استرد مرحه المعهود فيه ،
وانطلق يضحك فجأة وهو ينظر الىّ • ثم هتف يسألني بطريقته المألوفة
التي تمتاز برفع الكلفة وروح المودة :

« - ماذا أصابك حتى خطر ببالك أن تزورني ؟

« ان في لهجته شيئاً من الجسارة وقلة التحرج دائماً ، لكنها لا تكون
مهينةً أو مؤذية في وقت من الأوقات • تلك سمة من سماته كنت أحبها
فيه ، وكانت مع ذلك سبب كرهى له • وصاح يسألني مذعوراً :

« - ولكن ماذا بك ؟ آئت مريض الى هذه الدرجة ؟

« كان اسعال قد استبد بي ، فنهالكت على كرسي ، ولم أستطع أن
استرد تنفسي الا بكثير من العناء •

« قلت له :

« - لا تقلق ! اننى مريض بالسل . لى عندك رجاء .
« جلس مدهوشاً ، وأخذت أقص عليه حكاية الطبيب كاملة ، وقلت
له انه قد يستطيع أن يصنع لهذا المسكين شيئاً ، وذلك لما له على عمه من
نفوذ . قال :

« - سأفعل ، سأفعل حتماً ! سأتوسط لدى عمى منذ الغد . بل اننى
لستبط جداً ؟ ما كان أحلى أسلوبك فى سرد القصة كلها . ولكن كيف
راودتك فكرة الاعتماد على رغب كل شىء يا تيرتيف ؟

« - ان كل شىء فى هذه القضية متوقف على ارادة عمك ومرتهن
بمشيئته . اتنا يا باخموتوف قد كنا عدوين دائماً ، لكننى لما أعرفه من
نبي قلبك وشهامة طبعك قدّرت أنك لن ترفض رجاء لعدو .
« كذلك أضفت أقول بلهجة فيها قليل من سخرية . فهتف يقول
وهو ينفجر ضاحكاً :

« - مثل نابوليون الذى اعتمد على كرم انجلترا !...
« واذ رآنى أنهض جاداً الهيئة قاسى الوجه ، أسرع يضيف قوله :
« - سأفعل اللازم ، سأفعل اللازم ! بل سأذهب الآن فوراً
إذا أمكن !

« وبالفعل ، سوّيت القضية على نحو لم يكن فى الحسبان قط ،
سوّيت تسوية نالت رضانا كاملاً . فما هى الائمة أسابيع حتى حصل
صاحبنا الطبيب على وظيفة جديدة فى اقليم آخر ، مع دفع نفقات الانتقال ،
بل وتقديم مساعدة مالية . وأظن أن باخموتوف قد حمل الطبيب على أن
يقبل منه سلفة على سبيل الاقتراض . وأخذ يزوره كثيراً (بينما قطعت
أما زيارتى عادداً . وكنت ، اذا اتفق أن زارنى الطبيب مصادفة ، استقبله
استقبالاً يكاد يكون جافاً) . وقد لقيت باخموتوف أثناء تلك الأسابيع

السة مرة" أو مرتين ، ثم التقينا مرة ثالثة حين احتفلنا بسفر الدكتور .
لقد دعا باخموتوف صاحبنا الطيب الى عشاء وداع مع شمانيا . وحضرت
زوجة الطيب العشاء ، لكنها تركتنا فى ساعة مبكرة لتضى الى العناية
بالطفل . كان ذلك فى بداية شهر أيار (مايو) . المساء جميل . قرص
الشمس الضخم يغيب فى الخليج . أوصلنى باخموتوف الى بيتى عائداً .
مررنا بجسر نيقولا ، وكنا ثملين بفض الثمل كلانا . حدثنى عن ابتهاجة
العظيم بالنهاية التى انتهت اليها قضية الطيب . شكر لى لا أدرى ماذا .
وصف لى الارتياح الذى يحسه بعد أن صنع خيراً ، وقال ان الفضل فى
هذا كله يرجع الى . أعرب عن اعتقاده بخطأ أولئك الكثرين الذين
يزهون فى هذه الأيام الى أن صنع الخير الفردى لا قيمة له .

« فاستولت علىّ أنا أيضاً رغبة فى الكلام لا ميل الى مقاومتها .
فبدأت أتكلم فقلت :

« - ان من يأخذ على عاتقه أن يقوم بعمل برّ فردى ، يسعى الى
طبيعه الانسان ويهين الكرامة الشخصية لمن أحسن اليه . على أن تنظيم
« الاحسان الاجتماعى » ومسألة الحرية الفردية أمران مستقلان ، لا ينغى
أحدهما الآخر . ان أعمال البر الفردية تظل باقية لأنها تقابل حاجة لدى
الانسان هى حاجة حية الى أن يكون لفرد تأثير مباشر فى فرد آخر . كان
يميش بموسكو جنرال عجوز ، أقصد « مستشار دولة » اسمه اسم
ألمانى . لقد قضى حياته يزور السجون والمجرمين . حتى صارت كل
مجموعة من المحكوم عليهم بالسجن الذى يستعدون للترحيل الى
سيريا ، تعرف مقدماً أن هذا الشيخ الطيب سيزورها فى « جبل
المصافير » * . وكان الرجل يقوم بمهمته تلك فى كثير من الجد والتقوى .
يصل الى المكان فيستعرض جميع السجناء المصطفيين حوله ، يقف أمام كل
واحد منهم ، ويسألهم عن حاجاتهم ، ولا يحاول أن يلقى عليهم دروساً

فى الأخلاق ناصحاً أو واعظاً ، ويناديهم جميعاً بقوله « يا أصدقائي » ،
 ويوزع عليهم عليهم مالا ، ويرسل اليهم أمتعة مما لا غنى عنه : جوارب
 تدفء أرجلهم وشيئا من قماش ، ويأتيهم فى بعض الأحيان بكتب دينية
 صغيرة يسلمها للذين يعرفون القراءة ، مقتنعا اقتناعاً عميقاً بأنهم سيقرونها
 أثناء الطريق وسينقلون مضمونها للذين لا يعرفون القراءة وكان
 يندر أن يسألهم عن الجرائم التى ارتكبوها . وإنما هو يصنى ، فى أكثر
 تقدير ، للكلام أولئك الذين كانوا يحبون من تلقاء أنفسهم أن يسروا اليه
 بأمرهم . وكان لا يفرق بين المجرمين أى تفريق ، بل يساوى بينهم
 مساواة تامة . وكان يكلمهم كما يكلم اخوة ؟ وكانوا ينتهون هم أنفسهم
 الى أن يعلوه أباً . فإذا لاحظ فى جماعة امرأة تحمل على ذراعها طفلاً
 اقترب منها فلاعب الطفل وصفق له نصابه كى يضحكه . هكذا قضى
 حياته الطويلة الى أن مات . وظفر بأن يكون معروفاً فى روسيا وفى
 سيبيريا كلها ، لدى السجناء على الأقل . وقد حدثنى رجل كان فى سيبيريا
 فوصف لى كيف كان أعنى المجرمين يتذكرون هذا الجنرال ، مع أن هذا
 الجنرال كان حين يزور فرن المرحلين يندر أن يستطيع إعطاء كل واحد
 منهم أكثر من عشرين كوبكاً . صحيح أن هؤلاء الأفراد كانوا لا يتحدثون
 عن الجنرال بالفاظ فيها كثير من الحماسة والحرارة ، حتى ولا بلهجة فيها
 كثير من الجسد . كان واحد من هؤلاء « الأشقياء » ، وهو مجرم فظيع
 لعله قتل ستة رجال أو ذبح ستة أطفال لا لسبب خير حب التلذذ بالقتل
 (يقال ان هناك أوغاداً من هذا النوع) كان ينتهد من حين الى حين
 ويهتف متسائلاً : « ترى ماذا الذى صار اليه ذلك الجنرال الطيب ؟ من
 يدري أما يزال حياً أم مات ؟! . . . » . كان هذا الحاطر يلم برأسه دون
 أى سبب ظاهر ، ربما مرة واحدة خلال عشرين سنة ، وربما مع ابتسامه
 تطوف بشفتيه أيضاً ، ثم لا شىء غير ذلك ! ولكن من كان يدري أن

« الشيخ الطيب » قد زرع في هذه النفس بذرة ستبقى فيها الى الأبد ، وسيحتفظ الرجل بذكرها عشرين عاماً ؟ هل تستطيع ان تعرف يا باخموتوف ما يحدثه هذا التواصل بين انسان وانسان من تأثير في مصير الآخر ؟ ان ههنا حياة بكاملها ، وعدداً لا نهاية له من التفرعات تغيب عنا ولا تبدو لأبصارنا . ان أمهر لاعب من لاعبي الشطرنج وأبعد واحد منهم نظراً لا يستطيع أن يتنبأ الا الا بعدد محدود من الضربات التي سيجي بها خصمه . لقد حدثونا عن لاعب فرنسي كان يستطيع أن يحس عشر ضربات سلفاً ، فكان حديثهم عنه يشبه أن يكون حديثاً عن معجزة خارقة . فما أكثر الضربات والتركيبات التي تغيب عنا فلا تظهر لأبصارنا في الحالة التي نحن بصدد الكلام عليها الآن ! انك حين تزرع البذرة ، حين تقوم بعمل « البر والاحسان » في أية صورة من الصور ، حين تقوم بفعل الخير الذي تقوم به ، انما تهب جزءاً من شخصيتك وتأخذ جزءاً من شخصية الآخر . فيكون بين وجودكما تواصل . ويكفي أن تتبه قليلاً حتى تكافأ عن ذلك بالمعرفة ، تكافأ باكتشافات لم تدر في خلدك قط . ولا بد أن تنتهي في الحتام حتماً الى أن تعد عملك الطيب علماً ، فهو يسيطر على كل حياتك وربما ملأها ملئاً تاماً .

« ثم ان جميع أفكارك وجميع البذور التي زرعتها وملك نسبتها سوف تمتد لها في الأرض جنود ، وسوف تنمو وتكبر . ان من أخذها عنك سينقلها الى غيرك . من ذا الذي يعرف أي نصيب ستال من حل المشكلات التي يتوقف عليها مصير الانسانية ؟ واذا استطاعت معرفتك وحياة كاملة موقوفة على هذا النوع من العمل أن ترفض أخيراً الى ذرى تستطيع وأنت فيها أن تبذر بذوراً كثيرة وأن تورث الكون فكرة كبيرة ، فلسوف ... النخ النخ ، تكلمت كثيراً في ذلك اليوم .

« هتف باخموتوف يقول كمن يوجه لوماً عادماً الى شخص ثالث:

« - ثم تظن بعد ذلك أن الحياة ممنوعة عنك محظورة عليك !
« كنا في تلك اللحظة متكئين بكوعينا على أقرض الجسر ، وكنا ننظر
الى نهر نيفا . فقلت وأنا أميل مزيداً من الميل فوق الدربزين :

« - أتعرف ماذا خطر ببالي ؟
« فصاح باخموتوف يقول شبه مدعور :
« - أن تلقى بنفسك في الماء ؟
« لعله كان قد قرأ هذا الحاطر في وجهي .
« قلت :

« - لا . انتهى الآن اكتفى بالتفكير على النحو التالي : لقد بقي لي من
الحياة شهران أو ثلاثة أشهر ، وربما أربعة . ولكن فلننظر ، مثلاً ، الى
اللحظة التي لا يكون قد بقي لي فيها الا شهران ، ولنفرض انني في تلك
اللحظة أردت أن أقوم بفعل خير يتطلب مني جهداً ، ويقتضي أن أذهب
وأجىء مرات ومرات ، ويسبب لي متاعب من نوع المتاعب التي سببتها لي
قضية صاحبنا الدكتور . سوف يكون عليّ في هذه الحالة أن أعدل عن
القيام بذلك العمل الطيب لضيق الوقت ، وأن أسعى الى عمل طيب آخر
يكون أقل شأنًا ويكون في طائفي أن أعمله (هذا اذا كان هوى القيام
بأعمال الخير قد استبد بى الى هذا الحد !) . فكرة مسلية ، أليس كذلك ؟

« كان باخموتوف المسكين شديد القلق عليّ . فأوصلني الى مسكني ،
وكان لبقاً فلم يعتقد أن عليه أن يعزّيني ويواسيني ، بل لزم الصمت طول
الوقت تقريباً . وحين ودّعني شدّ على يدي بحرارة واستأذني في أن
يزورني . فأجبتّه بأن مجيئه اليّ ، اذا كان يريد أن يجيئ اليّ « مواسياً
ومعزياً » (ذلك أن زيارته ، وان كانت صامتة ، سيكون هدفها امواساة
والعزاء ، وقد شرحت له هذا) لن يكون في نظري أكثر من تذكير

بالموت الوشيك . فهزّ كنفه ، ولكنه وافقنى على صواب رأى . وافترقنا على بشاشة ومجاملة ، وذلك ما لم أكن أتوقعه .

« فى أثناء ذلك المساء ، وفى خلال الليلة التى أعقبته ، انما نبت فى نفسى « اقتناعى الأخير » . تشبثت تشبثاً نهماً بتلك الفكرة الجديدة ، وأخذت أحللها بجرادة وحماسة ، وأقلبها على جميع وجوهها ، وأتبعها فى جميع انعطافاتها (لم أتم فى تلك الليلة) . فكلما تعمقتها مزيداً من التعمق ، وكلما نفذت الى مزيداً من النفاذ ، امتلأت من ذلك بمزيد من الجزع . ثم استولى علىّ دعر فطيع لزمنى ولم يبارحنى طوال الأيام التالية . اتى فى بعض الأحيان ، ما ان أتذكر ذلك الذعر حتى يتابنى هلع جديد يجمدنى تجميداً . وخلصت من ذلك الى أن « اقتناعى الأخير » قد ترسخ فى نفسى ترسخاً يبلغ من القوة أنه يستحيل أن لا يصل بى الى خاتمة . ولكننى لم أملك من الجرأة ما يكفينى لأعزم أمرى وأتخذ قرارى . وبعد ذلك بثلاثة أسابيع كانت تلك التعللات والتهربات قد انقطعت ، ورجعت الى جرائى ، ولكن ذلك انما حدث فى أعقاب ظرف غريب كل القראה .

« اننى أذكر هنا ، فى هذا الشرح ، جميع هذه الأرقام وجميع هذه التواريخ . ولا شك أن ذلك لن يعينى فيما بعد ، أما « الآن » (وربما فى هذه اللحظة وحدها) ، فاننى أريد من أولئك الذين سيحكمون على عملى أن يتصوروا تصوراً واضحاً تسلسل الاستنتاجات المنطقية التى بها الى « اقتناعى الأخير » .

« قلت اننى اكتسبت الجرأة الحاسمة التى كانت تؤزنى لأضع ذلك « الاقتناع الأخير » موضع التنفيذ ، اكتسبتها لا بطريق الاستنتاج المنطقى فيما أعتقد بل فى أعقاب صدمة غير متوقعة ، على أثر حادث غير عادى كان يمكن أن لا يكون له أى صلة بمجرى القضية .

• فمنذ نحو عشرة أيام زارني روجويين بمناسبة مسألة تتعلق به
 ولا مجال للحديث عنها هنا • سم آكن قد رأيته قبل ذلك في يوم من
 الأيام ، ولكنني كنت قد سمعت عنه كلاماً كثيراً • أعطيته جميع المعلومات
 التي كان في حاجة اليها ، فلم يلبث أن انصرف • واذ أن ذلك كان هو
 الهدف الوحيد من مسعاه ، فقد كان يمكن أن تقف الأمور بيننا عند هذا
 الحد • لكن الرجل أثار اهتمامي اثاره قوية ، فظللت طوال النهار فريسة
 خواطر وأفكار بلغت من الغرابة اني قررت أن أزوره في انغد • فلما
 دخلت عليه لم يخف استيائه من رؤيتي ، وأفهمني « بكياسة ولباقة » أن
 علاقتنا يجب أن لا تطول • ومع ذلك قضيت عنده ساعة كانت شائعة لي
 وله على السواء فيما أظن • ان التعارض بيننا يبلغ من القوة أننا لم نستطع
 لا أنا ولا هو الا أن نلاحظ ذلك ، وقد لاحظته أنا خاصة • أنا انسان
 أيامه معدودة ، وهو رجل زاهر بحياة مندفعة ، مستسلم استسلاماً تاماً
 لهوى اللحظة الحاضرة ، لا تهمة الاستنتاجات « الأخيرة » أو الأرقام أو
 أي شيء • ولا يعنيه أمر مما • • • مما لا شأن له بموضوع هواه
 وجنونه • فليذهب لي السيد روجويين هذا التعبير ويرجعه الى الحرافقة لدى
 كاتب ضعيف في الافصاح عما يجول فكره • لقد أحسست أثناء لقائني
 بالسيد روجويين ، رغم قلة بشاشته وتودده ، أنه رجل ذكي ، قادر على
 أن يفهم أموراً كثيرة ، وان كان لا يعنيه شيء مما لا يتصل به مباشرة •
 لم أشر أمامه أية اشارة الى « اقتناعي الأخير » ، لكنني أدركت من بعض
 العلامات أنه قد كفاه أن يسمع كلامي حتى يحزره • لقد كان ساكناً
 لا يتكلم • ان هذا الرجل صموت صمتاً هائلاً • وقلت له عند انصرافه
 انه هو نفسه ، رغم الفروق التي بيننا ورغم التعارض الذي يفصلنا -
 الأطراف التصوي تلتقي كما يقول الفرنسيون - (ترجمت له هذا التعبير
 الفرنسي الى الرومية) ، اقول انه رغم ذلك قد لا يكون بعيداً عن هذا

« الاقتناع الأخير » الى الحد الذى يُظن ، فلم يجبنى الا بتصغيرة فى وجهه
زاخرة بالمرارة ، ثم نهض ومضى يأتينى بقبعتى متظاهراً بالاعتقاد أننى أتهماً
للانصراف . وبحجة أنه يوصلنى الى الباب أدباً ولباقة ، لم يزد فى الواقع
على أن طردنى من بيته المتعجب طرداً . ولقد عجبت لبيته هذا فعلاً : لكأنه
مقبرة . ولكننى أظن أنه يعجبه ويرضيه . وهذا شيء يفهمه المرء
بسهولة : فان روجويين يعيش حياة أواخر بالعنف وأقوى اتصالاً بالأمور
المباشرة من أن يشعر بحاجة الى جو فى البيت أبهج وأطف .

« أرهقتنى زيارتى تلك لروجويين . ثم اننى كنت أشعر بتعب منذ
الصباح . حتى اذا كان المساء أحسست باعياء شديد وضعف كبير فعمدت
على سريرى . كانت حمى عيفة تتأينى فى بعض اللحظات حتى لتجعلنى
أهذى . ولبت كولينيا يقربى حتى الساعة الحادية عشرة . وأنا أتذكر مع
ذلك كل ما قاله لى وكل الأمور التى تكلمنا عنها . ولكن حين كانت تطبق
أجفائى من حين الى حين فأغفو قليلاً ، فان صورة ايفان فومتش كانت
تعود الى دائماً ، فأراه فى الحلم وقد أصبح مليونيراً ، وأراه لا يدرى ماذا
يصنع بملايينه ، فهو لا يبرح يحفر فى رأسه باحثاً لها عن مكان ، ثم
يخطر بباله أن من الممكن أن تُسرق فيرتجف خوفاً وينتهى به الأمر الى
أن يقرر دفنها . فأنصح به بأن يصهر هذه الثروة بدلاً من أن يدفنها فى
غير طائل ، ثم يصنع منها تابوتاً ذهبياً صغيراً للطفل الذى تركه يموت
« متجمداً » من البرد ، وذلك بعد أن يخرج رفاته من القبر ؟ فيستقبل
سوريكوف هذه النصيحة الساخرة بدموع شكر وعرفان ، ويسرع
يفعلها موضع التنفيذ . فأبصق على الأرض تعبيراً عن الشعور بأنه امرؤ
لا سبيل الى اصلاحه ، وأدعه حيث هو وأمضى . وقد أكد لى كولينيا ، حين
استرددت وعيى استرداداً كاملاً ، أننى لم أتم البتة ، وأننى ما انفككت
أكلمه عن سوريكوف طوال الوقت . ومررت لحظات اجتاحتنى فيها نوبات

غم رهيب واضطراب فظيع بذلك تركنى كوكبا وهو يشعر بقلق • ونهضت
اغلق الباب وراه بالمفتاح • فتذكرت في تلك اللحظة • على حين فجأة •
لوحة كنت رأيته في ذلك الصباح عند روجيين • في إحدى الصالات
الممتدة المظلمة من منزله فوق باب من الأبواب • لقد أرايتها هو نفسه
حين مررنا بها • فلبثت واقفاً قرابة خمس دقائق • فيما أذكر - أمام تلك
اللوحة التي ألفتني الى حالات اضطراب عنيف رغم خلوها من أية
قيمة فنية •

• كانت اللوحة تمثل المسيح لحظة انزاله عن الصليب • ان
الرمامين • اذا لم يخطئ • ظنى • انما اعتادوا أن يصوروا المسيح اما على
الصليب واما بعد نزوله عنه • مع وميض جمال في وجهه يفوق الطبيعة •
انهم يحرسون على أن يحتفظوا له بذلك الجمال حتى في وسط أشد
أنواع العذاب قسوة • أما اللوحة التي رأيته عند روجيين فلم يكن فيها
شيء من هذا • انها تصوير كامل لجثمان انساني يعبر عن جميع العذابات
التي لا حدود لها مما احتمله المسيح حتى قبل صلبه • فيها آثار الجروح
وآثار اللطمات والضربات التي أمطر بها حراسه والناس حين كان
يحمل صليبه ويسقط على الأرض تحت وطأة ثقله • وفيها أخيراً آثار
الصليب خلال ست ساعات (اذا صدق حسابي أنا على الأقل) • هذا حقاً
وجه انسان أنزل عن الصليب « منذ برهة » • انه ما يزال يحتفظ بكثير
من الحياة والحرارة • ولم يكن التجسد قد فعل فعله بعد • فكان وجهه
الميت ما يزال يصور الألم كأنه ما انفك يعانيه (لقد أدرك الفنان هذا
ادراكاً قوياً) • زد على ذلك أن الوجه كان يعبر عن الحقيقة صارمة
لا تراعى ولا تدارى : فكل شيء فيه طبيعي • انه حقاً وجه أى انسان عانى
تعذيباً كذلك التعذيب •

• أنا أعرف أن الكنيسة المسيحية قد ذهبت • منذ القرون الأولى •

الى أن آلام المسيح لم تكن رمزية بل واقعية ، وإن جسمه كان يخضع وهو على الصليب لجميع قوانين الطبيعة بدون أى تحديد أو تضيق . فكانت اللوحة اذن تمثل وجهاً شوهته الضربات تشويهاً فظيماً ، فورم وتنفخ ، وامتلاء خدوشاً وجروحاً نازقةً رهيبة ، وحملت عيناه ، وانقلبت حدقاتهما ، واتسع بياضهما الذى يلتصق التماصاً زجاجياً يعكس الموت . غير أن أغرب ما فى الأمر هو هذا السؤال العجيب المثير الذى يوجه منظر جثمان ذلك الانسان الذى عذب هذا التمذيب : اذا كان جميع مرديه ، اذا كان جميع الذين سيصبحون حواريه ، اذا كانت النساء التى تبعته وتعلقت بأسفل الصليب ، اذا كان الذين آمنوا به وعبدوه ، اذا كان جميع هؤلاء قد رأوا أمام أبصارهم جثة ك تلك الجثة (ولا بد أن الجثة كانت على الصورة التى وصفناها) فكيف أمكنهم أن يصدقوا وهم يرون هذه الرؤية أن الشهيد سيبعث حياً ويقوم ؟ ان المرء ليقول لنفسه رغم أنه : اذا كان الموت أمراً فظيماً الى هذا الحد ، اذا كانت قوانين الطبيعة قوية هذه القوة ، فكيف يمكن الانتصار عليها ؟ كيف يمكن تذليلها فى حين أنها لم تلق حتى أمام ذلك « الذى » أخضع الطبيعة أثناء حياته ، وجعلها تنصاع له ، وقال : « قومى طليتا » * فاذا الصبية تقوم ، وقال « اخرج لعازر » * فاذا الميت يخرج من القبر . حين يتأمل المرء هذه اللوحة فانه يتخيل الطبيعة فى صورة وحش ضخم حاقد أخرس . أو قل ، مهما يكن التشبيه غريباً غير متوقع ، ان من الأصح كثيراً أن تشبه الطبيعة هنا بآلة حديثة من آلات البناء الضخمة ، صماء لا تحس ، بلهاء لا تفهم ، تلففت ثم طحنت ثم ابتلعت « كائناً » لا يعادله كائن ، يساوى وحده كل الطبيعة وكل القوانين التى تحكم الطبيعة ، وكل الأرض التى عليها لم تُخلق الا ليظهر ذلك « الكائن » !

« ان ما بدا لى أن تلك اللوحة تعبر عنه انما هو فكرة وجود قوة

غامضة غاشمة أبدية يخضع لها كل شيء ، وتحكمكم رغم أنوفكم • ان
الناس الذين كانوا يحيطون بالميت ، رغم أن اللوحة لم تصور أى واحد
منهم ، لا بد أنهم شعروا بقم فظيع وانصحاق رهيب فى ذلك المساء الذى
حطّم ، دفعةً واحدة ، جميع آمالهم ، وكاد يحطم ايمانهم • لا بد أنهم
افترقوا على هلع هائل ملأ جوانب أنفسهم ، رغم أن كل واحد منهم حمل
فى قرارة نفسه فكرة كبيرة ترسخت فى أعماقه فلا سبيل الى انتزاعها منها
بعد ذلك قط • سؤال آخر : ترى لو استطاع « المعلم » أن يرى صورة
نفسه عشيّة تعذيبه ، أفكان يمشى الى الصليب والى الموت كما مشى اليهما ؟
ذلكم سؤال آخر يخطر ببالكم على غير ارادة منكم حين تنظرون الى تلك
الصورة •

• حاصرت هذه الخواطر فكرى بعد انصراف كوليّا خلال ساعة
ونصف ساعة • وكانت مفككة ، وأغلب الظن أنها كانت تشتمل على
هذيان ، لكنها كانت كذلك تكتسى فى بعض الأحيان مظهرًا محسوسًا •
هل يستطيع الحيا أن يضفى شكلاً معيناً على ما ليس له فى الواقع شكل ؟
كان يخيّل الىّ فى بعض اللحظات أننى أرى تلك القوة التى لا نهاية
لها ، أن أرى ذلك الكائن الأصم المظلم الأخرس يتجسد تجسداً مادياً
على نحو غريب لا سبيل الى وصفه • أذكر أننى أحسست بأن أحداً
حاملًا شمعة قد أمسك يدي فأراني عنكبوتة ضخمة كريهة ، مؤكداً لى
أن هذه العنكبوتة الضخمة هى بعينها ذلك الكائن المظلم الأصم القادر على
كل شيء ، ضاحكاً من الاستياء التى أظهرته •

• يقضى عرفتى فى الليل دائماً مصباح صغير أمام الأيقونة • ورغم
أن ضوء هذا المصباح كامد مهتر فانه يتيح تمييز الأشياء ، حتى ليستطيع
المرء أن يقرأ اذا هو دنا من الضياء • أظن أن الوقت كان بعد منتصف

الليل بقليل • لم أكن نائماً البتة ، وكنت مضطجماً مفتش العينين • وفيما أنا كذلك اذا بباب غرفتي يُشق فجأة فيدخل روجويين •

« دخل وأغلق الباب ثانية » ، ونظر الىّ دون أن يقول كلمة ، واتجه مثداً نحو الكرسي الذي يوجد في زاوية الغرفة تحت المصباح قريباً • دهشت أشد الدهشة ، وأخذت أرقبه منتظراً ما سوف يفعله • وضع كوعيه على منضدة صغيرة ، وحدّق الىّ بنظرة ثابتة صامتاً • انقضت ثانيتان أو ثلاث ثوان على هذه الحال • وأذكر أن صمته قد أهانني كثيراً وأثار حنقي • لماذا لا يحزم أمره فيتكلم ؟ وقد استغربت طبعاً أن يجيء في ساعة متأخرة هذا التأخر كله ، ولكنني لا أذكر أن هذا شديني وأذهلني كثيراً في حد ذاته • بالعكس : صحح أنني لم أعرب له في الصباح عن فكريتي اعراباً واضحة ، لكنني كنت أعلم أنه حزرها وأدركها • ولقد كانت تلك الفكرة تستحق فعلاً أن يجيء لمعاودة الكلام فيها ، ولو في ساعة متأخرة جداً • بذلك قرّرت أنه انما جاء لهذا الغرض • كنا قد افترقنا في الصباح على غير وفاق ووثام ، حتى أنني أذكر أنه رشقني مرة أو مرتين بنظرة فيها كثير من السخرية والاستهزاء • وهذا التعبير نفسه عن السخرية والاستهزاء هو ما أقرؤه الآن في نظراته ، وهو ما أشعر أنه يجرح شعوري ويهين كرامتي • أما أنني كنت أرى أمامي روجويين نفسه فعلاً ، وأنني لا أرى حلم نوم أو أشباح هذيان فذلك ما لم يراودني فيه أيسر شك في أول الأمر ، حتى ان هذه الفكرة لم تخطر ببالي أصلاً •

« ويظل روجويين جالساً ، ويظل ينظر الىّ مبتسماً ابتسامته الساخرة تلك • انقلبت على سريري غاضباً ، ووضعت كوعي على وسادتي وقررت أن أقلّد صمته ، ولو طال هذا الصمت الى غير نهاية • لا أدري لماذا أردت أن يكون هو البادي بالكلام حتماً • أظن أن نحو عشرين

دقيقة انقضت على هذه الحال • وفجأة ومضت في ذهني فكرة : من يدري؟
قد لا يكون هذا روجوين ، بل شبحاً لا أكرر !

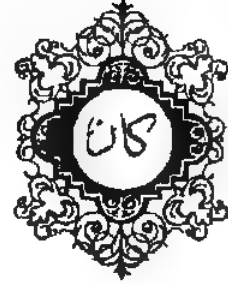
• لم يكن قد تراءى لي أي شبح لا أثناء مرضي ولا قبل مرضي •
وأنا منذ طفولتي حتى هذه اللحظة ، أي حتى الآونة الأخيرة ، رغم أنني
لم أومن قط بأشباح تظهر ، كان يبدو لي دائماً أنني سأموت فوراً اذا
اتفق أن ظهر لي شبح مرة • ومع ذلك أذكر أنني حين خطر ببالي أن
هذا ليس روجوين بل هو شبح ، لم أشعر من ذلك بأي رعب • وأكثر
من هذا أنني شعرت بغضب • أمر غريب : ان التساؤل عما أراه أمامي
أهو شبح أم هو روجوين بشخصه لم يشغلني ولا أقلقني ، كما كان
طبيعياً أن يحدث ذلك • ويبدو لي أن فكري كان منصرفاً الى غير هذا •
من ذلك مثلاً أنني كنت على أحر من الجمر رغبة في أن أعرف لماذا كان
روجوين يرتدى الآن رداء « فراك » ، وصديرة بيضاء ، وربطة عنق
بيضاء بينما كان في الصباح يلبس ثوباً للمنزل ويتعل خفين • وقلت
لنفسى : اذا كان ما أراه شبحاً فأنى غير خائف منه • فلماذا لا أنهض
فأقرب منه لأتحقق بنفسى ما هو ؟ أترانى مع ذلك خائفاً لا أجسر أن
أفعل ؟ ولكن ما ان خطر ببالي أنني خائف حتى شعرت بصقيع في جسمي
كله ، وسرت في ظهري رعدة ، وأخذت ركبتاي تصطكان ارتجافاً •
وكأن روجوين أدرك رعبى ، فاذا هو ، في تلك اللحظة نفسها ، يسحب
ذراعه التي كان متكئاً على كوعها ، ويتصب قائماً ، ويفتح فمه يهم أن
يضحك • وكان يحدق الى في اصرار وعناد • فاجتاحني حلق بلغم من
قوة الاستعار أنني أردت أن أهجم عليه • لكننى وقد آليت على نفسى أن
لا أكون البادى بقطع الصمت ، لم أتحرك عن سريري • ثم أنني لم أكن
واقفاً من أن ما أراه هو روجوين بشخصه ، وليس طيفاً أو شبحاً •
• لا أذكر كم طال هذا المشهد • لا ولا أستطيع أن أقول هل كنت

أغفو أثناء ذلك من حين الى حين • ونهض روجوين أخيراً ، فتأملنى بهدوء وانتباه ، كما فعل حين دخل ، ولكن دون ضحك ساخر فى هذه المرة ، ثم اتجه بخطى لا تكاد تلمس الأرض ، على رءوس الأصابع تقريباً ، اتجه نحو الباب ففتحه وخرج وأطلق وراة • لم أنهض من مكانى • ولا أذكر كم من الوقت ظلت على هذه الحال مضطججاً ، مفتتح العينين ، غارقاً فى أفكارى ، مستسلماً لحواطرى • ماذا كانت تلك الأفكار والحواطر ؟ الله أعلم ! ولست أذكر أيضاً كيف غفوت •

» واستيقظت فى الغد بعد الساعة التاسعة ، حين سمعت قرعاً على بابى • ان من المتفق عليه فى بيتنا أن تفرع ما تريونا بابى اذا لم أفتح من تلقاء نفسى بعد الساعة التاسعة ولم أنا أحداً لايتانى بالشأى • فلما فتحت الباب للاتريونا أسرعرت أسأله : كيف أمكنه أن يدخل اذا كان هذا الباب مغلقاً • واستطلعت الأمر فأيقنت أنه ما كان لروجوين أن يستطيع دخول غرفتى لأن جميع أبوابنا تكون فى الليل مقفلة بالمفتاح •

» ان هذا الحادث الذى وصفته لكم بجميع هذه التفاصيل الكثيرة هو الذى حفنى على أن أأخذ «قرارى» نهائياً • ان هذا القرار لا يصدر اذن عن منطق الاستدلال العقلى بل عن شعور الاشتمزاز العاطفى • اتنى لا أستطيع أن أبقي فى حياة تكتسى أشكالاً غريبة وجارحة الى هذا الحد • ان ذلك الشبح قد تركنى تحت وطأة احساس بالذل • اتنى لا أشعر بأننى أرضى الخضوع لقوة تستعير مظاهر عنكبوت ضخمة • أنا لم أحس بشئ من التخفف الا حين رأيتنى أخيراً ، عند التسق ، أمام قرار كامل نهائى • ومع ذلك لم يكن هذا الا مرحلة أولى : وكنت سأجتاز المرحلة الثانية فى بافلوفسك ، ولكن هذا قد سبق أن شرحتة شرحاً كافياً • •

الفصل السابع



عندى مسدس صغير للجيب ، حصلت عليه حين كنت طفلاً ، في تلك السن المضحكة التي يأخذ فيها الطفل بالتحمس لقصص المبارزات وهجمات قطاع الطرق . كنت أحلم بأن أدعى الى مبارزة ، فأتف أمام مسدس خصمى رابط الجأش ثابت الجنان + وقد فحصت هذا المسدس منذ شهر وسلحته + ففي العلبة التي كانت تضمه وجدت رصاصتين ووعاء صغيراً يحتوى على بارود يكفى لطلقتين أو ثلاث . ان المسدس ردى . لا قيمة له ، فهو ينحرف ولا يتجاوز مداه خمس عشرة خطوة ، لكنه اذا وُضع على الصدغ رأساً فلا شك أنه يكفى لتخطيم الجمجمة .

« قررت أن أموت في بافلوفسك ، عند طلوع الشمس ، بعد أن أنزل الى الحديقة العامة حتى لا أحدث اضطراباً في الفيللا . ان «الشرح» الذي أتركه بعد موتى سيكون كافياً لتوجيه التحقيق الذى ستقوم به الشرطة + وسوف يستطيع عشاق علم النفس والمهتمون بالأمر أن يستخلصوا من ذلك كل ما يحلو لهم أن يستخلصوه . ومع ذلك لا أحب أن تُنشر هذه المخطوطة في الصحف . انتنى أرجو الأمير أن يحتفظ بنسخة عنده وأن يوصل النسخة الأخرى الى آجلايا ايفانوفنا ايباتشيننا . هذه ارادتى . وأنا أوصى بهيكل العظمى لأكاديمية الطب خدمةً للعلم .

« لا أعترف لأحد بحق الحكم عليّ » ، وأعلم أنني الآن في منجى من كل قضاء . منذ مدة قصيرة راودتني فكرة مضحكة . تساءلت : لو بدا لي فجأة أن أقتل أحد الناس ، أو أن أذبح عشرة أشخاص مرة واحدة ، أو أن أقترف أية جريمة فظيمة ، أن أرتكب أفظع جريمة يمكن أن يتحدث عن هولها الناس ، فما أشد الارتباك الذي سأضع فيه المحكمة وأنا لم يبق لي من الحياة الا أسبوعان أو ثلاثة ، وقد ألغى الاستجواب والتعذيب ؟ لو فعلت هذا لأنتج لي أن أموت مرفقاً مدلاً في المستشفى ، محاطاً بعناية الأطباء ، وقد يتوفر لي من الراحة والدفء هناك أكثر مما يتوفر لي في بيتي . لا أفهم كيف لا تخطر هذه الفكرة ببال الناس الذين يكونون في مثل حالتني ، ولو من قيل المزاج . لعل الفكرة خطرت ببالهم فعلاً ، فليس الفكهون هم الذين ينقصوننا أو ينقصون غيرنا .

« ولكن اذا كنت لا أعترف بقضاه يحكمون عليّ » ، فهذا لا ينبغي أنني أعرف أن الناس سيحكمون عليّ » ، حتى حين أكون قد أصبحت منهما أصم أبكم . لذلك لا أريد أن أمضي قبل أن أترك رداً حراً بغير اكراه ، لا لأبرر نفسي ، لا ، لا ! فما أنا في حاجة الى أن أطلب عفراً من أحد ، بل لأنني أحب أن أترك رداً ، ولأنني أجد في ذلك لذة .

« اليكم أولاً هذه الفكرة القريبة : من ذا الذي يستطيع -- وبأي حق ولأي سبب ؟ -- أن ينكر عليّ حرية التصرف في حياتي خلال هذين الأسبوعين أو هذه الأسابيع الثلاثة ؟ أية محكمة يمكن أن تكون جهة الاختصاص في هذا ؟ وما عسى أن تكون الفائدة لا من أن أكون مقضياً عليّ بالموت فحسب ، بل كذلك من أن أحتمل المدة الباقية لتنفيذ الحكم بالموت مدعناً عاقلاً ؟ هل يمكن أن ينتفع أحد بهذا حقاً ؟ هل تستفيد قضية الأخلاق من هذا فعلاً ؟ كان يمكن أن أقبل هذا الكلام لو كنت

أنتظر ، وأنا فى تمام العافية وفى كمال القوة ، أن يأتى حين * أكون فيه
نافلاً لأخى الانسان ، النع النع ... ان الأخلاق تستطيع عندئذ أن تهمنى ،
منقادة لروتين عتيق بال ، بأننى تصرفت فى حياتى دون استئذان ، أو أن
تهمنى بأقتراف ذنب آخر من هذا النوع ! ... أما الآن وقد أبلغت
موعد موتى ، فبماذا يمكن أن أنهم ؟ ما هى تلك الأخلاق التى تطلب منك
بالإضافة الى حياتك ، تلك الحشرة الأخيرة التى تلتفظ أثناءها آخر ذرة
من روحك ، سامعاً تلك الكلمات المواسية المعزية التى لن يفوت الأمير
أن يقولها لك وأن يصل منها الى براهمين مسيحية على أن من الأفضل لك
حقاً أن تموت ؟ (ان أمثاله من المسيحيين يصلون دائماً الى تلك الفكرة ،
فهى موضوع هوسهم !) . ما الذى يريدونه من حديثهم المضحك عن
« أشجار بافلوفسك » ؟ أيريدون أن يجلسوا ساعاتى الأخيرة أرقى
والطف ؟ أهم لا يدركون اذن أننى على قدر ما أتمنى نفسى فأنتقاد لقواية
هذا الشبح الأخير من الحياة والمحبة الذى يأملون أن يخفوا به عن بصرى
حائط منزل ماير وكل ما هو مسجل عليه بصراحة كبيرة وسداجة تامة ،
أننى على قدر ذلك يزداد شقاى وتفاقم تعاسى ؟ فيم تهمنى الطبيعة الجميلة
وحديقة بافلوفسك الصامتة ، وفيم يهمنى شروق الشمس وغروبها ،
والسماء الزرقاء والوجوه الرضية الرخية ، اذا كنت الشخص الوحيد
الذى يعد غير مفيد ، واذا كنت الشخص الوحيد الذى أبعد عن هذه
الوليمة منذ البداية ؟ ما حاجتى الى كل ذلك السناء وكل تلك الروعة اذا
كان يجب على فى كل دقيقة ، وفى كل ثانية ، أن أعلم مجبراً أن تلك
الذباب الصغيرة التى تدندن الآن حولى فى شعاع شمس ، يحق لها أن
تشارك فى تلك الوليمة وأن تشارك فى جوقة الطبيعة هذه . انها تعرف
المكان المحفوظ لها ، وهى تعبه وهى سعيدة به . أما أنا فأننى وحيدى
المنبوذ ؟ ولم يمننى عن فهم ذلك حتى الآن الا الجبن .

« اننى أعلم أن الأمير وسائر الآخرين يريدون أن يحملونى على
العدول عن هذه التعابير « الحاقدة الكارهة » ، ويودون لو يسمعوننى
أشد ، باسم انتصار الأخلاق ، تلك الأبيات الشعرية الكلاسيكية الشهيرة
التي أنشدتها ميلفوى اذ قال :

ألا فليبرّ جمالكَ المقدس
أصدقاء كثيرون ، ضُمتْ آذانهم عن سماع وداعى !
ولتطلّ أعمارهم ، ولتذرف لموتهم الدموع
ولتطبق أجفانهم يدا صديق

« ولكن صدّقوا أيها البسطاء ، صدّقوا كل التصديق ، أن فى هذه
الأبيات الواقعة وفى هذه المباركة الأكاديمية للعالم بشعر فرنسى ، كثيراً
من المرارة الحبيثة ، وكثيراً من البغضاء التي لا يشفى لها غليل ، البغضاء
التي تتلذذ بنفسها ؟ وأن تلك المرارة وهذه البغضاء بلقنا من القوة والشدة
أن الشاعر نفسه يمكن أن يكون قد انطلى عليه الأمر فحسب الكره والحقد
دموع حنان وعبرات عاطفة . ولا شك أن الشاعر مات وهو على ذلك
الوهم . رحمه الله ! اعلّموا أن هناك حداً للثم والقهر والنكد الذي
يحدثه فى نفس الانسان شعوره بأنه لا شيء ، وبأنه عاجز ، فاذا تجاوز
الانسان ذلك الحد غرق فى لنة خارقة .

« صحيح أن المذلة هى بهذا المعنى قوة ضخمة . اننى اسلم بهذا .
ولكن هذه القوة ليست القوة التي يجدها فيها الفن .

« آه . . . الدين ! اننى أسلّم بالحياة الأبدية . ولعلنى كنت أسلّم
بها دائماً . أحب فعلاً أن أعتقد أن الشعور شعلة أوقدها ارادة قوة عليا ،
وأنه يعكس فى ذاته الوجود ، وأنه يقول : « أنا موجود » . وأحب أن
أؤمن أيضاً بأن هذه القوة العليا نفسها تأمره دفعة واحدة بأن ينطفئ ،

حكمة بعيدة غامضة ، وبدون أى تفسير • ليكن • اننى اسلم بهذا كله •
 ولكن يبقى السؤال الأبدى : لماذا يجب علىّ أن أضيف الى هذا الاجبار
 اذعانى وذلى ؟ ألا يكفى أن ألتهم فحسب ، دون أن أقنعى بمدح ذلك
 الذى يلتهمنى ؟ هل يمكن أن يوجد هناك فى الملاء الأعلى أحد يسيء اليه
 حقاً ويؤذيه فعلاً أن لا أريد انتظار ساعتى أسبوعين ؟ لا ، لا أصدق هذا !
 بل افترض - وذلك أقرب كثيراً الى الصحة - أن تكون حياتى المسكينة
 التى هى حياة ذرة ، قد وجدت حاجة الى زوالها لاكمال انسجام كل
 شامل ، لتحقيق زيادة معينة أو نقص معين ، لايجاد نوع من تضاد أو
 تضارب أو شيء من هذا القليل ، كما توجد حاجة الى التضحية كل يوم
 بملايين الكائنات التى لا يمكن أن يبقى العالم ما لم تمت (لاحظوا أن
 هذه الفكرة ليست سمحة فى ذاتها) • ولكن فلنتقل من هذا • لنسلم
 بأنه اذا لم يأكل البشر بعضهم بعضاً ، يستحيل بناء العالم ؟ بل ولأترض
 أن لا أفهم من هذا البناء شيئاً • ولكن اليكم ما أعلمه حقاً : اذا كنت قد
 أوتيت أن أدرك أننى « أوجد » ، فهل أنا مسئول عن كون هذا العالم قد
 بنى مقلوباً وأنه لا يمكن أن يوجد الا بهذه الطريقة وعلى هذا النحو ؟
 من ذا سيحكم علىّ بعد هذا ، والى أى شيء سيستند ليحكم علىّ ؟ فكروا
 فى الأمر ما شئتم أن تفكروا ، فلن تستطيعوا أن تنكروا أن هذا كله
 يستحيل تصوره ، وأنه كله ظلم لا عدل •

« على أننى لم أستطع فى يوم من الأيام ، رغم كل رغبتى فى ذلك ،
 أن أتصور أن الحياة الآخرة والعناية الالهية لا وجود لهما • فأغلب الظن
 أن ذلك كله موجود ، ولكننا لا نفهم شيئاً لا عن الحياة الآخرة ولا عن
 القوانين التى تحكمها • ولكن اذا كان هذا يصعب بل يستحيل فهمه ،
 فهل أحاسب أنا على عجزى عن ادراك ما لا يمكن تصوره ؟ صحيح
 أنهم يدعون - وهذا رأى الأمير قطعاً - أن من الواجب علينا هنا أن

تخضع ونطيع دون تفكير ، بداعى الحس الأخلاقى وحده ؛ وهم يضيفون الى ذلك أن طواعيتى ستجد فى الحياة الآخرة مكافأتها • ألا أننا نخفض قيمة العناية الالهية كثيراً حين نسب اليها أفكارنا غصباً من العجز عن فهمها • ولكننى أعود فأكرر قولى بأن الانسان اذا عجز عن فهم العناية الالهية فمن الصعب أن يتحمل تبعه عجز عن الفهم ففرض عليه فرضاً وجعل له قانوناً • واذا كان الأمر كذلك فكيف يحكم علىّ لأننى لم أستطع أن أفهم ارادة العناية الالهية وأن أدرك قوانينها ؟ لا ! الآولى أن ندع الدين جانباً •

« وكفى هذا ، على كل حال ! حين سأصل الى هذه الأسطر ستكون الشمس قد طلعت ، وستأخذ « تترجّع فى السموات » مبدقةً على الكون كله قوى واسمة لا تعد ولا تحصى ! لتكن مشيئة الله ! سوف أموت متأملاً وجه ينبوع القوة والحياة هذا ، ينبوع هذه الحياة التى لن أريدها بعد اليوم • لو كانت ولادتى مرهونة بارادتى ، لرفضت الوجود فى ظل ظروف ساخرة الى هذا الحد • ولكننى ما أزال أقدر أن أموت ، وان كنت لا أملك الا بقية حياة أصبحت أيامها منذ الآن معدودة • هذه قدرة ضئيلة ؛ وليس تمردى أقل ضالة منها •

« شرح أخير : اذا مت فإن ذلك لا يرجع الى اننى لا أملك الشجاعة اللازمة لاحتمال هذه الأسابيع الثلاثة • ان فى وسعى حتماً أن أجِد القوى الضرورية لاحتمالها ؟ ولو شئت لكان فى امكانى أن أستمد عزاءً كافياً من الشهور بالاهانة التى ألحقت بى • لكننى لست شاعراً فرنسياً ، ولا أحرص على هذا النوع من العزاء • ثم ان هناك اغراء : ان الطبيعة حين قضت بأن لا أعيش الا ثلاثة أسابيع قد بلغت من تضيق ساحة عملى أن الانتحار ربما كان الآن هو الفعل الوحيد الذى أستطيع أن أقوم به وأن انقذه بارادتى الحرة • فلماذا لا أستغل هذه الامكانية الأخيرة التى

تساح لى من أجل أن « أعمل » ؟ رب احتجاج له قيمته فى بعض الأحيان

أنهى هيوليت أخيراً قراءة « الشرح » ، فوقف . . .
ان الانسان المصيبى ، اذا غضب غضباً شديداً وخرج عن طوره ،
يمكن فى حالات قصوى أن يعطى فى الصراحة الى درجة الاستخفاف
والاستهتار . فلا يخشى بعدئذ شيئاً ، ويكون مستعداً لاثارة أية فضيحة ،
حتى لقد يفتنه هذا ويخلب لبه . انه يهجم على الناس وقد عقد النية
بصورة غامضة لكنها حاسمة على أن يلقى بنفسه بعد دقيقة واحدة من أعلى
برج ناوس ، فيصقئ بذلك ، دفعة واحدة ، جميع الارباقات والمشكلات
التي يكون قد خلقها سلوكه . وهذه الحالة يسبقها فى العادة وينذر بها
انهالك يعترى القوى الجسمية شيئاً بعد شيء . ان التوتر الشديد ، غير
السوى ، الذى سند هيوليت حتى ذلك الحين ، كان قد بلغ تلك المرحلة .
فجسم هذا المراهق الذى يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، والذى هدته
المرض ، كان يبدو ضعيفاً ضعف ورقة مرتجفة انتزعت من الشجرة .
لكنه ما ان نظر الى ساميه - لأول مرة منذ ساعة - حتى عبرت نظراته
وابتسامته فوراً ، عن أكبر اشتزاز متعال ، وعن أشد احتقار جارح .
لقد كان يتعجل أن يتحداهم ، لكن هؤلاء قد امتلأوا استياء وانزعاجاً .
فنهضوا عن المائدة يضجون غضباً . ان التعب والحمة وتوتر الأعصاب ،
ان ذلك كله قد فاقم الفوضى وزاد عكر المشاعر فى هذا الاجتماع .
نهض هيوليت عن كرسىه بوثبة ، نهض نهوضاً مفاجئاً كأنما هو
انتزع انتزاعاً . فلما رأى ذرى الأشجار تسطع بالنور هتف يقول للأمير
وهو يشير له اليها ، كما لو كان ذلك معجزة من المعجزات :

— طلعت الشمس ! طلعت الشمس !

قال فردشتشكنكو :

- أتراك كنت تظن أنها لن تطلع ؟

ودمدم جانبا يخول معبراً عن الضجر وقلة الاكرات ، متساوياً
قبته بيده ، متمطياً ومتثائباً :

- الجو يؤذن بنهار آخر محرق . هل أماننا شهر آخر من جفاف ؟ ..
أنصرف أم نبقي يا بتسين ؟

أصغى هيوليت الى هذه الكلمات بدهش يشبه أن يكون انشدها .
وشحب لونه على حين فجأة شحوباً فظيماً ، وأخذت أعضاؤه كلها
ترتعش .

قال جانبا وهو يحدق الى بياض عينيه :

- تصنع قلة الاكرات لتهيننى ! أنت رجل تافه !

قال فردشتشكو :

- يا سلام ! ما هذا الانطلاق فى الكلام بغير تخرج ؟ يا للاسترسال

الهائل الذى لا يعرف الكلفة !

قال جانبا :

- ما هو الا شاب غبى لا أكثر !

استرد هيوليت شيئاً من سيطرته على نفسه وكظم غيظه ، وبدأ يتكلم
فقال وهو ما يزال يرتعش ويقاطع نفسه فى كل لحظة :

- اننى أفهم أيها السادة أن أكون جديراً بحقدكم الشخصى ، و ..

يوسفنى أننى أزعجتكم بقراءة هذا الهذيان لكم (قال ذلك وهو يظهر
مخطوطته) . ولكن يوسفنى من جهة أخرى أننى لم أضايقكم مزيداً من
المضايقة (قال هذا وابتسم ابتسامة بلهاء) . أليس صحيحاً يا أوجين
بافلوفتش أننى كنت مزعجاً مضجراً ؟ أكنت مضجراً أم لا ؟ تكلم !

أجاب أوجين بافلوفتش :

- كانت المقالة طويلة بعض الطول ، ولكن ... على كل حال ..
فقال هيوليت وهو ما يزال يرتجف :
- قل فكرتك كلها ، لا تكذب ! مرة واحدة في حياتك على

الأقل ...

قال أوجين بافلوفتش وهو يشح وجهه مشمراً :

- أوه ! يستوى عندي تماماً ... دعنى وشأنى ، أرجوك .

قال بتسكين وهو يقترب من المضيف :

- طابت ليلتك يا أمير .

وهتفت فيرا تقول مسرعة نحو هيوليت :

- لكنه سيطلق النار في رأسه ، ما بالكم ! انظروا اليه ! قال انه

سينتحر عند طلوع الشمس ، ماذا تفعلون ؟

كانت فيرا في ذروة الذعر حتى لقد أمسكت يديه .

قدمدت عدة أصوات ، منها صوت فانيا ، تقول بلهجة كارهة :

- لن يتحر !

صاح كوكليا وقد أمسك يد هيوليت هو أيضاً :

- حذار أيها السادة انظروا اليه ! أمير ، أمير ، كيف تبقى غير

مكترن ؟

تجمع حول هيوليت كل من فيرا وكوكليا وكيللر وبوردوفسكى ،

وتشبث الأربعة به .

تمم بوردوفسكى يقول :

- هذا من حقه ، هذا من حقه ! ...

ولكن بوردوفسكى كان يبدو عليه أنه فاقد عقله تماماً •
وقال ليديف للأمير يسأله :

- اسمع لى يا أمير ؟ ما هى الاجراءات التى تنوى اتخاذها ؟
كان ليديف مخموراً ، وكان اندفاعه يستحيل الى وقاحة •
سأله الأمير :

- أية اجراءات تعنى ؟

- لا ، اسمع لى ! أنا هنا سيد الدار ، وان كنت لا أريد أن أقلل
ما احملة لك من اعتبار !... انتى أسلم بأن هذا البيت بيتك أيضاً ...
ولكننى لا أريد مشاكل من هذا النوع تحت سقفى ... لا ...
لا أريد !...

وصاح الجنرال ايفولجين يقوون فجأة بلهجة فيها ثقة وامتناع على
قدر سواء :

- لن ينتحر • هذا الصبى مهرج !
فصاح فردشتشنيكو يقول مجدداً :

- مرحى يا جنرال !

قال ليديف :

- أنا أعرف أنه لن ينتحر يا جنرال ... أيها الجنرال المحترم جداً
... ولكننى مع ذلك ... أنا هنا سيد الدار •
ودع بتسين الأمير ، ومد يده الى هيوليت • وقال له بثقة :

- اسمع يا سيد تيرتيف : ورد فى كتابك ذكر لهيكلك العظمى
فيما أظن ، وورد أنك تورثه أكاديمية الطب ، أليس كذلك ؟ فهل تقصد
هيكلك العظمى أنت ؟ أعظامك تورث ؟

- نعم ، عظامي ...

- آ ... طيب . ذلك أن من الممكن أن يحدث سوء فهم . يظهر
أن شيئاً من هذا سبق أن وقع .

تدخل الأمير فجأة يسأل بتسعين :

- لماذا تغيظه ؟

وأضاف فردشتشسكو قائلاً :

- لقد أبكيتك !

لكن هيوليت لم يكن يبكي البتة . وقد همّ أن يفلت ، لكن
الأشخاص الأربعة الذين كانوا يحيطون به ، لم يلبثوا أن قبضوا عليه .
وانطلقت ضحكات .

قال روجوين :

- كان يأمل أن نوثق يديه لنصده عن الانتحار ، لذلك قرأ لنا
دفتره . استودعك الله يا أمير . لقد طال جلوسنا حتى أصبحنا نحس بألم
في عظامنا .

وقال أوجين بافلوفتش ضاحكاً :

- لو كنت في مكانك يا تيرتيف ، وكان في نيتي أن أنتحر فعلاً ،
لمدلت عن الانتحار بعد هذه الأماديغ التي كالوها جزافاً ، ولو لأغاثتهم
على الأقل !

فقدفه هيوليت بقوله وكأنه يريد أن ينقض عليه من فرط غضبه :

- انهم يثمنون أن يروني أنتحر !

قال أوجين بافلوفتش :

- انهم لينيطهم كثيراً ان لا يروا هذا المنظر !

- أأنت أيضاً تظن اذن أنهم لن يروو ؟

فأجاب أوجين بافلوفتش بلهجة بطيئة يصطنع فيها مظهر الحماية له :

- لا أريد أن أحضك عليه • بالعكس : أنا أعتقد بأنك قادر على أن

تتحرر ، لكننى أرجوك خاصة أن لا تنضب ...

قال هيبوليت وهو ينظر الى أوجين بافلوفتش بلهجة تبلغ من الثقة

المفاجئة أنه كان كمن يطلب نصيحة من صديق :

- لم أدرك الا الآن الخطأ الضخم الذى ارتكبته اذ قرأت عليهم

دفتري !

فأجابه أوجين بافلوفتش قائلاً وهو يتسم :

- وضعت عجب مضحك !... بصراحة : لا أدرى ما هى النصيحة

التي يمكن أن أسديها اليك !

فحدثني اليه هيبوليت صامتاً ، بنظرة وحشية عنيدة • كان يبدو كمن

يفقد ادراك ما يجري حوله من حين الى حين •

قال ليديف :

- آ... لا... اسمحوا لي يا سادة ! ما هذه طريقة فى التصرف •

هو يصرخ بأنه « سيطلق النار فى رأسه بالحديقة العامة حتى لا يزعج

أحد » ، فهل يعتقد اذن بأنه لن يزعج أحداً اذا هو انتحر فى الحديقة

على بعد ثلاث خطوات من هنا ؟

وأراد الأمير أن يتكلم فقال :

- أيها السادة ...

ولكن ليديف قاطعه غاضباً يقول :

- لا ، اسمح لي ، أيها الأمير الجليل ! انك لترى بنفسك أن هذا

ليس مزاحاً • ان نصف ضيوفك على الأقل يشتركون فى الاقتناع بأن

الشرف يوجب عليه ، بعد الذى سمعناه من كلام ، أن يبادر الى الانتحار .
ولما كنت أنا رب المنزل ، فأتيت أطلب معونتك وأناشدك أن تهب الى
مساعدتى أمام شهود .

— ما الذى يجب أن نعمله يا ليديف ؟ أنا مستعد لمساعدتك .
— اليك ما يجب أن نفعله : يجب أولاً أن يسلمنا المسدس الذى
اقتخر بأنه يحمله ، وأن يسلمنا ذخيرته . فإذا وافق على ذلك ، وافقت
أنا على أن يقضى الليلة هنا ، مراعاةً لمرضه ، ولكن على شرط أن أراقبه ؛
ثم يكون عليه أن يمضى فى الغد الى حيث يشاء أن يمضى . معذرة
يا أمير ! اذا لم يسلم سلاحه ، فسأقبض أنا على احدى ذراعيه ، ويقبض
الجنرال على ذراعه الأخرى ، ونرسل فى طلب الشرطة حالاً ، فتولى
هى الأمر وتمسك بزمام القضية . وسيتولى السيد فردشتشكو ابلاغ
الشرطة بصفته صديقاً .

وقامت جلبة : ليديف يتحمس ويتعدى حدود القصد والاعتدال ؛
وفردشتشكو يتهاى للذهاب الى الشرطة ؛ وجانيا يكرر مصرّاً ملحاً أن
هيوليت لن يحاول الانتحار . أما أوجين بافلوفتش فقد لزم الصمت .
قال هيوليت بسأل الأمير بصوت خافت :

— هل اتفق لك يا أمير أن سقطت يوماً من أعلى برج ناقوس ؟
فأجابه الأمير بسداجة :

— لا . . . لا !

وعاد هيوليت الذى كانت عيناه تلتصمان ، عاد يهمس من جديد
قائلاً :

— أظن أننى لم أتنبأ بهذه الكراهية كلها ؟
ثم صاح يقول على حين فجأة ، مخاطباً الجمع كافة :

- كفى ! لقد أخطأت ... أكثر من أى شخص آخر ! يا ليديف ،
اليك المفتاح (قال ذلك واستل من محفظته حلقة من الفولاذ تتدلى منها
ثلاثة مفاتيح صغيرة أو أربعة) ، أقصد هذا المفتاح ... الذى هو قبل
الآخر ... سيريك كوليا ... يا كوليا ! أين كوليا (كذلك صاح ينادى
وهو ينظر الى كوليا دون أن يراه ...) آ ... نعم ! طيب ! هو الذى
سيريك ... لقد ساعدنى منذ قليل فى ترتيب حقيبتى + اذهب معه
يا كوليا ، فى حجرة الأمير ، تحت المتضدة ... ستجد حقيبتى ...
وبواسطة هذا المفتاح ستجد فى الصندوق الصغير الموجود فى قاع الحقيبة
... مسدس ووعاء البارود + ان كوليا نفسه هو الذى رتب لى الحقيبة
منذ قليل . سيريك كل شئ ، يا سيد ليديف . ولكننى اشترط أن تردّ
الىّ المسدس فى صباح الغد ، حين أسافر . هل تسمع ؟ اتنى لا أفعل هذا
ارضاء لك أنت ، بل ارضاء للأمير +

قال ليديف وهو يمسك المفتاح :

- فهذا أفضل !

قال ليديف ذلك وركض الى الغرفة المجاورة وهو يتسهم ابتسامة
مسيومة . ووقف كوليا كمن يريد أن يعترض ، لكن ليديف جرد معه .
رأى هيبوليت الضيوف يضحكون . ولاحظ الأمير أن أسنانه كانت
تصطك كأنما هو يعانى حمى شديدة .

ودمدم هيبوليت يقول فى اذن الأمير من جديد بلهجة غاضبة :

- ما أحقر هؤلاء الناس جميعاً !

كان من أجل أن يكلم الأمير ، يعيل عليه دائماً ، ويخاطبه بصوت
خافت ، همساً .

قال له الأمير :

— دعهم وشأنهم ! انك ضعيف جداً ...

— فوراً ، فوراً ، سأمضى فوراً ...

قال هيو ليت ذلك وقبل الأمير فجأة . وأضاف وهو ينظر اليه
ضاحكاً ضحكة خاصة :

— لملك ترضى انتى مجنون ، أليس كذلك ؟

— لا ، ولكنك ...

— فوراً ، فوراً ، اسكت . لا تقل شيئاً ... انتظر ... أريد أن

أنظر الى عينيك ... ابق كما أنت ، حتى أستطيع أن أنظر اليك . اننى
أودّع أمساناً .

وتوقف عن الكلام وتأمل الأمير ساكناً صامتاً خلال عشر نوان .
كان شديد الاصفرار ، وكان العرق يتقاطر فى صدغيه ، وكانت يده
متشبثة بالأمير تشبثاً عجيباً كأنه يخاف أن يفلت الأمير منه .

صاح الأمير يسأله :

— هيو ليت ! ماذا بك ؟

— فوراً ، حالاً . سوف أنام ... أريد أن أشرب كأساً ، نخب

الشمس . أريد هذا . أريد هذا ... دعنى أفعل !

ومن مكانه ، أمسك الكأس بسرعة ، ثم رفعها ومضى بوثبة واحدة
الى مدخل الشرفة . وهمّ الأمير أن يركض وراءه . ولكن شامت
المصادفة ، بما يشبه العمد ، أن مدّ اليه أوجين بافلوفتش يده فى تلك
اللحظة نفسها مودّعاً . فما انقضت دقيقة واحدة ، حتى كان يدوى فى
الشرفة صراخ عام على حين فجأة ، أعقبه اضطراب شديد .

اليكم ما حدث :

حين وصل هيبوليت الى مهبط الشرفة ، توقف عن السير ممسكاً
الكأس بيده اليسرى ، وأدخل يده الأخرى في الجيب الأيسر من معطفه .
وقد أكد كيللر فيما بعد أن يده كانت في تلك الجيب منذ أن كان يتحدث
مع الأمير ممسكاً كتفه وتليسه باليد اليسرى . حتى ان حركته هذه باليد
اليسرى هي التي أثارت فيه ، هو كيللر ، أول اشتباه . ومهما يكن من
أمر فان كيللر قد اندفع يلاحق هيبوليت ، يحضه على ذلك نوع من
التخوف . لكنه هو أيضاً لم يدركه في الوقت المناسب . كل ما هنالك
أنه أبصر شيئاً يلتصق في يد هيبوليت اليمنى ؛ ثم رأى قوهة مسدس صغير
للجيب تطبق على صدغ المريض . وقد هرع اليه ليمسك ذراعه ، لكن
هيبوليت كان قد ضغط على الزناد في تلك اللحظة نفسها ؛ فسمعت قرعة
كلب المسدس ، لكن الطلقة لم تخرج . وهجم كيللر على هيبوليت .
واستسلم هيبوليت للسقوط كمن أغمى عليه ، ولعله كان يظن أنه مات
فعلاً . وأصبح المسدس في يدي كيللر ، واستولى الآخرون على هيبوليت
وقربوا اليه كرسياً أجلسوه عليه ، وتحلقوا جميعاً حوله يصرخون
ويسألون . انهم بعد أن سمعوا قرعة الزناد ، رأوا الرجل حياً سليماً
حتى من أي خدش . وكان هيبوليت جالساً لا يعرف ماذا يجري ، ويُجِلُّ
على ما حوله نظرة زائفة . وفي تلك اللحظة دخل ليديف وكوليا مسرعين
كهبوب الريح .

كان الحضور يسألون من هنا ومن هناك :

— هل خابت الطلقة ؟

وقال بعضهم :

— لعل المسدس لم يكن محشواً منذ البداية !

فصاح كيللر يقول بعد أن فتش السلاح :

— بل المسدس محشو . لكن ...

— فكيف أمكن أن تخيب الطلقة ؟

قال كيللر :

— لم يكن ثمة كبسولة •

يصعب على المرء أن يصفب الشهد الأليم الذي أعقب ذلك •

ان الذعر العام الذي سيطر في اللحظة الأولى لم يلبث أن حل محله
مرح شامل • حتى ان بعض الأشخاص ضجوا بالضحك صاخين ، ووجدوا
في الموقف مجالاً لتندر خبيث وتفكه مكرر • كان هيبوليت يبكي ناشجاً ،
ويقف ذراعيه مثلاً ، كأنما اعترته نوبة عصبية ، ويرتمي على جميع
الناس حتى على فردشتشكو معانقاً إياه بكلمات يديه حالفاً بأغلف الإيمان
أنه نسي وضع الكبسولة نسياناً « عرضياً طارئاً » بغير ارادة ، « مضيئاً أن
جميع الكبسولات ، وعددها ست ، موضوعة هنا في جيب صدرته ، فهذه
هي ، لكنه تركها في مكانها مخافة أن تطلق الطلقة من المسدس مصادفةً
في الجيب ، على أساس أن في وسعه أن يضع الكبسولة في الوقت الذي
يشاء ، غير أنه نسي فجأة أن يفعل ! كان هيبوليت يتجه بكلامه الى الأمير
والى أوجين بافلوفتش واحداً بعد واحد ، ويضرع الى كيللر أن يردّ اليه
المسدس لستطيع أن يبرهن فوراً على أن « شرفه •• نعم •• شرفه •• »
••• لكن شرفه « قد تلتخ الآن الى الأبد ! » •••

ثم تهاوى مغشياً عليه بالفعل • فسُقل الى حجرة الأمير • وكان
ليديف قد زائله سكره تماماً فأرسل في طلب طبيب على الفور ، وبقي
هو وابنته وابنه ويوردوفسكى والجنرال حول سرير المريض •

حين نُقل هيبوليت الى حجرة الأمير مغشياً عليه ، وقف كيللر في
وسط الغرفة وصاح يقول على رموس الأشهاد ، بلهجة جازمة قاطعة ،
منفصلاً كل كلمة من كلماته :

- أيها السادة ، اذا أعلن أحد منكم مرةً أخرى ، بحضورى ،
الافتراض القائل بأن هيبوليت تعمد أن ينسى الكبسولة ؟ اذا ادعى أحد
منكم أن الشاب الشقى المسكين كان يمثل تمثيلاً ، فليكون له معنى
شأن !... .

لم يجبه أحد . وكان الضيوف قد تفرقوا أخيراً جماعات ، وانصرفوا
مسرعين . ومضى بتستين وجانيا وروجويين معاً .

أدهش الأمير أن يرى أوجين بافلوفتش يغير رأيه ويمضى قبل
أن يتحدث اليه كما طلب . فسأله :

- ألم تكن تريد أن تتحدث معى قبل انقضاء الحفل ؟

فأجابه أوجين بافلوفتش وهو يجلس فجأةً ويجلس الأمير الى
جانبه :

- صحيح . لكننى غيرت رأيى الآن . اعترف لك باننى متفعل ،
وأعرف أنك متفعل أنت أيضاً . أفكاري مشتتة مضطربة . ثم ان المسألة
التي كنت أريد أن أكشفك فيها تهمنى الى أبعد الحدود ، وتهمك الى أبعد
الحدود . لقد أردت يا أمير أن أقوم ، ولو مرةً واحدةً فى حياتى ، بعمل
شريف كل الشرف ، أعنى بعمل خالٍ من كل غرض خبىء ، مبرأ من أية
فكرة مبيتة ! واذ أنسى لا أملك الآن ، فى هذه الدقيقة ، أن أكون قادراً
على ذلك كل القدرة ؛ واذ أنك قد تكون أنت أيضاً فى مثل حالتى ...
ف ... ف ... فلنرجى تلك المكاشفة الى وقت آخر . من الجائز أن
تضخ الأمور لى ولك على السواء ، اذا تركنا الأمر يومين أو ثلاثة ،
وهذه هى المدة التى أنوى أن أقضيها فى بطرسبرج .

قال أوجين بافلوفتش ذلك ونهض عن كرسيه من جديد ، فلا يفهم

المرء لماذا جلس قبل ذلك • أحسن الأمير أنه كان مستاءً غاضباً ، ولاحظ له في نظريته عداوة لم تعبر عنها من قبل • وسأل الأمير فجأة :

— بالنسبة ، أنت ذاهب الى المريض الآن ؟
فقال الأمير :

— نعم ••• أنا خائف عليه !

— لا تخف ! سيعيش ستة أسابيع أخرى ، حتى لقد يشفى هنا •
ولكن الأفضل أن تطرده منذ الغد •

— لعلى قد حررته أنا أيضاً بصمتي دون أن أشعر ••• لعله ظن أنني كنت أنا أيضاً أشك في صدق عزمه على الانتحار • ما رأيك يا أوجين بافلوفتش ؟

— لا ، بتاتاً ! انك تسرف في طيبة القلب اذا ظلمت تكرث بهذا الأمر ! لقد سمعت من يقول ، دون أن تتاح لي فرصة التحقق من هذا الرأي في يوم من الأيام ، أن الانسان قد يتحرر خصيصاً ليجذب اليه مدح الآخرين له ، أو لأنه غاضب من أن أحداً لم يمدحه • وما كان لي أن أصدق خاصة أن المرء يمكن أن يبدى ضعفه ابداءً يبلغ هذا المبلغ من الصراحة • ولكن مهما يكن من أمر ، يجب عليك أن تطرده منذ الغد !
— هل تعتقد أنه سيكرر محاولة الانتحار ؟

— لا ، لن يكررها • ولكن يجب عليك أن تحذر الروسي الذي ينتمى الى نوع « لاسنير » ا أعود فأقول لك : ان الجريمة هي الملاذ المألوف الذي يلجأ اليه أمثال هؤلاء التافهين العاجزين الذي يحرقهم نفاق الصبر ويأكلهم الحسد أكلاً !

— أهو اذن من نوع « لاسنير » ؟

— الجوهر واحد ، ولكن ربما كان الطرف مختلفاً • لسوف ترى

هل يتورع هذا السيد عن ذبح عشرة أشخاص ، ولو لمجرد أن « يدبّر مقلباً » ، على حد التعبير الذى استعمله هو نفسه حين قرأ دفتره * . ان أفواه مستحرمنى الآن من النوم .

– لملك تغالى فى مخاوفك .

– ان أمرك لمجيب يا أمير . ألا تصدّق أنه لا يتورع عن أن يقتل «الآن» عشرة أشخاص ؟

– أخشى أن أجيبك . هذا كله عجيب . ولكن ، ولكن ...

ختم أوجين بافلوفتش الكلام قائلاً ببلهجة ساخطة :

– طيب . لك ما تشاء ! ثم انك رجل شجاع ! ولكن حاول أن لا تكون أنت نفسك إحدى ضحاياه !

قال الأمير وهو ينظر الى أوجين بافلوفتش شارد الذهن :

– الأرجح أنه لن يقتل أحداً .

فضحك أوجين بافلوفتش ضحكة سلخرة مأكرة . وقال :

– الى اللقاء . آن الأوان . بالمناسبة : هل لاحظت أنه يورث أجلايا ايفانوفنا نسخة من اعترافه ؟

– نعم ، لاحظت ذلك ... و ... ودعاني هذا الى التفكير .

قال أوجين بافلوفتش وهو يضحك ساخراً من جديد :

– ذلك ما يؤدى بنا الى الضحايا الشر .

ثم خرج .

بعد ساعة ، بين الثالثة والرابعة من الصباح ، نزل الأمير الى الحديقة العامة . كان قد حاول أن ينام فى بيته ، ولكنه لم يستطع الى ذلك سيلاً ،

بسبب دقات قلبه الشديدة العنيفة • ثم ان كل شيء فى بيته قد عاد الى النظام والهدوء • نام المريض ، وأعلن الطبيب الذى جاء يعوده أنه غير معرض لأى خطر مباشر • وقد نام ليديف وكوليا وبوردوفسكى فى غرفته ليتناولوا السهر عليه • فلا خوف اذن على شيء •

ومع ذلك كان قلق الأمير يزداد دقيقة بعد دقيقة • ضرب فى الحديقة على غير هدى ، ملقياً حواله نظرات ذاهلة ، ثم توقف مدهوشاً حين وصل من غابة الحديقة الى البقعة الجرداء التى تقع أمام الفوكسهول ، قرأى صفوف المقاعد الخالية ومساند دفاتر الأوركستر • خطف بصره منظر هذا المكان اذ وجده قبيحاً قبيحاً رهيباً ، لا يدرى لماذا ! وعاد أدراجه ، وسار فى الطريق الذى كان قد اتبعه أسس مع أسرة ايباتشين للذهاب الى الفوكسهول • فلما وصل الى الدكة الخضراء ، مكان الموعد المضروب ، جلس وانفجر يضحك ضحكة مفاجئة صاحبة سرعان ما لام نفسه عليها مستاءً أشد الاستياء • لم يبارحه غمه وقلقه • ودَّ لو يضرب فى الأرض على غير هدى ••• أن يذهب الى أى مكان بغير هدف ، وغرَّد على الشجرة فوقه عصفور صغير • فأخذ يبحث عنه بعينه بين أوراق الأغصان • وطار المصفور صافقاً جناحيه على حين فجأة • فذكره رأساً بتلك « الذبابة الصغيرة المدندنة فى شعاع من الشمس محرق » ، التى كتب هيوليت بصدها « أنه يعرف مكانه فى جوقة الطبيعة هذه » • حيث لا يوجد دخیل غيره ، هو هيوليت • ان تلك الجملة التى سبق أن خطفت انتباهه حينذاك ، تسود الآن الى فكره • واستيقظت فى نفسه ذكرى نائمة منذ زمن بعيد ، فاذا هى تشرق فى هذه اللحظة بضياء مفاجئ •

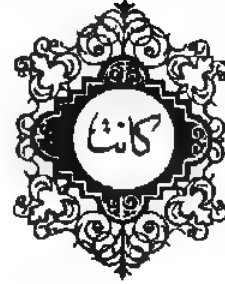
كان ذلك بسويسرا ، أثناء السنة الأولى بل أثناء الأشهر الأولى من معالجة مرضه • كان يُعَدُّ فى ذلك الحين أبلاً تماماً • كان لا يستطيع حتى

أن يسرّ عما يريد التعبير عنه ، بلغة سليمة ، وكان في بعض الأحيان لا يفهم ما يُطلب منه أو يسأل عنه . ومضى ذات يوم الى الجبل ، وكان النهار واضحاً وكانت الشمس مثلاًثة . ظل مدة طويلة يطوف على غير هدى ، تعذّبه فكرة ألبيسة كاوية لكنه لا يتوصل الى صياغتها بكلام . كان يرى أمامه سماء ساطعة ، ويرى تحت قدميه بحيرة رائعة ، ويرى من حوله أفقاً نيراً مضيئاً يبلغ من السعة أنه يبدو بغير حدود . تأمل هذا المنظر مدة طويلة مهصور القلب غماً وهماء انه يتذكر الآن أنه مدّ يديه الى ذلك الأيانوس من الضياء واللازورد ، وانه ذرف دموعاً غزيرة . كان يعذبه أن يتصور أنه غريب عن هذا كله . ما هذه الوليمة ، ما هذه الحلقة التي لا نهاية لها ، والتي كان يحس أنه منجذب اليها منذ الأزل ، منذ طفولته ، دون أن يستطيع المشاركة فيها قط ؟ الشمس تطلع مشرقه في كل صباح . وفي كل صباح يرتسم قوس قزح فوق الشلال . حتى اذا غابت الشمس ، التهبّت بنسار كالأرجوان ، في كل مساء ، عند الأفق ، الذروة المغطاة بالثلج من أعلى جبل حول هذه الأراضي . ان كل « ذبابة صغيرة تدندن حوله في شعاع محرق من شمس » فتشارك في جوقة الطبيعة هذه : انها تعرف مكانها ، وتجه ، وهي سعيدة به . كل عشبة تنمو وتسد ! لكل كائن طريقه الذي يعرفه . يصل ويرحل مغنياً ! أما هو ، فهو الوحيد الذي لا يعرف شيئاً ، ولا يفهم شيئاً ، لا البشر ، ولا أصوات الطبيعة ، لأنه غريب اجنبي في كل مكان ، ولأنه في كل مكان دخيل منبوذ . صحيح أنه كان في ذلك الحين لا يستطيع أن يعبر عن شعوره بهذه الألفاظ ، ولا أن يصوغ سؤاله بهذه العبارات . كان أله أصم أبكم . ولكنه يتخيل الآن أنه في ذلك الحين كان يقول هذا كله بهذه العبارات نفسها . وخيّل اليه أن كلام هيبوليت عن « الذبابة الصغيرة » ، انما هو مأخوذ عنه ومستمد من الدموع التي كان يذرفها في تلك الأيام . انه مقتنع بهذا ، لا يدري لماذا ؟ وكانت هذه الفكرة تجعل قلبه يخفق .

وغفا على الدكة ، لكن اضطرابه لاحقه حتى فى النوم • تذكر ،
حين نام ، ما افترضه أوجين بافلوفتش من أن هيوليت يمكن أن يقتل
عشرة أشخاص ، فابتسم لهذه الفكرة المستحيلة السخيفة • وكان يرين
حوله صمت مضى جليل • وكان حفيف أوراق الشجر يقوى الهدوء
والعزلة • ورأى الأمير أحلاماً كثيرة كانت كلها مقلقة تبعث على الغم ،
وتعجى فى الجسم رعدات لا تنقطع • وأخيراً اقتربت منه امرأة • انه
يعرفها ، يرفها الى حد الألم • انه ما يزال يستطيع أن يسميها ، أن
يعتّنها ، ولكن الشيء الغريب هو أن لها الآن وجهاً آخر مختلفاً كل
الاختلاف عن الوجه الذى رآه فيها دائماً • شعر بنفور أليم من رؤيتها فى
هذه الملامح الجديدة • أن الوجه يعبر عن الندم والذعر تعبيراً يبلغ من
القوة أن المرء يمكن أن يشعر أن هذه المرأة مجرمة رهبة ، وأنها آتية الآن
من اقتراف جرم فظيع • كانت ترتجف على وجهها الشاب عبرة • نادته
بحركة من يدها ووضعت اصبعاً على شفتيها ، كأنها هى تدعوه أن يتبعها بغير
ضجة • انهار قلبه • كان لا يريد أن يرى فيها مجرمة ، بأية من الأحوال ،
ولكنه أحس أن حادثاً هائلاً يوشك أن يقع ، وأن هذا الحادث سيؤثر فى
مجرى حياته كلها • كان يبدو أنها تريد أن تزيه شيئاً ما ، فى مكان غير
بعيد ، بالحديقة السامة • نهض ليتبعها ، ولكن ضحكة راققة نظيرة رنّت
فجأةً قربه ؟ واذا يد تصير فى يده على حين بفتة • أمسك اليد بقوة ،
واستيقظ من نومه •

كانت أجلايا أمامه تضحك مقهقهة •

الفصل الثامن



تضحك ، ولكنها كانت مستاعة في الوقت نفسه .
صاحت تقول بلهجة الدهشة والأزدراء :
- انه نائم ! أكنت نائماً ؟
فتمتم الأمير يقول قبل أن يسترد وعيه ، وقد

تعرفها مدهوشاً :

- هذا أنت ؟ ها ... نعم ... بيتنا موعد مضروب ... لقد نمت

هنا !

- لاحظت ذلك طبعاً !

- ألم يوقظني أحد غيرك ؟ ألم يجيء الى هنا أحد سواك ؟ ظننت
أن قد كانت هنا ... امرأة أخرى .

- امرأة أخرى هنا ؟

واسترد الأمير وعيه كاملاً آخر الأمر . فقال شارد الذهن :

- لم يكن ذلك الا حلماء . ولكنه حلم غريب ، في هذه اللحظة .

اجلسي .

وشدها من يدها وأجلسها على الدكة ، وجلس هو الى جانبها ،
وغرق في أفكاره وخواطره . لم تقطع آجلايا الصمت واكتفت بأن تحدث
اليه . وكان ينظر اليها هو أيضاً ، ولكنه ينظر اليها في بعض الأحيان
وكأنه لا يراها أمامه . أخذ وجهها يحمر .

قال الأمير مرتشاً :

- أطلق هيبوليت في صدغه طلقة مسدس .

فسأله دون أن تظهر عليها دهشة شديدة :

- متى ؟ عندك ؟ أمس مساءً ، كان ما يزال حياً فيما أظن !

ثم هتفت تقول بحرارة :

- كيف أمكنتك أن تجيء تنام هنا بعد حادث كهذا الحادث ؟

قال الأمير :

- لكنه لم يمت . لم تنطلق الطلقة .

وطفق الأمير ، ثلثة لرجاء آجلايا ، يقص عليها فوراً ، بتفاصيل كثيرة ، كل ما جرى في الليلة الماضية . فكانت تستعجله سرد التهمة بغير انقطاع ، ولكنها تقاطعه هي نفسها بالقاء أسئلة كثيرة متصلة لا تكاد تتعلق بالموضوع . وقد اهتمت اهتماماً خاصاً بما قاله أوجين بافلوفتش ، حتى لقد مادت الأمير مراراً حول هذا . فلما انتهى من سرد القصة قالت :

- كفى هذا ! يجب أن أسرع ! ليس أمامنا الا ساعة واحدة نقضيها هنا ، ويجب أن أكون بالمنزل في الساعة الثامنة قطعاً ، حتى لا يلموا أنني جئت الى هذا المكان . وأنا انما جئت هنا لأمر . ثمة أشياء كثيرة يجب أن أقولها اليك . لكنك قطعت على تسلسل فكري . ففيمما يتعلق بهيبوليت أعتقد أن مسدسه ما كان يمكن الا أن يخيب . فهذا يتفق وطبيعة الشخص . ولكن أنت موقن أنه أراد أن ينتحر حقاً ، وأن ذلك لم يكن تمثيلاً ؟

- لا ، لم يكن ذلك تمثيلاً !

- هذا هو الأرجح فعلاً . وقد أوصى ، كتابةً ، بأن عليك أن

تحمل الى « اعترافه » ؟ فلماذا لم تجئني به ؟

- ألم أقل لك انه لم يمت ؟ سأطلبه منه .

- جئني به حتماً ، ولا تطلب منه شيئاً . أنا أعلم أن ذلك لا يمكن
الا أن يسرَّ ، ولعله لم يشأ أن يشجر الا لأقرأ أنا بمد ذلك اعترافه .
أرجوك يا ليون نقولاً يفتش ، لا تضحك مما أقوله لك : ان هذا التفسير
قد يكون هو التفسير الصحيح .

- لست أضحك ، فأنا نفسي أعد هذا التفسير جائزاً جداً .

- أنت أيضاً ؟ أيمكن أن تكون قد ساورتك هذه الفكرة نفسها ؟
كذلك سأله آجلايا بدهشة مفاجئة .

كانت تسأله متعجلة ، وتتكلم بسرعة ، ويظهر عليها الاضطراب
في بعض الأحيان ، وكثيراً ما تسكت قبل أن تتم جملتها . وهي في كل
لحظة تبادر الى ابلاغه هذا الأمر أو تحذيره من ذلك . فكان اضطرابها
شديداً على وجه العموم ، رغم أن نظرتها واثقة بل ومتحدية ، ولعلها
كانت في قرارة نفسها وجلة .

انها جالسة في أقصى الدكة ، تكسوها ثياب بسيطة ، فهي ترتدى
نوباً مما يلبس كل يوم ، لكنه ينامبها كثيراً . وقد ارتعشت واحمرت
مراراً . وقد دهشها أعماق الدهشة أن تسمع الأمير يؤكد أن هيبوليت انما
أطلق على رأسه النار من أجل أن تقرأ هي اعترافه .
قال الأمير شارحاً :

- ولا شك أنه كان يريد ، بغض النظر عنك أنت ، أن تغدق عليه

المديح ...

- المديح ؟ كيف ؟

- أقصد ... كيف أشرح لك هذا ؟ ان التعبير عن هذا الأمر صعب

جداً • لا شك أنه كان يرغب في أن يرى جميع الناس يسرعون إليه فيحتشدون حوله ويسربون له عن عواطف المحبة والتقدير ، ويضربون إليه أن لا يقتل نفسه ، جنائز جديداً أنه فكّر فيك أكثر مما فكّر في الآخرين ، فانه في لحظة كذلك اللحظة قد سمّاك أنت ... وان يكن من المحتمل أنه لم يدرك هو نفسه أنه كان يفكر فيك ...

— أصبحت لا أفهم شيئاً : يفكر في دون أن يدرك أنه يفكر في !
بلى ، بلى ! فهمت ! أظن أنني فهمت • هل تعلم أنني أنا نفسي ، حين كنت بنية في الثالثة عشرة من العمر ، قد خطر ببالي ثلاثين مرة أن أتجرع سمّاً ، وأن أشرح كل شيء في رسالة أتركها لأبوي ؟ كنت أتصور نفسي مسجاة في الثابوت ، وأتصور جميع أهلي سيكون من حولي ، ويلومون أنفسهم على أنهم كانوا قساة تلك القسوة كلها معي ...

ثم أضافت تقول بقوة وهي تقطب حاجبيها قهقياً شديداً :

— لماذا تبسم أيضاً ؟ في أي شيء تفكر أنت اذن حين تدخل الى نفسك وتدخل الى العزلة في أحلامك ؟ أتراك تتصور نفسك مارشالاً يقاتل نابليون ؟

فتجاب الأمير ضاحكاً :

— يميناً ان هذا بعينه هو ما أفكر فيه ، ولا سيما حين أنهم • ولكنني لا أقاتل نابليون بل أقاتل النمساويين •

— انني لا أمارحك البتة يا ليون نيقولايتش • سوف أرى هيبوليت بنفسى ، فأرجوك أن تبلغه رغبتى هذه • أما أنت فانتى أرى أن نظرتك الى نفس فتى مثل هيبوليت وحكمتك عليها تستملان على شر قبيح ، لأن فيهما قنطرة وظلمة • انك امرؤ خال من عاطفة الحنان • انك لا ترى الا الحقيقة وحدها ، فأنت لهذا ظالم •

أخذ الأمير يفكر • ثم قال :

- بل أنت الظالمة في حكمك عليّ ، فأنا لا أرى أى بأس في أن تكون تلك الفكرة قد خطرت ببالي • ان جميع الناس يضحون الى أن تراودهم هذه الفكرة • ثم ان من الجائز أن لا تكون تلك الفكرة قد ملكت عليه نفسه ، وانما هي خاطرة ومضت في ذهنه لا أكثر ! لقد أراد أن يوجد في المجتمع مرةً أخيرة ، وأن يستحق اعتبار الناس ، وأن يكون جديراً بحببتهم • وتلك عواطف عظيمة رائحة • لكن ذلك كله لم ينتهياً له • ومرد هذا الى المرض ، والى ما لا أدرى أيضاً ! ... ان هناك أناساً يظفرون بما يريدون ، وأناساً يضلون السبيل الى ما يشتهون ، فيحقق كل ما يحاولون ...

قالت آجلايا :

- لا شك أنك فكّرت في نفسك وأنت تقول هذا الكلام !

فتابع الأمير كلامه دون أن ينتبه الى ما اشتعلت عليه ملاحظة آجلايا من مكر :

- نعم •

- على كل حال ، لو كنت أنا في مكانك لما نمت • أما أنت فتستسلم للنوم حينما توجد • وليس بالمستحسن أن يصدر هذا عنك •

- ولكنني ظلمت سهران طول الليل ، ثم مضيت أطوّف هنا وهناك ، وذهبت الى مكان الموسيقى ...

- أية موسيقى ؟

- المكان الذي كانت تُعزف فيه الموسيقى مساء أمس ؟ ثم جئت الى هنا ، وجلست ، وفكرت طويلاً ، ثم غفوت ...

— ها ... حقاً ؟ هذا يغير الأمر بحيث يشرّكك ولا يضرك ...
ولكن لماذا ذهبت الى مكان الموسيقى ؟

— لا أدري ... ذلك ما حدث ...

— طيب طيب ، ستحدث عن هذا فيما بعد • انك تقاطعني دائماً •
فيم بهمني أن تكون قد ذهبت الى مكان الموسيقى ؟ قل لي : من هي المرأة
التي رأيته في الحلم ؟

— انها ... انها ... لقد رأيته أنت ...

— فهمت ... فهمت • انك تحمل لها كثيراً من ... على أية حال
رأيته ! في أية صورة ظهرت لك ؟

ثم أضافت تقول بشيء من غضب مفاجئ :

— عى كل حال ، لا أريد أن أعرف عن هذا شيئاً • انك تقاطعني
دائماً • لا تقاطعني •

وتوقفت عن الكلام لحظةً كأنما تسترد أنفاسها أو لتحاول كظم
غضبٍ شبَّ في نفسها • ثم أضافت تقول شبه حاققة :

— اليك الأمر الذي من أجله طلبت منك أن تجيء : أريد أن أعرض
عليك أن تكون صديقي • ما بالك تنظر الى هكذا ؟

كان الأمير ، في تلك اللحظة ، ينظر اليها فعلاً بكثير من الانتباه ،
لأنه لاحظ أنها عادت تحمر احمراراً شديداً • وهي في مثل هذه الحالة
يزداد غضبها من نفسها على قدر ازدياد احمرارها ، فذلك يُقرأ في
اتسماعات عينيها ؛ حتى اذا انقضت دقيقة صبت غضبها على محدثها في
العادة ، سواء أكان مذنّباً أم كان غير مذنّب ، فهي تأخذ تناكده باحثة عن
أى وسيلة لمشاجرته • انها لمعرفتها بطبعها المتوحش وبحياتها قلما تتدخل

فى الحديث ، فهى صموت أكثر من أختيها ، حتى ان عيها هو الافراط
فى الصمت . حتى اذا كانت فى ظرف حرج دقيق ، كالظرف الذى
توجد فيه الآن ولا تستطيع أن تستقنى فيه عن الكلام ، فانها تتكلم بتمال
مقتعل وتكبر مصطنع وهشة فيها شئ من التحدى . وهى تتبأ دائماً
باللهظة التى ستحمر فيها أو ستأخذ فيها بالاحمرار .

قالت للأمير وهى ترشقه بنظرة متفطرة :
- أتراك لا تريد قبول ما أعرضه عليك ؟

فقال الأمير خجلاً مضطرباً :

- بالعكس ، أريد جداً . ولكن ... ولكن هذا لم يكن ضرورياً
البتة ... أقصد اننى لم أكن أتصور أن من الضرورى أن يُصاغ هذا
العرض بالكلام .

- فماذا كنت تظن اذن ؟ ما عسى يكون السبب الذى دعانى أن
أطلب منك المجدى الى هنا ؟ أملك تنظر الى نظرتك الى صغيرة حمقاء ،
كما يفعل الجميع فى بيتنا ؟

- لم أكن أعلم أنهم ينظرون اليك نظرتهم الى حمقاء . أنا ... أنا
لا أنظر اليك هذه النظرة .

- أنت لا تنظر الى هذه النظرة ؟ هذا يدل على ذكاء كبير من
جانبك . وقد قلت كلامك بكثير من براعة الفكاهة على كل حال !

تابع الأمير كلامه فقال :

- بل قد تكونين على قدر كبير من عمق الفهم وسداد الفكر أحياناً .
من ذلك أنك قلت كلمة ملأى بالحكمة منذ قليل : « أنت لا ترى إلا
الحقيقة وحدها فانت اذن ظالم » سأظل أذكر هذه الملاحظة وأأمل فيها

احمرت أجلايا لذةً ونشوةً على حين فجأة • كانت هذه التغيرات كلها تحدث في نفسها بسرعة خارقة وانطلاق كامل • وسرَّ الأمير هو أيضاً ، وأخذ يضحك فرحاً وهو ينظر إليها •

وعادت تتكلم فقالت :

— اسمع • لقد انتظرتك طويلاً لأروى لك هذا كله • انتظرتك منذ اللحظة التي كتبتَ إلىَّ فيها رسالتك من هناك ، بل وقبل ذلك ... ولقد سمعتَ في مساء الأسس نصف ما كان عليَّ أن أقوله لك : انني أعدك أشرف انسان وأصدق انسان • وإذا قيل عنك ان في عقلك ... ان في عقلك مرضاً ، فهذا ظلم • انني مقتنعة بما أقول ، وقد دافعت عن اقتناعي هذا • ولئن كان في عقلك مرض حقاً (لا تؤاخذني ان قلت هذا ، فأنا أفهم هذه الكلمة من وجهة نظر سامية) ، فانك تملك من الذكاء الأساسي ما لا يملكه أى واحد منهم ، بل انك تملك من هذا الذكاء قدرآ يعجزون حتى عن تصويره • ذلك أن الذكاء ذكاءان : فذكاء أساسي وذكاء ثانوي • أليس كذلك ؟ أليس هذا حقاً ؟

تمتم الأمير يقول بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

— قد يكون الأمر كما تقولين •

وكان قلبه يدق دقاً قوياً ، ويخفق خفقاناً عنيفاً •

وتابعت هي كلامها فقالت بلمهجة جليلة :

— كنت على يقين من أنك ستفهمني • ان الأمير • شتت • ... ، وأوجين بافلتش لا يفهمان شيئاً من هذا التمييز بين الذكاءين • وكذلك الكسندرا • ولكن هل تتصور أن ماما قد فهمته ؟

قال الأمير :

- انك تشبهين الزيات الكسندروفنا كثيراً •

فسألته آجلايا مدهوشة :

- كيف ؟ حقاً ؟

- أوكد لك •

قالت بعد لحظة من تفكير :

- أشكرك • بسعدني كثيراً أن أشبه • ماما • •

ثم أضافت تسأله دون أن تدرك سذاجة سؤالها :

- فأنت تقدرها اذن كثيراً ؟

- كثيراً • واني لسعيد أن أرى أنك قد فهمت ذلك حالاً •

- أنا أيضاً سعيدة ؛ ذلك أنني لاحظت أنهم ••• في بعض الأحيان

••• يسخرون منها ، ولكن اسمع : ان الأمر الجوهرى هو أنني فكّرت

ملياً قبل أن يقع اختيارى عليك • لا أريد أن يسخروا منى فى البيت ،

ولا أن يعاملونى فيه معاملة بنت صغيرة طائشة العقل • لا أريد أن

يتأكدونى ويفظونى ••• لقد فهمتُ هذا كله دفعةً واحدة ؛ ورفضتُ

أوجين بافلوفتش رفضاً قاطعاً لأننى لا أريد أن يكون همهم الدائم أن

يزوجونى ! أريد ••• أريد ••• نعم ••• أريد أن أهرب من البيت !

وقد اخترتك أنت لتساعدنى فى الهروب •

هتف الأمير يسألها :

- تهربين من البيت ؟

فصاحت تقول له بحركة عنيفة مفاجئة من غضب :

- نعم ، نعم ، ثم نعم ••• لا أريد بعد الآن ، لا أريد بعد الآن أن

يجعلونى أحمر خجلًا بغير انقطاع • لا أريد أن أحمر لا أمامهم ،

ولا أمام الأمير « شئت » ولا أمام أوجين بافلتش ، ولا أمام أى
 انسان ؛ ولذلك وقع اختيارى عليك . معك أستطيع أن أتكلم فى كل
 شئ . فى كل شئ ، حتى فى أخطر الأمور شأناً اذا حلالى ذلك .
 وعليك أنت ، من جهتك ، أن لا تخفى عنى شيئاً فى يوم من الأيام .
 أريد أن يكون هناك انسان ، على الأقل ، أستطيع أن أكلمه فى كل شئ .
 كأتنى أكلم نفسى . لقد أخذوا يقولون فجأة أتنى انتظرك واننى أحبك .
 بدأ هذا قبل وصولك ، ولم أكن قد أريتهم رسالتك . وهم الآن يرددون
 جميعاً هذه النعمة . أريد أن أكون جسورة فلا أخشى شيئاً . لا أريد
 أن أذهب الى حفلات الرقص التى يقودوننى اليها . أريد أن أكون نافعة .
 منذ مدة طويلة أريد أن أرحل . ها قد حبسونى عشرين عاماً كاملة ، ثم
 أصبحوا لا يفكرون الا فى تزويجى ، لم يكن عمرى الا أربعة عشر
 عاماً حين أخذت أحلم بالهروب . كنت ما أزال صبية حمقاء . والآن
 ربت كل شئ ، وانتظرتك لأحصل منك على جميع المعلومات عن الحياة
 فى الخارج . لم أرَ فى حياتى كاتدرائية قوطية . أريد أن أذهب الى
 روما ، أن أزور مراكز علمية . أريد أن أدرس بباريس . لقد أعددت
 نفسى لهذا فعملت طوال السنة الماضية . قرأت عدداً كبيراً من الكتب ،
 بينها جميع الكتب المحظورة . ان الكسندرا وآديلايد تستطيعان أن تقرئا
 كل شئ . ذلك مسموح لهما به ؛ أما أنا فهذا محظور على ؛ وهم
 يراقبوننى . لا أريد أن اختصم مع أختى ، ولكننى أعلنت لأبى وأبى
 منذ مدة طويلة أتوى تغيير حياتى تغييراً جذرياً . لقد قررت أن أعنى
 بالتربية ، وانى لأعتمد عليك ، فقد قلت لى انك تحب الأطفال . هل تعتقد
 أن فى وسعنا أن نعى معاً بالتربية ، ان لم يكن الآن فى المستقبل على
 الأقل ؟ سنقوم معاً بجهد مفيد وعمل نافع . لا أريد أن أكون بنت جنرال
 . . . قل لى : أنت رجل غزير العلم واسع الثقافة ؟

— لا ، بتاتاً ...

— خسارة • كنت أنا أظن ... كيف تخيلت هذا ؟ لا ضير ،
ستوجهنى وسترشدنى ، على كل حال ، ما دام اختبارى قد وقع عليك •
— هذا مستحيل يا آجلایا ایفانوفنا •

صاحت آجلایا تقول وقد أخذت عيناها تتقدان من جديد :

— أريد ، أريد أن أهرب من البيت ! فاذا لم توافق أنت ، فسأتزوج
جبریل آردالیونوفتش • لا أريد أن تنظر الى أسرتى نظرتها الى فتاة
شريرة ، وأن تتهمنى بما لا أدرى من تهمة !

هتف الأمير وهو يكاد يشب من مكانه :

— أنت تملكين عقلك أم لا ؟ بماذا يتهمونك ، ومن ذا يتهمك ؟

— جميع من بالبيت : أمى ، أختای ، أبى ، الأمير « شتش • • • • » ،
وحتى صاحبك السىء كولىا ! واذا كانوا لا يقولون لى شيئاً أمام وجهى ،
فهذا لا ينفى أنهم فى دخائل أنفسهم يفكرون فى ذلك •

لقد صارحتهم جميعاً بهذا • وصارحت به أمى • فمرضت أمى من
ذلك طوال النهار ، وفى الغداة قالت لى الكسندرا ، هى وأبى ، اننى
لا أدرك حتى معنى هذا ألهدر السخيف وهذه الكلمات التى استعملها •
فرددت عليهما قائلةً بلمهجة القطع والجزم اننى الآن أدرك كل شيء ،
وأدرك معنى جميع الكلمات ، واننى لست الآن بنية صغيرة ، واننى قرأت
منذ ستين روابتين من تأليف بول دى كوك ، قرأتها خصبصاً لأطلع على
كل شيء ، وأعرف كل شيء • فحين سمعت أمى هذا الكلام أوشكت أن
يُنمى عليها •

ومضت فى ذهن الأمير فكرة غريبة • حدثت الى آجلايا وابتنس •
كان يصعب عليه أن يصدق أن أمامه تلك الفتاة المتعالية نفسها التى قرأت
له فى الماضى ، بكثير من الكبرياء المستفزة ، رسالة جبريل آرداليونوفتش •
لم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن تنكشف فى فتاة جميلة لها ذلك الطبع
المتطهر المتوحش ، كيف يمكن أن تنكشف فيها على حين فجأة طفلة
لعلها لا تدرك حقاً معنى « جميع الكلمات التى تستعملها » •

سألها :

— هل قضيت حياتك كلها فى البيت يا آجلايا ايفانوفنا ؟ • أقصد
••• ألم تذهبي الى المدرسة ، ألم تلتجئى بمدرسة داخلية ؟

— لا ، لم أذهب فى حياتى الى أى مكان • حبست دائماً فى البيت
حتى لكأننى حبست فى زجاجة ، ولن أخرج من البيت الا لأتزوج • لماذا
تظل تبتنس هذه الابتسامة الساخرة ؟ ألاحظ أنك أنت أيضاً تسخر منى
وتحيز لهم •••

أضافت آجلايا هذه الجملة الأخيرة وقد قطبت حاجبيها وظهرت فى
هبتها علائم التهديد • وتابت كلامها فقالت :

— لا تحقنى • أنا نفسى لا أعلم ماذا يحدث فى نفسى ••• انى
لواقعة بأنك جئت الى هنا مقتنعاً كل الاقتناع بأننى أهواك واننى ضربت
لك موعداً •••

أضافت هذه العبارة بلمحة غضب •

فقال الأمير مترقلاً بسناجة ، وكان يشعر بانفعال شديد :

— حقاً لقد كنت بالأمس خائفاً من هذا • أما اليوم فأنا مقتنع بأنك ••
صاحت آجلايا تقول وقد أخذت شفتها السفلى تخرج على حين
فجأة :

- ماذا ؟ كنت خائفاً من أن ... هل تجرأت أن تظن أنني ...
رباه ! لعلك كنت تفترض أنني دعوتك الى هنا ليفاجئونا فتكون مضطراً أن
تزوجني ...

- آجل يا ايفانوفنا ! كيف لا نخجلين من قول هذا الكلام ؟ كيف
يمكن أن تثبت في قلبك الطاهر البريء فكرة تبلغ هذا المبلغ من الحطة ؟
أراهن أنك أنت نفسك لا تصدقين كلمة واحدة مما قلته ... بل وأنتك
لا تعرفين معنى هذه الأقوال التي تخرج من فمك ! ...

ظلت آجلانيا خافضة رأسها ، ساكنة لا تتحرك ، كأنها مروعة
مما قالته . ثم تمتعت تقول :

- لا ، لا أضجل البتة ! ثم من أين عرفت أن لي قلباً بريئاً ؟ وكيف ،
والحالة هذه ، تجرأت أن تبعث الى رسالة حب ؟

- رسالة حب ؟ رسالتي رسالة حب ؟ لقد كانت تلك الرسالة تعبيراً
عن أعماق الاحترام . وقد خرجت من قرارة قلبي في لحظة من ألم لحظات
حياتي . فكرت فيك حينذاك كما يفكر المرء في ضياء ... أنني ...

قاطعت آجلانيا فجأة ، ولكن بلهجة أخرى تختلف عن لهجتها الأولى
كل الاختلاف ، لهجة تكشف عن ندم عميق . يشبه أن يكون روعاً :

- طيب ... طيب ... كفى ! ...

حتى لقد مالت عليه ، وأجرت بيدها حركة كأنها تريد أن تلمس
كتفه لتدعوه بأحسن طريقة مقنعة أن لا يزعل ، مع استمرارها على غض
بصرها حتى لا تنظر اليه . وعادت تكرر قائلة باضطراب شديد :

- طيب ، طيب ... أحس بانني استعملت تعبيراً فيه غباء . وانما
قصدت من ذلك أن ... أن أمتحنك . افترض أنني لم أقل شيئاً . اذا

كنت قد آذيت شعورك فاغفر لى • أرجوك : لا تنظر الىّ محدقاً فى عيني • أشح وجهك عني • لقد صرّحت منذ لحظة بأنها فكرة منحطة • وأنا انما عبّرت عنها عامدة لأسمعك • يتفق لى أحياناً أن أخاف مما أحب أن أقوله ، ثم اذا هو يفلت من لسانى فجأة • وقد أضفت أنك كتبت الىّ تلك الرسالة فى لحظة من آلم لحظات حياتك •

ثم قلت وهى تخفض صوتها وتعود تطرق الى الأرض :

- اننى أعرف ما هى تلك اللحظة التى عنيت •

- ليتك تعرفين كل شئ • !

- أعرف كل شئ • !

كذلك صاحت تقول فى نوبة انفعال جديدة • وتابعت كلامها فقالت :

- فى ذلك العهد كانت تشاركك بيتك تلك المرأة السيئة التى

هربت معها •••

حين نطقت آجلايا بهذه الكلمات زابت وجهها حمرة ، وشحب لونها شحوباً شديداً • ونهضت فجأة كأنما حركتها اندفاع قوية بغير شعور منها ، ولكنها سرعان ما ثابت الى وعيها وسيطرت على نفسها فعاتت تجلس • ظلت شفتها تختلج مدة طويلة • وشده الأمير من هذه الاندفاع التى لم يكن يتوقعها ، ولا عرف الى ماذا يعزوها •

قالت فجأة بلهجة قاطعة :

- أنا لا أحبك البتة !

فلم يجب الأمير • وساد الصمت دقيقة من جديد •

قالت بصوت متعجل لا يكاد يفهم وهى تخفض رأسها مزيداً من

الحفض :

- أنا أحب جبريل آرداليونوفتش ...

قال الأمير يرد عليها بما يشبه الهمس :

- غير صحيح .

- أنا أكذب ؟ تلك هي الحقيقة بعينها . وقد قطعت له عهداً ، على

هذه الدكة نفسها ، أمس الأول .

ذُعر الأمير وبقي شارد الذهن لحظة ، ثم قال بلمهجة قاطعة :

- هذا غير صحيح . لقد لفتت هذه القصة تلعيقاً .

- انك لعلي أدب جم وتهذيب عظيم ! أريد أن تعلم أن جبريل

آرداليونوفتش قد تنير وتحسن . انه يحبني أكثر من حياته . وقد حرق

يده أمامي لا لشيء الا أن يبرهن لي على ذلك .

- حرق يده ؟

- نعم ، يده ! ويستوى عندي أن تصدق وأن لا تصدق !

صمت الأمير . لم تكن أجاليا مازحة . انها الآن غاضبة .

- غريب ! أياكون قد أتى الى هنا بشمعة ليحرق يده ؟ لست أرى

وسيلة أخرى يمكن أن يحرق بها يده ...

- نعم ، أتى بشمعة . أي غرابية في هذا ؟ أهذا غير معقول ؟

- أشمعة كاملة أم عقب شمعة في شمعدان ؟

- نعم ... لا ... نصف شمعة .. عقب شمعة .. شمعة كاملة ..

لا فرق . لا تلع ! حتى لقد أتى بعيضان كبيريت ، وأبقى أصابعه فوق

اللمب نصف ساعة . أبدو لك هذا مستحيلاً ؟

- لقد رأيته أمس ، فلم يكن في أصابعه أي أثر من آثار حرق .

انطلقت آجلايا تضحك ضحك طفلة • ثم التفتت نحو الأمير بخفة ،
وفى وجهها ثقة كقمة الأطفال ، بينما ألت بشفتيها ابتسامة • وقالت :

— هل تعلم لماذا قصصت عليك هذه الكذبة ؟ لأننى لاحظت أن
أحسن طريقة يعتمد اليها المرء من أجل أن يجعل كذبه معقولا بعد أن
يكون قد أخذ يكذب ، هى أن يدخل فى كذبه ، على نحو بارع ، عنصراً
يخرج عن المألوف ، عنصراً شاذاً ، عنصراً نادراً ، بل عنصراً لم يسمع
أحد بمثله • ولكننى لم أنجح ، لأننى لم أعرف كيف •••

واكفهر وجهها فجأة كأن ذكرى قد ومضت فى ذهنها • ثم استأنفت
كلامها فقالت له وهى تلقى عليه نظرة رصينة بل وحزينة :

— لقد أنشدتك فى يوم من الأيام قصيدة « الفارس الفقير » ، وكنت
أهدف من ذلك الى ••• الى مدحك ، ولكننى كنت أهدف فى الوقت
نفسه الى أن أفصح سلوكك وأن أبين لك أننى على علم بكل شئ •••
— انت يا آجلايا تظلمينى كثيراً ••• وتظلمين تلك الانسانة الشقية
التي وصفتها منذ لحظة بكلمات قاسية شديدة القسوة •••

— أنا انما عبّرت عن رأيى بتلك الألفاظ ، لأننى أعرف كل شئ ،
كل شئ ! أعرف أنك عرضت عليها الزواج على رموس الأشهاد ، منذ
سنة أشهر • لا تقاطعنى : أنت ترى أننى أروى وقائع ولكننى لا أعلق
عليها • وبعد ذلك انما هربت مع روجوين • ثم عشت معها فى قرية من
القرى أو ضاحية من الضواحي • ثم هجرتك والتحقت برجل آخر •
(هنا احمرت آجلايا احمراراً رهيباً) • وبعد ذلك عادت الى روجوين
الذى يحبها ••• يحبها حب جنون ! ثم هأنت ذا تصل الى هنا وراها ،
زحفاً ، منذ علمت أنها عادت الى بطرسبرج ، كما يليق برجل بارع
الذكاء ! وفى مساء أمس ، انبرت تدافع عنها وتحميها ؛ ومنذ لحظة كنت

نراها فى الحلم ... أرأيت أنتى أعرف كل شىء ؟ من أجلها ، من أجلها
انما رجعت الى هنا ، أليس كذلك ؟

حنى الأمير رأسه حزينا مفكرا ، دون أن يدور بخلفه أن آجلها
كانت ترشقه بنظرة ملتهبة • وقال بصوت خافت :

- نعم من أجلها ، من أجلها ، ولكن لكى أعلم أن .. أنا لا أعتقد
بأنها يمكن أن تسعد مع روجوين ، رغم أن ... الخلاصة : انتى لا أرى
ماذا أستطيع أن أفعل فى سيلها ، ولكنى جئت ...
قالت آجلها أخيرا :

- اذا كنت قد جئت دون أن تعرف لماذا جئت ، فهذا دليل على أنك
تحبها كثيرا •

فرد عليها الأمير قائلا :

- لا ، لا ، أنا لا أحبها ! ليتك تعرفين مدى الهول الذى أعانيه حين
أتذكر الزمن الذى قضيته معها !

وما ان قال هذه الكلمات حتى سرت فى جسمه رعدة •

أجابته آجلها :

- قل لى كل شىء •

- ليس فى القصة كلها ما لا يمكنك أن تسمعيه • لا أدري لماذا
كنت أنت ، أنت بعينك ، الشخص الوحيد الذى أردت أن أقص عليه
الحكاية كاملة • ربما كان مرد ذلك الى انتى أحمل لك فى الواقع كثيرا
من العاطفة • ان تلك المرأة الشقية مقتنعة اقتناعا عميقا بأنها أسقطت انسانة
وأفسد مخلوقة على وجه الأرض • لا تمنعها بالمار ، لا ترميها بحجر !

حسبها ما تلقى هي نفسها من عذاب الشعور بحطة تصف بها نفسها ظلماً !
ما ذنبها يا رب ؟ هي في نوبات حماسها تصيح قائلة انها لا تعرف لنفسها
أية خطيئة أو ذنب ، وانها ضحية الرجال ، ضحية رجل داعر وغد
حقير ! ولكن عليك أن تعلمي ، مهما تعلن لك من رأى ، أنها أول من
لا يصدق ما تقول . بالعكس : انها لا تنهم أحداً غير نفسها . . . انها تنهم
نفسها وحدها ، واجبة كل الوعى . وحين كنت أحاول أن أبعد من نفسها
هذه الظلمات كانت تشعر بالآلام وتباريح تبلغ من القوة والشدة أن قلبى لن
يشفى يوماً ، ما ظل محتفظاً بذكرى تلك اللحظات الأليمة . اننى أحس
أن قلبى قد طعن الى الأبد . لقد هربت منى ، فهل تعلمين لماذا هربت ؟
انها لم تهرب الا لتبرهن لى على خستها ودناءتها . على أن أقطع ما فى الأمر
أنها هي نفسها ربما كانت تجهل أن الدافع الذى كان يحركها انما هو
تقديم هذا البرهان لى وحدى . لقد كانت تظن أنها تهرب خضوعاً لرغبة
عارمة لا تقاوم فى أن تعارف عملاً مشيناً يتيح لها أن تقول لنفسها بعد
ذلك : « وهذه خسة جديدة تدينك . ألا انك لمخلوقة دنبة منحطة ! »
لعلك لا تفهمين هذا يا آجلايا ! هل تعلمين أن شعورها الدائم ذاك
بخستها ربما كان يخفى وراءه لذة عظيمة مخالفة للطبيعة هي لذة اشباع
نوع من الانتقام من أحد الناس ؟ كنت أنجح أحياناً فى أن أردّها الى رؤية
الضياء من حولها ، لكنها سرعان ما كانت تتمرد ، وتمضى فى ذلك الى حد
انهامى بأننى أريد الارتفاع فوقها والعلو عليها (وكان هذا فى الواقع بعيداً
عن ذهنى كل البعد) ؟ ثم تعلن لى أخيراً بغير لف أو دوران ، حين
أعرض عليها الزواج ، أنها لا تطلب من أحد لا شفقة عليها ولا رافة بها
ولا ممونة لها ، وانها ترفض أن يحاول أحد « رفعها اليه » . لقد رأيتها
أنت بالأمس . هل تظنين أنها سعيدة بصحبة أمثال هؤلاء الناس ، وأن تلك

البيئة هي البيئة التي تناسبها ؟ انك لا تعرفين مدى سعة ثقافتها ، ورحابة
فكرها ! لطالما أدهشني هذا فيها !

- هل كنت تلقى عليها هناك ... مواعظ كالتي تلقيها على " الآن ؟
تابع الأمير كلامه دون أن ينتبه الى لهجة السؤال :

- لا . كنت أصمت طول الوقت تقريباً . كنت أريد في كثير من
الأحيان أن أتكلم ، ولكنني لا أجِد في الواقع شيئاً أقوله . هل تعلمين أن
خير ما يفعله المرء أحياناً هو أن يصمت ؟ آ ... نعم ... كنت أحبها ..
كنت أحبها كثيراً ... ولكن ... بعد ذلك ... بعد ذلك حزرت هي
كل شيء .

- حزرت ماذا ؟

- أنني لا أضمر لها الا الشفقة ... أنني أصبحت لا أحبها !
- ما يدريك ؟ لعلها أحبت فملاً ذلك ... ذلك امالك الذي
هربت معه ؟

- لا ، أنا أعرف كل شيء . انها لم تزد على أن ضحكت عليه ؟
- وعليك أنت ، ألم تضحك قط ؟

- لا ! أقصد ... أحياناً ... كانت تسخر مني ... تخابئاً
ومكرراً ! كانت في تلك اللحظات ترهقني بملاحظات حائقة ، وكانت هي
نفسها تتألم ! ولكنها ، بعد ذلك ... آه ... لا توقظني هذه الذكريات
في نفسي ، لا تذكريني بهذه الأشياء !

قال الأمير ذلك وأخفى وجهه بيديه .
سألته أجلاًياً :

- وهل تعلم أنها تكتب الى كل يوم تقريباً ؟

فهتف الأمير يقول مضطرباً أشد الاضطراب :

- أهذا صحيح اذن ؟ لقد ذكر لي أنها تكتب اليك ، ولكنني أبيت
أن أصدق .

فسأله آجلايا خائفة :

- من ذكر لك ذلك ؟

- روجوين . ان روجوين هو الذي حدثني في هذا أمس ، ولكن
بكلمات غامضة .

- أمس ؟ أمس صباحاً ؟ في أى وقت من النهار ؟ أقبل الموسيقى أم
بعدها ؟

- بعد الموسيقى . في السهرة ، بين الحادية عشرة ومتصف الليل .

- آ . . . طيب . . . ما دام هو روجوين . . . ولكن هل تعرف عم
تكلمني في تلك الرسائل ؟

- لا استغرب شيئاً . انها مجنونة !

- اليك الرسائل (استلمت آجلايا من جيبها ثلاث رسائل مغلقة
وألقته أمام الأمير) . انها ، منذ أسبوع كامل ، تتوسل اليّ ، تضرع
اليّ ، تبتهل اليّ أن أتزوجك . انها . . . نعم . . . ذكية ، وان تكن
مجنونة . أنت على صواب حين تقول انها أذكى كثيراً مني . تقول لي
في رسائلها انها تهواني ، وانها تبحث كل يوم عن فرصة تراني فيها ولو
من بعيد ، وهي تؤكد لي أنك تحبني ، وأنها تعلم ذلك علم اليقين ، وأنها
لاحظته منذ زمن طويل ، وأنتك حدثتها عنى حين كنتما هناك . انها تريد
أن تراك سعيداً ، وتوقن أنني أستطيع وحدي أن أسعدك ! . . . وهي
تكتب بطريقة غريبة . . . غريبة جداً . لم أظهر على رسائلها أحداً .
كنت أنتظرك . هل تدري ماذا يعنى كلامها ؟ ألا تدرك ماذا يعنى كلامها ؟

- هو جنون • كلامها يدل على أنها فقدت عقلها •
كذلك قال الأمير وقد أخذت شفته تختهجان • سأله :
- ألسنت تبيكى ؟
فأجاب :

- لا آجلايا ! لست أبكى !
- ما الذى يجب على أن أفعله ؟ بماذا تصحنى ؟ اتنى لا أستطيع
أن أستمر فى تلقى هذه الرسائل •
هتف الأمير يقول :

- دعيا ، أرجوك ! ماذا تستطيعين أن تفعل فى هذه الظلمات ؟
سأحاول أن أجعلها لا تكتب اليك بعد الآن !
صاحت آجلايا قائلة :

- اذا كنت تقول هذا الكلام ، فمعنى ذلك أنك رجل لا قلب له •
ألسنت ترى ان أنها لا تهوانى أنا ، وانما هى تهواك أنت • انك أنت الذى
تجبه ! كيف يمكن أن تكون قد لاحظت فيها كل شيء الا هذا ؟ هل
تعلم ماذا وراء كلامها ؟ هل تدرك عمّ تكشف رسائلها ؟ انها تكشف عن
الفيرة ، بل تكشف عمّا هو شر من الفيرة !... انها ... أتظن أنها
ستزوج روجويين فملاً كما تزعم ذلك فى رسائلها ؟ لسوف تتحرر غداة
زواجنا اذا نحن تزوجنا !

ارتعش الأمير وانهد قلبه • ونظر الى آجلايا مدهوشاً : لقد شعر
باحساس غريب حين لاحظ أن هذه الطفلة قد غدت امرأة منذ مدة
طويلة •

- شهد الله يا آجلايا أننى مستعد لأن أضحي بحياتى فى سبيل أن

أدخل الى نفسها الراحة والسلام والطمأنينة والسعادة • ولكنى •••
لا أستطيع بعد اليوم أن أحبها • وهى تعرف ذلك !
— طيب ••• ضحَّ بحياتك ما دام هذا يناسبك كثيراً ! انك محسن
عظيم • ولا تناديني باسم « آجلایا » • أنت منذ لحظة قلت « آجلایا »
فحسب !••• يجب عليك أن تحاول بعثها بعثاً جديداً • أنت مضطر أن
تفعل هذا • الواجب يعل على أن تسافر معها ثانية • لكى تدخل الهدوء
والسكينة الى قلبها • ثم انك تحبها هى !

— لا أستطيع أن أضحي بنفسي • رغم أن هذه النية قد قامت فى
فكرى • ولعلها ما تزال قائمة فى فكرى !••• ولكنى أعلم علماً « لا مبدل
الى الشك فيه » أنها لن بقيت معى ضاعت وهلك !••• وذلك هو السبب
الذى يحدونى الى الابتعاد عنها • ينبغى أن أراها اليوم فى الساعة اسابعة •
ولكن قد لا أذهب اليها • ان كبرياءها لن تغفر لى حبي فى يوم من الأيام •
وسبكون فى هذا ضياعها وضياعى اذا نحن بقينا معاً ! ليس هذا طبيعياً •
غير أن كل شئ هنا مخالف للطبيعة • تقولين انها تحبني • ولكن هل هذا
حب ؟ هل يمكن أن يكون ثمة عاطفة كهذه العاطفة بعد كل الذى عايت
وقاسيت ؟ لا • ليس هذا حباً • هو شئ آخر غير الحب !

قالت آجلایا بارتفاع مفاجئ • :

— ما أشد هذا السحوب الذى اضراك !

— ما ذلك بشئ • اننى لم أئتم كثيراً • أشعر بأئتى ضعيف • تلك
هى الحقيقة • لقد تحدثنا عنك حينذاك يا آجلایا •••
— ذلك حق • اذن ؟ هل تحدثت « عنى معها » فعلاً ؟ و ••• كيف
أمكن أن تحبني بعد أن لم ترني الا مرة واحدة ؟

- لا أدري . فى الظلمات التى كانت تحف بى حينذاك ، رأيت ما يشبه أن يكون حليماً .. لعل فجراً جديداً قد أشرق أمام عينيّ .
لا أدري لماذا انصرف فكرى اليك أنت أول ما انصرف . لم أكذب عليك حين كتبت اليك قائلاً اننى أجهل كيف حدث الأمر . لم يكن ذلك الا حليماً هربت اليه من ذعرى حينذاك وبعدئذ ، أخذت أدرس
وكان فى نيتى أن لا أعود قبل ثلاث سنين

- أمتن أجلاً اذن عدت ؟

- نعم ، من أجلاً .

انقضت دقيقتان فى صمت . ثم نهضت آجلايا . وقالت بصوت

متردد :

- اذا كنت تقول ، اذا كنت تعتقد أنت نفسك أن هذه أن صاحبك هذه مجنونة ، فان ما تأتبه من أعمال شاذة لا يعينى ولا يهمنى فى شيء . أرجوك يا ليون يقولوا يقتش أن تأخذ منى هذه الرسائل الثلاث فترمها فى وجهها نيابةً عني !

ثم صاحت آجلايا تقول ببخسونة :

- وقل لها اننى ، اذا سمحت لنفسها بأن تكتب لى مرةً أخرى سطرأ واحداً ، سأشكوها الى أبى الذى سيعرف كيف يودعها فى مأوى للمجانين

اتنفض الأمير ، ونظر مرتاعاً الى هذا الغضب الشديد الذى اجتاح آجلايا على غير توقع . ثم سقط أمام عينيهِ نوع من ضباب ، على حين فجأة وتمتم يقول لها :

- لا ، لا يمكن أن تحملى عواطف كهذه المواقف لا

ليس حقاً ما تقولين !

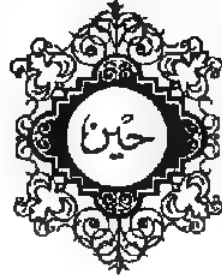
- بل هو حق ، هو الحقيقة بعينها !...
كذلك صرخت آجلايا كالحاروجة عن طورها •
فاذا بصوت منثور يسألها على مقربة منها :
- أى شيء هو حق ؟ عن أية حقيقة تتكلمين ؟
كانت اليزابت بروكوفيتنا أمامهما •
فاندفعت آجلايا تجيب أمها قائلة :

- عن حقيقة أنني قررت أن أتزوج جبريل آرداليونوفتش ، وأنى
أحبه ، وأننى سأهرب معه غداً من البيت • هل سمعت ؟ هل ارتوى
فضولك الآن ؟ هل يكفيك هذا ؟
وركضت عائدة الى البيت •

قالت اليزابت بروكوفيتنا وهى توقف الأمير :

- لا يا صديقي الطيب ، لن تنصرف الآن • هلاً تفضلت فصحتي
حتى تفرح لى تصرفك • آه ... ما هذا العذاب يا رب ! وكل ذلك بعد
ليلة لم يتمض لى فيها جفن !...
تبمها الأمير •

الفصل التاسع



وصلت ايزابت بروكوفينا الى الدار توقفت في
الحجرة الأولى . واذ لم تقوَ على المضي الى أبعد
من ذلك ، نهافت على ديوان منهكة منهدة ،
حتى لقد نسبت أن تدعو الأمير الى الجلوس .
هي قاعة كبيرة ذات مدفأة ، وفي وسطها مائدة مستديرة . ان ازهاراً
كثيرة تنكس على رفوف فيها تحت النافذة . وفي آخر القاعة باب ذو
زجاج ، يفضي الى الحديقة .
وسرعان ما ظهرت آديلائد وآلكسندرا تنظران الى الأمير والى
أُمها مدهوشة سائلة مستطلعة .

لقد اعتادت الأنسات أن يستيقظن في المصيف في نحو الساعة
التاسعة ؛ لكن آجلانيا أصبحت منذ يومين أو ثلاثة أيام تستيقظ قبل التاسعة
بقليل ، وتمضي تنزه في الحديقة ، لا في الساعة السابعة على كل حال ،
بل في الثامنة وحتى بعد الثامنة .

حقاً لم تعرف ايزابت بروكوفينا سيلاً الى النوم طوال الليل من
كرة الهموم التي كانت تملأ رأسها . وقد نهضت في الساعة الثامنة
لتذهب الى الحديقة وتلحق بآجلانيا التي كانت ايزابت بروكوفينا تعتقد
أنها صحت من نومها وقامت من فراشها . لكنها لم تجدها لا في الحديقة
ولا في غرفة نومها . فشعرت بروع شديد وأيقظت ابنتها الأخريين .

وقالت الخادم ان آجلابا ايفانوفنا قد ذهبت الى الحديقة العامة قبل الساعة السابعة . فضحكت الأختان ضحكاً مكرراً حين علمتا بأمر هذه النزوة الجديدة التى بدت لأختيهما الصغرى ذات الحيال الجامح ، ولفتتا نظر أمهما الى أن آجلابا يمكن أن تنضب اذا مضى أحد يبحث عنها فى الحديقة العامة ؛ وقالتا انها لا بد أن تكون الآن جالسة الى كتاب بيدها على الدكة الخضراء التى تكلمت عنها منذ ثلاثة أيام وأوشكت أن تشتجر فى شأنها مع الأمير « شتش . . . » ، الذى زعم أنه لا يوجد فى المكان الذى تقم فيه تلك الدكة أى جمال خاص .

فلما وقعت الزابت بروكوفيفنا على ابنتها متواعدة مع الأمير ، وفاجأتها تنطق بتلك الأقوال الغريبة ، شعرت برعب شديد له فى الواقع أسباب كثيرة تبرره وتسوّغه . ولكنها بعد أن جرّت الأمير معها ، خشيت نتائج مبادرتها ، اذ تساءلت : « لماذا لا يجوز أن تلتقى آجلابا بالأمير فى الحديقة وان يعجرى بينهما حديث ، ولو على سابق موعد ؟ » .

قالت أخيراً وهى تحاول أن تسيطر على نفسها :

... لا يذهبن بك الظن ، يا عزيزى الأمير ، أنتى جئت بك الى هنا لكى استجوبك . . . ولعلمنى ، يا صديقى الطيب ، كنت أوتر ، بعد الذى جرى فى مساء أمس ، أن لا أراك مرة أخرى ، خلال مدة طويلة .

وانقطعت عن الكلام لحظة . فبادرها الأمير بقوله :

ـ لكننى أقدر أنك نحين أن تعرفى كيف التقينا اليوم أنا وآجلابا ايفانوفنا . . .

فأجابته الزابت بروكوفيفنا باندفاع :

ـ طبعاً أحب أن أعرف ذلك . أنا لا أخشى أن أقابل بالحقيقة .
انتى لا أسى الى أحد ، ولم أثنأ أن أسى الى أحد . . .

- طبعاً •• ان الرغبة فى معرفة ذلك لا تشتمل على اساءة الى أحد •
لقد التقينا اليوم ، أنا وأجلايا ايفانوفنا ، قرب الدكة الخضراء ، فى الساعة
السابعة تماماً ، على موعد ضربته لى أمس • لقد أعطيتنى فى مساء أمس
رسالة تقول فيها انها تريد أن ترانى وأن تكلمنى فى أمر هام • فالتقينا
وتكلمنا خلال ساعة فى شئون لا تتعلق الا بها وحدها • ذلك كل شئ •

قالت اليزابت بروكوفينا بلهجة رصينة :

- طبعاً هذا كل شئ • يا صديقى • لا يساورنى أى شك فى أن هذا
كل شئ •

قالت أجلايا وهى تدخل الغرفة فجأة :

- أحسنت جداً يا أمير • أشكر لك من أعماق قلبى أنك اعتبرتنى
عاجزة عن الانحدار الى حيث ألقى كذبة • أنت راضية الآن يا ماما ،
أم تراك تريدن أن تمضى فى الاستجواب الى أبعد ذلك ؟

ردت عليها اليزابت بروكوفينا بلهجة من يلقى دوساً :

- تعلمين حق العلم أننى لم يتفق لى فى يوم من الأيام أن احمر
وجهى أمامك ••• رغم أن ذلك كان يمكن أن يحدث لك لذة •

ثم التفت تقول للأمير :

- استودعك الله يا أمير ! اغفر لى ازعاجى اياك • آمل أن تظل
مقتنعاً بأن تقديرى لك ثابت لا يتغير •

فسرعان ما حياً الأمير أمّ الفتاة ثم انسلّ صامتاً لم لا ينس بكلمة •
وارسعت ابتسامة على شفתי كله من آديلايد والكسندرا ، وأخذتا
تهامسان • فألقت عليهما اليزابت بروكوفينا نظرة قاسية •
قالت آديلايد ضاحكة :

- ان ما يحملنا على الابتسام هو أن نرى الأمير يلقي تحيته بهذا الجلال وهذه النخامة ! انه في العادة ، من فرط خراقة ، أشبه بكيس ، ثم اذا هو يصطنع الآن آداباً وحركات فكأنه أوجين بافلوفتش •

قالت اليزابت بروكوفينا بوقار :

- رفعة النوق ورهافة الحس والشعور بالكرامة أمور تتبع من القلب ولا يعلّمها أساتذة الرقص •

وصعدت الى غرفتها حتى دون أن تلقي نظرة على أجاليا •

وحين عاد الأمير الى بيته في نحو الساعة التاسعة وجد على الشرفة فيرا لوكيانوفا وخادمة • كانتا قد رتبنا المكان وكنتا الأرض بعد سهرة الياريحة الصاخبة •

قالت فيرا مرحة :

- الحمد لله ! انتهينا من العمل قبل عودتك •

- صباح الخير • ان بى بعض صداع • لم أنم نوماً مريحاً • أود لو ارقد قليلاً •

- هل تحب أن ترتاح هنا ، على الشرفة ، كأس ؟ هذا حسن • سأقول للجميع أن لا يوقظوك • بابا خرج •

انصرفت الخادم • وتظاهرت فيرا بأنها تتبعها ، لكنها عدلت عن ذلك واقتربت من الأمير مهمومة وقالت له :

- أمير ، أشفق على هذا ••• البائس • لا تطرده اليوم •

قال الأمير :

- لن أطرده بظال من الأحوال ، سيفعل ما يحلو له أن يفعله •

- الآن لن يفعل شيئاً ... لا تكن قاسياً معه !
- طبعاً لن أكون قاسياً معه ، علام أكون قاسياً ؟
- ثم ... لا تضحك عليه ... لا تستهزئ به ... ذلك هو الأمر
الأساسي .

- حتماً لن أفعل -

قالت فيرا وقد احمر وجهها :

- سخفٌ مني أن أقول هذا الكلام لرجل مثلك .

ثم أضافت تقول ضاحكةً وقد استدارت نصف استدارة نحو
الباب :

- رغم أنك متصب مكدود ، فإن عينيك في هذه اللحظة تعبران عن
أبلغ الطيبة وأعظم السعادة ...

سألها الأمير بحرارة :

- أهما تعبران عن سعادة عظيمة حقاً ؟

وانطلق يضحك ضحكة صريحة واضحة .

ولكن فيرا التي تتصف بالبساطة ، وتتصف برفع الكلفة وعدم
التحرج كأنها صبي ، سرعان ما خجلت خجلاً كبيراً واضطربت اضطراباً
شديداً وازداد احمرار وجهها كثيراً ؛ ثم اذا هي تخرج فجأة دون أن
تقطع عن الضحك .

قال الأمير يحدث نفسه : « يا لها ... من فتاة رائعة ... » ، ثم
سرعان ما نسيها . وانسحب الى ركن من الشرفة فيه السرير ، وجلس
قبالة مائدة صغيرة ، وغطى وجهه يديه ، ولبت على هذا الوضع زهاء عشر

دقائق • وفجأة ، دسّ يده في جيبه الخائبي قلقاً ، فأخرج منه ثلاث رسائل •

لكن الباب فتح من جديد ، ودخل كوليا ، فشعر الأمير بما يشبه الفرحة لهذه الفرصة التي تتيج له أن يعيد الرسائل الى جيبه ، وأن يرجي • قراءتها •

جلس كوليا على السرير •

ولم يلبث أن انبرى يدخل في الموضوع دفعة واحدة ، بما هو معهود في أمثاله من انطلاق :

— يا له من حادث ! ما رأيك الآن في هيوليت ؟ هل فقد اعتبارك ؟

— علام يفقد اعتباري ؟ ولكنني متعب ••• يا كوليا ••• ثم ان العودة الى هذا الموضوع أليلة • كيف حاله الآن مع ذلك ؟

— انه نائم • وأغلب الظن أنه لن يستيقظ قبل ساعتين • أنا فاهم : انت لم تبت ليلتك بالدار ، بل ذهبت الى الحديقة العامة • شيء طبيعي •• لأنك كنت متأثراً مضطرباً ! ••• لا أقل من هذا !

— كيف عرفت أنني ذهبت الى الحديقة العامة ، وانني لم أبت ليلتي بالدار ؟

— قالت لي فيرا هذا منذ لحظة • وقد أوصتني بأن لا أدخل • لكنني لم أطق صبراً • أردت أن أدرك ، ولو دقيقة ! لقد قضيت هاتين الساعتين قائماً على المريض • والآن يقوم عليه كوسيتا ليديف • أما بوردوقسكي فقد مضى • الخلاصة : ارقد يا أمير ! أتمنى لك ليلة ••• بل يوماً سعيداً ! ولكن ••• هل تعلم ؟ أنا مشدود مدهول !

— لا غرابة في ذلك ، بعد كل الذي •••

- لا يا أمير ، لا . ان ما يشدهنى ويذهلىنى هو « الاعتراف » ؟
ولا سيما الجزء الذى يتحدث فيه عن العناية الالهية والحياة الآخرة . ههنا
فكرة ضخمة ... حمة ! ...

نظر الأمير الى كوليا بعاطفة وحنان . لا شك فى أن كوليا إنما جاء
ليحدث مع الأمير فى تلك الفكرة الضخمة .
قال كوليا :

- لكن الشيء الأساسى ، الشيء الأساسى ، ليس الفكرة ذاتها بل
الظروف التى نبتت هذه الفكرة فى ظلها . فلو أن الذى عبّر عن هذه
الفكرة فولتير أو روسو أو برودون ، لقرأتها ولاحظتها دون أن تدهشنى
الى ذلك الحد من الادهاش . أما أن يقول هذا الكلام انسان موقن من أنه
لم يبق له أن يحيا على وجه هذه الأرض الا عشر دقائق ، فذلك مثال
رهيب على الكبرياء والجبروت ! ان هذا أسمى مظهر من مظاهر الاستقلال
والكرامة الشخصية ! ان هذا اقتحام " جسور " ... بل هو قوة نفسية
ضخمة ! فإذا قيل بعد هذا انه تعمد أن ينسى الكبسولة تعمداً ، كان ذلك
حطة وخسة ، بل كان سخفاً واستحالة ! ولكن هل تعلم ؟ لقد خدعنا
هيوليت أمس . انه ماكر . أنا لم أشاركه فى ترتيب حقيقته ، لا ولا رأيت
سلسله فى يوم من الأيام ، انه هو الذى حزم كل شيء . لذلك دهشت
وتحيرت حين سمعته يزعم ذلك الزعم . تقول فيرا انك ستبقيه هنا .
أؤكد لك أن لا خطر البتة ، لا سيما وأنا نراقبه مراقبة دقيقة فى
كل لحظة .

- من الذى سهر عليه هذه الليلة ؟

- كوستيا ليديف ، وبوردوفسكى ، وأنا . وقد جاء كيللر برهة ،
لكنه لم يلبث أن ذهب ينام عند ليديف ، اذ لم يكن فى غرفتنا مكان يرقد

فيه • وهناك انما بات فردشتشكو كذلك ، ثم خرج فى الساعة السابعة • وما يزال الجنرال فى بيت ليديف • والآن خرج هو أيضاً • • • أظن أن ليديف ينوى أى يجىء اليك بعد هنيهة • لقد بحث عنك - لا أدري لماذا ! - وسأل مرتين أين أنت • أيجب أن نسمح له بالدخول ، أم يجب أن نطلب منه الانتظار ، اذا كنت تريد أن تتراح ؟ أنا نفسى سوف أمضى أنام • ها • • • نعم • • • يجب أن لا أنسى أن أذكر لك ما بلى : لقد شهدت ، منذ قليل ، عملاً غريباً من أعمال الجنرال • أيقظنى بوردوفسكى قبل الساعة السادسة ، بل فى الساعة السادسة تماماً ، لأبشر نوبتى فى القيام على المريض • فخرجت دقيقة ، فما كان أشد دهشتى حين التقيت بالجنرال وقد بلغ من السكر أنه لم يعرفنى ، ولبت جامداً أمامى كأنه وتد مغروس فى الأرض ، ثم تاب الى رشده ، فابتدى يسألنى : « هيه ! كيف حال المريض ؟ لقد جئت أسأل عن صحته ! » • فذكرت له كبت وكيت • فأضاف يقول : « هذا كله حسن ! ولكننى انما نهضت من فراشى وجئت خاصة لأبتهك • هناك أسباب تدعونى الى الاعتقاد بأن من غير الممكن أن يقال كل شىء بحضور فردشتشكو • • وان من الواجب أن يكون المرء على حذر منه • • • أتفهم يا أمير ؟

- هل هذا ممكن ؟ على كل حال • • • نحن لا يهمننا ذلك ولا يعيننا •

- طبعاً لا يهمننا ولا يعيننا ، فنحن لسنا من « الماسونيين الأحرار » ، حتى لقد أدهشنى أن يكون الأمير قد أراد أن يوقظنى هذه الليلة ليقول لى هذا الكلام •

- تقول ان فردشتشكو خرج ؟

- فى الساعة السابعة • جاء الى وأنا قائم على المريض ، فذكر لى أنه

مينهى ليلته عند فلكين - انه سكير مشهور ، فلكين هذا ! - هيا ! أنا
منصرف ! ولكن هذا هو لوكيان تيموفتشس ... ان الامير يريد أن ينام
يا لوكيان تيموفتشس ، فارجع من حيث أتيت !

فأجاب ليديف وهو يحيى بكثير من الاحتفال :

- لا أكثر من دقيقة واحدة أيها الأمير المعظم . ان الأمر أمر قضية
لها عندي شأن هام .

كان ليديف يتكلم بصوت خافت ولهجة رصينة ، ولكن صوته
ممتلئ بخطورة القضية التي جاء يتحدث فيها . لقد رجع الآن الى البيت ،
حتى انه لم يذهب الى غرفته بعد ، فما يزال ممسكاً قبضته بيده . كان
وجهه مهموماً ، وكانت هيئته تعبر عن خطورة الأمر تعبيراً قوياً .

رجاه الأمير أن يجلس .

- هل سألت عنى مرتين ؟ أتراك ما تزال قلقاً بسبب حوادث
البارحة ؟

- آنت تعنى موضوع فنى الليلة الماضية يا أمير ؟ لا ، لا : لقد
كانت أفكارى مضطربة أمس . أما اليوم فلست أريد أن أعاكس نواياك
فى أى شىء ...

- أعاك ... ماذا قلت ؟

- قلت : أعاكس . هذه كلمة فرنسية كغيرها من الكلمات الفرنسية
الكثيرة التى دخلت على لغتنا الروسية ، ولكننى لا أحرص عليها حرصاً
كبيراً .

قال الأمير وهو يتسم ابتسامة خفيفة :

- ماذا أصابك اليوم يا ليديف حتى صرت شديد الرصانة كثير الاحتفال الى هذه الدرجة ؟ أراك تتمهل فى الكلام مقطّعا كلماتك وازناً ألفاظك •

فاتجه ليديف الى كوليا وقال له بلهجة يكاد يكون فيه حنان :
- نيقولاى آرداليونوفتش ! علىّ أن أبلغ الأمير قضية تتعلق خاصة ب •••

- طيب ••• فهمت !••• قضية لا تتعلق بى • الى اللقاء يا أمير !
كذلك قال كوليا وانصرف فوراً •
قال ليديف وهو يتابعه بنظره :

- أحب هذا الصبى حقاً ، فهو حاد الذكاء سريع الفهم ؛ وهو يقظ نشيط ، وان يكن مزعجاً بكثرة الحاحه • لقد حلّت بى مصيبة كبرى أيها الأمير العظيم ، حلّت بى مساء أمس أو هذا الصباح فى وضع النهار •• لا أستطيع أن أحدّد الوقت تحديداً دقيقاً بعد •
- ماذا حدث ؟

- اربعمائة روبل اختفت من الجيب الداخلى من ردائى •
ثم أضاف يقول وهو يتسم ابتسامة مرة :
- خُدعت أيها الأمير العظيم !
- فقدت اربعمائة روبل ؟ خسارة •••
- لا سيما بالنسبة الى رجل فقير يعيش من عمله بشرف ونبل •
- طبعاً ، طبعاً • كيف وقع الأمر ؟

- الذنب ذنب الحمرة • انتهى اتجه اليك اتجاهى الى العناية الالهية أيها الأمير العظيم • ان مبلغ الاربعمائة روبل هذا قد رُدّه الى "مدين"

فى الساعة الخامسة من مساء أمس • وعدت الى هنا بالقطار • وكانت محفظة أوراقى فى جيبى • فلما خلعت بزتى لأرتدى رديجتوى وضعت المال فى جيب الرديجتوى حرصاً منى على الاحتفاظ بالمال معى • كنت أنوى أن أسلم المال فى السهرة لرجل من رجال الأعمال كان قد طلبه منى • وكنت انتظر ذلك الرجل

— بالمناسبة يا لوكيان تيموقتش : هل صحيح أنك نشرت فى الجرائد اعلاناً أنك تقرض مالاً برهن أشياء ذهبية أو فضية ؟

— هذا الاعلان قد تم ارساله بواسطة رجل من رجال الأعمال • فهو لا يحمل اسمى ولا عنوانى • وانا امرؤ لا أملك الا رأس مال صغير ، وقد ازداد عدد أفراد أسرتى ، فأظن أنك توافق على أن فائدة شريفة

— طبعاً ، طبعاً ! أنا لم ألق عليك هذا السؤال الا من باب العلم بالشىء ! ... اغفر لى اننى قاطعتك •

— لم يأت رجل الأعمال الذى كنت أنتصره • ثم جىء الى هنا بذلك البائس الشقى • وبعد العشاء كنت قد اتعشت • ثم جاء زوارنا • فشربنا ... شايًا ... و ... من سوء حظى أننى أفرطت فى المرح • فلما وصل كيللر فى ساعة متأخرة من السهرة فأعلن لنا أن اليوم عيد ميلادك وأن علينا أن نقدم شمبانيا ، اعتقدت يا عزيزى الأمير المعظم ، اعتقدت أنا الذى أملك قلباً لا أقول انه عاطفى ولكننى أقول معتزاً انه قلب يعترف بالجميل (وأغلب ظنى أنك لاحظت ذلك ، لاننى استحق أن تلاحظه) ، نعم ... اعتقدت أن من واجبى أن أخلع ثيابى القديمة البالية وأن أعود أرتدى بزتى الرسمية انتظاراً للمحظة التى أعبر لك فيها عن تهنتى ، وأحتفل فيها بعيد ميلادك بمزيد من المهابة والفضامة • ذلك ما فعلته يا أمير ، ولا بد أنك لاحظت اننى لبثت مرتدياً بزتى الرسمية

طوال السهرة • ولكنني حين بدلت ثيابي نسيت المحفظة في جيب ردنجوتي • صدق من قال : اذا أراد الله أن يعاقب أحداً جرّده من عقله أولاً • وفي هذا الصباح ، في الساعة السابعة والنصف ، حين استيقظت من نومي ، وثبت نحو ردنجوتي كالمجنون • فإذا أنا أجد الجيب خالياً • فلا أتمر للمحفظة •

— آه ... هذا مزعج !

— هذه هي الكلمة : مزعج •

كذلك قال ليديف ثم أضاف بشيء من المكر :

— انك بما تملك من كرامة تميز بها قد وجدت التعبير المناسب فوراً •

قال الأمير قلقاً بعد لحظة من تفكير :

— ولكن ... مع ذلك ... كيف ... هذا خطير !

— تلك هي الكلمة : خطير ! لقد جئت ، يا أمير ، مرةً أخرى ، بالتعبير الموقّ الذي يحدّد ال ...

— أوه ... لو كسان تيموقتش ! ما لنا وللكلمات الآن ! ليست الكلمات هي الأمر المهم • هل تعتقد أن من الجائز أن تكون المحفظة قد سقطت من جيبيك دون أن تنتبه أنت الى ذلك بسبب سكرك ؟

— جائز • كل شيء في السكر جائز ، على حد التعبير الذي استعملته بكثير من الصراحة أيها الأمير العظيم • ولكن احكم في الأمر بنفسك : لو أنني أسقطت محفظتي من جيبي حين خلعت ردنجوتي لكان يجب العثور على المحفظة في أرض الفرقة • فأين هي المحفظة ؟

— ألا يجوز أن تكون قد دسستها في درج منضدة ؟

- نبشت كل شيء • بحثت في كل موضع • ثم انتى لم أضعها في
أى مكان ، ولم أفتح أى درج • أتذكر هذا تذكراً تاماً •

- هل بحثت في الخزانة الصغيرة ؟

- ذلك أول شيء فعلته ، حتى لقد بحثت فيها عدة مرات هذا الصباح
... ثم ما الذى كان يمكن أن يدفعنى الى دسّ المحفظة في الخزانة
الصغيرة أيها الأمير المعظم ؟

- أعترف لك يا ليديف أن الأمر يقلقنى كثيراً • أياكون أحد قد
عثر بها اذن على الأرض ؟

- أو استلها من جيبي ! ليس هناك تفسير آخر •

- هذا يقلقنى قلقاً شديداً ! من ذا الذى يمكنه أن يفعل هذا ؟

ذلك هو السؤال !

- لا شك أن ذلك هو السؤال الأساسى • انك أيها الأمير المعظم
توفق توفيقاً مدهشاً محكماً الى الكلمات والأفكار والتعاريف التى تصور
الوضع ...

- آه ... لو كان تيموفتتش ... كفى سخريه ! هنا ...

صاح ليديف وهو يرفع ذراعيه قائلاً :

- سخريه ؟

- هياً ... هياً ... طيب .. لست أزعج ... ان اهتمامى
منصرف الى غير هذا تماماً • انتى أخشى أن أرى أناساً يتهمون • فيمن
تشبه ؟

- السؤال محرج جداً ... و ... معقد جداً ! لا أستطيع أن أنهم
الخدمة ، فلقد لبثت فى مطبخها طول الوقت • ولا يمكن الشك فى أولادى
أيضاً ...

— طبعاً •

— يتضح عن ذلك أن الفاعل لا يمكن أن يكون إلا أحد الزوار •

— ولكن هل هذا ممكن ؟

— هذا مستحيل امتحالة مطلقة كاملة ، ولكن لا يمكن أن يكون قد حدث غير هذا • واننى لأسلم مع ذلك ، بل اننى لمقتنع أيضاً بأن السرقة — اذا كان ثمة سرقة — انما حدثت لا فى السهرة ، حين كان الزوار مجتمعين ، بل فى ساعة متأخرة من الليل ، أو حتى عند مطلع الصبح ، وان الشخص الذى ارتكبها هو أحد الذين باتوا ليلتهم هنا •

— آه ... ربه ! ...

— أنا لا أثق طبعاً فى بوردوفسكى ولا فى نيقولاى آرداليونوفتش ؛ وهما لم يدخلوا على ، فى كل حال •

— هذا بديهي ، حتى ولو دخلا عليك ا من بات ليلته عندك ؟

— نحن أربعة يتنا فى غرفتين متلاصقتين : الجنرال ، كيلر ، السيد فردشتشكو ، وأنا • فالفاعل لا بد اذن أن يكون أحدينا •

— تقصد أنه لا بد أن يكون أحد الثلاثة • ولكن من هو ؟

— لقد عددت نفسى بين المعدودين ، لأكون عادلاً ، ولأضع الأمور فى نصابها • ولكنك توافقنى يا أمير على أننى لا يمكن أن أسرق نفسى بنفسى ، وان تكن هذه الحالة قد سبق أن شوهت مثلها فى هذا العالم ... صاحب الأمير يقول وقد نفذ صبره :

— آه • • • ليديف ... ثرثرتك مضجرة جداً • انتقل الى الوقائع •

لماذا هذه المواربات ؟ ...

— بقى اذن ثلاثة أشخاص • فلنبداً أولاً بالسيد كيلر ، وهو رجل متقلب لا يعرف الاستقرار ، وهو رجل مكير مدمن على الشراب ، وهو

فى بعض الأحوال يوصف بأنه لبرالى ، فيما يتعلق بمسألة الجيوب هذه على الأقل . والآولى على كل حال أن يوصف بأن طبعه يشبه طبع فارس من العصر القديم أكثر مما يشبه طبع لبرالى من الزمان الحاضر . لقد قضى النصف الأول من الليل معنا فى غرفة المريض ثم لم يبارحنا الا فى ساعة متأخرة بحجة أنه لا يستطيع أن ينام على الأرض .

— هل تشبه فيه ؟

— اشتبهت فيه ، وحين وثبت عن فراشى كالمجنون بعد الساعة السابعة ولطمت جينى ، مضيت على الفور أوقف الجنرال الذى كان ينام نوماً هادئاً بريثاً . فلما تأملنا أنا والجنرال فى أمر اختفاء فردشتشكو ذلك الاختفاء الغريب ، وهذا أمر خليق وحده بأن يثير فىنا الشبهات والشكوك ، قررنا كلانا أن نفتش كيللر الذى كان راقداً مثل ... مثل ... مثل مسمار تقريباً . نبشنا جيوبه نبشاً دقيقاً فلم نجد قرشاً واحداً ، حتى ان جميع جيوبه كانت مثقوبة لا يُستثنى منها جيب واحد . وعثرنا فى أحد الجيوب على منديل من قطن أزرق ذى مربعات يأنف المرء من أن يشيله بملقط . ووجدنا رسالة غرام من خادمة ما ، فيها مطالبة بال وفيها تهديد . ووجدنا صفحات من المقالة التى تسلم من أمرها ما تعلم . ذلك كل ما وجدناه فقرر الجنرال أن كيللر برىء . ومن أجل أن تزيد الأمر وضوحاً ، أيقظنا الرجل من نومه ، ولقينا فى ايقاظه بعض الناء ، فلما بسطنا له القضية لم يكده يفهم عمّ تتكلم : كان أماننا فاغر الفم ، ثمل الهيئة ، غيبى الوجه ، برىء النظرة . ليس هو الفاعل إذن !

صاح الأمير يقول وهو يتنفس الصعداء فرحاً :

— آه ... ما أعظم سرورى ! كنت خائفاً عليه !

قال ليديف غامزاً بمكر :

- كنت خائفاً عليه ؟ أكان هناك اذن أسباب تدعوك الى الخوف عليه؟
فأجابه الأمير :

- لا ، لا ... فأنسا أنا قلت هذا بغير تفكير ، لقد عبثت عن
تفكيرى تعبيراً أحقق أخرق حين قلت اننى كنت خائفاً عليه . أرجوك
يا ليديف أن لا تنقل كلامى هذا الى أحد .

- أمير ! أمير ! سوف يبقى كلامك مدفوناً فى قلبى ، فى القاع من
قلبى . هو من قلبى فى قبر .

كذلك قال ليديف بمهابة وجلال ، ضاعطاً بقبعته على صدره .
سأله الأمير :

- طيب ... طيب .. هل الفاعل اذن هو فردشتشكو ؟ أقصد .
هل تشبه فى فردشتشكو ؟

فأجاب ليديف خافضاً صوته محدقاً الى الأمير :

- هل هناك من يمكن أن أشبه فيه غيره ؟

- نعم ... طبعاً ... من يمكن الاشتباه فيه غيره ؟ ولكن ، أين
الأدلة ؟

- الأدلة موجودة . أولاً : اختفاؤه فى الساعة السابعة أو حتى قبل
الساعة السابعة من الصباح .

- أعلم : لقد حكى لى كولا أن فردشتشكو قد دخل عليه ليلته أنه
سوف ينهى ليلته عند ... نسيت الاسم ... المهم : عند أحد أصدقائه .
- فيلكين . اذن سبق أن حدثك تيقولاي آرداليونوفتش عن هذا
الأمر ؟

- لم يقل لى عن السرقة شيئاً •

- هو لا يعلم بها ، لأننى أكنم الأمر الآن • اذن ذهب فردشتشكو الى عند فيلكين : لا غرابة فى أن يذهب سكير الى سكير ، حتى فى مطلع الصبح ، بدون أى داع ، أليس كذلك ؟ ولكن هنا يرتسم مسار يمكن اقتفاؤه • ان فردشتشكو ، حين انصرف ، قد ذكر المكان الذى كان ذاهباً اليه • اصغ الى يا أمير ، وتابع سير تفكيرى • لماذا فعل فردشتشكو ذلك؟ لما تعتمد أن يدخل على نيقولاى آرداليونوفتش ، رغم أن الطريق اليه فيه دورة طويلة ، ليبلغه أنه « سيختم ليلته عند فيلكين » ؟ من ذا الذى يهمه أن يعرف أنه خارج ، وأنه ذاهب خاصة الى فيلكين ؟ لماذا الابلاغ عن هذا ؟ لا ، لا ، ان ذلك شطارة ، شطارة لص ! ذلك معناه : « انظروا : اننى لم أحاول اخفاء أثرى ، فكيف يمكن بعد ذلك أن تنصب على شبهة سرقة ؟ هل يدل سارق على المكان الذى يذهب اليه ؟ » • هذه زيادة فى الاحتياط والحذر لتحويل الأنظار وصرف الشبهات ، ومحو آثار الخطوات على الرمل ان صح التعبير ••• هل فهمت غنى يا أميرى المعظم ؟

- فهمت ، فهمت جيداً ، ولكن هذا دليل واهن كى الوهن •

- اليك دليلاً آخر : لقد ظهر أن المسار كاذب ، وأن العنوان الذى تركه فردشتشكو غير صحيح • فلقد ذهبت أقرع باب فيلكين بعد ساعة ، أى فى الساعة الثامنة • انه يسكن هنا ، فى « الشارع الخامس » وأنا أعرفه على كل حال • لم أجده عنده فردشتشكو • صحيح أننى استطعت أن أعلم من خادمة صماء كأنها جرة ماء ، أن أحداً قد جاء منذ ساعة فصلاً ، وأنه بذل جهوداً كبيرة ليدخل حتى لقد خلع الجرس ، ولكن الخادمة لم تفتح الباب اما لأنها لم تشأ أن توقف فيلكين ، واما لأنها لعلها لم تستطع أن تهض عن مريرها • هذا واضح •

— أهذه براهينك كلها ؟ انها قليلة •

— حول من يمكن أن تحوم شبهاتى اذن يا أمير ؟

هكذا ختم ليديف كلامه بلهجة فيها مراعاة شديدة ، وبصوت يوشك أن يكون دامعاً ، ولكن على ابتسامة لا تخلو من بعض المكر •

قال الأمير مهموم الهيئة بعد لحظة من تفكير :

— يجب عليك أن تفتش الغرف والأدراج تفتيشاً جديداً •

فقال ليديف متهدأ ، معبراً بوجهه عن مزيد من التأثر :

— فعلت !

فهتف الأمير يقول وهو يضرب المائدة غضباً :

— هم ••• ولكن لماذا ، لماذا خلعت رديجوتك ؟

قال ليديف :

— هذا سؤال مستمد من مسرحية هزلية قديمة • ولكننى أرى أيها

الأمير العظيم المبجل أنك تسرف فى التألم لمصيبتى ! أنا لا أستحق كل هذا •

أقصد : أنا لا أستحق هذا ، وحدى ! على أننى أرى أنك تتألم للجائى

أيضاً ••• لذلك الرجل الثافه الذى يسمى فردشتشكو !

فقاطعه الأمير يقول ذاهلاً مستاءً :

— نعم ••• فعلاً ••• لقد ملأت نفسى همًا • الخلاصة : ماذا تنوى

أن تفعل ••• اذا كنت مقتنعاً هذا الاقتناع كله بأن فردشتشكو هو الجائى؟

قال ليديف وهو يتلوى ويتعقف ويصطنع لهجة ما تفك تزداد

امتلاءً بالتأثر والعاطفة :

— يا أمير ، أيها الأمير العظيم ، من ذا الذى يمكن أن أتهمه سواه ؟

يستحيل أن ينصرف التفكير الى شخص آخر ، وان استحالة الاشتباه فى

أى انسان عدا فردشتشكو هى فى ذاتها قرينة أخرى تشير الى أنه هو
الجانى . ذلك دليل ثالث ! ذلك اننى أكرر هذا السؤال : من ذا الذى
يمكن اتهامه عدا ؟ اننى لا أستطيع أن أشبهه فى السيد بوردوفسكى ،
هى . هى ؟

- دعك من هذا السخف !

- لا ولا الجنرال ، هى . هى ؟

- هذه أيضاً حماقة !

قال الأمير هذه الجملة الأخيرة بلهجة تكاد تشتمل على غضب ،
وانقلب على مضجعه الى الجهة الأخرى متمللاً نافذ الصبر .

- هى حماقة طبعاً ! هى . هى . هى ! ما أغرب شأن هذا الجنرال !
لشد ما أضحكنى ! لقد ذهبت منذ قليل ، تبحث عن فردشتشكو عند فيلكين
.. يجب أن أقول لك انه كان أشد دهشة منى حين مضيت أوقفه بعد
أن تبين لي ضياع المال ؟ فسرعان ما انقلبت سحتته ، وتبدل وجهه ،
فاحمر ثم اصفر ، واستبدت به آخر الأمر نوبة نبيلة من الاسياء والغضب
بلغت من الشدة والعنف حداً لم أكن أتوقع مثله البتة ! ان له طبعاً من أنبل
الطباع ، صحيح أنه لا ينفك يكذب ، ضعفاً ، ولكنه انسان رفيع العواطف
سامى المشاعر ؟ وهو الى ذلك يبلغ من النباه والبراعة ما يجعل المرء
يمحضه ثقة كاملة لا تشوبها شائبة من شك . سبق أن قلت لك ، أيها
الأمير العظيم ، اننى لا استلطفه فحسب ، بل أحمل له عاطفة طيبة ومحبة
كبيرة . لقد وقف فى وسط الشارع على حين فجأة ، وفتح رداً ، وكشف
لى عن صدره قائلاً : « فتشنى ! لقد فتشت كيلار ، فلماذا لا تفتشنى ؟
ان العدل يوجب ذلك ! » . وكانت ذراعه ومافاه ترتجف ، وكان وجهه
شديد الشحوب حتى ليشعر الناظر اليه بخوف . أخذت أضحك وقلت له :

« اسمع يا جنرال ، لو قال هذا الكلام أحد عنك ، لبادرت أقطع رأسي
بيدي » ، ثم أضعه على طبق كبير وأمضى أعرضه بنفسى على جميع أولئك
الذين يمكن أن يشتبهوا فيك ، قائلاً لهم : « هل ترون هذا الرأس ؟ اننى
مستعد لأن أفدّته رهناً على أن الجنرال صادق لا يكذب ، بل اننى مستعد
لأن ألقى بنفسى الى النار فى سبيله ! » . فما كان من الجنرال الا أن ارتقى
بين ذراعى ، ونحن مائزاًل فى وسط الشارع ، نذرف بضع عبرات ، وبلغ
من قوة شدتى الى صدره معانقاً أننى كدت اختنق من نوبة سعال . قال
لى : « أنت الصديق الوحيد الذى بقى لى فيما أنا فيه من شقاء » . انه
امسان نحاسى جداً ! وقد انتهز الفرصة طبعاً ليقص على أثناء الطريق
حكاية تنفق وهذه المناسبة ، فقال انه قد اتهم ذات يوم أثناء شبابه بأنه سرق
خمسمائة ألف روبل . لكنه فى غداة ذلك اليوم نفسه رمى نفسه فى لهب
منزل يحترق ، فأخذ الكونت الذى كان قد اتهمه ، وأتخذ فى الوقت نفسه
نينا ألكسندروفنا التى كانت فى ذلك الأوان فتاة لم تتزوج . وقد عانقه
الكونت وقبله ؟ وفى أعقاب هذا الحادث إنما تزوج نينا ألكسندروفنا .
أما المال المفقود فقد اكتشف فى اليوم التالى بين انقراض المنزل المحترق ،
داخل علبه حديدية كان مودعاً فيها . ان تلك العلبه الحديدية ، وهى
صناعة انجليزية ذات قفل خفى ، كانت قد اندست تحت أرض الغرفة -
لا يدرى أحد كيف ! - فلم يمكن العثور عليها الا بعد الحريق . القصة
ملفقة طبعاً ، ولكن هذا لا ينفى أن عينيه قد دمعتا حين جاء على ذكر نينا
ألكسندروفنا . انها لامرأة محترمة جداً ، نينا ألكسندروفنا هذه ، رغم أنها
غاضبة منى حاقدة على

- أليس لك بها صلوات ؟

- تقريباً . ولكننى أتمنى أن تكون لى بها صلة ، ولو لأبرىء نفسى
فى نظرها . ان نينا ألكسندروفنا حاقدة على لأنها تظن أننى أدفع زوجها

الآن الى الادمان على السكر • والحق أننى لا أحضه على الفساد بل أصدده عنه ، ولملنى أقيه من رفاق السوء ، وأجنبه مزلق بيثة خطرة • هذا واننى أعدده صديقاً ، وأعترف لك باتى لن أهبجره بعد اليوم أبداً ؛ ولأذهبن الى حيث يذهب ، لأنه لا سبيل الى التأثير فيه الا بالعاطفة • لقد انقطع الآن عن التردد الى صاحبه • الكابيتنه • انقطاعاً تاماً ، وان يكن فى سره يحترق شوقاً الى الذهاب اليها ، حتى انه فى بعض الأحيان يتشهد تنهداً قوياً بل يشن أنيناً حين يفكر فيها ، ولا سيما فى الصباح ، حين يقوم من فراشه ويضع قدميه فى حذاءيه • لا أدري لماذا يستبد به هذا الأمر فى تلك اللحظة بعينها • والبلية أنه لا يملك قرشاً واحداً ، وهو لا يستطيع أن يذهب اليها بغير مال • ألم يسألك أن تنفحه بعض المال ، أيها الأمير العظيم ؟

— لا ، لم يسألنى شيئاً •

— انه متحرج • كان يريد أن يطلب منك مالاً • حتى لقد اعترف لى بأنه ينوى مضايقتك بهذا الأمر • ولكنه لم يجرؤ ، لأنك أقرضته منذ مدة قصيرة ، فقدّر أنك ربما رفضت اقراضه ثانية • لقد أقضى الى بهذا اقضاء صديق يهوى لصديقه بما فى نفسه •

— وأنت ، ألا تعطيه مالاً ؟

— يا أمير ، أيها الأمير العظيم ، أنا مستعد لأن أعطى هذا الرجل لا مالاً فحسب ، بل حياتى أيضاً ان صبح التعبير ... حين أقول حياتى فاننى أبالغ • ولكننى مستعد فى سبيله لأن أتحمل الحمى ، أو أن أتحمل دملاً أو زكاماً ، هذا طبعاً اذا كان ثمة حاجة مطلقة الى ذلك • اننى أعدده

رجلاً عظيماً لكنه انحدر وهوى • هذا رأيى : فمن بابٍ أولى ، اذا كان
الأمر أمراً مال ...

— اذن فأنت تعطيه مالاً !

— لا ، لا أعطيه مالاً • لم أعطه مالاً ، وهو يعرف اننى لن أعطيه •
ولكننى لا أمتنع عنه المال الا لهدف واحد هو أن أحمله على الاعتدال ، وأن
أصلح ما فسد من شأنه • ان الفكرة الثابتة التى تستبد به الآن هى أن
يصحبنى الى بطرسبرج فى رحلتى التى ألاحق فيها السيد فردشتسكو ،
لاعتقاده بأنه هناك حتماً • فالجنرال يغلى ويفور الآن ، لكننى أتنبأ بأنه
مضى وصل الى بطرسبرج سيتركنى ليمضى الى صاحبه أرملة الكابتن •
أعترف لك بأننى سأدع له عامداً أن ينصرف ، وبأننا متفقان على أن نفرق
مضى وصلنا بطرسبرج ليكون حظنا من النجاح فى التقاط فردشتسكو
بطرق مختلفة ووسائل شتى ، أكبر • سأدع له اذن أن ينصرف ، ثم
أسقط عليه عند أرملة الكابتن على حين فجأة ، مثليسا بالجرم المشهود ،
لأننى أتوى خاصة أن أخرجله من نفسه ، مذكراً اياه بواجباته كرجل
أسرة ، وبكرامته كإنسان عامة •

قال الأمير بصوت خافت وقد استولى عليه قلق شديد :

— ولكن لا تحدث ضجة يا ليديف ، لا تحدث ضجة ، ناشدتك
الله ! ...

— لا ، لا ، اننى لا أقصد الا أن أخرجله ، وأن أرى كيف يكون
وجهه حينذاك ، لأن الوجه يمكن أن يكشف عن أشياء كثيرة ، أيها الأمير
المعظم ، ولا سيما فى رجل مثله ! آم يا أمير ! مهما تكن مصيبتى الآن
كبيرة ، فاننى لا أستطيع ، حتى فى هذه اللحظة ، أن امتنع عن التفكير فيه

وفى اصلاحه • لى رجاء كبير أريد أن أتقدم به اليك أيها الأمير العظيم ؛
حتى اننى اعترف لك بأن هذا هو السبب الذى حفنى على المجيء اليك •
انك تعرف أسرة الجنرال ، حتى لقد أقمت عندهم ، فليتك تقبل ، أيها
الأمير العظيم ، أن تيسر لى عملى وتسهّل على مهمتى فى سبيل مصلحة
الجنرال وسعادته لا أكثر ...

قال ليديف ذلك وهو يضم يديه احدهما الى الأخرى على وضع
الضراعة والابتهال •

قال الأمير :

— ما هو الأمر ؟ فى أى شىء أستطيع أن أساعدك ؟ ثق اننى أتمنى
جداً أن أفهم فكرتك وأن أدرك ما يدور فى ذهنك يا ليديف ...

— ان ثقتى هذه وحدها هى التى قادتنى اليك ! ان فى امكاننا أن نعمل
بواسطة نينا ألكسندروفنا لنحيط صاحب السعادة الجنرال برقابة محكمة
متصلة فى منزله نفسه • يؤسفنى أننى لست على صلة ... ثم ان نيقولاى
آرداليونوفتش ، الذى يحبك حباً يبلغ العبادة ان صح التعبير ، ويتعلق
بك تعلقاً فيه كل ما فى سنه الشابة من حرارة وحمية ، يستطيع أن
يساعدنا ولا شك ...

— لا ! لا ! لا ! ... أتفهم نينا الكسندروفنا فى هذا الأمر ؟
وقانا الله شرّ ذلك ! لا ولا نفهم فيه كوليّا • ولكن ... لعلى
لما أنفذ الى فكرتك بعد يا ليديف •

صاح ليديف قائلاً وهو يشب عن كرسيه :

— لا شىء يحتاج الى نفاذ ! ... ما نحن فى حاجة الى أكثر من
العطف عليه والرفقة فى معاملته ! ذلك هو كل الدواء اللازم لمريضنا •
هل تسمح لى ، يا أمير ، أن أعده مريضاً ؟

— هذا يدل على طيب قلبك وسداد رأيك •

— سأستعين على شرح رأيي بمثال مستمد من المشاهدة ، التماساً لمزيد من الوضوح • انك ترى اى انسان هو هذا الرجل : ان ضعفه الوحيد الآن هو ذلك التعلق الشديد بأرملة الكائتن التى لا يمكنه أن يذهب اليها بغير مال ، والننى آمل أن أقاوجه عندها هذا اليوم نفسه فى سبيل خيره • بل فلنفرض أنه لا يوصم بهذا الضعف وحده ، وانما هو متهم بارتكاب جريمة أو بمقارفة فعل منافٍ للشرف (مع أنه لا يمكن أن يفعل شيئاً من ذلك البتة) : أنا أقول ، حتى فى هذه الحالة ، ان فى امكاننا أن نصل به الى كل ما نفيه له من خير ، لأننا نستطيع أن نناشد فيه مشاعر الحنان النبيل وعواطف الرقة الرفيعة ، فهو انسان حسّاس الى أبعد الحدود • صدقنى اذا قلت لك انه لن يصمد خمسة أيام ، ثم اذا هو يأخذ يتكلم ويعترف بكل شيء ذارفاً أحرّ الدموع ، ولا سيما اذا خاطبناه بمهارة وبذل فى آن واحد ، واذا استطعتم ، أنت وأفراد أسرته ، أن تراقبوا خطاه ان صبحّ التعبير ، وأن ترصدوا جميع حركاته ومكاناته • ثم قال ليديف منتفضاً عن كرسيه كأنما هبط عليه وحى مفاجئ : — أنا لا أجزم طبعاً أنه هو بغير شك ... وما أزال مستعداً لأن أسفح فى سبيله كل دمي على الفور ... ولكن لا شك فى أنك توافقنى على أن الفجور والسكر وأرملة الكائتن ، أن ذلك كله مجتمعاً يمكن أن يمضى به الى بعيد جداً ...

قال الأمير وهو ينهض :

— ما زلت مستعداً لأن أساعدك فى هذه القضية بطبيعة الحال • لكننى أعترف لك يا ليديف أن فى نفسى خشية رهيبية • عجيب أمرى : انك لا تزال تقدّر أن ... أقصد ... انك تقول أنت نفسك ان اشتباهك ينصرف الى السيد فردشتشكو ، أليس كذلك ؟

— ففيمن أشبه اذا لم أشبه فيه، أيها الأمير المخلص الصادق؟ فيمن
أشبه اذن؟

كذلك عاد يقول ليديف مبتسماً ابتسامة عذبة ضاماً يديه احدهما
الى الأخرى برقة وملاطفة .

فاكفهر وجه الأمير ونهض . ثم قال :

— انك لتعرف يا لوكيان تيموفتشش أن الظن الخطأ في مثل هذه
الأحوال شيء فظيع . ان فردشتشكو هذا ... أنا لا أريد أن أقول فيه
سوءاً ... ولكن ... ولكن فردشتشكو هذا ... من يدري؟ ربما كان
هو القاعل ... أقصد .. ربما كان أقدر من غيره على فعل هذا الأمر
دون تورع .

حملق ليديف بعينه وأرهف السمع بأذنيه . وكان الأمير يزداد
وجهه اربداداً ، وكان يفرع الفرقة طولاً وعرضاً ، محاولاً أن لا ينظر
الى محدثه . ثم قال وقد تفاقم ارتباكاه :

— هل تعلم ...؟ لقد قيل لى عن السيد فردشتشكو انه ، عدا ذلك،
قد يكون رجلاً ينبغى للمرء أن يحذره فلا يقول بحضوره شيئاً ...
أكثر مما يجب أن يقال . هل فهمت؟ أنا أنقل اليك هذا الكلام لأن
السيد فردشتشكو قد يكون ، بالفعل ، أقدر من غيره على أن ... فأنا
أنقل اليك هذا الكلام اتقاءً لارتكاب خطأ ... ذلك أن هذا هو الشيء
الأساسي ، فهمت؟

قال ليديف سائلاً باهتمام قوى :

— ولكن من ذا الذى ذكر لك هذه الملاحظة عن السيد فردشتشكو؟

— همس لى أحدهم بها عرضاً . وأنا على كل حال لا أصدق من ذلك

شيئاً ... وانه يسوعنى أنى وجدت نفسى مضطراً الى أن أقبل اليك ذلك الحديث • تؤكد لك أننى لا أولى هذا الكلام أى ثقة • • فهو لا يعدو أن يكون من باب الأقاويل السخيفة ... آه ... ما كان أغباني حين نقلته ! ...

قال ليديف وهو يرتجف من شدة الانفعال :

— هذا أمر هام جداً يا أمير ، هام جداً الآن ، لا فيما يخص السيد فردشتشكو ، بل من جهة المصدر الذى وصل منه هذا الأمر الى علمك • • كان ليديف ، وهو يقول هذا الكلام ، يركض حول الأمير ، جاهداً أن يوفق بين خطوه وخطوه •

وتابع يقول :

— اليك يا أمير ما يجب علىّ أن أطلعك عليه الآن : فى هذا الصباح ، بينما كنا ذاهبين معاً ، أنا والجنرال ، الى ذلك الرجل الذى يسمى فيلكين أخذ الجنرال ، بعد أن حكى لنا قصة الحريق تلك ، أخذ يطلق ، على حين فجأة ، غمزات فى حق السيد فردشتشكو ، وكان ما يزال يرتشش استياءً بطبيعة الحال • لكن الكلام الذى قاله فى حق فردشتشكو قد بلغ من التفكك والاضطراب أننى لم أستطيع أن أضغ نفسى من القاء بعض الأسئلة عليه • فأنتمنى أجوبته بأن جميع تلك المعلومات التى أوردها صاحب السعادة الجنرال انما لفقها واخترعها هو نفسه ... تلك ثمرة من ثمرات حبه للكلام والافضاء والبوح • فهو اذا كذب ، لا يكذب الا لأنه لا يستطيع أن يكظم ميله الى الافصاح عما يتمل فى قلبه • وانى لألقى عليك الآن هذا السؤال طالباً منك أن تقضى فى الأمر بنفسك : اذا كان الجنرال قد كذب ، وهذا ما أنا مقتنع به ، فكيف أمكن أن تصل كذبه الى مسمك ؟ لاحظ ، يا أمير ، أن ذلك الحديث انما كان ابن لحظته ، انما كان من وحى

تلك اللحظة ، فمن ذا الذى أمكنه أن يطمعك عليه ؟ هذه نقطة هامة ...
انها ، ان صح التعبير ...

- كولين هو الذى نقل الى ذلك الكلام ؛ والملاحظة ذكرها له أبوه
الذى صادفه فى حجرة المدخل بين الساعة السادسة والساعة السابعة ،
بينما كان خارجاً لا يرى أحد لماذا ...

وقصَّ الأمير على ليديف كل شيء تفصيلاً .

قال ليديف وهو يفرك يديه سروراً ويضحك ضحكاً صامتاً :

- آ ... هذا ما يصح أن يسمى أثراً يجب اقتضاؤه ... ذلك
ما كنت أقدره ! معنى ذلك أن صاحب السعادة الجنرال ، فى الساعة
السادسة من الصباح ، قد قطع نومه البرى ، خصيصاً ، ليمضى يوقظ ابنه
الحبيب ويبلغه أن صحبة السيد فردشتنكو تعرض المرء لخطر خارق !
فما أكبر خطر فردشتنكو بعد ذلك فى نظر الابن ، وما أعظم العناية
الأبوية التى يظهرها صاحب السعادة ! هى ، هى ، هى ...

قال الأمير فلماً أشد القلق :

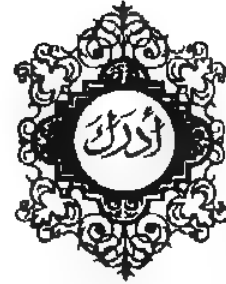
- اسمع يا ليديف ، اسمع : يجب أن تعمل برفق وهدوء .
لا تحدث ضجة ! أرجوك يا ليديف ، أضرع اليك ... فإذا تهدت بهذا
الشرط ، فيمينا لأساعدتك . ولكن يجب أن لا يعرف شيئاً أى إنسان ،
أى إنسان !

هتف ليديف يقول بالهام حاسم وتشوة كبرى :

- ثق أيها الأمير المخلص الكريم أن هذا كله سبُدُن فى قلبى
النيل دفناً . يجب أن نسير متكاتفين بخطى لا يُسمع لها صوت ! نعم ،
متكاتفين بخطى لا يُسمع لها صوت ! اننى مستعد لأن أحب دمي كله ...

أيها الأمير العظيم • ان لي نفساً خسيمة وفكراً منحطاً • ولكن اسأل أى
انسان منحط ، بل اسأل أى وغد حقير أهو يفضل أن يتعامل مع وغد من
نوعه أم هو يؤثر أن يتعامل مع انسان مثلك يتسع بكمال النفس وعظمة
القلب ، أيها الأمير المخلص ؟ لسوف يجيبك بأنه يفضل الثانية • هنا انما
تنتصر الفضيلة ! أستودعك الله أيها الأمير المبجل ! بخطي ليس لها صوت
••• بخطي ليس لها صوت ••• متكاتفين !

الفصل العاشر



الأمير أخيراً لماذا كان يتجمد كلما مدَّ يده إلى تلك الرسائل الثلاث ، ولماذا كان يرجي قراءتها إلى المساء . في الصباح ، حين استلقى على مضجعه دون أن يستطيع أن يمزج أمره على فض أي ظرف من ظروف الرسائل الثلاثة ، كان قد نام نوماً ثقيلاً مضطرباً ، ووافاه حلم آخر مزيج أليم رأى فيه تلك « المجرمة نفسها » مقبلة عليه ، متقدمة نحوه . كانت تنظر إليه والدموع تلتصق على أهدابها الطويلة ، وكانت تدعوه من جديد أن يتبعها ، وكما حدث له في الليلة الماضية ، استيقظ على ذكرى ذلك الوجه الأليمة ، فأراد أن يذهب إليها فوراً ، ولكنه لم يقوَ على ذلك ؛ وانتهى به الأمر ، بعد أن استولى عليه ما يشبه أن يكون يأساً ، إلى أن يفرض الرسائل ويأخذ في قراءتها .

ان تلك الرسائل تشبه ، هي أيضاً ، أن تكون حلماً . ان المرء يرى في بعض الأحيان أحلاماً غريبة ، لا تخطر بالبال ولا يتصورها الخيال ، أحلاماً تخالف الطبيعة ؛ فإذا استيقظ تذكرها واضحة جلية ، فاستقرب أمرها كل الاستغراب . انك تتذكر خاصة أن عقلك لم يبارحك في أية لحظة من لحظات الحلم ، بل انك لتذكر أنك تصرقت بكثير من براعة المكر وحسن الحيلة وسلامة المنطق ، خلال مدة طويلة ، بينما كان القتلة يحدقون بك ويمدون لك الفخاخ ، ويدبرون المكائد ، ويخفون

أهدافهم ؟ حتى لقد يتوددون اليك ، على حين أن أسلحتهم موجهة ، وأنهم لا ينتظرون الا اشارة لينقضوا عليك . وانك لتذكر ما عمدت اليه من براعة المكر ، لتخدعهم عن أنفسهم ، وتتوارى عن أبصارهم ؟ ولكنك تحزر بعد ذلك أنهم يعرفون حيلتك ، فهم يتظاهرون بهجه مخبئك تظاهراً ؟ فتلجأ عندئذ الى مخادعة أخرى ، وتظفر بتضليلهم مرة ثانية . ذلك كله تذكره تذكرأ واضحا ولكن كيف تتصور أن عقلك ، خلال تلك الفترة من الوقت ، قد أمكنه أن يسلم بسخافات واستحالات تبلغ من وضوح سخفها واستحالتها ما تبلغه تلك الأمور التي يزخر بها حلمك ؟ ان واحداً من القتلة قد تحول الى امرأة على مرأى منك ، ثم تحولت هذه المرأة الى قزم مأكريه أمام عينيك ، فسرعان ما سلّمت أنت بهذا كله تسليمك بواقع ، دون أى اندهاش تقريبا ، بينما كان عقلك فى الوقت نفسه يبذل جهداً قوياً وطاقة عظيمة فيحسن المكر ، ويجيد الفهم ، ويدرك تسلسل الأحداث ومنطق الأمور ؟

ولماذا أيضاً ، حين تستيقظ من النوم وتعود الى الاندماج فى الحياة الواقعية ، لماذا تشعر ، فى جميع الأحوال تقريبا ، بقوة خارقة احيانا ، أنك بخروجك من ميدان الحلم قد خلفت وراءك لغزاً لم يحل ؟ انك تبسم استهزاءً بسخافة حلمك واستحالاته ، ولكنك تحس فى الوقت نفسه بأن ذلك الركام من الأباطيل المتداخلة المتشابكة ينطوى على نوع من فكرة ... فكرة واقعية تنتمى الى حياتك الراهنة ، ينطوى على شئ يوجد فى قلبك وقد وُجد دائماً فى قلبك ؛ فكأن كشفاً من كشوف النبوة قد ترسّل عليك فى حلمك وكنت تنتظره ! انك تحتفظ منه بانفعال قوى ، انفعال فرح أو انفعال ألم ، ولكنك لا تستطيع أن تفهمه ، ولا أن تذكر تذكرأ واضحا ماذا كان !

ذلك هو على وجه التقريب ما جرى فى فكر الأمير بعد قراءة تلك

الرسائل الثلاث . ولكنه ، حتى قبل أن يفضّها ، كان قد تسمّر بأن وجودها وحده ، بأن امكان وجودها وحده ، هو في ذاته أشبه بأن يكون حلماً ثقيلاً ، كابوساً أليماً . قال يسأل نفسه وهو يتجول في المساء وحيداً (دون أن يتذكر أين ، في بعض الأحيان) : كيف « هي » قررت أن تكتب « إليها » ؟ كيف أمكنها أن تكتب « في هذا الموضوع » ، كيف أمكن أن ينبت في رأسها حلم يبلغ هذا المبلغ من الطيش والجنون ؟ ولكن هذا الحلم كان قد صار الى حقيقة واقعة ؛ والأمر الذي أدهش الأمير أكثر من ذلك أيضاً ، أثناء قراءة الرسائل ، أنه هو نفسه لم يكن بعيداً عن الاعتقاد بأن هذا الحلم ممكن وبأنه مشروع . نعم ، لا شك في أن هذا حلم ، في أنه كابوس ، في أنه جنون . غير أن ثمة كذلك شيئاً مؤلم - الواقعية ، قاسى الصحة والصدق ، يسوّغ الحلم والكابوس والجنون ، ويجعلها كلها مشروعة .

ولبث الأمير عدة ساعات في حالة قريبة من الهذيان ، وهو يتذكر ما قرأ . انه يتذكر بعض العبارات بغير انقطاع ، فيقف عليها فكره ويمضى يتأملها ملياً . حتى لقد كان يهم أن يقول لنفسه في بعض الأحيان انه أوجس هذا كله من قبل وانه تنبأ به . كان يخيّل اليه أنه سبق له أن قرأ هذه الرسائل في ماضٍ بعيد، وأن هذه الرسائل هي بنور كل ما عانى منذ ذلك الحين من أنواع القلق وفنون العذاب وألوان المخاوف .

كانت الرسائل الأولى تبدأ هكذا :

« حين ستفضين هذه الرسالة ، ابحتى أولاً عن التوقيع الذي يذيلها . ان هذا التوقيع سيقول لك كل شيء ، وسيُفهمك كل شيء ، فلا أكون في حاجة الى أن أبرر نفسي ، ولا أن أعتذر عن عملي ، فلو كنت أساويك أقلّ مساواة لكان في وسعك أن تستائي من جرائتي ، ولكن ما أنا بالقياس اليك ؟ أين أنا منك ؟ اننا لنبلغ من شدة التعارض ، واتى

لأبلغ من فرط الصغر بالنسبة اليك ، أنتى لا أستطيع أن أودى كرامتك
ولو نويت أن أفعل ، .

وهى تكتب بعد ذلك قائلة :

« لا ترى فى أقوالى حماسة مرضية تصدر عن فكر مختل اذا أنا
قلت لك انتى أرى فيك الكمال كله مجسداً . لقد رأيتك ، وانى لأراك
فى كل يوم . لاحظى أنتى لا أقضى فيك برأى . فليس التفكير هو الذى
يقودنى الى اعتبارك كاملة ، وانما يقودنى الى ذلك ايمان بسيط . ولكنى
مخطئة فى حقت : انتى أحبك . وما ينبغى للمرء أن يحب الكمال ؛ وانما
حسبه من الكمال أن يعرف أنه كمال وكفى ، أليس هذا صحيحاً ؟ ومع
ذلك أشعر نحوك بحب . صحيح أن الحب ينشئ مساواة بين الناس .
ولكن لا تقلقى : فانتى حتى فى أخفى خفايا تفكيرى لم أنزلك الى
مستوى ، ولا قرنت نفسى بك فى يوم من الأيام . قلت الآن : «لا تقلقى» ،
ولكن هل يمكن أن تشعري أنت بقلقى ؟ . لو أمكن ذلك لقبلك الأرض
التي تدوسها قدماك . آه . . . انتى لا أعدد نفسى ندأ لك بحال من
الأحوال . انظرى الى التوقيع الذى أذيل به هذه الرسالة ، أسرعى
فانظرى اليه ! ، .

وهى تكتب فى رسالة أخرى :

« ألاحظ مع ذلك أنتى أجمع بينكما دون أن أكون قد أقيت على
نفسى فى يوم من الأيام هذا السؤال : هل تحينه ؟ لقد أحبك هو ، يوم
لم يكن قد رآك الا مرة واحدة . فكانت صورتك فى خياله صورة
«الضياء» . ذلك هو التعبير الذى استعمله . سمعت هذا التعبير من فمه .
على أنتى لم أكن فى حاجة الى هذا لأدرك أنك الضياء فى نظره . لقد
عشت بقربه شهراً كاملاً ؟ وفى تلك الأثناء انما فهمت أنك تحينه أيضاً .
فاتما فى نظرى واحد لا اثنان ، .

« ما معنى هذا ؟ مررت أمس بفريق ، فترامى لى أنك تحمرين ؟
مستحيل . لا يمكن أن يكون هذا الا احساساً خطأ . أنت لو أخذوك الى
أحط المواخير ، وأرورك الرذيلة عارية كل العرى ، لما أمكن أن تحمرى :
أنت لا يمكن أن تفضي من اساءة أو اهانة . قد تبغضين جميع السافلين
المنحطين ، ولكنك لا تبغضينهم من حقن شخصي عليهم ، بل من رافة
بالآخرين ومن عطف على الآخرين الذين ينالهم أولئك باساءة أو اهانة .
لأنك أنت لا يستطيع أحد أن يجرح كرامتك أو أن يؤذى شعورك .
حتى اننى أحس - هل تعلمين ؟ - أنك لا بد أن تحيينى . أنت فى نظرى
ما أنت فى نظره : روح من ضياء . والملاك لا يمكن أن يبغض ، بل
ولا يملك الا أن يحب . هل يستطيع المرء أن يحب جميع اقاربه البشر
بغير استثناء ؟ ذلك سؤال طرحته كثيراً على نفسى . فكان جوابى : لا ،
حتماً ! حتى ان ذلك يناقى الطبيعة . وما حب الانسانية الا معنى مجرد ،
من خلاله لا يحب المرء الا نفسه . ولكن اذا كان هذا الحب يستحيل علينا
نحن ، فليس يستحيل عليك أنت . اذ كيف يمكن أن لا تحبى جميع
البشر ، ما دمت فوق جميع البشر ، فما من أحد يرقى الى مستواك ،
وما من اهانة يمكن أن تنالك ، وما من استياء يمكن أن يساور نفسك !
أنت وحدك تستطيعين أن تحبى بغير أنانية . أنت وحدك تستطيعين أن
تحبى لا من أجل نفسك بل من أجل من تحبينه . آه ... لسوف يؤلمنى
أقصى الألم أن أعلم أنك بسببى تشمرين بهخجل أو غضب ! فلو حدث
هذا لكان فيه ضياعك ، لأنك تهبطين عندئذ الى مستوى ! ... »

« أمس ، بعد أن لقيتك ، عدت الى منزلى وتخلت لوحه . ان
الفنانين يرسمون المسيح دائماً على أساس المعلومات الواردة فى الانجيل .
أما أنا فلو كان على أن أرسم المسيح لصورته غير هذا التصوير . لو كان
على أن أرسم المسيح لصورته وحيداً (لقد كان يريدوه يتركونه وحيداً

فى بعض الأحيان على كل حال) ، ولما وضعت بقربه الا طفلاً صغيراً .
والطفل يلعب من حوله . ولعل الطفل قد قصَّ عليه بلفظه الساذجة شيئاً
من الأشياء ، فأصغى اليه المسيح فى أول الأمر ، لكنه الآن يتأمل ، وماتزال
يده مستريحة على الشعر الوضىء من رأس الصبى بحركة نسيان لم
يقصدها . وهو ينظر الى بعيد ، الى الأفق . وفى عينيه تنعكس فكرة رحية
رحابة الكون . ووجهه حزين . لقد صمت الطفل . انه واضح كوعيه
على ركبتى المسيح ، مسندٌ خده الى يده الصغيرة ، رافعٌ رأسه يحرق
الى المسيح بنظرة ثابتة ، وقد لاح على وجهه ذلك التفكير الذى يلاحظ
أحياناً فى وجوه الصغار الصغار . والشمس تقرب . . . تلك هى اللوحة
التي كان يمكن أن أرسمها . انك نقية ، وكمالك كله فى نقائك . آه
... تذكرى هذا وحده ! لا يهتمُّك هيامى بك ! أنت بعد اليوم لى ،
وسأبقى قريبة منك طول حياتى . سوف أموت وشيكاً ، .

وكتبت فى الرسالة الأخيرة تقول :

« لا تسيئى الظن فىَّ ، ناشدتك الله ! لا ولا تحسبى اننى أذل نفسي
بالكتابة اليك على هذا النحو لأننى من أولئك البشر الذين يجدون فى
خفض أنفسهم لذَّةً بل ويلتمسون فيه عجباً وزهواً . لا . ان لى
ما يعزىنى . ولكن يصعب علىَّ أن أشرحه لك ؛ بل لقد يصعب علىَّ أن
أدركه أنا نفسى ادراكاً واضحاً ، رغم أن هذا يعذبنى . لكننى أعلم أننى
لا يمكن أن أذل نفسي حتى بدافع فرط العجب والزهو . أما المذلة
التي تنشأ عن نقاء القلب فأنا عاجزة عنها . معنى ذلك أننى لا أذل نفسي
لا بهذه الصورة ولا بتلك .

« لماذا أريد أن أجمع بينكما ؟ أمن أجلكما أم من أجل ؟ من أجل
طبعاً . كل شئ يترد الى هذا فيما يتعلق بى ؛ قلت ذلك لنفسى منذ مدة
طويلة . لقد علمت أن أختك أديلائيد قالت فى ذات يوم ، وهى تنظر الى

صورتي ، ان المرء يستطيع بجمال كهذا الجمال أن يحدث في العالم ثورة .
 ولكنني عدلت عن العالم ، عزفت عن العالم . لا بد أن يبدو لك مضحكاً
 أن أكتب هذا الكلام بينما أنت تصادفني مكدسة بالملابس المخرومة ،
 مزدانة بالحلي الثمينة ، في صحبة سكّيرين وأوغاد ، أليس كذلك ؟ لا تلقى
 بالاً الى هذا . أنا منذ الآن لا وجود لي تقريباً ، واني لأعرف ذلك ولا
 أجعله . الله يعلم من ذا الذي احتلّ في ذاتي مكان شخصي . انني أقرأ
 مصري كل يوم في الأعين الرهبة المحدثّة الى دائماً ، حتى حين لا تكون
 أمامي . ان تلك الأعين « تصمت » الآن (تصمت دائماً) ، لكنني أعرف
 سرّها . ان منزله قائم كالحلج من الضجر . ان هذا المنزل يخفي سرّاً .
 انا مقتنعة أن عنده ، في درج من الأدراج ، سكيناً قد لُفّ فصلها بالحرير
 كسكين ذلك القاتل من موسكو ، الذي كان يعيش هو أيضاً مع أمه
 ويفكّر في ذبح عنق . لقد ظللت أحس ، طوال الوقت الذي قضيته في
 منزلهم ، أنه لا بد أن تكون مخبأة ، في مكان ما ، تحت الأرض ، جثة
 لعل أباه خبأها هناك ملفوفة بقماش مشمّع ، كنكك الجنة التي اكتشفت
 بموسكو ، وأحيطت كذلك بقوادير من اكسير حدانوف ؛ بل انني
 لأستطيع أن أدلك على الركن الذي لا بد أن تكون الجنة مخبأة فيه . انه
 يصمت دائماً ، ولكنني أعلم حق العلم أن توليه بي يبلغ من القوة أنه
 لا يمكن الا أن يستجيب الى كره . سيتم زواجكما وزواجنا في يوم
 واحد . هذا ما تمّ عليه الاتفاق بيننا ، وليس لديّ سرٌّ بالنسبة اليه .
 انني قد أقتله من شدة الخوف . . . لكنه سيقتلني قبل أن أعزم أمرى على
 ذلك . . . لقد ضحك الآن حين رأيته أكتب هذا الكلام ؛ وهو يزعم أنني
 أهذر . وهو يعلم أنني اليك اكتب . . .

لقد ضمت الرسائل أفكاراً أخرى هاذية كثيرة . وكانت احدي هذه

الرسائل الثلاث - وهى الثانية - تملأ بكتابة دقيقة جداً أربع صفحات كبيرة .

خرج الأمير أخيراً من ظلمة الحديقة التى طوّف فيها مدة طويلة كما فعل البارحة . بدا له الليل الشاحب الشفاف أوضح مما يكون فى العادة . قال يسأل نفسه : « هل يمكن أن لا يكون قد انقضى من الوقت زمن طويل ؟ » (كان الأمير قد نسى أن يحمل ساعته) . وخيّل اليه أنه يسمع موسيقى بعيدة . فقال يحدث نفسه مرة أخرى : « لعلها فى الفوكسهوب . لا شك أنهم لم يذهبوا اليوم الى هناك . » . وانه ليقول لنفسه هذا الكلام ، اذا هو يلاحظ أنه أمام منزلهم . لقد كان يقدر حقاً أن الطواف كان سينتهى به أخيراً الى هناك . واجتاز الشرفة منهار القلب .

الشرفة خالية . لم يأت للقاءه أحد . انتظر لحظة ، ثم فتح الباب الذى يفضى الى الصالة . أسرع يقول لنفسه : « هذا الباب لا يُخلق أبداً » . الصالة خالية . يكاد يكون الظلام فيها كاملاً . وقف الأمير فى وسط الغرفة متردداً . وفيما هو كذلك ، اذا بباب يُفتح فتدخل الكسندرا ايفانوفنا حاملةً بيدها شمعة . فلما رأت الأمير بدرت منها حركة استغراب ودهشة ، وثوقت توقف من يسأل ويستفهم . طبعاً ، لم تكن تريد الكسندرا الا أن تجتاز الصالة من باب الى باب ، ولم تكن تتوقع أن تجد أحداً .

قالت أخيراً :

.. ما جاء بك الى هنا ؟

- دخلت عابراً .

- ماما متعبة ، وكذلك آجلانيا . وآديلايد توشك أن ترقد على

سريرها ، وذلك ما سافطه أنا أيضاً • لقد بقينا بالمنزل وحدنا طول
السهرة • بابا والأمير • شئت • • • • • في بطرسبرج •
- أتيت اليكن • • • • • أتيت اليكن • • الآن • • • • •
- هل تعلم كم الساعة الآن ؟
- لا • • • • •

- هي الثانية عشرة والنصف والنصف الليل • ونحن تنام دائماً
في الساعة الواحدة •
- ها • • • • • وأنا الذى كنت أظن أن الساعة هي التاسعة والنصف •
قالت ضاحكة :
- لا ضير ! ولكن لماذا لم تجيء قبل هذا الوقت ؟ أظن أنك كنت
تنتظر •

تمتم يقول وهو ينصرف :
- كنت • • • • • أقدر • • • • • كنت • • • • • أظن • • • • •
- الى اللقاء ! سيضحك الجميع من هذا فى الغد •
رجع الأمير الى بيته سالكا الطريق الذى يدور حول الحديقة • كان
قلبه يخفق ، وكانت أفكاره مضطربة مشوشة ، وكان كل شيء يكتسى فى
نظره مظهر الحلم • وفجأة ، ظهرت لعينه تلك الرؤيا نفسها التى سبق
أن ظهرت له مرتين حين كان يستيقظ من النوم • تلك المرأة نفسها خرجت
من الحديقة ، ووقفت جامدة أمامه ، كأنها كانت مرابطة فى ذلك المكان
تنتظره • ارتحن ووقف • تناولت يده ، وشدت عليها شداً قوياً • « لا ،
ليست هذه رؤيا ! ليس هذا طيقاً ! » •

ها هي نى معه أخيراً ، وجهاً لوجه ، لأول مرة بعد افتراقهما • انها
تكلمه ، ولكنه ينظر اليها صامتاً • انه يشعر بألم فى قلبه الطافح • لن

ينسى هذا اللقاء فى يوم من الأيام ، وسيظل يشعر بذلك الألم نفسه كلما تذكر هذا اللقاء . ركعت على ركبتيها أمامه فى وسط الطريق كمنجونة . تراجع منعوراً الى وراء ، بينما هى تحاول أن تمسك يده لتقبلها . وكما سبق أن رأى ذلك قبل اليوم فى الحلم ، ها هى ذى دموع تتلألأ على أهدابها الطويلة .

همس يقول لها خائفاً وهو يحاول انهاضها :

- قومى ، قومى ، قومى بسرعة !

فقال تسأله :

- هل أنت سعيد ؟ هل أنت سعيد ؟ قل لى كلمة واحدة : هل أنت سعيد الآن ؟ اليوم ؟ فى هذه اللحظة ؟ هل ذهبت اليها ؟ ماذا قالت لك ؟ لم تهض ، ولم تصنع اليه . كانت تسأله مرتجفة محمومة ، وكانت تتكلم بلهجة سريعة متمجلة ، كأن أحداً يلاحقها ويطاردها . تابعت تقول :

- سأسافر غداً ، كما أمرت . ولن أظهر بعد اليوم أبداً . . . أراك الآن آخر مرة ، آخر مرة ! هى الآن آخر مرة فعلاً !

قال الأمير بلهجة تدل على غاية الكرب :

- هدئى نفسك ! قومى ! انهضى !

وكانت تتأمله بشراهة وتعانق يديه . وقالت أخيراً :

- وداعاً !

ونهضت ، وابتعدت بسرعة تكاد تتركض ركضاً . ورأى الأمير روجوين ينبسجس الى جانبها فجأة ، فيمسك يدها ويقتادها .

وصاح روجوين يقول للأمير :

- انتظرنى يا أمير ، سأرجع بعد خمس دقائق .

وعاد بعد خمس دقائق فعلاً ، وكان الأمير ينتظره في ذلك المكان
نفسه .

قال روجوين :

- أركبتها العربية . العربية تنتظرها هناك ، في ناصية الطريق ، منذ
الساعة العاشرة . كانت تقدر أنك لا بد أن تقضى السهرة كلها عند
الأخرى . لقد أبلغتها ما كتبته اليّ منذ قليل ، بدقة . فلن تبعث اليها بعد
اليوم رسائل . هذا وعد . وستنفذ رغبتك فتعادر بافلوفسك غداً . أرادت
أن تراك مرةً أخيرة ، رغم علمها بأنك سترفض لقاءها اذا هي طلبت
ذلك ، فانتظرناك هنا ، على هذه الدكة التي كان عليك أن تمر بها في طريق
عودتك الى بيتك .

سأله الأمير :

- أهى التي جاءت بك ؟

فأجاب روجوين :

- لم لا ؟ ان ما رأيته هنا لم يطلعننى على جديد . ألم تقرأ اذن
رسائلها ؟

فسأله الأمير وقد بفتته هذه الفكرة :

- وأنت ، هل قرأتها حقاً ؟

- هى نفسها أطلعتنى عليها كلها . هل تذكر الاشارة الى السكين ؟

هى . هى . . .

صاح الأمير يقول وهو يعقف يديه أسفاً :

- انها مجنونة !

فقدم روجوين يقول بصوت خافت ، كأنه يخاطب نفسه على

حدة .

– من يدري ؟ قد لا تكون مجنونة •

فلم يجب الأمير •

قال روجوين :

– هيا ! وداعاً ! أنا أيضاً مسافر في الغد • لا تحمل ذكرى

سيئة عني !

ثم أضاف قائلاً وهو يستدير عني حين فجأة :

– ولكن قل لي يا عزيزي : لماذا لم تجب عن سؤالها ؟ أنت سعيد

أم لا ؟

فصاح الأمير يقول معبراً عن لوعة كبيرة :

– كلا ، نعم كلا ، نعم كلا !

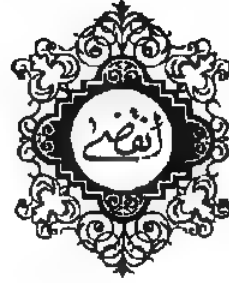
فقال روجوين وهو يضحك ساخراً :

– لا ينقص إلا أن تقول لي « نعم » !

وانصرف دون أن يلتفت الى وراء •

الجزء الرابع

الفصل الأول



زهراء أسبوع على اللقاء الذى تمَّ بين بطي قفصتنا
عند ادكة الخضراء +

وفى ذات صباح مشرق ، خرجت باربارا
الكسندروفا بتسينا تقوم بزيارة بمض صاحباتها
ثم رجعت الى منزلها كاسفة البال حزينة النفس فى نحو الساعة العاشرة
والنصف من النهار +

هناك أناس يصعب على المرء أن يقول فيهم شيئاً يصفهم ويصورهم
دفعاً واحدة فى أبرز ما يخصهم وأوضح ما يميزهم . أولئك هم الذين
اصطلح على تسميتهم باسم « العاديين » ، وهم أكثرية المجتمع فى الواقع .
ان الأدباء يجهدون ، فى رواياتهم وأقاصيصهم ، أن يختاروا نماذج
اجتماعية وأن يرسموا هذه النماذج الاجتماعية فى أقوى صورة جذابة
وأجمل أداء فنى . وهذه النماذج لا توجد فى الحياة كاملةً ذلك الكمال
الا استثناءً ، غير أن هذا لا ينفى أن الأفراد الذين يصوِّرون هذا التصوير
هم أقرب الى الواقع من الواقع نفسه ان صح التعبير . ان شخصية
بودكوليوسين * قد تشتمل على مبالغة من حيث هى نموذج ، ولكنها ليست
وهمياً صنمه الخيال . ما أكثر الأذكىاء الذين ما ان عرفوا شخصية
بودكوليوسين التى صورها جوجول فى مسرحيته حتى وجدوا بين
أصدقائهم ومعارفهم عشرات بل مئات من الأفراد يشبهون هذه الشخصية
كما تشبه قطرة من الماء قطرة من الماء ! بل ان هؤلاء الأذكىاء كانوا ،

حتى قبل قراءة جوجول ، يعرفون أن أصدقاءهم يشبهون بودكوليوسين .
وانما كان الشيء الذي يجهلونه هو الاسم الذي يجب أن يسمى به هذا
النموذج . فى الواقع ، يندر أن يهرب خطيبٌ من النافذة لحظة الزواج ،
ذلك أن هذه الحركة لا يستطيعها كل فرد من الناس ، بصرف النظر عن
أى اعتبار آخر . ومع ذلك ما أكثر العرسان من أناس يستحقون التقدير
ولا يوزهم الذكاء ، الذين أحسوا لحظة زواجهم بالحالة النفسية التي
أحسها بودكوليوسين . كذلك لا يصرخ جميع الأزواج فى كل مناسبة
قائلين : « لقد أردتها يا جورج داندان * » . ومع ذلك ما أكثر ملايين
وملايين المرات التي كرر فيها أزواج الكون بأسره تلك الصيحة الصادرة
عن القلب ، بعد انقضاء شهر السهل أو حتى غداة يوم الزفاف !

لا حاجة بنا الى الأفاضة فى الكلام على هذه المسألة ، وحسبنا أن
نقرر أن الخصائص البارزة المميزة التي تتصف بها هذه الشخصيات تكون
فى الحياة الواقعية أقل تنوعاً ، ولكن جميع أمثال جورج داندان وجميع
أشباه بودكوليوسين موجودون فى الواقع : يضطربون من حولنا
ويسمون أمام أعيننا ، ولكن بسمات مخففة وملامح مطففة . ويجب أن
نضيف الى ذلك ، لنختم هذه القضية ونستنفذ هذا الموضوع ، أن النموذج
الكامل لجورج داندان ، على نحو ما خلقه مولير ، يمكن أن يصادف فى
الحياة فعلاً ، ولكن نادراً . ولنختم هنا هذا الكلام الذى يوشك أن يصير
الى مقال فى النقد الأدبى .

غير أن هناك سؤالاً يطرح نفسه علينا دائماً : ما الذى يجب أن
يفعله كاتب الرواية الذى يقدم لقرائه اشخاصاً « عاديين » تماماً ، فى
سبيل أن يثير اهتمام هؤلاء القراء بهم ولو قليلاً ؟ انه ليستحيل على كاتب
الرواية أن يحذفهم من قصته ، لأن هؤلاء الناس العاديين هم فى كل لحظة
وفى أكثر الأحوال النسيج الذى لا غنى عنه ، والذى عليه تتسلسل وقائع

الحياة وأحداث الأيام ؟ فإذا حذفناهم كنا مجرد الرواية من صفة الصدق ونحرمها من ميزة الانطباق على الحقيقة . هذا عدا أن ملء الروايات بنماذج أو حتى بشخصيات غريبة خارقة إنما يبعدها عن الواقع فلا تحظى بتصديق القارئ . وقد لا تثير شوقه . وفي رأينا أن الكاتب يجب عليه أن يحاول اكتشاف ألوان لطيفة فيها إثارة للاهتمام وفيها إحياء والهام ، حتى لدى الأشخاص العاديين . ولكن حين يحدث مثلاً أن تكون الصفة الأساسية لبعض الأشخاص العاديين هي أنهم عاديون على نحو ثابت دائم مستمر ، أو أنهم رغم جميع جهودهم التي يبذلونها للخروج من العادية والعامة ما ينفكون يرجعون إلى العادية والعامة رجوعاً لا براء منه ، فإن هؤلاء الأشخاص العاديين يكتسبون بذلك صفة النموذج ، ويصبح لهم ما للنموذج من قيمة ، فهم عندئذ يمثلون العادية التي لا تريد أن تبقى ما هي ، وإنما تهدف إلى بلوغ الأصالة بأى ثمن ، وتسمى إلى تحصيل الاستقلال مهما كلف الأمر ، دون أن تملك تلوصول إلى ذلك أية وسيلة من الوسائل .

فإلى هذه الفئة من الناس « العامين » أو « العاديين » يتبعى بعض أشخاص قصتنا هذه ، الذين اعترف بأن القارئ لم يوضّحوا له حتى الآن أولئك هم على وجه الخصوص باريابا آرداليونوفنا بتسينا ، وزوجها السيد بتسين ، وأخوها جبريل آرداليونوفتش .

لا شيء أدعى إلى انزعاج المرء ، مثلاً ، من أن يكون غنياً ، وابن أسرة كريمة ، وحسن الهيئة ، وعلى جانب من ثقافة ، وغير غنى ، بل وطيباً ، ولكنه لا يملك أية موهبة ، ولا ينفرد بأية سمة شخصية ، حتى ولا بأية صفة مميزة ، وأن لا يكون له أى تفكير خاص ، أى يكون شخصاً « كسائر الأشخاص » تماماً : فهو غنى ولكنه ليس مثل روتشيلد ، وهو ذو اسم محترم لكنه لم يتميز فى يوم من الأيام بشيء يجعله مرموقاً ؟

وهو حسن الهيئة لكنه لا يحدث فيمن يراه أثراً كبيراً ؛ وهو قد نال حظاً مناسباً من التسليم لكن هذا التسليم لا يجديه نفعاً في شيء ؛ وهو لا يخلو من ذكاء لكنه لا يملك أفكاراً شخصية ؛ وهو صاحب قلب حساس لكنه لا يتمتع بنفس كبيرة عظيمة ، وهكذا دواليك من جميع النواحي .

وبين الناس عدد كبير من هذا النوع من الأفراد ، أكبر كثيراً مما يمكن أن نتصور . وهم ينقسمون كسائر البشر الى فئتين أساسيتين : فأما الأولى فهي فئة الأفراد المحدودين وأما الفئة الثانية فأفرادها « أكثر ذكاء » . ان أفراد الفئة الأولى أسعد من أفراد الفئة الثانية . ان الانسان « العادي » المحدود الذكاء يستطيع بسهولة أن يظن أنه قد « أُصِل » ويمكن أن يطمئن الى هذا الظن ويسعد به . لقد كفى بعض آسماتنا أن يقصصن شعرهن ، وأن يضعن على أعينهن نظارات زرقاء ، وأن يعلنن أنهم من أنصار المذهب العدمي ، حتى يقتنعن فوراً بأن هذه النظارات الزرقاء تهيب لهن « آداء » شخصية ، و « اعتقادات » خاصة . وكفى فلاناً من الناس أن يكتشف في قلبه ذرة عاطفة انسانية وطيبة حتى يتأكد فوراً من أنه لا أحد يشعر بمثل هذه العاطفة وأنه رائد من رواد التقدم الانساني . وكفى فلاناً الآخر أن يتمثل فكرة سمعها من أحد الناس أو قرأها في أحد الكتب دون أن تكون لها بداية أو نهاية ، حتى يتخيل أن هذه الفكرة خاصة به ، نابعة منه ، قد نبئت في فكره وخرجت من رأسه . هذه حالة مدهشة يمكن أن نصفها بأنها وقاحة السذاجة ان صح التعبير . ونحن نصادفها دائماً ، رغم ما قد يبدو من أنها لا يُصدق وجودها في الواقع . ان هذا النوع من الايمان الساذج المتكبر الذي يلاحظ لدى رجل أحقق لا يساوره شك في نفسه ولا في موهبته ، قد وصفه جوجول وصفاً رائعاً في النموذج المدهش ، نموذج الليوتنان بيروجوف * . ان بيروجوف لا يراوده شك في أنه عبقري بل أكثر من عبقري . وهو يبلغ

من قلة شكه في هذا أن السؤال كله أنه لا يطرحه على نفسه أصلاً ؛ عدا أنه لا شك لديه البتة . وقد رأى الكاتب الكبير نفسه مضطراً ، آخر الأمر ، الى أن يؤديه بمقوبة الجلد ، ارضاءً للشعور الأخلاقي لدى القارئ . ولكنه لاحظ أن بطله لم تؤثر فيه العقوبة كبير تأثير ، ولم يزد بعدها على أن نفّض جسمه ، وأخذ يأكل فطيرة صغيرة امتداداً لقواه ، لذلك لم يملك الكاتب الا أن يهز كتفيه ويترك قراءه حيث هم . لعلنا أسفّت على أن جوجول جعل رتبة بطله بيروجوف رتبة منخفضة ، ذلك أن هذا الشخص يبلغ من امثاله بنفسه أنه لا شيء يمنعه من أن يظن نفسه قائداً عظيماً على قدر ما تضخم الشارات على كتفيه بحكم القدم في الخدمة والارتقاء في الوظيفة .

ماذا قلت ؟ أقلت يظن نفسه ؟ ألا انه كان سيؤمن بذلك ايماناً لا يراوده فيك أي شك : فما الذي ينقصه ، اذا هو سمّي جبرالاً ، من أن يكون قائداً عظيماً ؟ وما أكثر الذين يخفقون بعد ذلك اخفاقاً رهيباً في ساحات المعركة ؟ وما أكثر أمثال بيروجوف الذين وُجدوا بين الأدباء والعلماء وأصحاب الدعوات منا ! وُجدوا ؟ بل وما زالوا يوجدون حتماً !...

ان جبريل آرداليونوفتش ايفولجين ، وهو أحد أبطال روايتنا هذه ، ينتمى الى الفئة الثانية من العاديين ، فئة العاديين الذين أوتوا « ذكاء أكبر » ، وان يكن قد ظل من أخصص قدميه الى قمة رأسه يحترق رغبة في أن يكون رجلاً ذا أصالة وتفرد . لقد ذكرنا من قبل ان أفراد هذه الفئة الثانية أشقى كثيراً من أفراد الفئة الأولى . ومرد ذلك الى أن الانسان « العادي » الذي يملك « ذكاء » ، حتى وان ظن نفسه في بعض الظروف (بل وطوال حياته) انساناً أوتي عبقرية وأصالة ، يظل محتفظاً

فى قرارة قلبه بدودة شك تظل تأكله الى أن ترميه أحياناً فى هوة اليأس الكامل . فان أذعن مع ذلك متسماً بماطقة القورور المكبوح المكظوم .
على أننا أخذنا هنا حالة قصوى . أما فى أغلب الأوقات فان مصير هذه الفئة « الذكية » من الرجال العاديين لا يكون فاجعاً الى هذا الحد .
وكل ما يحدث لهم فى أكثر تقدير هو أن يصابوا بمرض فى الكبد بعد عدد من السنين ، فالى هذا يصير عنايتهم كله . ومع ذلك فانهم قبل أن يهدأوا وأن ينعنوا يظلون ، خلال مدة طويلة ، منذ سن الشباب الى سن النضج ، يرتكبون حماقات تلو حماقات ، لا يدفعهم الى ذلك شىء غير الرغبة فى التفرد والبحث عن الأصالة .

حتى لئرى حالات غريبة . قرب أناس منهم يتصفون بالشهامة ولكنهم يتوقون الى الأصالة ، فاذا هم لا يتورعون أحياناً عن ارتكاب حقارة من الحقايرات . هذا واحد من هؤلاء الأشقياء يمكن أن يعد رجلاً شريفاً بل وطيباً ، وهو عند أسرته أشبه بالعبادة الالهية ، يعون بعمله وحده لا ذويه فحسب ، بل أناساً غرباء أيضاً . فماذا يحدث له ؟ انه لا يهدأ له بال ولا تطمئن له نفس طوال حياته ! فشعوره بأنه قام بواجباته على أكمل نحو لا يصل به الى راحة القلب وسكينة الضمير . بالعكس : فهو حين يفكر فى ذلك ينفضب ويسخط . انه يقول لنفسه : « ذلك ما ضيعت حياتى فى سبيله ! ذلك ما حاس بينى وبين اختراع البارود ! فلو لا تلك الواجبات والالتزامات ، لكان يمكننى أن اخترع البارود أو أن اكتشف أمريكا . لا أدري ما الذى كان فى وسعى أن أكتشفه ، ولكننى كنت سأكتشف شيئاً من الأشياء قطعاً ! » .

ان أبرز ما يميز هؤلاء الناس هو أنهم يقضون حياتهم فعلاً دون أن يتوصلوا الى معرفة ما يجب عليهم أن يكتشفوه معرفة دقيقة ، وأنهم يظلون ينتظرون أن يكتشفوا شيئاً فى الغد : البارود أو أمريكا ! غير أن

حينئذ المذنب الى تحقيق هذا الاكتشاف يمكن أن يكون في الحقيقة كافياً
لرجل مثل كولومب أو مثل جاليله •

كان جبريل آرداليونوفتش قد دخل في هذا الطريق ، ولكنه لم
يسر فيه الا الخطوات الأولى في يوم من الأيام • كان يمتد أمامه أفق بعيد
من الآمال ممثلي الأشياء المتعارضة المتناقضة • وهو منذ طفولته تقريباً
كان قلبه قد قرّحه شعورٌ عميق مستمر بأنه انسان عادي ، مع رغبة
قوية عارمة في أن يقنع نفسه بأن له استقلالاً تاماً • كان فتى حسوداً ،
عنيف الرغبات ، وكأنه خلق عصياً نزعاً • وكان يحسب عرامة اندفاعاته
قوة و طاقة • وكان طمعه المسعور في أن يتميز وأن يكون شخصاً مرموقاً
يدفعه أحياناً الى التفكير في القيام بأعمال طائشة ، ولكنه ما ان يهيم أن
يشب حتى ينتصر العقل ويتقلب الذكاء دائماً • كان هذا يقتله • ولعله كان
يمكن اذا سنحت الفرصة أن يقرر اقراراً أحبط الحفارات والدنابات
لتحقيق هذا الحلم أو ذاك من أحلامه • لكنه كان متى اقتربت اللحظة
الحاسمة يمتنع عن اجتراح مثل تلك السفالة لأن الشعور بالشرف كان
ينتصر في نفسه (ومع ذلك كانت الأعمال الدنيئة الصغيرة تلقى منه قبولاً
دائماً في الواقع) • وكان الفقر والهوان اللذين هوت اليهما أسرته
يوقظان في نفسه الاشمزاز والكراهة • فكان يصطنع التعالى والاحتقار حتى
ازاء أمه ، رغم شعوره الكامل بأن ما تتمتع به أمه من سمعة طيبة وما تتمتع
به من طبع قوى هو الآن سنده الأول ودعامته الأساسية في حياته وعمله •
وما ان دخل في خدمة أسرة ايبانتشين حتى قال لنفسه : « ما دامت الأعمال
الخفية لا بد منها ، فلنرتكبها الى آخرها ، شريطة أن أجنى منها نفعاً ! » •
ولكنه كان لا يرتكب تلك الأعمال الدنيئة الى آخرها أبداً • ثم : لماذا
رسخ في رأيه أن عليه أن يقوم بأعمال سافلة حتماً ؟ ان آجلايا لم تزد
برفضها على أن أخافته • ولكنه ما يزال يطمع في الفتاة ، وما يزال ينتظر

فرصة من الفرص صابراً ، دون أن يعتقد جاداً مع ذلك بأنها يمكن أن تنازل فتقبل تقربه منها وتودده اليها .

ثم ارتأى فجأة ، أثناء قصته مع ناستاسيا فيليوفنا ، أن المال هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى « كل شيء » . وفى ذلك الأوان كان لا يتقضى يوم دون أن يردد على نفسه قوله : « اذا كان لا بد من اقتراف دناءة ، فلتقترفها ! » . وكان اذ يستعمل هذه اللغة يشعر برضى يداخله شيء من خوف . فكان لا ينفك يكرر فى كل لحظة من أجل أن يتشجع : « اذا لزمت دناءة فلتمضى الدنائة الى آخرها . ان الروتين يتردد فى مثل هذه الحالة ، أما نحن فلن نتردد ! » .

واذ أخفق مع آجلايا وأرهقته الظروف ، فقد كلَّ شجاعة ، وحمل الى الأمير المال الذى رمنه اليه امرأة مجنونة بعد أن أخذته من رجل لا يقل عنها جنوناً . وقد ندم بعد ذلك ألف مرة على أنه ردَّ المال ، لكنه لم يكفَّ عن الشعور من ذلك بافتخار واعتزاز . لقد ظل يكيّ فعلاً خلال الأيام الثلاثة التى قضّاها الأمير ببطربرج . ولكنه خلال هذه المدة أيضاً انما تضحى كرهه للأمير وحقده عليه . انه لن يغفر للأمير أنه نظر اليه مشفقاً حين رآه « يقوم بعمل لا يحرؤ كثير من الناس أن يقوموا به » ألا وهو رد مبلغ ضخّم كهذا المبلغ .

وكان يعترف لنفسه بصدق ونبل أن السبب الوحيد لكل ما يعاينه من قلق وغم هو هذا التمزق المتصل المستمر فى غروره ، فكان هذا الشعور يعذبه عذاباً أليماً . ولم يستطع الا بعد مدة طويلة أن يدرك وأن يقتنع بأن أموره كانت ستجرى مجرى خطيراً مع انسانيته تبلغ ما تبلغه آجلايا من براءة وطهارة وغرابة ، فأخذ الندم عندئذ يهدده هداً ، فترك العمل وسقط فى هوة الكآبة والانهيار .

انه يعيش الآن عند بتسين الذى بموله كما يعول أباه وأمه . وهو

يظهر الاحتقار لصهره بتسين ، ولكنه يتبع نصائحه ، بل ويملك من التعقل والحكمة ما يحضه على التماس هذه النصائح منه دائماً . كان ثمة شيء يفضبه بين الأشياء الأخرى التي تفضبه ، وهو أن يرى أن بتسين لا يعنيه أن يصبح رجلاً مثل روتشيلد ، ولا يضع لطموحه هذا الهدف . « ما دمتَ مرابطاً ، فكن مرابطاً الى النهاية ؛ اعتصر الناس اعتصاراً ، اسلبهم ما لهم ، كن قوى الشكيمة ؛ صرّ ملكاً فى اسرائيل » .

وكان بتسين رجلاً متواضعاً مسالماً موادعاً : فكان يكتفى بالتبسم . ومع ذلك رأى فى ذات يوم أن من الضروري أن يصارح جانبا وأن يناقشه مناقشة حادة ، ففعل ذلك بشيء من الرصانة والوقار ، مبيناً له أنه لا يأتى عملاً غير شريف ، فلا داعى الى وصفه بأنه يهودى ؛ وأنه اذا كانت نسبة الفائدة عالية فلا شأن له هو فى ذلك ؛ وأن طريقته فى المعاملة سليمة صادقة شريفة ؛ وأنه على وجه الاجمال ليس الا وسيطاً فى هذا النوع من الأعمال ، وأنه بفضل تقيده بالمواعيد وصدقه فى المعاملة قد أخذ يتمتع بشهرة ممتازة لدى أناس محترمين مرموقين ، وأن ميدان أعماله قد أخذ بسبب ذلك يتسع ويتسع . وأضاف يقول مبتسماً : « لن أصبح مثل روتشيلد ، ولا حاجة بى الى أن أصبح مثل روتشيلد ، ولكننى سأملك منزلاً وربما منزليْن فى ليتانيا ، وحسبى هذا ! » . وكان يقول بينه وبين نفسه : « ومن يدري ؟ قد أملك ثلاثة منازل » ، لكنه كان لا يفصح عن هذا الحلم ، بل يحتفظ به سرّاً مكتوماً فى قرارة نفسه . ان الطبيعة تحب هذا النوع من الناس وتدلّه ، ولسوف تكافى بتسين لا بثلاثة منازل بل بأربعة ، لأنه منذ طفولته أدرك أنه لن يصبح مثل روتشيلد . ولكن الطبيعة فى مقابل ذلك لن تمضى فى الاغداو على بتسين الى أبعد من هذا الحد ، وهو امتلاك أربعة منازل ، وستكون هذه المنازل الأربعة كل ثروته .

أما أخت جبريل آرداليونوفتش فقد كان لها طبع يختلف عن هذا الطبع كل الاختلاف . انها هي أيضاً ذات رغبات مصطبغة عنيقة ، ولكن رغباتها تتصف بالصاد والثبات أكثر مما تتصف بالجموح والرامة . كانت باربارا آرداليونوفتش تملك كثيراً من سلامة الحس وسداد الرأي في قيادة عمل من الأعمال ، ولا تهجر هذا العمل حين يشارف على نهايته . الحق انها كانت ، هي أيضاً ، من أولئك الناس «العاديين» الذين يحملون بالفرد والأصالة . ولكنها ، في مقابل ذلك ، لم تلبث أن أدركت أنها لا تملك شيئاً من أصالة ، ولم يحزنها هذا حزناً بالماً يجاوز الحدود . ومن يدري ؟ لعل ذلك كان ثمرة شعور خاص بالكبرياء والزهو . لقد خطت خطواتها الأولى في الحياة العملية بكثير من العزم والحزم فتزوجت السيد بتسين . لكنها لم تقل لنفسها في هذه المناسبة : « ما دامت الأعمال الدينية ضرورية ، فلنمض فيها الى النهاية » شريطة أن أثال بفتيتي وأحقق هدفي ، كما كان لا بد أن يقول مثل هذا في مثل هذه الحالة أخوها جبريل آرداليونوفتش (ان هذه الكلمات هي تقريباً الكلمات التي قالها لأخته حين وافق ، كأخ أكبر ، على أن تزوج بتسين) . أكثر من ذلك أن باربارا آرداليونوفتش انما تزوجت بعد أن تأكدت من أن زوجها المقبل رجل متواضع ، مريح ، مثقف تقريباً ، عاجز عن اقتراف حقارة ضخمة بحال من الأحوال . أما الحفارات الصغيرة فلا خير فيها ولا خوف منها ، فهي سفاسف وترهات ، ومن المبرأ منها على كل حال ؟ ان المرء لا يستطيع أن يطمع في المثل الأعلى ! وكانت باربارا آرداليونوفتش تعلم ، عدا ذلك ، أنها بزواجها تضمن مأوى لأمتها وأبيها وأخوتها . فهي حين رأت أخاها شقيقاً أرادت أن تساعد ، رغم كل ما حدث في الأسرة قبل ذلك من أنواع سوء التفاهم . وكان بتسين يحض فانيا ، بمودة وصداقة طبعاً ، على أن يلتبس وظيفة في الحكومة . وكان يقول له في بعض الأحيان

بلهجة المزاح : « أنت تحقر الجنرالات ورتبة الجنرال . ولكن أنتم
النظر : « انهم » جميعاً يتسهون الى أن يصبحوا هم أيضاً جنرالات .
لسوف ترى اذا عشت ! » . فكان جانيا يسأل نفسه ساخراً : « ولكن من
أين جاءهم اننى أحتقر الجنرالات ورتبة الجنرال ؟ » .

ومن أجل أن تستطيع مساعدة أخيها ، قررت باربارا آرداليونوفنا
أن توسّع ساحة تأثيرها . ففسلت الى أسرة ايباتشين ، معتمدةً في
الدرجة الأولى على ذكريات طفولة . « لقد لعبا ، هي وأخوها ، مع الأنسات
ايباتشين حين كنا في سنّ الطفولة . يجب أن نلاحظ هنا أنها لو كانت
تلاحق وهما من الأوهام أو حلماء من الأحلام حين سمعت الى أن تُستقبل
في منزل آل ايباتشين ، لكان يمكن أن تخرج من الفئة التي اتسبت هي
نفسها اليها والتحق بها . ولكن الواقع أن باربارا لم تكن تلاحق وهماً
أو حلماء . وانما كان يقود خطأها حساب معقول كانت تقيمه على أساس
معرفة بطبيعة هذه الأسرة وطريقة حياتها . لقد ظلت تدرس طبع آجلايا
بغير توقف ، ثم أخذت على عاتقها مهمة أن تجمع بين اثنين ، أخيها
وآجلايا . ولعلها حصلت على بعض النتائج . ولعلها أيضاً قد ارتكبت خطأ
الاسراف في الاعتماد على جانيا ، فانتظرت منه ما لم يكن في وسعه أن
يفعله في أى وقت ولا على أى شسكن . ولكنها ، على كل حال ، قد
أحسنّت الحيلة والتدبير لدى آل ايباتشين : قضت أسابيع طويلة لا تذكر
أمامهم اسم أخيها ولا تشير اليه ؛ أظهرت استقامة تامة وصدقاً كاملاً في
جميع الأحيان ؛ وكان وضعها يتسم بالبساطة لكنه يتصف كذلك بالرصانة
والكرامة . وكانت باربارا آرداليونوفنا لا تخشى أن تنبش قوارير ضميرها ،
اذ ليس فيه ما يمكن أن تلوم عليه نفسها ، فكان ذلك يهب لها مزيداً من
القوة . كل ما هنالك أنها كانت تكتشف أحياناً أن به هي أيضاً شيئاً من
ابيد الى الغضب ، وأنها هي أيضاً تزخر بالكبرياء الجريحة ، وربما

بالفرور المدوس • كانت تلاحظ هذا فى بعض الأحيان خاصة ، ومن تلك
الأحيان ، اللحظات التى تخرج فيها من عند آل ايباتشين •

ها هى ذى ، فى هذه المرة أيضاً ، تعود من عندهم معتكرة المزاج
حزينة النفس ، كما قلنا ، غير أن سخرية مرة تخالط الآن ذلك المزاج
الحزين •

كان بتسين يقيم بإقلوفسك فى منزل خشبى حقير المظهر لكنه
رحب السعة ، يطل على شارع كثير التراب • ان هذا المنزل ستول ملكيته
الى بتسين بعد قليل ، حتى انه قد شرع منذ الآن فى بيعه لشخص ثالث •
حين اجتازت ياربارا آرداليونوفنا درجات المدخل ، سمعت صخباً
شديداً خارقاً ، فى الطابق الأعلى • لقد كان أبوها وأخوها يتصايحان •
فلما دخلت الصالة رأت جانبا يركض فى الغرفة من طرف الى طرف ،
أصفر اللون من شدة الغضب ، يكاد ينزع شعر رأسه شداً • فاكفهر
وجهما حين رأت هذا المشهد وتهالكت على ديوان متعبة الهيئة مهددة
القوى ، دون أن تخلع قبعها • وكانت تعلم أنها اذا صمّت دقيقة واحدة
أخرى ولم تسأل عن سبب هذا الاضطراب ، ستغضب أخاها حتماً ؛
لذلك أسرعت تسأله قائلة :

— أمى الحكاية نفسها ؟

فصاح جانبا يقول :

— الحكاية نفسها ؟ لا ••• ليست هى الحكاية نفسها • الأمر الآن
أمر آخر ! العجوز أصبح مسعوراً ، والأم لا تكف عن البكاء • أرجوك
يا فاريا ، فكّرى كما تشائين ، ولكننى سأريه وراى الباب •••

ولكن لعله لاحظ أن المرء لا يجوز له أن يطرد أحداً من بيت ليس
بيته ، فأضاف يقول مستدركاً :

- أو ... أترككم أنا ...

دمدمت فاريا تقول :

- يجب على المرء أن يتصف بالتسامح •

ردَّ جانبا يقول مشتملاً بالغضب :

- التسامح في ماذا ؟ التسامح مع من ؟ التسامح تجاه نذالاته ؟ لا ، لا ، لك أن تقولي ما تشائين ... هذا مستحيل ، مستحيل ، مستحيل ، مستحيل ! ... ويا لها من أساليب ! ... الذنب كله ذنبه ، ثم هو يصرخ : « لا أريد الدخول من الباب ... هدمَّ الحاجز ! » • ولكن ما بك يا فاريا ؟ ان وجهك منقلب مربد !

أجابت فاريا غاضبة :

- ليس في وجهي شيء خارق •

فتفرس فيها جانبا بمزيد من انعام النظر ثم سألها فجأة :

- هل كنت هناك ؟

- نعم •

- انتظري لحظة • استؤنف الصراخ • يا للعار ! وفي مثل هذه اللحظة أيضاً !

- في مثل هذه اللحظة ؟ لا تتميز هذه اللحظة بأي شيء خاص •

حدَّق جانبا الى أخته بنظرة فيها مزيد من الثفاذ • وسألها :

- هل علمت شيئاً ؟

- لم أعلم شيئاً غير متظنر • علمت أن كل ما كان يُفترض

صحيح • لقد كان زوجي أبصر منا كلينا • ان ما تتبأ به منذ البداية قد تحقق الآن • أين هو ؟

— خرج • ما الذى تحقق ؟

— أصبح الأمير خطيباً رسمياً • انتهى الأمر • الأختان الكبيرتان قالتا ذلك لى • وافقت آجلايا • حتى ان الأمر لم يبق سرّاً مكتوماً (قبل الآن كان كل شيء هناك يحاط بجو السر) • وقد أُرجى زواج آديلايد حتى يتم زفاف العروسين معاً فى يوم واحد • يا له من شعر ! هذه قصيدة حقاً ! أوثر لك أن تنظم قصيدة تهنئة بالمرس على أن تركض فى الغرفة دون طائل • سيستقبلون فى مساء هذا اليوم بيلوكونسكايا • لقد وصلت فى الوقت المناسب • سيكون هناك مدعوون • وسوف يُقدّم الأمير الى الأميرة بيلوكونسكايا ، وان كانت تعرفه من قبل • يظهر أنهم سيعلمون نبأ الخطبة فى هذه المناسبة • لكنهم يخشون عليه اذا هو دخل الصالون الذى يحفل بالمدعوين أن يُسقط على الأرض شيئاً أو أن يكسر آنية ، أو أن ينطرح هو نفسه على الأرض • لا يُستغرب ذلك من مثله !

أصغى جانبا باهتمام شديد ، ولكن ما كان أشد دهشة أخته حين لاحظت أن هذا النبأ الذى كان ينبغي أن يصعقه صعقاً لم يلق منه انشداهاً خارقاً •

قال بعد لحظة تفكير :

— نعم ... كان ذلك واضحاً ...

ثم أضاف يقول وهو يتسهم ابتسامة غريبة ويرمق أخته بنظرة مأكرة وهو ما يزال يندرع أرض الغرفة طولاً وعرضاً ، ولو باضطراب أقل :

— اذن انتهى كل شيء !

قالت قاريا :

- يسمعننى أن أراك تستقبل الأمر كما يستقبله فيلسوف • حقاً ان هذا ليربحنى كثيراً •

- نعم ، تخلّص المرء من هذا الموضوع ؟ أنت على الأقل ...

- أظن أننى خدمتك صادقةً مخلصه ، دون أن أناقشك ، ودون أن أزعجك • أنا لم أسألك ما هى السعادة التى كنت تسوّل على أن تجدها مع آجلایا •

- ولكن هل أنا ... نشدت السعادة مع آجلایا ؟

- دعك من هذا الكلام ، أرجوك • لا تمثل دور الفيلسوف ! لا شك فى أن الأمر كان كذلك • ولكن حسابنا صُفّى : خُدعنا • اعترف لك بأننى لم أظنر الى هذا الزواج فى يوم من الأيام على أنه جده ولئن شُغلت به فلقد فعلت ذلك من باب « تجريب الحظ » ، ممتدةً على طبع آجلایا الغريب الشاذ • وانما أردت خاصةً أن أسرك • كان نصيب هذا المشروع من الاخفاق تسعين فى المائة • وما زلت حتى الآن لا أعلم أنا نفسى ماذا كنت تنتظر منه أو تتوقع له ؟

- الآن ستحضانى أنت زوجك على التماس عمل والسعى الى وظيفة؟ سأسمع خطباً ومواظف عن فائدة الدأب وقوة الارادة وضرورة الاكتفاء بالقليل ، ونهلمّ جراً ... حفظت هذا الكلام على ظهر القلب ! ...

كذلك قال جانيا وهو ينفجر ضاحكاً •

قالت فاريا مخاطبة نفسها : « ان فى رأسه فكرةً جديدة ! » •
وسألها جانيا فجأة يقول :

- والأبوان هناك ، كيف ينظران الى الأمر ؟ أهما مسروران ؟

- لا يبدو عليهما السرور كثيراً • على كل حال ، تستطيع أن تحكم

فى ذلك بنفسك • اذا كان ايفان فيدوروفتشى راضياً ، فالأم تراودها
مخاوف • ولقد كانت من قبل لا تحب أن ترى فى الأمير خطيئاً لابتها •
ذلك معروف •

— ليس هذا ما يهمنى • ان الأمير خطيب مستحيل ، خطيب لا يتصور
الخيال أن يكون خطيئاً • هذا واضح • لكننى أتكلم عن الوضع الحالى :
الى أين وصلا ؟ هل أبدت موافقتها القطعية ؟

— حتى الآن لم تقل « لا » • ذلك كل شئ • لكن الأمر لا يمكن
أن يجرى معها غير هذا المجرى • أنت تعلم أنواع الأعمال العجيبة التى
دفعها اليها خجلها وحيائها حتى الآن ! كانت فى طفولتها تحبس نفسها
فى الخزانة فظل لاطيةً فيها ساعتين أو ثلاثاً ، لا لشيء الا رغبتها فى
تجاسى الظهور للناس • وقد كبر بعد ذلك جسمها ، لكن طبعها لم يتغير •
هل تعلم ؟ يخيّل الى أنه لا بد أن يكون ثمة شئ خطير هناك ، حتى من
جبهتها « هى » • يبدو عليها أنها تسخر من الأمير ما استطاعت أن تسخره
من الصباح الى المساء ، حتى لا تظهر أنها تجد السبيل حتماً الى أن تقول
له كل يوم بضع كلمات خفية ؛ ذلك أنه يبدو مشرقاً وضاءً كمن يتنزّه
فى السماء !... يُقال انه مضحك ! منهن انما سمعت هذا الكلام • ولقد
ظهر لى أيضاً أن الأختين الكبيرتين تسخران منى صراحةً •

أخيراً أخذ وجه جانيا يكفهر • لعل فاريا قد تعمدت الافاضة فى
هذا الموضوع لتسبر فكر أخيها ، وتعرف ما يدور فيه من خواطر • ولكن
العياط والزياط استؤنفا فى الطابق الأعلى •

زأر جانيا يقول وكأنما سرّ أن يجد متنفساً لنضبه :

— سأطرده من الدار •

— فيمضى يستأنف الشكوى منا والتشهير بنا والاساءة الى سمعتنا فى

كل مكان ، كما فعل أمس ؟

سألها جانبا مرتاعاً من جديد :

— كيف أمس ؟ ما معنى هذا ؟ هل ...

فأجابت فاريا :

— ها ... آنت لا تعلم ؟

فصاح جانبا يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً من الشعور
بالمار والغضب :

— كيف ؟ ... اذن ... ذهب الى هناك ؟ رباء ! ... ولكن أنت
التي ترجمين الآن من عندهم ، هل علمت شيئاً ؟ هل ذهب العجوز اليهم ؟
أذهب أم لا ؟

قال ذلك واسرع نحو الباب . فاندفعت فاريا وراءه ، وأمسكته من
يديه ، وقالت له :

— ماذا ؟ الى أين تذهب ؟ اذا طردته فى هذه اللحظة ، فلسوف
يفعل أسوأ مما فعل . سيمضى يفضحنا لدى جميع الناس ! ...

— ماذا فعل هناك ؟ ماذا قال ؟

— لم يستطعن أن يكررن لى ما قاله بوضوح ، لأنهن لم يفهمنه .
ولكننى أعلم أنه أخافهن جميعاً . كان آتياً الى ايفان فيدوروفتش ، ولكن
هنا كان غائباً عن البيت . فطلب أن يرى اليزابت بروكوفينا . فلما لقيها
بدأ يرجوها أن تجد له عملاً ، أن تبحث له عن وظيفة فى الحكومة ؛ ثم
أخذ يشكونا إليها ، يشكونى أنا ، ويشكو زوجى ، ويشكوك أنت خاصة
... قال كلاماً كثيراً .

سألها جانبا وقد هزته ارتعاشة متشنجة :

— ألم تستطعى أن تعرفى ماذا قال ؟

- ليس هذا بالأمر السهل • أغلب الظن أنه لم يكن يفهم ماذا يقول • ولعلهم لم يقصصن على كل شيء •

أمسك جانبا رأسه بيديه ، وركض نحو نافذة • وجلست فاريا قرب النافذة الأخرى •
قالت فاريا فجأة :

- مضحكة آجلايا هذه ! لقد استوقفتني لتقول لى : • انقلنى الى أبويك أصدق مشاعر الاعتبار منى • ولن يفوتنى أن انتهز فرصة لرؤية أبيك فى يوم من الأيام القليلة القادمة • • وقد نطقت ذلك بلبهة فيها كثير من الجلد ! غريب جداً •••

- ألم يكن ذلك سخريه ؟ أثنت واثقة بأن ذلك لم يكن سخريه ؟

- لا ، لم يكن ذلك سخريه ، وهذا وجه الغرابة •

- أهى على علم بقصة السجوز أم لا ؟ ما رأيك ؟

- القصة مجهولة هناك • ذلك أمر لا أشك فيه • ولكنك تجعلنى أقدر الآن أن آجلايا قد تكون على علم بالقضية ، قد تكون وحدها على علم ، لأن أختيها دُهِشتا هما أيضاً حين سمعناهما تحملنى تحية الى أبينا ، جادة ذلك الجلد كله ؟ ولولا أنها على علم ، فما الذى يمكن أن يحضها على ارسال تحية اليه هو ؟ واذا كانت على علم بالقضية ، فإن الأمير يكون هو الذى رواها لها •

- لا حاجة للمرء الى كثير من المكر حتى يعرف من الذى رواها لها !
لص ! سارق ! لم يكن ينقصنا الا هذا ! لص فى أسرتنا ، لص هو • رب أسرتنا • !

هتفت فاريا تقول غاضبة :

- دعك من هذه السخافات ! لا يعدو الأمر أن يكون حكاية

مكثير ! ومن الذى اخترعها ؟ ليديف ، الأمير ... يا للشخصيات
العظيمة ، يا للأذكاء المبقرة ! ... اننى لا أقيم لهذا الحادث أى وزن !

تابع جانبا كلامه يقول بمرارة :

- أبونا لص وسكير ؟ وأنا متسول شحاذ ؟ وزوج أختى مراب .
ان لدينا ما نغرى به آجلايا : أسرة عظيمة حقاً ...

- ان زوج أختك هذا ، ان هذا المرابى ...

- يطعمنى ، أليس كذلك ؟ لا تتخرجى من قول ما تريدن قوله ،
أرجوك !

قالت قاريا وقد ثابت الى صوابها ، وسيطرت على نفسها :

- لماذا تزعل ؟ انك لا تفهم شيئاً . أنت تلميذ مدرسة حقاً ! أنظرن
أن هذا كله قد أساء اليك فى نظر آجلايا ؟ انك لا تعرف طبعها . انها
لا تتورع عن أن تدير ظهرها لأحسن الخاطين فى سبيل أن تهرب الى
طالب من الطلاب مقتبلة ، وأن تموت معه جوعاً فى غرفة تحت السطح !
ذلك هو حلمها ! انك لم تستطع أن تفهم فى يوم من الأيام مدى ما كان
يمكن أن تثيره فيها من الاهتمام بك والانجذاب اليك لو أنك عرفت كيف
تتحمل وضعا بصلاية وكبرياء . ان الأمير لم يصطدها الا لأنه من جهة
أولى لم يحاول قط أن يستولى عليها ، ولأنه من جهة ثانية يعدُّ أبله فى
نظر جميع الناس . يكفيها أن تقلب حال الأسرة عاليها سافلها مبنهجة !
هيه ! انكم معشر الرجال لا تفهمون من هذه الأمور شيئاً البتة !

دمدم جانبا يقول بهيئة ملغزة :

- طيب . سنرى هل نحن نفهم أم نحن لا نفهم . ولكننى كنت أود
مع ذلك أن لا تعرف عن قصة المعجوز شيئاً . لقد ظننت أن الأمير سيصون

لسانه فلا يذبح شيئاً • لقد استطاع أن يمنع ليديف عن التحدث في الأمر • ولم يرض أن يقول لي • أنا نفسي • كل شيء • رغم الحاجة • • هانت ذا ترى اذن بنفسك أن كل شيء قد علم بدون أن يتدخل • ولكن ما بالك تهتم هذا الاهتمام كله الآن ؟ ماذا تأمل ؟ وإذا بقي لك أمل • فلن يهب لك هذا في نظرها الا هالة شهيد !

– دعيك من هذا الكلام • فاتها • رغم كل هذه الرومانسية • كان يمكن أن تخاف من الفضيحة • ان لكل شيء حدوداً • وان لكل امرئ حدوداً لا يتجاوزها • أتن جميعاً كذلك • – آجلايا تخاف ؟

كذلك صاحت فاريا وهي ترشق أخاها بنظرة احتقار • ثم تابعت كلامها تقول :

– ان نفسك لديئة حقاً ! لا أحد منكم خير من أحد • اتم جميعاً سواء • أن تعدوا آجلايا شاذة غريبة الأطوار • فهذا جائز • ولكنها في مقابل ذلك أنبل طبعاً وأسمى نفساً منا جميعاً ! فدمدم جانيا قائلاً بلهجة الاكتفاء مرة أخرى :

– طيب • لا بأس • لا تزعلي !

وتابعت فاريا كلامها فقالت :

– لكنني أرثي لحال أمي • انني أخشى أن تكون قصة أبي قد بلغت سمعها • انني خائفة حقاً !

قال جانيا :

– لا شك في أنها تعرفها !

كانت فاريا قد نهضت لتصعد الى الطابق الأعلى • الى عند نينا

ألكسندروفنا • فلما سمعت ما قاله أخوها توقفت ونظرت اليه متحيرة ،
وسأله :

— من ذا يمكن أن يكون قد حكى لها القصة ؟

لعله هبوليت • اننى أقدر أنه منذ أقام عندنا لم يكن له من هم
مستجمل الا أن يروى لأمنا الحكاية •

— ولكن قل لى أرجوك ، كيف يمكنه أن يعلم بهذه القضية ؟ ان
ليديف والأمير قد اتفقا على أن لا يتحدثا عنها الى أحد ؛ كما أن كوليا
نفسه يجهلها •••

— هبوليت ؟ لقد عرف هذا كله بنفسه • لا تستطيعين أن تصورى
مدى ما يتصف به هذا المخلوق من مكر وخبت وميل الى الوشاية
والنميمة ؟ ولا تستطيعين أن تتخلى مدى ما يتمتع به من قوة حاسة الشم
التي تمكنه من أن يكتشف بنفسه جميع الحكايات السيئة ، وجميع ما له
طابع الفضيحة والجرسة ! لك أن تصدقى وأن لا تصدقى ، لكننى أعتقد
أنه استطاع أن يقبض على ناصية آجلایا بيديه • واذا لم يكن هذا قد
حدث فسوف يحدث • حتى روجوين أصبح على علاقة به • كيف
لا يلاحظ الأمير هذا ؟ وما أشد ما يضطرم فى نفس هبوليت الآن من
رغبة قوية فى أن يدبر لى مكيدة ! انه يعدنى عدواً شخصياً • لقد أدركت
ذلك منذ زمن طويل • ولكننى أساءل ما الفائدة التي يجنيها من هذا
إنسان أصبح فى مرحلة الاختصار ؟ ذلك ما لا أفهمه • ولكنك سترين:
سترين اننى سأقتصر عليه • لن تكون الكلمة الأخيرة له بل لى •

— لماذا أثبت به الى هنا ، اذا كنت تكرهه هذا الكره كله ؟ وهل
يستحق الأمر أن تنتصر عليه ؟

— أنتِ نصحتنى أن آتى به الى هنا •

— كنت أقدّر أن ينفعنا • ولكن هل تعلم أنه هو نفسه مولّه بحب
آجلًا ، وأنه كتب إليها ؟

لقد سئلت في هذا الموضوع ••• وكاد يكتب الى الزبانت
بروكوفينا •

قال جانيا وهو يضحك ضحكاً ساخراً فيه مكر :

— من هذه الناحية ، ليس خطراً • ثم ان الأمر لا بد أن يكون غير
هذا • أن يقع في غرام آجلًا ، فهذا جائز ، لأنه صبي ! ولكنه ••• لن
يبحث رسائل غير موقعة الى المجوز • انه فتى حقير تأفه شرير ، ومغرور
بنفسه أشد الغرور ! ••• اتى لعل ثقة ، اتى لعل يقين من أنه صورنى
لها شاباً محتالاً متآمراً • بهذا انما بدأ • اعترف بأننى كنت غيباً أشد
الغباء حين أطلقت لسبائى حراً معه • كنت أظن أنه سيخدم مصالحى ،
ولو انتقاماً من الأمير على الأقل • انه شخص ماهر • كشفت خبيثة
نفسه ! أما مسألة السرقة تلك فقد عرفها من أمه ، أرملة الكابتن • من
أجل تلك المرأة انما قرر أبونا أن يفعل فعلته • لقد أعلمنى هيوليت
فجأةً ، بدون أى سبب ، أن « الجنرال » وعد أمه بأربعمائة روبل •
أعلمنى هذا من تلقاء نفسه ، بدون مبالاة ، بدون تخرج • عندئذ فهمت
كل شيء • كان يحدث الى عينى متلذذاً • ولا شك أنه قال هذا الكلام
نفسه لأننا ، لا لشيء الا التلذذ بتمزيق قلبها • ولماذا لا يموت ؟ هلاً
قلت لى هذا ، من فضلك ؟ ألم يتعهد بأن يموت فى غضون ثلاثة أسابيع ؟
لقد سمن منذ أقام عندنا • وأخذ سعاله يهدأ • حتى لقد قال فى مساء
أمس انه أصبح منذ يومين لا يبصق دماً •

قالت فاريا :

— اطرده •

فأجاب جانبا متعالياً :

— انتهى لا أكرهه ، بل أحقره !

ثم لم يلبث أن صاح يقول فجأة وقد استولى عليه غضب قوى :

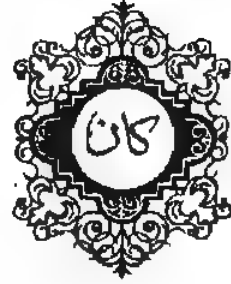
— ثم ... نعم ... انتهى أكرهه .. أكرهه ! لأقولنّ له هذا في وجهه ، ولو كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ! ليتك استطعت أن تقرئي اعترافه ! ما أغربها من وقاحة ساذجة ! انه الليوتنان بيروجوف ، انه نوزدييوف * على مأساة ! وهو خاصة صبي ! ما أعظم اللذة التي كان يمكن أن أشعر بها لو ضربته على قفاه حينذاك ، لا لشيء الا أن أدهشه ! انه يريد الآن أن ينتقم من الجميع لاختفائه في ذلك اليوم ! ... ولكن ماذا يجري هناك ؟ ان الجلبة قد اشتدت فوق ! وبعد ؟ أما لهذا من آخر ؟ ما معنى هذه الضوضاء ؟ لن أسمع بهذا !

صاح بهذه الجملة الأخيرة مخاطباً بتسين الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة . وتابع كلامه يقول :

— ماذا يحدث في بيتنا ؟ الى أين نمضي أيضاً ؟ هذا ... هذا ...

ولكن الضجة كانت تقترب بسرعة . وفُتح الباب فجأة ، ودخل المعجوز ايفولجين طافح الغضب محتقن الوجه مضطرب النفس خارجاً عن طوره ، واندفع هو أيضاً نحو بتسين . ووراءه دخلت نينا ألكسندروفنا ، ودخل كولا ، ثم دخل أخيراً هيوليت .

الفصل الثاني



هيوليت قد أقام في منزل بتسين منذ خمسة أيام . وقد تمّ الفراق بينه وبين الأمير على نحو طبيعي دون خصام أو نقاش أو شجار أو شقاق بل كأنهما افترقا وهما على أحسن حال من المودة والصدقة . وقد ذهب جبريل آرداليونوفتش الذي عادى هيوليت كل تلك المعادة أثناء السهرة ، التي سبق الحديث عنها ، ذهب يزوره في بيته بعد الحادث بيومين ، فأغلب الظن أنه انما ذهب يزوره تنفيذاً لخطّة ميته كانت قد راودته على غير توقع . كما أن روجوبين أخذ يتردد الى المريض ، لا يدري أحد ما الذي يحضه على ذلك . وقد قدّر الأمير في البداية أن « القتي المسكين » قد يجد من تلقاء نفسه أن اتقّاله من عنده فيه خير له . ولكن هيوليت ذكر للأمير حين غادر المنزل أنه سيقبض عند بتسين الذي « تكرّم فعرض عليه أن يؤويه » . وكأنه تصمّد أن لا يقول انه سيسكن عند جانبا ، مع أن جانبا هو الذي ألجأ على ايوائه في المنزل . وقد لاحظ جانبا ذلك ، فبقيت هذه الاهانة تتخّر في قلبه .

كان جانبا على حق حين قال لأخته ان المريض تتحسن الآن صحته . لقد كانت صحة هيوليت تتحسن فعلاً ، وكان في وسع المرء أن يلاحظ ذلك من أول نظرة .

دخل هيوليت الى الغرفة غير متمجّل ، وراه الآخرين ، وقد ارتسمت

على شفتيه ابتسامة ساخرة خبيثة ، وكانت هيئة نينا الكسندروفنا تدل على أنها منزعورة ذعراً قوياً (لقد تغيرت تغيراً كبيراً وهزلت. هزالاً شديداً أثناء هذه الأشهر الستة الأخيرة . انها منذ زواجها أصبحت تسكن عندها أصبح يبدو عليها أنها لا تتدخل في شئون أولادها) . وكان كوليأ مهموم البال ، قلقاً مرتبكاً متحيراً . ان أشياء كثيرة من هذا « الجنون الذى أصاب الجنرال » تفوته فلا يفهمها ، على حد تصيره ، لأنه كان يجهل ، بطبيعة الحال ، الأسباب الحقيقية لهذه البلبلة الجديدة التى اجتاحت المنزل . لكنه وهو يرى أباه ميالاً الى المشاجرة فى كل لحظة وكل مناسبة ، قد اتضح له أن أباه اغتراه تغير مفاجئ فكأنه شخص آخر . وكان مجرد انقطاع العجوز عن الحمرة منذ ثلاثة أيام انقطاعاً كاملاً يذكى قلقه ويقاقمه . لقد علم أن أباه قطع الصلة بينه وبين ليديف ، وقطع الصلة بينه وبين الأمير ، حتى انه تشاجر معهما . وها هو ذا كوليأ قد وصل الى المنزل حاملاً نصف زجاجة فودكا ، اشتراها بقروش يملكها ، وقال لأمه حين كان الجميع ما يزالون فى الطابق الأعلى :

— أؤكد لك يا أمى أن من الأفضل أن يشرب . انه منذ ثلاثة أيام لم يشرب شيئاً . وذلك هو سبب اعتكاف مزاجه ، واسوداد نفسه . حقاً ان من الأفضل أن يشرب . لقد كنت أحمل اليه خمرة حتى حين كان فى السجن بسبب الديون

فتح الجنرال الباب واسعاً ووقف على العتبة . كان يرتعش امتياعاً وغضباً .

صرخ يقول لصهره بتشين بصوت مرعد :

— أيها السيد العزيز ، اذا كان حقاً انك قررت أن تضحي فى سبيل هذا الولد الفر وهذا الملحد الزنديق بأبيك الشيخ المحترم ، أو قل بوالد زوجتك الذى خدم امبراطوره مخلصاً ، فاعلم اننى منذ هذه اللحظة لن

نظاً قدمائى أرض مسكنك • فاختر أيها السيد ، اختر فى هذه اللحظة
نفسها : فاما انا واما هذا ••• المسمار !••• نعم ••• هذا المسمار ! خطر
بإلى هذا الاسم مصادفةً ••• لكن العصى مسمار حقاً ••• لأنه يثقب
قلبى كمسمار فعلاً ••• بدون أية مداراة أو مراعاة ••• كمسمار
تماماً !•••

قال هيبوليت :

— لماذا لا تسمينى فتّاحة قناني ؟

— لا ، لست فتّاحة قناني ، لأننى لست قنينة بل جنرالاً • أنا أحمل
أوسمة وأملك ألقاب شرف ، أما أنت فليس لك شيء • اما هو ، واما أنا !
قرر أيها السيد ، قرر حالاً !

كذلك صرخ الجنرال من جديد ، مهدداً بتسعين بلهجة نزفة •
فأدنى منه كولينيا كرسياً ، فتهالك الجنرال على الكرسي خائر القوى •
جمعهم بتسعين يقول مصعوقاً :

— الحق أن الأفضل أن تنام قليلاً •••

وهمس جانبا قائلاً لأخته :

— وما يزال يجرؤ أن يهدد •••

صاح الجنرال قائلاً :

— أنام قليلاً ؟ أنا لست سكران يا سيدي العزيز ، وأنت تهينينى

وتشتمينى •

ثم تابع صياحه قائلاً وهو ينهض :

— أرى أن كل شيء وكل انسان هنا يناصبينى العداة ! كفى ! لقد

سمعت ! أنا ذاهب ••• ولكن ألا فلتعلم أيها السيد العزيز ، ألا فلتعلم ••

لكن الجنرال "جلس قبل أن يكمل جملته ، وضُرع اليه أن
يهدى نفسه •

وانسل بجانبها الى ركن من الأركان غاضباً حائقاً • وكانت نينا
ألكسندروفنا ترتجف وتتحبب •

قال هيوليت كاشفاً عن أسنانه بلهجة ساخرة :

— ولكن ماذا صنعتُ به ؟ مممَّ يشتكى ؟

فدخلت نينا ألكسندروفنا فجأة تقول :

— أتدعى أنك لم تفضل به شيئاً ؟ أنت الذى يجب عليك أن تشمر
بالحُجس والعار ... انها لقسوة أن يعذب المرء شيخاً ... ولا سيما حين
يكون فى مثل وضعك ! ...

— فما هو وضعى أولاً يا سيدتى ؟ اننى أحمل لك احتراماً عظيماً ،
لك أنت خاصة ، لك أنت شخصياً ، ولكن ...

هتف الجنرال يقول :

— انه مسمار ! انه يثقب روحى وقلبى ! انه يريد أن يلحقنى
بمذهب الاتحاد ! ألا فلتعلم أيها الولد القرم أننى كنت غارقاً فى الأمجاد
حين لم تكن أنت قد وُلدت ! ... ما أنت الا دودة يأكلها الحسد ، دودة
مشطورة شطرين ، دودة تسعل ... وتموت بغضاً وزندقة ... لماذا أنى
بلك بجانبها الى هنا ؟ الجميع يعادوننى ، من الغرباء الى ابنى فلذة كبدى ...

صرخ بجانبها يقول :

— كفى تمسلاً • لقد كان الأولى بك أن لا تطلنح شرفنا وأن
لا تجللتنا بالحزى والعار فى المدينة كلها ...

- كيف ؟ أنا أُلطخ شرفك أيها الولد ؟ أُلطخ شرفك أنت ؟ أنا
أشرفك ، لا أُلطخ شرفك ...

كان الجنرال قد وثب وهو يقول هذا الكلام • أصبح لا يمكن
صدء • ولكن كان واضحاً أن جبريل آرداليونوفتش قد جاوز الحدود
هو أيضاً •

صاح جبريل آرداليونوفتش يقول بمكر وخبت :

- ولا يستحي أن يتكلم عن الشرف !

فقال الجنرال يسأله بصوت مرعد وقد اصفر وجهه غضباً وتقدم
الى الأمام خطوة :

- ماذا قلت ؟

فأجاب جانبا فجأة بقوله :

- قلت اننى يكفى أن أفتح فمى حتى ...

ولكنه لم يكمل جملته •

هما الآن يقفان أحدهما أمام الآخر ، وجهاً لوجه ، وقد استولى على
كل منهما أشد الغضب ، ولا سيما جانبا •

صاحت نينا ألكسندروفنا قائلةً وهى تدفع لتصد ابنها :

- جانبا ، ماذا تفعل ؟

وهتفت فاريا تقول مستاءةً متعصبة :

- ما هذه الا سخافات من الطرفين كليهما • هيّا يا أماء ! هددنى

روعت !

وتشبثت بأما •

قال جانبا مخاطباً أياه بلهجة الفاجعة :

- اذا كنت أترفق بك ، فأننى لا أفعل ذلك الا مراعاةً لأمى .

فزأر الجنرال قائلاً وقد بلغ ذروة الغضب :

- تكلم ! تكلم والا حلت عليك لعنة أبيك ... تكلم ! ...

- هه ! ألا انى لأخاف لعنتك حقاً ! من المذنب اذا كنت قد أصبحت

منذ ثمانية أيام كالمجنون ؟ أقول : منذ ثمانية أيام . هل سمعت ؟ اننى

أعرف اليوم ... فلا تخرجنى عن طورى ، فتدفعنى دفماً الى أن أقول

كل شيء . لماذا جررت نفسك أمس الى بيت آل ايباتشين ؟ أتود بعد

ذلك أن يحترم أحد شيخوختك وشعرك الأثيب وكرامتك كرباً أسرة ؟

كلام جميل ! ...

- اسكت يا جانكا ! اسكت يا أحمق !

وعاد هبوليت يسأل ملحاً بلهجة ما تزال تقارب الوقاحة :

- بأى شيء أسأت اليه ؟ لماذا يصفى ياننى مسمار . هل سمعتموه ؟

انه هو الذى يتشبث بى ويصدع رأسى : لقد أتانى منذ قليل يحدثنى عن

قصة رجل برتبة كابتن اسمه ياروبياجوف . اننى لا أحرص أى حرص

على صحة مجتمعك يا جنرال . وأنت نفسك تعلم أننى كنت أتحاشاهم .

فيم يعينى الكابتن ياروبياجوف ! اعترف أنت نفسك ! ... اننى لم أسكن

هنا من أجل الكابتن ياروبياجوف . ثم اننى ولم أزد على أن أعربت عن

رأى صراحة فى أن هذا الكابتن ياروبياجوف لعله لم يوجد فى يوم من

الأيام . عندئذ صار غضبه .

قال جانكا بلهجة قاطعة :

- لا شك فى ذلك : ان هذا الكابتن لم يوجد فى يوم من الأيام .

ارتج على الجنرال . وألقى على ما حوله نظرات مبهوتة . ان كلمات

ابنه قد جمعه ما تشتمل عليه من تأكيد قاطع وثقة قاسية . لم يسعفه فكره

بكلمة واحدة يرد بها • غير أن ملاحظة جانيا جملة هيوليت ينفجر ضاحكاً •

قال هيوليت :

— هل سمعت ؟ ان ابنك نفسه يقول انه لم يوجد قى يوم من الأيام كابتن اسمه ياروياجوف •

— أنا تكلمت عن كابيتون ياروياجوف ، لا عن كابتن ... انه كابيتون ... هو ليوتنان كولونيل محال على التقاعد ... ياروياجوف ... كابيتون •

فعاد جانيا يقول خارجاً عن طوره :

— لا ولا وُجد أحد اسمه كابيتون !

فتنم الجنرال يسأل وقد أخذ وجهه يصطبغ بالحمرة :

— كيف ... لماذا لم يوجد ؟

فتدخل بتسين وفاريا قائلين :

— طيب ... هدى نفسك •

وصرخ كولا: يقول من جديد :

— اسكت يا جانيا !

ولكن هذه التدخلات ردت الى الجنرال ثبات جأشه ، فذف ابنه بهذا السؤال أطلقه مهدداً :

— كيف لم يوجد ؟ ولماذا يتمتع أن يكون قد وجد ؟

— لأنه لم يوجد ! هذا كل شيء • ! انه لم يوجد • ذلك مستحيل كل الاستحالة • أقول لك هذا ، فلا تصر ، ولا تلح •

– ثم أعدده ابني • ابني الذي آ • آ • يا رب! • هو ابني •
ويجرؤ أن يزعم أن ياروبياكوف، أن ياروشكا * ياروبياكوف لم يوجد!
قال هيبوليت :

– طيب طيب • منذ قليل كان اسمه كاييتوشكا * • والآن أصبح
اسمه ياروشكا !

– أنا أقصد كاييتوشكا ، يا عزيزي السيد الصغير ، لا ياروشكا !
أقصد كاييتون ، كاييتان ألكسيفتش ، أغنى كاييتان • • • الليوتان كولونيل
• • • المحال على التقاعد • الذي تزوج ماريا • • ماريا بتروفا سو •
سو • • أقصد صديقي ورفيقي سوتوجوف • • لقد كنا معاً في المدرسة
السنكرية • أهرقت من أجله دماً • • • حميته بجسمي • • • لكنه قتل •
كيف يجرؤ أحد أن يقول انه لم يوجد أحد اسمه كاييتوشكا
ياروبياجوف ؟

كان الجنرال يطلق هذا الكلام حاقاً أشد الحلق ، ولكن المرء يحس
أن انفعاله نابع من غير المسألة المختلف فيها والمتنازع عليها • الحق أنه كان
يمكن أن يتحمل افتراضاً أقسى وقمّاً في النفس وأعمق جرحاً للشعور
من افتراض أن كاييتون ياروبياجوف لم يوجد • كان يمكن لولا ذلك
أن يصرخ وأن يثير فضيحة وأن يندفع اندفاعاً قوياً ، ثم ما يلبث أن يصمد
إلى الطابق الأعلى لينام • أما في هذه المرة فإن الكيل قد طفق عنده – ألا
ما أغرب قلب الانسان ! – طفق من مجرد أن وجود ياروبياجوف قد
وُضع موضع الشك ، رغم أن هذه الاساءة طفيفة تافهة لا قيمة لها البتة !
لقد اصطبغ وجه الشيخ بحمرة شديدة كلون الأرجوان ، ورفع ذراعيه
نحو السماء ، وأعول يقول هاتفاً :

– كفى ! لعنتي عليكم • • • أنا خارج من هذه الدار ! يا نيقولاى ،
خذ حقيبة سفرى • • • اني راحل •

قال ذلك وهرع يخرج بالماً ذروة الغضب • فاندفعت وراعه نينا
ألكسندروفنا وكوليا وبسسين •

قالت فاريا لأخيها :

— ماذا فعلت ؟ قد يرجع الآن الى هناك ! يا للعار ! يا للعار !

فصرخ جانيا قائلاً وهو يكاد يحترق من شدة القبط والحنق :

— لم يكن عليه الا أن لا يسرق •

والتفت نظراته فجأة بنظرة هيوليت ، فاجتاحه نوع من الارتعاش

فجأة • وصاح يقول :

— أما أنت أيها السيد العزيز ، فلقد كان ينبغي لك أن تتذكر أنك

تقيم تحت سقف غيرك على كل حال ، وأنتك اذ تتمتع بحسن الضيافة

لست من ينبغي له أن يفيظ شيئاً أصبح من الواضح أنه فقد عقله وصار

مجنوناً •

أوشك هيوليت أن يندفع هو أيضاً ، ولكنه سرعان ما سيطر على

نفسه ، فقال بهدوء :

— لا أشاركك الرأي في اعتبار أهلك مجنوناً • هذه دعوى باطلة •

حتى اننى أرى أنه الآن أعقل مما كان في الآونة الأخيرة • يميناً ان هذا

هو شعورى • ألا تصدقنى ؟ لقد أصبح أكثر تعقلاً وحذراً • انه يرصد

كل ما يقال ويزن كل كلمة تصدر منه • وحين كلمنى عن كابتوشكا

انما كان يرمى الى هدف معين : تصور أنه كان يريد أن يحملنى على

الكلام عن ...

— عن الشيطان ... لا يهمنى أن أعرف ما الذى كان يريد أن

يحملك عليه ! وأرجوك أن لا تحاول المكر والمواربة معى ، أيها السيد •

كذلك قال جانيا بصوت صارخ • وتابع كلامه يقول :

— اذا كنت تعرف أنت أيضاً السبب الحقيقي الذى يجعل هذا الشيخ
فى مثل هذه الحالة (ولقد أحسنت التجسس عندى خلال هذه الأيام
الخمسة ، فلا بد أنك استطعت أن تعرف ذلك السبب) ، فان عليك أن
تتمتع امتناعاً صارماً عن اثاره حتى هذا ... الشقى ، وعن تعذيب أمى
بتضخيم قضية ليس لها شىء من خطورة الشأن ، فما هى القضية سكرين
لا أكثر . فضلاً عن أنها لم يثبت صدقها ولم يقم دليل على صحتها ،
ولست أوليها أى اهتمام ... ولكنك امرؤ لا تستطيع الا أن تفسد كل
شىء ، ولا يمكنك الا أن تتجسس ، لأنك ... لأنك ...
— لأننى مسمار •

بهذا أكمل هبوليت جملة جانيا وهو يضحك ساخراً • وتابع جانيا
كلامه فقال :

— لأنك انسان شرير • لقد عذبت الناس خلال نصف ساعة ،
وحاولت أن تفقدهم صوابهم متظاهراً بمحاولة الانتحار بمسدس كان
خالياً • لقد مثلت مسرحية مخجلة مخزية • يا مدعى الانتحار ...
يا كيس حقدٍ فوق ساقين ! لقد استصفتك فى هذا البيت ، فتحسنت
صحتك : سميت وزايلك السعال ، فانظر كيف تعترف بالجميل ، وانظر
كيف ...

— اسمح لى بكلمتين ، أرجوك • أنا هنا ضيف باربارا أرداليونوفنا ،
لا ضيفك أنت • أنت لم تتفضل عيَّ بأية ضيافة ، بل أظن أنك أنت
نفسك تتمتع بضيافة السيد بتسين • ولقد رجوت أمى منذ أربعة أيام أن
تبحث لى عن مسكن فى بافلوفسك ، وأن تجيء تقيم هى نفسها فى بافلوفسك ،
لأن صحتى تتحسن هنا فعلاً ، وان لم أسمن ولا انقطع سعالى • فأعلمتنى
أمى مساء أمس أن المسكن قد تهيأ • لذلك أبادر فأبلغك أنا أيضاً أنتى

سأتقن اليه في هذا اليوم نفسه بعد أن أشكر أمك وأختك • لقد اخذت
قراري هذا منذ مساء أمس • اغفر لي أنني قاطعتك • فأنك ، اذا لم
يخطئني ظني ، كنت تريد أن تقول أشياء أخرى كثيرة •

قال جانبا مرتشفاً :

— اذا كان الأمر كذلك •••

فقاطعه هيوليت بقوله :

— اذا كان الأمر كذلك ، فاسمح لي أن أجلس ، لأنني مريض على

كل حال •

قال هيوليت هذا وهو يخل ، يهدوء ، الكرسي الذي كان يشغله

الجنرال • ثم أضاف :

— الآن أصبحت مستعداً لأن أصغي الى كلامك ، لا سيما وأن هذا

الحديث بيننا قد يكون آخر حديث ، وقد يكون هذا اللقاء آخر لقاء •

شعر جانبا فجأة بخزي • وقال :

— صدق أنني لن أخفض قدرى الى حيث أجرى معك تصفية

حساب ، واذا كنت •••

فقاطعه هيوليت قائلاً :

— تخطئ اذا تعاليت هذا التعالي • أنا من جهتي قد آليت على نفسي

منذ اليوم الذي وصلت فيه الى هنا ، أن لا أحرم نفسي من لذة صفحك

متى وجب أن نفترق • وهذا أو ان تنفيذ هذا المشروع ، بعد أن تنهى

كلامك طبعاً •••

— وأنا من جهتي أرجوك أن تخرج من هذه الغرفة •

— الأفضل أن تتكلم ، والا فقد تقدم بسدئذ على أهلك لم تقل كل

ما كان يتمل في قلبك ويثقل صدرك !•••

قالت فاريا :

- كفى يا هيوليت ! هذا كله مخجل مخزٍ • كُفْ ، من فضلك !
فنهض هيوليت ، وقال ضاحكاً :

- اذا كفت فانما أكف احتراماً لسيدة • لك ما تشائين يا باربارا
آرداليونوفنا • فى سيبلك لا مانع عندى من اختصار هذا الحديث ، ولكن
من اختصاره فحسب • ذلك أن المكاشفة بينى وبين أخيك قد أصبحت
ضرورة مطلقة ، ولن أقبل تأية حال من الأحوال أن أخرج قبل ازالة
سوء تفاهم •

هتف جانيا يقول :

- بل قل انك تمام ، فلا تستطيع أن تعزم أمرك على الانصراف قبل
أن تقذف من فمك ما يمتلىء به من أقوال خبيثة •
قال هيوليت ببرود :

- ها أنت ذا ترى أنك فقدت سيطرتك على نفسك • بصراحة :
سوف تشعر بندامات كثيرة اذا لم تفصح عن كل ما تريد الإفصاح عنه •
أعود فأقول لك : اننى أتنازل لك عن دورى فى الكلام • وسأتكلم بعدك •
لم يجب جبريل آرداليونوفتش ، ونظر الى هيوليت باحتقار •
فقال هيوليت :

- لا تريد أن تتكلم ! تفضّل أن تبرهن على الصلابة والقوة حتى
النهاية ! لك ما تشاء • على كل حال ، سأكون من جهتي موجزاً أكبر
الايجاز • لقد سمعتُ اليوم مرتين أو ثلاث مرات لوماً وتقريباً على الضيافة
التي قدّمت لى • هذا ظلم • انك حين دعوتنى الى السكنى هنا ، كانت
نيتك أن تصطادنى بشباكك • كنت تفترض اننى أريد الانتقام من الأمير •
وقد سمعتَ عدا ذلك أن آجلایا ایفانوفنا أظهرت مودةً لى وأنها قرأت

اعترافى • فخطر ببالك حينذاك أننى سأقف نفسى على تحقيق مصالحك •
لملك أملت أن تتخذنى مساعداً لك • لا أقول أكثر من هذا • لا ولا
أطلب منك اعترافاً بصحته أو تأييداً لصدقه • يكفينى أن أعرف اننى
أضحك أمام ضحكك ، وأتأنتفاهم الآن تفاهماً تاماً •

هتفت قارياً تقول :

- انك تصنع قصةً كبيرة من أمر بسيط ...

فقال جانيا :

- هو كما قلت لك : « صبي ونعام » •

- اسمحني يا باربارا آرداليونوفنا : اننى أكمل كلامى • طبعاً ،
أنا لا يمكن أن أحب الأمير ولا أن أحترمه • ولكنه انسان طيب حقاً ، وان
يكن •• غريب الأطوار مضحكاً ••• فليس هناك اذن أى سبب يحملنى
على أن أكرهه ، ومع ذلك لم أظهر لأخيك أنه كان يحرضنى على الأمير •
كنت أنتظر الحاتمة ليتاح لى أن أضحك • كنت أعلم أن أخاك لن يلبث
أن يكشف عن حقيقة نفسه وأن يرتكب أكبر الخطأ فى حقى فأضعه فى
موضع سيء مضحك • وذلك ما حدث • اننى مستعد لأن أترفق به الآن ،
ولكننى لا أفعل ذلك الا مراعاةً لك يا باربارا الكسندروفنا • ومع ذلك
فاننى بعد أن استبان لك أن ايقاعى فى الفخ ليس بالأمر السهل الى تلك
الدرجة ، أريد أيضاً أن أشرح لك السبب الذى يحدونى الى وضع
أخيك فى موضع مضحك حرج ازانى • ألا فاعلمنى اننى فعلت ذلك عن
كره وبغض ، اعترف بذلك صادقاً • لقد قدّرت اننى حين أموت
(وسوف أموت على كل حال ، رغم اننى سمعت كما تدعون) ، سوف
أذهب الى اللجنة بهدوء أعظم وطمأنينة أكبر اذا استطعت أن أضع فى
موضع الهزء والسخرية شخصاً واحداً على الأقل يمثل أفراد تلك الفئة
الكبيرة من الناس الذين اضطهدونى طوال حياتى ، والذين كرهتهم

وأبغضتهم طوال حياتي • ان أخاك المدهش هو الصورة الواضحة لهذا النوع من الناس • انتى أكرهك يا جبريل أرداليونوفتش ؛ وقد يدهشك أن تعرف انتى لا أكرهك الا لأنك النموذج التام ، أو التجسيد الكامل ، أو التشخيص الصادق للعادية التافهة الوقحة الصلفة البشعة الكريهة المنقّرة ! أنت العادية المتنفخة ، التى لا يساورها شك فى شيء والتى تنعم بسكينة أولية • أنت الروتين ؛ أنت روتين الروتين ! لن تثبت فى فكرك أو قلبك أية فكرة شخصية ولن يومض فيهما أى معنى أصيد فى يوم من الأيام • ولكن حسدك لا حدود له • أنك مقتنع اقتناعاً قاطعاً جازماً بأنك عبقرى من الطراز الأول • ومع ذلك فإن الشك يستولى عليك ويحاصر تفسك فى لحظات الكتابة ، فتشعر عندئذ بنوبات قوية من الغضب والحسد • آه ... وان نقطاً سوداً تلوح فى الأفق الذى ينسبط أمام عينيك ، نقطاً سوداً لن تغيب الا يوم تصبح غيباً غباوة كاملة ، وذلك ما ستعير اليه فى مستقبل غير بعيد • على أنك ستحيا حياة طويلة متنوعة • لست أزعم أنها ستكون حياة فرحة • ويسرنى أن لا تكون كذلك • وأقول لك قبل كل شيء آخر : انك لن تحظى بيد الاسانة التى تطمع فيها •

صاحت فاريا تقول :

— هذا لا يُحتمل • هلاء انتهت أيها الشئام الدنيء ؟

وكان جانيا ملتزماً الصمت ، وقد اصفر وجهه وارتعش جسمه • وسكت هيوليت ، وحدّث الى بنظرة ثابتة ، مبتهجاً بارتباكها ، ثم نقل عينيه الى فاريا وابشسم ، ثم حياً وخرج دون أن يضيف كلمة واحدة • كان من حق جبريل أرداليونوفتش أن يشكو قدره وأن يتبرم من سوء حظه •

ولبت فاريا بضع لحظات لا تجرؤ أن تخاطبه بكلمة • حتى انها لم تنظر اليه بينما كان يذرع الغرفة أمامها بخطى واسعة • وأخيراً اقرب

من النافذة وأدار ظهره لأخته • خطر ببال فاريا المثل الروسى : « لكل عصا طرفان » • وسُمت جلبة فى الطابق الأعلى من جديد •

قال جانيا لأخته فجأة حين رآها تنهض :

أتذهين ؟ اتضرى : انظرى فى هذا !

وتقدم تحوها ورمى على الكرسي أمامها ورقة صغيرة مطوية كما تطوى رسالة •

صاحت فاريا تقول وهى ترفع ذراعها :

— رباه !

وكانت الرسالة مؤلفة من سبعة أسطر تماماً :

« جيريل آرداليونوفش ، اننى وقد اقتنعت بعواطفك البلية نحوى ، قررت أن أستشيرك طالبة نصحتك فى قضية تهمنى • فأتمنى أن ألقاك غداً فى الساعة السابعة تماماً عند الدكة الخضراء • ليس المكان بعيداً عن منزلنا • ان باربارا آرداليونوفنا التى يجب أن تصحبك حتماً تعرفه جيداً • آ • ا • » •

قالت باربارا آرداليونوفنا وهى تعبر عن دهشتها بمعادة يديها :

— فافهمها بعد هذا إذا كنت تستطيع أن تفهم !

ورغم أن جانيا لم يكن مهياً لأن يتخذ هيئة الانتصار فإنه لم يستطع أن يخفى شعوره بانظر ، ولا سيما بعد التنبؤات القاتلة التى قالها هيبوليت • وهى ذى ابتسامة صادقة تعبر عن رضى الغرور تضى وجهه • وكانت فاريا نفسها مشرقة المحيا من الفرح • قالت :

— ويحدث هذا فى اليوم الذى يعلنون فيه خطبتها عندهم ! فحاول

أن تعرف ما الذى تريده ان استطعت الى ذلك سبيلاً !...•••

سألها جانيا :

- في رأيك ، عمّ تريد أن تكلمنى غداً ؟

- ليس هذا بالأمر الهام • فأنما الأمر الهام أنها لأول مرة منذ ستة أشهر تعرب عن رغبة فى أن تراك • اسمع يا جانيبا : أياً كان الأمر ، وكيفما تمت هذه المقابلة ، فيجب عليك أن تذكر أن هذا شيء « هام » ، هام الى أبعد الحدود • فلا ترتبك هذه المرة • لا تقترف خطيئة ، ولكن لا تكن خجولاً أيضاً • افتح عينيك ! هل يمكن أن لا تكون قد أدركت الهدف الذى سعت أنا اليه بالتردد اليهم خلال هذه الأشهر الستة ؟ تصور أنها لم تقل لى اليوم كلمة واحدة عن هذه المقابلة ! لم تظهر شيئاً البتة ! يجب أن أذكر لك اننى كنت قد دخلت خلسة • كانت العجوز لا تعلم بوجودى • ولولا ذلك لكان يمكن أن تطردنى • من أجلك انما جازفت • كنت أريد أن أعرف بأى ثمن ...

تعالى الصباح والضجيج فى الطابق الأعلى من جديد • وهؤلاء عدة أشخاص يهبطون السلم •

هتفت فاريا تقول مرتاعة متقطعة الأنفاس :

- لا يجوز أن نسمح الآن بهذا مهما يكن من أمر • يجب أن لا تحدث أية فضيحة ! امض اليه ، واطلب منه الصفح !

لكن رب الأسرة كان قد بلغ الشارع • وكان كوليا يسير وراء حامللاً له حقيبة • وكانت نينا ألكسندروفنا واقفة على درجات سلم الباب تبكى ناشجة متحجة • انها تود لو تركض وراء زوجها ، لكن بتسين ممسك بها يمنعها من ذلك ، قائلاً لها :

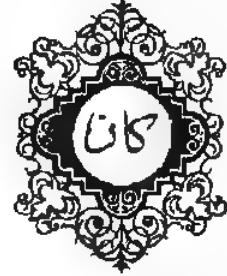
- سوف تزيد من احتياجه • وليس له مكان يذهب اليه • فسنعيد بعد نصف ساعة • لقد تحدثت فى هذا مع كوليا • دعيه يفعل ما تشاء له نزواته المجنونة •

صرخ جانبا يقول له من النافذة :
- ما هذه الحذقات ؟ الى أين صاك تذهب ؟ انك لا تدري حتى الى
أين تمضى !
وصاحت فاريا تقول :

- ارجع يا أبت ! ان الجيران يسمعون !
توقف الجنرال ، والتفت الى وراء ، وبسط يده وقال بتأثر :
- ألا فلتنصب لعتى على هذا المنزل !
فجسم جانبا قائلاً وهو يطلق النافذة بقرقة :
- لا بد له أيضاً من أن يقول هذا الكلام بلهجة مسرحية !..
وكان الجيران يرتبون ويرصدون ما يجرى فعلاً . وخرجت فاريا
من الغرفة بسرعة .

فلما انصرفت تناول جانبا الرسالة من على المائدة ، وحملها الى
شفتيه ، وتلفظ ، وهمّ أن يشب عن الأرض كمن يرقص .

الفصل الثالث



يمكن أن لا يكون للفضيحة التي أثارها الجنرال أية نتيجة في وقت غير هذا الوقت • ولقد سبق أن كان بطل حوادث شاذة مفاجئة من هذا النوع ، ولو في أحوال نادرة ، ذلك أنه في الواقع إنسان مسالم مواع جداً ، يغلب على ميوله أنها طيبة • ولعله حاول مائة مرة أن يكافح عادات التحلل التي اعتادها خلال السنين الأخيرة • كان يتذكر على حين فجأة أنه رب أسرة ، فيصالح امرأته ويذرف دموعاً صادقة • انه يحمل لزوجته نبأ ألكسندروفنا احتراماً يبلغ حد العبادة ، لأنها تغفر له أشياء كثيرة دون أن تقول كلمة واحدة ، وتظل تحنو عليه رغم الانحلال التي سقط فيه ، ورغم ما صار إليه من حال تبعث على السخرية والضحك ! غير أن ذلك الكفاح العظيم الذي كان يخوض غماره ضد اضطراب حياته وفوضى سلوكه كان لا يدوم مدة طويلة • انه هو أيضاً ، في نوعه ، أشد اندفاعاً وأقوى عزيمة من أن يستطيع احتمال حياة التوبة والفراغ التي يجباها في أسرته ، فكان ما يلبث أن يتمرد • وكانت تتباه في تلك الأحيان نوبات غضب حائق لعله يلوم نفسه عليها في نفس اللحظة التي ينقاد فيها لها ، ولكنه لا يملك القوة اللازمة للتغلب عليها • كان في تلك الأحوال يسعى إلى مشاجرة ذويه ، ويأخذ يفيض في الكلام والخطابة بحماسة تدعى البلاغة والفصاحة ، يطالب بأن يحترم احتراماً يتجاوز الحدود ولا يمكن تخيله ، ثم يختفي آخر الأمر ، حتى ليبقى غائباً عن البيت في بعض الأحيان

زمناً طويلاً • وقد أصبح منذ ستين لا يملك الا فكرة غامضة عما يجرى
فى البيت ، أو لا يطلع على ما يجرى فى البيت الا عن طريق السماع
لا البان • لقد انقطع عن الدخول فى هذه التفاصيل التى أصبح لا يوليها
أى اهتمام •

ولكن الفضيحة اكنت فى هذه المرة شكلاً غير معهود • كأن
حادثاً قد وقع ، فالجميع على علم به ولكن ما من واحد يجرؤ أن يتكلم
عنه • ان الجنرال لم يرجع الى الأسرة « رسمياً » الا منذ ثلاثة أيام ، أعنى
لم يرجع الى نينا ألكسندروفنا ! ولكنه بدلاً من أن يظهر المذلة والندامة
كما كان يفعل فى « رجعاته » السابقة ، فقد ظهرت عليه فى هذه المرة
علامات احتياج شديد ، وحنق سريع خارق • كان كثير الكلام مضطرباً ،
يتجه الى كل قادم بخطب ملتهبة ، حتى كان يهجم على محدثيه هجوماً ،
ولكنه يتحدث فى مسائل تبلغ من التنوع ومن الغرابة التى لا يتوقعها المرء
أنه كان يستحيل على السامع أن يكتشف الموضوع الحقيقى الذى هو مدار
قلقه ومحل اضطرابه • واذا استئينا لحظات من فرح ومرح كانت توافيه
من حين الى حين ، فقد كان فى أكثر الأوقات شارد اللب حتى ليجهل
هو نفسه ما الذى يستغرق فكره • كان يأخذ مثلاً فى سرد حكاية عن
أميرة ايباتشين ، وعن الأمير ، وعن ليديف ، ثم اذا هو يقطع حديثه
فجأة ، ويتوقف عن الكلام توقفاً تاماً • ويردُّ بابتسامة بلهاء طويلة على
أولئك الذين يسألونه عن تنمة القصة ، وكأنه لا يلاحظ أن أحداً يلقي
عليه سؤالاً • لقد قضى الليلة الأخيرة فى تهدد وأنين ، وأرهق نينا
ألكسندروفنا ارهاقاً شديداً ، فكانت لا تنى تسخن له لصقائه ؛ حتى اذا
طلع الصباح غفا على حين فجأة ، ولكن استيقاظه من النوم بعد أربع
ساعات قد أعقبته تلك النوبة الشديدة المضطربة من الوسواس التى أدت
الى تشاجره مع هيوليت ، وانتهت بصبِّه « اللعنة على ذلك المنزل » •

وقد لوحظ أيضاً خلال تلك الأيام الثلاثة أنه هوى الى حالة متصلة من الزهو والغرور تعبّر عن نفسها بشدة التأذى وسرعة الاستياء . وقد أكد كوليا لأمه ملحاً أن هذا المزاج الحزين الذى يمانى منه أبوه انما يرجع الى حرمانه من الشراب ، وربما كان يرجع أيضاً الى غياب ليديف الذى كان الجنرال قد ارتبط به ارتباطاً حميماً فى الآونة الأخيرة . فقد حدث بين الرجلين منذ ثلاثة أيام شقاق لم يكن متوقفاً ، شقاق ألقى الجنرال الى غضب شديد . حتى أن نوعاً من شجار وقع بينه وبين الأمير . وقد توسل كوليا الى الأمير أن يشرح له سبب ما وقع ، فأدرك أخيراً أن الأمير يكتنم عنه أمراً من الأمور هو أيضاً . وفى وسعنا أن نفترض أن ما افترضه جانيا صحيح ، وأن حديثاً خاصاً قد جرى بين هيبوليت ونيئا ألكسندروفنا . ولكن يبدو غريباً عندئذ أن يكون هذا الشخص الشرير الذى نعتة جانيا صراحة بأنه نعام ، لم يمتنع نفسه بلذّة اطلاع كوليا على الأمر . من الجائز جداً أن لا يكون هيبوليت ذلك الصبيّ السىء الذى صورّه جانيا فى حديثه الى أخته ، وان يكون الشر الذى فى نفسه شراً من نوع آخر . ومن جهة أخرى ، اذا كان هيبوليت قد أطلع نينا ألكسندروفنا على شيء ، فلعله لم يفعل ذلك متتوياً « تمزيق قلبها » فحسب . يجب أن لا ننسى أن دوافع أعمال الانسان هى فى العادة أشد عمقاً وأكثر تنوعاً مما تتصور حين نريد تحليلها . انه لمن النادر أن نستطيع الاحاطة بها احاطة دقيقة . وأفضل ما يفعله القصاص فى بعض الأحيان أن يقتصر على عرض الأحداث وسرد الوقائع . وذلك ما سنفعله فى ايضاحاتنا المقبلة عن النازلة التى ألمت بالجنرال فقلبت حياته رأساً على عقب ، لأننا نجد أنفسنا الآن مضطرين اضطراراً مطلقاً الى أن نولى هذه الشخصية الثانوية من الاهتمام والمكان أكثر مما أوليناها فى قصت هذه حتى الآن .

لقد تماقت الأحداث متسلسلة على النظام التالى :

ان ليديف ، بعد جولته فى بطرمربرج سعيًا وراء العثور على فردشتشكو ، قد رجع الى بافلوفسك مع الجنرال فى ذلك اليوم نفسه . ولم يطلع الأمير على أى شىء خاص . فلو أن الأمير كن ذاهلاً هو أيضاً فى ذلك الوقت ، وكان غارقاً فى مشاغل تهمة أكبر الاهتمام ، لاحظ أن ليديف ، فضلاً عن أنه لم يزوده بأى إيضاح خلال اليومين اللذين أعقبا عودته ، كان يتحاشى أيضاً لقاءه . فلما لاحظ الأمير ذلك أخيراً ، تذكر على دهشة منه ، أنه رأى ليديف ، خلال هذين اليومين ، حين كن يلقاه عرضاً ، رآه مشرق المزاج منبسطة الأسارير ، وأنه فى صحبة الجنرال دائماً . كان الصديقان لا يفترقان أبداً . وكان الأمير يسمع فى بعض الأحيان أحاديث صاحبة حامية تدور فوق غرفته ، ويسمع مناقشات مرحة تقطعها انفجارات ضحك . حتى انه فى ذات مرة ، فى ساعة متأخرة جداً من السهرة ، وصلت الى مسعمة أصداء أغنية غيز متوقعة ، من الأغاني التى يفتيها الجنود حين يشربون الخمر ؛ فتعرف صوت الجنرال الحفيض المبحوح ، ولكن الأغنية انقطعت فجأة وأعقبها صمت . ثم قامت مناقشة حارة بلهجة مخمورة ، واستمرت المناقشة حامية خلال قرابة ساعة . وكان لا يعجز السامع عن أن يحزر أن الصديقين اللذين يسمران فوق قد تماقتا بعد قليل ، وأن أحدهما أخذ يبكي آخر الأمر . ثم لم تلبث أن نشبت مشاجرة عيفة على حين فجأة ، ثم هدأت المشاجرة بعد برهة وجيزة .

فى أثناء تلك الآونة كلها ، كان كوليا فى حالة هم شديد . وكان الأمير لا يكاد يمكث فى البيت لحظة أثناء انهار ، وكان فى بعض الأحيان لا يعود الا فى ساعة متأخرة جداً من الليل . فكان يقال له عندئذ ان كوليا ظل يسعى اليه ويسأل عنه طوال اليوم . ولكن الفتى كان اذا لقي

الأمير لا يبدو عليه أن لديه شيئاً خاصاً يريد أن يفضي به إليه ، اللهم الا أن يقول له انه « مستاء » من الجنرال ومن سلوكه الحالى أشد الاستياء ، « فانهما لا ينفكان يمشيان فى الطريق ، ويسكران فى حانة قريبة ، ويتعاقان فى وسط الشارع ، ويتشائمان على مرأى ومسمع من الناس ، ويهيج كل منهما صاحبه ، ولا يستطيعان أن يفترقا » . فلما قال له الأمير ان ذلك ليس الا تكراراً لما كان يعجز قبل ذلك كل يوم تقريباً ، لم يعرف كوليأ بماذا يجيب ، وعجز أخيراً عن تحديد موضوع قلقه الراهن .

وفى غداة الليلة التى سمع فيها الأمير الأغنية والمشاجرة ، كان الأمير يتهاى للخروج فى نحو الساعة الحادية عشرة ، فإذا بالجنرال يظهر أمامه بفتة ، وهو فى حالة انفعال شديد حتى ليكاد يرتجف ارتجافاً .

- اننى منذ مدة طويلة اقرب فرصة الحصول على شرف لقائك يا يون نيقولايفتش المبجل . نعم ، منذ مدة طويلة ، طويلة جداً ، طويلة جداً جداً ...

بهذا جمجم الجنرال وهو يضغط على يد الأمير ضغطاً يوشك أن يكون موجعاً . فدعاه الأمير أن يجلس .

- لا ، لن أجلس ، ثم اننى لا أريد أن امنحك من الخروج ... سأجىء فى مرة أخرى . أظن اننى أستطيع أن أهتلك ... بتحقيق ... أمنيات قلبك .

- أمنيات قلبى ؟

اضطرب الأمير . لقد كان يبدو له ، كما يحدث هذا لأكثر الذين يكونون فى مثل حالته ، أن أحداً لا يرى ولا يحزر ولا يفهم شيئاً . قال الجنرال :

— اطمئن بالآ ! لا أحب أن أضايقك في ألطف مشاعرك وأرهف عواطفك • لقد مرت أنا بمثل هذه الحالة ، وأعرف أنه ما ينبغي لغيري أن يدس أنفه ••• ان صبح التعبير ••• على حد قول المثل ••• حيث لا يجب أن يدسه ! هذه حقيقة أعانيها كل صباح • وانما أنا جئت اليك لشأن آخر ، شأن هام ، هام جداً يا أمير •

رجاء الأمير مرة أخرى أن يجلس ، وسبقه الى الجلوس ليحملة على الاقتداء به • قال الجنرال :

— لا بأس • لحظة قصيرة ••• لقد جئت أسألك نصيحة • لا شك في أن حياتي تنقصها أهداف عملية ، ولكنني ، احتراماً مني لنفسى ، وبوجه عام ••• اهتماماً مني بتلك الروح العملية التي حرّم منه الروسى حرماناً شديداً ••• أود أن أهىء لنفسى ، ولزوجتي ، ولأولادى ••• وضعاً يمكننا ••• الخلاصة : جئت ألتبس منك نصحاً يا أمير •••

فهناك الأمير تهتة حادة على هذه النية وهذا العزم •

وأسرع الجنرال يضيف قائلاً :

— غير أن هذا كله لا قيمة له • وانما أنا جئت لأمر أخطر شأنًا • لقد قررت أن أفتح لك قلبي يا ليون نيقولايفتش ، كما أفتح قلبي لإنسان تبلغ تقى بصدقه وكرمه أن ••• أن ••• ألا تدهشك أقوالى يا أمير ؟

لئن لم يكن الأمير مدهوشاً دهشة عظيمة ، فلقد كان يلاحظ ضيفه مع ذلك بكثير من الاتباء والاستطلاع • كان الشيخ شاحباً بعض الشحوب ، وكانت تلم بشفتيه رعشة خفيفة فى بعض اللحظات ، وكانت يده ترتجفان بشير انقطاع • لقد جلس منذ بضع دقائق ، ولكنه نهض أثناء ذلك فجأةً مرتين ، ثم أسرع يجلس ثانية ، دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ ما هو فيه من اضطراب • وكان على المائدة كتب ، فتناول واحداً

منها أثناء كلامه ، وفتحه ، وألقى نظرة عليه ، ثم عاد يطويه فوراً ويرده الى مكانه . ثم تناول كتاباً آخر لم يفتحه لكنه ظل قابضاً عليه بيده اليمنى طول الوقت ، يهزه بشير انقطاع .

وهتف فجأة يقول :

— حسبى هذا ! أرى أنتى أزعجتك كثيراً .

— لا ، أبدأ ، لم تزعجنى أرجوك أكمل كلامك !
بالعكس : أنتى أصفى اليك باهتمام ، وأحاول أن أدرك

— يا أمير ، أريد أن يكون لى مركز يفرض الاحترام أريد أن أحصل على احترام نفسى وحقوقى

— ان من يرغب هذه الرغبة لهو جدير بكل احترام منذ الآن .
نطق الأمير بهذه الجملة المستارة الشائمة معتقداً اعتقاداً جازماً بأنها ستحدث فى نفس الجنرال أثراً حسناً . كان يحسن ، بفريرته ، أن جملة من هذا النوع ، جوفاء سارّة فى آن واحد ، تستطيع اذا هى قيلت فى الوقت المناسب ، أن تدخل الهدوء والطمأنينة الى نفس انسان مثل الجنرال ، ولا سيما فى الحالة التى هو عليها . ومهما يكن من أمر ، فما كان يجوز استئذان زائر كهذا الزائر بالانصراف الا بعد التخفيف عنه ، ومواساته . تلك هى المسألة .

أعجب الجنرال بالجملة كثيراً ، ووجد فيها مديحاً وعدّها مؤثرة ؟ فرّق قلبه ، واهتزت عاطفته ، وسرعان ما غيّر لهجته وانطلق يقدم شروحاً طويلة مستفيضة تشتمل حماسة . لكن الأمير لم يفهم من كلامه شيئاً رغم ما بذل من جهود الاصغاء التام والانتباه الشديد . لقد تكلم الجنرال قرابة عشر دقائق ، بتدفق سريع وتجل عظيم ، كما يفعل انسان لا يتسع وقته لأن يعبر عن الخواطر التى تزدحم فى رأسه ازدحاماً

قويًا ؟ حتى لقد أخذت تترقق في عينيه دموع * آخر الأمر • ولكن جميع العبارات التي نطق بها كانت لا رأس لها ولا ذنب ، كانت أفعوالاً عجيبة غير متوقعة ، وخواطر متناثرة مفككة تتصادم وتتضارب في حديثه المضطرب المشوش •

وختم الجنرال كلامه فجأة بقوله وهو ينهض :

— هذا يكفي ! لقد فهمت عنى فأنا الآن أشعر براحة وطمأنينة وهدهد • ان قلباً كهذا لا يمكن الا أن يفهم انساناً يتألم • يا أمير ، انك تملك نبل المثل الأعلى • ما الآخرون اذا قيسوا بك ؟ ولكنك شاب ، فهأنا ذا أحب لك بركتى • الخلاصة اننى جئت اليك ألتمس أن تحدد لى ساعة لحديث هام : فعلى هذا الحديث انما أعقد الأمل وأعلق الرجاء • انى لا أشد الا صداقة قلباً يا أمير • أنا لم أستطع أن أسيطر على مطالب قلبى فى يوم من الأيام •
قال الأمير يسأله :

— ولكن لماذا لا تنجى الحديث الآن ؟ اننى مستعد لأن أصفى اليك ...

فقاطعه الجنرال بقوة وعنف :

— لا يا أمير ، لا ! لا الآن ! أنا الآن فى حلم ! ان القضية خطيرة الشأن جليلة القدر ! ان الساعة التي سنجرى فيها ذلك الحديث ستقرر مصيرى • ان تلك الساعة ستكون لى « أنا » ، ولا أحب فى لحظة مقدسة كذلك اللحظة ، أن تعرض لأن يقطع علينا حديثنا أحد ، لا أحب أن يقطع علينا حديثنا أول قادم وفتح •

وهنا مال الجنرال على الأمير فهمس فى أذنه يقول بلهجة السر وبما يشبه الرعب :

- وقح لا يساوى نعل ... نعل قدمك ... يا حبيبي الأمير !
لست أقول قدمي أنا . لاحظ جيداً أن الأمر ليس أمر قدمي أنا ، لأنني
أشد احتراماً لنفسى من أن أتحدث عن قدمي أنا رأساً بغير مواربة وبغير
لف ودوران ! ولكنك وحدك قادر على أن تفهم أنني اذ امتنع فى مثل
هذه الحالة عن ذكر نعل قدمي ربما كنت أبرهن على عزة شديدة وكبرياء
عظيمة . ما من أحد غيرك يستطيع أن يفهم هذا ؟ و « هو » ، « خاصة » ،
أعجز من غيره على فهم ذلك . « هو » لا يفهم شيئاً يا أمير . انه عاجز
عن الفهم عجزاً مطلقاً ! لا بد للمرء من قلب حتى يمكن أن يفهم !

شعر الأمير أخيراً بضيق يشبه أن يكون خوفاً . فضرب للجنرال
موعداً هو مثل هذه الساعة من الغد . وخرج الجنرال قوياً منتعشاً قد
سُرِّي عنه وكاد يهدأ بالاً . وفى المساء ، بين الساعة السادسة والساعة
السابعة ، أرسل الأمير يرجو ليديف أن يجيء اليه لحظة .

فهرع ليديف الى الأمير مسرعاً أشد الاسراع ، وقال وهو يدخل
« انه لشرف عظيم » له أن يلبي طلب الأمير وأن يمثل بين يديه . كان
كمن أصبح لا يتذكر أنه اختبأ عن الأمير خلال ثلاثة أيام ، وأنه تحاشى
لقائه عامداً .

جلس ليديف على حافة كرسي وهو يتكلف التبسم ، ويصطنع
وجهه حركات تودد ، وتفتعل عيناه المتفرستان تسبيراً عن الضحك ، ويفرك
يديه ، ويظهر بمظهر انسان ساذج كل السذاجة يتهياً لأن يسمع نبأ
هاماً انتظروه زمناً طويلاً ، وأحسن به جميع الناس منذ مدة .

انزعج الأمير من هذا الوضع الذى يتخلفه ليديف . لقد أصبح
واضحاً له أن جميع من حوله قد أخذوا يأملون منه شيئاً على حين فجأة ،
أصبحوا ينظرون اليه على نية أن يزوجوا اليه التهنئة بحادث عليه مدار

تلك التلميحات والابتسامات والغمزات • لقد مرّ به كيللر ثلاث مرات ، هو أيضاً ، مسرعاً متعجلاً ، راعباً رغبةً واضحةً فى أن يزجى اليه التهتة ، فكان فى كل مرة يندفع مسترسلاً فى كلام متحمس غامض ثم يقطع حديثه فجأة وينصرف قبل أن ينتهى • (لقد أصبح كيللر فى الأيام الأخيرة يفرط فى الشراب مزيداً من الاقراط ، والناس يرونه فى قاعة من قاعات البلياردو يحدث ضجيجاً ويثير جلبة شديدة) • وكوليا نفسه ، رغم حزنه ، قد اندفع ، مرتين أو ثلاث مرات ، يلمّح فى حديثه مع الأمير ملفزة •

اتجه الأمير الى ليديف يسأله بلهجة قاطعة وبشيء من الحق عن رأيه فى الحالة التى آل اليها الجنرال ، وفى مصدر القلق الذى يبانى منه الجنرال الآن • ووصف له بكلمات مقتضبة المشهد الذى جرى بينه وبينه • فأجاب ليديف يقول بلهجة جافة :

— لكل امرئ همومه يا أمير ! ولا سيما فى عصر عجيب معذب كهذا العصر الذى نعيش فيه • هذه هى المسألة !

قال ليديف ذلك ثم صمت كما صمت رجل أسمى اليه وخاب ظنه فيما كان ينتظره خيبة قاسية •

قال الأمير مبتسماً :

— يا لها من فلسفة !...

— الفلسفة قد تكون لازمة ، قد تكون لازمة جداً لمصرنا هذا من الناحية العملية ، ولكن الناس يهملونها • هذا واقع ! أما أنا ، أيها الأمير المبجل ، فقد أوليتى ثقتك فى حالة تعرفها ، ولكنك قصرت هذه الثقة على حد معين ، وقصرتها على الوقائع الملحقة بهذه الحالة ... اننى أقفم هذا ولا اشتكى منه البتة !

قال الأمير :

— لكأن هناك شيئاً قد أغضبك يا ليديف ، هه ؟

فهتف ليديف يقول بحماسة وهو يضع يده على قلبه :

— لا ، أبداً . بالعكس : لقد أدركت فوراً أنني كنت لا استحق أن
تسرفني بثقتك السامية التي كنت أنطلق إليها ، كنت لا أستحقها لا بحكم
وضعي في المجتمع ، ولا بحكم ذكائي وأخلاقي ، ولا بحكم ثرائي ،
ولا بحكم ماضي ، ولا بحكم معارفي . وإذا أمكنتني أن أخدمك قائماً أنا
أخدمك كما يخدم عبد أو متتبع ، لا أكثر من ذلك . أنا لست زعلان ،
بل حزين .

— دعك من هذا يا لوكيان تيموفتشس !

— لا أكثر من ذلك ! وهذا هو شأني الآن ، في الحالة الراهنة .
لقد كنت أقول لنفسي حين ألقاك ، وحين أتبعك بقلبي وفكري : « أنا
لا أستحق أن يفضى إليّ بما يفضى به صديق إلى صديقه ، ولكنني ،
بصفتي صاحب الدار ، قد أتلقي منه ، في اللحظة المناسبة ، في تاريخ
محدد ان صحح التعبير ، أمراً من الأوامر ، أو قد أتلقي منه على الأقل
رأياً من الآراء بشأن بعض التبديلات الوشيكة المتوقعة . . . » .

كان ليديف ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، ما ينفك يحدّق بعينيه
الصغيرتين اللابتين ، إلى الأمير الذي كان يتأمل مدهوشاً . لم يكن قد فقد
أمله في اشباع فضوله .

هتف الأمير يقول بلمهجة توشك أن تكون غصياً :

— لا أفهم شيئاً البتة وانك لأقطع من رأيت في حياتي من
أصحاب المسائل والمكائد . .

قال الأمير هذه الجملة الأخيرة وهو ينفجر ضاحكاً ضحكاً صريحاً
على حين فجأة •

فأسرع ليديف يشاركه الضحك • وكان واضحاً من نظرته
المشرقة أن آماله قد قويت بل وازدادت • قال الأمير :

— هل تعلم ماذا سأقول لك يا لوكيان تيموفتشس ؟ لا تزعل : اننى
مدهوش من سذاجتك وسذاجة أشخاص آخرين أيضاً ! ان ما تظهرونه
من سذاجة فى توقع أن أكتشف لكم عن أمر من الأمور ، فى هذه
اللحظة ، فى هذه الدقيقة ، يبلغ من الشدة ما يجعلنى أشعر بحرج
وخجل حين ألاحظ أن ليس هنالك شئ أبلغكم إياه فأرضيكم • ومع ذلك
أحلف لك أن ليس ثمة أى أمر أقضى به إليك • تستطيع أن تكون على
ثقة بهذا •

وعاد الأمير يضحك •

واصطنع ليديف هيئة الجذ والرصانة والوقار • صحيح أن فضوله
يتصف أحياناً بفرط السذاجة وقلة التكتيم ، ولكن هذا لا ينفي انه كان
رجلاً مأكراً يحسن الملف والدوران والتعرج ، حتى انه قادر فى بعض
الأحيان على أن يلتزم صمتاً يبلغ غاية المكر • وقد حملته الأمير بردوده
الفظة المستمرة على أن يعتبره أشبه بعمدو • ولكن لئن كان الأمير يخاشنه،
فانه لم يكن يفعل ذلك احتقاراً له ، بل لأن فضول ليديف ينصب على
موضوع حرج دقيق • لقد كان الأمير ، قبل بضعة أيام ، ينظر الى بعض
أحلامه نظره الى جريمة ، بينما كان لوكيان تيموفتشس لا يرى فى رفضه
الكلام الا دليلاً على كره له وشك فيه، فكان ينصرف مقروح القلب حافداً،
وكان يحسد كولييا وكيللر بل ويحسد أيضاً ابنته نفسها ، فهرا لوكيانوفنا •
وعلمه كان فى هذه اللحظة نفسها يرغب برغبة صادقة فى أن ينقل الى

الأمير نبأ لعله يحظى من الأمير بأكثر الاهتمام ، لكنه انطوى على نفسه
ولزم صمتاً كاملاً واحتفظ بأسراره لنفسه .

قال ليديف أخيراً بعد صمت :

- فى أى شىء يمكن أن أخدمك أيها الأمير العظيم ، ما دمت أنت
الذى ... استدعيتنى ؟

ظل الأمير شارد الذهن برهة من الزمن هو أيضاً . ثم قال :

- كنت أريد أن أتكلم عن الجنرال ، وعن ... تلك السرقة التى
كلمتني فيها ...

- أية سرقة ؟

- عجب أمرك . لكأنك أصبحت الآن لا تفهم ! حقاً انك لاسان
غريب يا لوكيان تيموثفتش ! ما هذا التمثيل الذى تعتمد اليه وتحرس
عليه دائماً ؟ اننى أقصد المال ... المال ... الأربعمائة روبل التى فقدتها
منذ أيام مع المحفظة ، وجئت تحدثنى عنها هنا فى الصباح ، قبل أن تذهب
الى بطرسبرج . هل فهمت عنى أخيراً ؟

فقال ليديف عندئذ بصوت بطىء كأنه لم يدرك ما يسأل عنه الا فى
هذه اللحظة :

- آ ... تقصد تلك الأربعمائة روبل ! أشكرك ، يا أمير ، على
اهتمامك الصادق هذا بى . ان هذا الاهتمام ليسعدنى ويشرفنى ، ولكننى
... وجدت المبلغ منذ مدة طويلة !

- وجدته ؟ آ ... الحمد لله !

- ان حمدك هذا يصدر عن قلب نبيل ، لأن الأربعمائة روبل ليست
أمرأ هيناً بالنسبة الى انسان شقى لقي عناء كبيراً فى جنى رزقه ورزق
أيتامه ...

قال الأمير مصححاً :

— ما عن هذا أكلمك ! يسرنى طبعاً أن تكون قد وجدت مالك ،
ولكن ... ولكن كيف وجدته ؟

— على أيسر نحو : وجدته تحت الكرسي الذي كان رديجوتى معلقاً
عليه . فلا شك أن المحفظة انزلت من جيب الرديجوت وسقطت
هناك .

— تحت الكرسي ؟ مستحيل ... لقد قلت لي أنك بحثت عن المحفظة
في كل مكان . فكيف لم ترها في الموضع الذي هو أبرز موضع يمكن
أن تسقط فيه ؟

— لقد نظرت في ذلك الموضع فعلاً . أتذكر أنني أغمضت النظرة
جثوت حتى صرت أمشي على أربع ، ثم لم أتكلم على عينيَّ وحدهما بل
أزحت الكرسي وتلمست المكان بيدي . فلم أجد إلا فراغاً كراحة يدي ،
وظللت مع ذلك أتملمس . ان هذه الترددات تستولي دائماً على فكر من
يبحث عن شيء ويصر أن يعثر عليه ... حين يكون الشيء المفقود هاماً
أو حين يكون تقدم مدعاة حزن له : فهو يرى أن ليس ثمة شيء في المكان
الذي يبحث فيه عن الشيء ، ومع ذلك ينظر في المكان نفسه خمس عشرة
مرة .

دمدم الأمير يقول متحيراً :

— طيب ... ولكن كيف أمكن أن يحدث هذا ؟ ... لقد قلت
في البداية ان المال لم يكن هناك ، ثم اذا أنت تجده هناك في ذلك المكان
نفسه فجأة ! فكيف يمكن هذا ؟

— نعم ، وجدته هناك فجأة !

حدثني الأمير الى ليديف بنظرة غريبة ، ثم سأله على حين بفتة :

- والجنرال ؟

فأجاب ليديف وهو يصطنع من جديد هيئة من لا يفهم :

- الجنرال ؟

- غريب أمرك • انتنى أسألك ماذا قال الجنرال حين عثرت على
محفظتك تحت الكرسي ؟ ألم تقوما بالبحث فى أول الأمر معاً ؟

- نعم ، فى أول الأمر • ولكننى فى هذه المرة لم أقل له شيئاً ،
أعترف لك بذلك • آثرت أن يبقى جاهلاً بأننى عثرت على محفظتى
وحدى •

- ولكن ... لم هذا ؟ • وهل كان المال تاماً لم ينقص منه شيء ؟
- عذرت ما كان فى المحفظة فلم اقتد شيئاً • لم ينقص من المال
روبل واحد •

قال الأمير شارد الذهن :

- كان فى وسعك أن تخبرنى بهذا على الأقل •

- خشيت أن أزعجك يا أمير ، فإن لك من مشاغلك الشخصية
وهمومك الخاصة ما قد يكون خارقاً اذا جاز لى أن أقول هذا • ثم لقد
تظاهرت أنا نفسى بأننى لم أعر على شيء ؛ فبعد أن فتحت المحفظة وعددت
المال الذى كان فيها فتحققت من تمامه طويتها ثانية وأرجعتها الى مكانها
تحت الكرسي •

- لماذا ؟

قال ليديف وهو يضحك ضحكاً ساخراً على حين فجأة ويفرك
يديه سروراً :

- هى فكرة ساورتنى • كان يشوقنى أن أرى ما قدت يحدث
بعد ذلك •

- فهل المحفظة ما تزال تحت الكرسي منذ يومين ؟

- لا • لم تبق تحت الكرسي الا أربعاً وعشرين ساعة • كانت رغبتي هي أن يعثر عليها الجنرال هو أيضاً • قلت لنفسي : ما دمت قد انتهيت الى العثور عليها ، فلا يمكن الا أن يلاحظ الجنرال ، هو أيضاً ، شيئاً ظاهراً للعيان الى هذا الحد ، شيئاً يشب الى البصر من تحت الكرسي وثباً ان صح التعبير • وقد نقلت الكرسي وغيرت موضعه مراراً بحيث يصبح المرء مضطراً الى رؤية المحفظة اضطراراً ، ومكرهاً على الانتباه اليها اكراهاً ، ولكن الجنرال لم يبصر شيئاً • دام ذلك أربعاً وعشرين ساعة • لا بد أنه في هذه الآونة ذاهل شديد الذهول • أمر لا يمكن فهمه : انه يتكلم ، ويروي قصصاً ، ويضحك ، ويقهقه قهقهة شديدة في بعض الأحيان ، ثم اذا هو يتتابه غضب عنيف مني على حين فجأة ، لا أدري لماذا ! خرجنا أخيراً من الشرفة ، ولكنني تعمست أن أترك الباب مفتوحاً • فرأيت الجنرال يتردد لحظة وكأنه يريد أن يقول لي شيئاً • فأغلب الظن أنه قد دوَّعه أن تترك هنالك محفظة فيها مبلغ ضخم كذلك المبلغ ، ولكنه بدلاً من أن يشير الى هذا ، غضب على حين فجأة ، واحمر وجهه احمراراً شديداً • فما ان صرنا في الشارع وقطعنا بضعة خطوات حتى تركني ومضى في اتجاه آخر • ثم لم نلتق بعد ذلك الا مساءً في الحانة •

- ولكن هل سحبت المحفظة من تحت الكرسي أخيراً ؟

- لا ، أبداً • وانما هي اختفت من ذلك المكان في الليل •

- وأين هي الآن ؟

- هي ذى ••• لقد وجدتُها هنا فجأةً ، في حافة رديجوتي ، انظر ••• جُسمُها اذا أردت أن تتأكد من الأمر بنفسك •
بهذا هتف لبيديف فجأةً وهو ينهض قائماً وينظر الى الأمير متودداً •

كانت الحافة اليسرى من الرندنجوت منتفخة من الأمام انتفاخاً يلفت النظر حقاً • فإذا جسّ المرء ذلك الموضع أدرك فوراً وجود محفظة من الجلد انزلقت تحت البطانة من ثقب فى الجيب •

قال ليديف :

- لقد أخرجتها لأدقق النظر فيها ، فرأيت المال كاملاً لم ينقص منه شيء ، فعدت أدسها فى موضعها نفسه ؛ وهكذا ترانى أحملها منذ صباح أمس • حتى انها تلطم ساقيّ •

- وتظاهر بأنك لم تلاحظ ذلك ؟

- أنا لا ألاحظ شيئاً ، هىء هىء ! واعلم ، أيها الأمير المجلّ ، اعلم ... رغم أن هذا الموضوع لا يستحق أن يلفت انتباهك ، اعلم أن جيوبى تكون فى حالة حسنة دائماً • فما هى الا ليلة واحدة حتى كانت احداها مثقوبة ! لقد أنعمت النظر فى الثقب متعمداً ، فرأيت أنه يشبه أن يكون خرقاً أحدث بسكين • أمر لا يصدق العقل ، أليس كذلك ؟

- و ... الجنرال !

- ظل غاضباً طول النهار ، أمس واليوم • ان امتياؤه رهيب • على أن نشوة الحمرة تجعله شديد المراقبة والمجاملة أحياناً ، ثم اذا هو يصبح رقيق العاطفة حتى لتسيل دموعه على خديه ، ثم اذا هو يشور على حين فجأة ثورة عارمة تبث الرعب فى قلبى ، والحق يقال !... ذلك اننى ، يا أمير ، لست رجل قتال وحرب • وأمس ، بينما كنا معاً فى الحانة ، وقعت حافة رندنجوتى تحت بصره بما يشبه المصادفة ؛ وكانت ترسم حدة ظاهرة كل الظهور ، فرمقها الجنرال بطرف عينه ، واجتاحه الغضب • لقد أصبح منذ مدة طويلة لا ينظر الىّ وجهاً لوجه ، الا حين يكون فى نشوة سكر أو يقظة عاطفة • ولكنه نظر الىّ أمس مرتين فكان فى عينيه من

الشرر ما أجرى في ظهري رعدة • على كل حال ، أنا أنوى أن أعثر على
المحفظة غداً ، ولكنني إلى أن أفعل ذلك أحب أن أتملى به ليلةً أخرى •

صاح الأمير يقول متعجباً :

— لماذا تعذبه هذا التعذيب ؟

فأجاب ليديف يقول بحرارة :

— أنا أعذبه يا أمير ؟ لا ! اتنى أحبه حباً صادقاً مخلصاً ، و ...
احترمه • لك أن تصدق أو لا تصدق : لقد أصبح الآن أغلى في قلبي
وأعزّ في نفسي مما كان • أصبحت اعتبره مزيداً من الاعتبار •

قال ليديف هذه الكلمات وهو يصطنع هيئة فيها من فرط الجِد
والاخلاص ما أثار استياء الأمير • فقال يسأل ليديف :

— أتجبه ثم تعذبه هذا التعذيب ؟ اسمع : انه منذ أعاد المحفظة
المفقودة إلى مكان بارز : تحت الكرسي أولاً وفي حافة رديجوتك ثانياً ،
قد برهن على أنه لا يريد أن يمكر معك ، وبرهن على أنه يسألك
الصفح والعفو • هل سمعت ؟ انه يطلب منك أن تصفح عنه ! معنى هذا
أنه يعتمد على رهاقة عواطفك ، وأنه يثق بصداقتك له • فكيف تجيز
لنفسك بعد هذا أن تنل انساناً ... شريفاً إلى هذا الحد ؟

قال ليديف وقد التمت عيناه :

— أيها الأمير الشريف ، أيها الأمير الشريف جداً • أنت وحدك
أيها الأمير النبيل ، استطعت أن تقول كلاماً صادقاً هذا الصدق كله ،
عادلاً هذا العدل كله ، لذلك تراني مخلصاً لك متفانياً في سبيلك إلى
حد العباداة ، رغم كل عفونة الرذائل التي تعشش في نفسي ! لقد اتخذت

قرارى • سوف اكتشف المحفظة الآن ، فى هذه اللحظة نفسها ، لا أنتظر
الغد • انظر : هأتا ذا أخرجها أمام بصرك • هى ذى • هذا هو المبلغ
كاملاً ، خذه أيها الأمير النبل واحتفظ به الى غد • سوف استرده منك
غداً أو بعد غد • ولكن هل تعلم يا أمير أن هذا المال لا بد أن يكون قد
قضى الليلة الأولى فى مكان ما تحت شجرة بحديقتنا الصغيرة ؟ ما رأيك
فى هذا ؟

— لا تقل له دفعةً واحدة انك عثرت على المحفظة • دعه يلاحظ
أن حافة رديجوتك قد خلت من المحفظة ، فيفهم بنفسه •
— هل هذه فكرة جيئة ؟ أليس الأفضل أن أبلغه أنى وجدت
المحفظة ، متظاهراً باننى قبل ذلك لم يخطر ببالى شيء ؟
أجاب الأمير واجماً مفكراً :

— لا أظن ذلك • لا • فات الأوان • هذا أشد خطراً • حقاً إن
الأفص هو أن لا تقول شيئاً ! كن رقيقاً لطيفاً فى معاملته ، ولكن ...
يجب أن لا يظهر عليك أنك ... تمثل دوراً محفوظاً ، ... و ...
و ... أنت تعلم ...

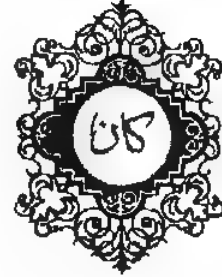
— أعلم يا أمير ، أعلم • أقصد ... أعلم أنى لن أفعل شيئاً من
ذلك ، اذ لا بد أن يكون للمرء قلب كقلبك حتى يتصرف بهذا التصرف •
ثم انه قد أصبح هو نفسه سريع الاحتياج سىء الطبع • هو الآن يشغلنى
فى بعض الأحيان من رأسى الى قدمى ، تارةً ينتحب ويقبلنى ، وتارةً
يأخذ يذلى ويهيننى ويعاملنى باحتقار على حين فجأة • ففى لحظة من
تلك اللحظات سأبرز له حافة رديجوتى عامداً ليراها ... هى • هى ! ...
الى اللقاء يا أمير ... أظن أنى حبستك عن الخروج ، وأننى ... كثر عليك
أهم عواطفك ، اذا جاز لى أن أقول ...

– ولكن احفظ السر ، ناشدتك الله ، كما فعلت من قبل •

– بخطي لا وقع لها ، بخطي كخطي الذئب !...•

رغم أن الأمر انتهى ، فقد بقي الأمير مهموماً ربما أكثر مما كان
مهموماً من قبل • انه ينتظر ، ناقد الصبر ، اللقاء الذي يجب أن يتم غداً
بينه وبين الجنرال •

الفصل الرابع



موعد اللقاء بين الساعة الحادية عشرة والنصف
وبين الساعة الثانية عشرة • ولكن الأمير أخره
عنه ظرف طارئ لم يكن في الحسبان • فلما
وصل الى البيت كان الجنرال ينتظره • وقد
لاحظ من النظرة الأولى أن الجنرال كان ستاءً ، ولعله كان مستاءً من
هذا الانتظار نفسه •

اعتذر الأمير عن التأخر وأسرع يجلس ، لكنه كان يشعر بوجل
غريب فكأن الزائر خرف يخشى عليه الأمير أن ينكسر في كل لحظة •
انه لم يشعر قبل ذلك في يوم من الأيام بوجل كهذا الوجيل ازاء
الجنرال ، بل ولا كان يمكن أن تخطر بباله فكرة كهذه الفكرة • ولم
يلت أن لاحظ أن أمامه الآن رجلاً يختلف كل الاختلاف عن رجل
الأمس : فالجلجل والذهول قد حلت محلها الآن لدى الجنرال رصانة
خارقة ، فكأنه قد اتخذ قراراً قاطعاً لا سبيل الى الرجوع عنه • ورغم أن
هناك الأعصاب هذا كان ظاهرياً أكثر مما كان واقعياً ، فان ذلك لا ينفي
أن وضع الجنرال كان فيه نبل وحرية وانطلاق ، على شيء من الشعور
بكرامة مكبوتة ووقار مكظوم ؛ حتى لقد بدأ يكلم الأمير بلهجة فيها شيء
من التنازل والتواضع كاللهجة التي يصطنعها أولئك الذين يخالط انطلاقتهم
الحر شعور باساة ألحقت بهم ظلماً • وكان يتحدث بنبرة لطيفة ودودة
على شيء من المراة في صوته •

قال بوقار وهو يومئذ بيده الى المائدة :

- اليك المجلة التي أخذتها منك في ذلك اليوم • شكرآ •

- آآآآ نعم •• هل قرأت تلك المقالة يا جنرال ؟ كيف وجدتھا ؟
ما رأيك فيها ؟ شائقة ، هه ؟

كذلك قال الأمير مسرعآ الى انتهاز هذه الفرصة للتحدث في موضوع
كهذا الموضوع لا يثير النفس ، ولا يهز العاطفة •
فأجاب الجنرال بقوله :

- قد تكون المقالة شائقة ، لكنها كُتبت كتابةً رديئة ، وهي باطلة
حتمآ ، حتى ليتمكن أن يقال انها محشوة بالأكاذيب •
كان الجنرال يتكلم بلهجة فيها سلطة ، وفيها شيء من بطء مقصود •
قال الأمير :

- نعم ، هي قصة ساذجة جداً : ان كاتبها جندي قديم شهد احتلال
الفرنسيين لموسكو واقامتهم بها ، فروى أمورآ شائقة • ثم ان مذكرات
شهود العيان ثمينة دائماً ، مهما تكن شخصية الكاتب • أليس كذلك ؟
- لو كنت في مكان رئيس التحرير ، لما نشرت هذا الكلام • أما
عن مذكرات العيان بوجه عام فان الناس أميل الى تصديق كاذب مشجع
لكنه مشوق مسلٍ منهم الى تصديق رجل له قيمته ومزاياه • انني أعرف
مذكرات عن عام ١٨١٢ هي ••• يا أمير ، لقد عزمت أمري واتخذت
قرارى : اننى مغادر هذا المنزل ، منزل السيد لبيديف •
قال الجنرال ذلك ، وألقى على الأمير نظرة مهينة •
فأبرى الأمير يقول على غيرى هدى وهو لا يعرف بماذا يجب :
- ان لك مسكنك في بافلوفسك عند •• عند ابنتك •

وتذكر في تلك اللحظة أن الجنرال انما جاء ليستشير في أمر
يتوقف عليه مصيره .

قال الجنرال :

— بل عند زوجتي ، أرى في بيتي وبيت ابنتي .

— معذرة : انني ...

— انني مغادر منزل ليديف يا عزيزي الأمير ، لأنني قطعت علاقتي
بهذا الرجل . قطعتها في مساء أمس ، أسفاً على أنني لم أفعل ذلك قبل
هذا الأوان . انني أطلب الاحترام يا أمير ، وأرجو في الاحترام حتى من
الأشخاص الذين أحب لهم قلبي ان صح التعبير . يا أمير ، انني كثيراً
ما أحب قلبي ، فأخذع في جميع الأحيان تقريباً . ان هذا الرجل لم يكن
جديراً بصداقتي .

فقال الأمير بتحفظ :

— انه يتصف بشيء من الفوضى فعلاً ، وان له كذلك بعض الخصال
التي ... ولكن له قلباً رقيقاً ، كما ان له فكراً مكرراً ، وهو خفيف الظل
أحياناً .

ان هذه التعابير المنتقاة المختارة التي استعمالها الأمير ، وتلك اللهجة
التي تدل منه على تقدير وتوقير ، قد أوحى غرور الجنرال ، رغم أن
ومضات من ريب ما تزال تلتصع في عينيه . ولكن نيرة الأمير كان فيها من
الانطلاق الطبيعي الواضح ما لم يبق معه مجال لشك .

قال الجنرال مستأنفاً كلامه :

— أما أن له مزاياء أيضاً ، فلقد كنت أول من اعترف بذلك حين
أوشكت أن أحب صداقتي لهذا الانسان . ذلك انني في غير حاجة لا الى
بيته ولا الى ضيافته ، لأن لي أسرتي أنا أيضاً . لست أحاول أن أبرئ

نفسى من عيوبى • أنا امرؤ مفرط لا يعرف الاعتدال • ولقد شربت معه خمرأ ، فإ ليتنى لم أرتكب ذلك الخطأ ! ولكن الحمرة لم تكن الشئ الوحيد الذى ربطتنى به وشدنى اليه (اغفر فحاجة اللثة عند اسنان مقروح القلب يا أمير !) • وانما أغرتنى به تلك المزايأ نفسها التى أشرت اليها • غير أن لكل شئ حداً ، حتى المزايأ • فحين تبلغ به المرأة حد الادعاء فجأة بأنه سنة ١٨١٢ ، أيام طفولته ، قد فقد ساقه اليسرى ودفنها فى مقبرة فاجانكوفو * بموسكو ، فان كلامه هذا يتجاوز الحدود ، ويدل على استهتار ، ويبرهن على وقاحة •

— لعل ذلك لم يكن منه الا مزاحاً أو حكاية يهدف منها الى
الاضحاك !

— أنا أفهم هذا • ان حكاية بريئة يخترعها صاحبها للاضحاك ، حتى ولو كانت فظة غليظة ، لا تجرح قلب الانسان • حتى لقد برى المرء أناساً يكذبون عن شعور بالصدقة ان صبح التميز ، وذلك ليسرؤوا محدثيهم • ولكن اذا اشتمل ذلك على قلة احترام ، واذا كان المقصود من قلة الاحترام هذه أن يقال لك بالتلميح ان صداقتك أصبحت ثقيلة على الصدر ، فليس يبقى لرجل نبيل فى مثل هذه الحالة الا أن يشبع بوجهه ، وأن يقطع جميع العلاقات ، وأن يرد الشخص الذى صدرت منه الاساءة المهينة الى مكانه وأن يقفه عند حدوده •

وكان الجنرال قد احمر وهو يتكلم • قال الأمير :

— ثم ان ليديف لا يمكن أن يكون قد وجد بموسكو سنة ١٨١٢ ، فهو أصغر سنأ من أن يكون ذلك صحيحاً • دعوى مضحكة !

— ذلك من جهة الأولى • ولكن هب أنه كان فى ذلك الزمان قد

ولد منذ مدة • فكيف يستطيع أن يزعم لك جهازاً أن جندياً فرنسياً من جنود المدفعية قد صوّب اليه مدفعه ، فقطع بقبلة إحدى ساقه ليتسلى بذلك ؛ فما كان منه إلا أن التفت ساقه المقطوعة فنقلها الى بيته ثم دفنها في مقبرة فاجانكوفو • وهو يقول فوق ذلك انه بنى لها ضريحاً كتب على أحد جانبيه ما يلي : « هنا ترقد ساق الموظف لبيديف » ، وكتب على الجانب الآخر : « استرح أيها الرقات الغالى الى أن يطلع الصباح المشرق الوضاء » ؛ ويقول أخيراً انه يُقيم قداساً على روح ساقه (وهذا وحده تجديف) ، ويسافر الى موسكو لهذه الغاية كل عام • وهو يدعو ، تأييداً لكلامه ودعمًا لدعواه ، أن أصحبه الى موسكو ليرى الضريح ، ويرى ، فى الكرملين ، ذلك المدفع الفرنسى نفسه الذى أخذ من العدو ، مؤكداً أنه المدفع الحادى عشر بعد اباب ، وأنه مدفع صغير من طراز عتيق •

قال الأمير وهو ينفجر ضاحكاً :

— وما يزال مع ذلك بساقين واضحتين • أؤكد لك أنها مزاحة بريئة ، فلا تنضب منها ...

— ولكن اسمح لى أن يكون لى أنا أيضاً رأى : فلأن يظهر أن له ساقين اثنتين فهذا لا يقطع بأن قصته لا يمكن أن تطابق الواقع • فهو يؤكد أن له ساقاً صناعية من عند تشرنوسفيتوف •

— صحيح : يظهر أن فى امكان المرء أن يرقص بساق من عند تشرنوسفيتوف •

— أعرف هذا ، لأن تشرنوسفيتوف حين اخترع ساقه الصناعية قد هرع يريئها على الفور • ولكن هذا الاختراع أحدث كثيراً من ذلك التاريخ ... ثم ان لبيديف يؤكد أن زوجته المرحومة لم تعرف

فى يوم من الأيام ، أثناء زواجها ، أن له ساقاً من خشب • وقد أوضحت
له جميع ما تشتمل عليه قصته هذه من وجوه الاستحالة والسخف •
فأجابنى بقوله : « اذا ادعيت أنك كنت وصيف نابوليون سنة ١٨١٢ ،
فاسمح لى أنا أيضاً بأن أكون قد دفنت ساقى فى مقبرة فاجانكوفو » •
قال الأمير وقد وقف متحيراً :

— كيف ؟ هل أنت ...

فظهر الاضطراب على الجنرال أيضاً ، لكنه سرعان ما سيطر على
نفسه ، ونظر الى الأمير بتعالٍ يخالطه شىء من سخر ، وقال له بصوت
قاطع :

— أكمل فكرتك يا أمير ، أكملها ، اننى متسامح • قل كى شىء :
انه ليدو لك أمراً مضحكاً أن ترى أمامك انساناً سقط الى هذا الحضيض
من النذل و ... المقم ، وأن تعلم أن هذا الانسان كان هو نفسه شاهد
أحداث كبرى • ألم يمد « هو » الى الوشاية بى والنعيمة علىّ لديك
حتى الآن ؟

— لا ، لم يقل لى ليديف شيئاً ، اذا كان ليديف هو من تقصد ...

— همّ • • كنت أظن غير هذا • والحق أن حديثنا قد بدأ بالكلام
على تلك ... المقالة الغربية التى ظهرت فى مجلة « الأرشيف » * • لقد
أشرت أنا الى بطلان تلك المقالة ، لأننى شهدت بنفسى الأحداث التى
نرويها • أرى أنك تبسم وتفرس فىّ يا أمير ، هه ؟

— لا ، أبداً ... اننى ...

تابع الجنرال حديثه بلهجة بطيئة جداً :

— اننى أبداً صغير السن ، ولكننى أكبر سناً مما أبداً • فى سنة

١٨١٢ كنت فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرى • أنا لا أعرف سنى على وجه الدقة • لقد صغروه فى سجل الخدمة ، وارتفعت أنا لنفسى ، عن ضعف منى ، أن أنقص منه سنوات •

— أؤكد لك يا جنرال أنتى لا أرى أية غرابة فى أن تكون قد وُجِدَ بموسكو سنة ١٨١٢ ، و ... طبعى أن تكون لك ذكريات تستطيع أن ترويها ... كسائر أولئك الذين وُجِدوا فى ذلك العهد • ان أحد الذين سجلوا ذكريات حياتهم قد افتتح كتابه بذكر أنه كان سنة ١٨١٢ طفلاً رضيعاً وأن الجنود الفرنسيين أطعموه خبزاً بموسكو •

قال الجنرال متنازلاً متسامحاً :

— هأت ذا ترى يا أمير أن قصتى ، وإن لم تكن استثناءً ، فهى تخرج عن نطاق المؤلف مع ذلك • انه يحدث كثيراً أن تبدو الحقيقة بعيدة عن الواقع صعبة التصديق • وصيف الامبراطور • ذلك يلوح غريباً كل الغرابة طبعاً • غير أن حادثاً خارقاً يقع لطف فى العاشرة من عمره ربما كان يفسره أنه إنما كان طفلاً • ما كان لهذا الحادث أن يقع لى فى الخامسة عشرة من عمرى ؛ وذلك لسبب بسيط هو أنتى فى الخامسة عشرة من عمرى ما كان لى أن أهرب من منزلنا الخشبى فى شارع « باسمانيا القديمة » ، يوم دخول نابوليون الى موسكو • ما كان أن أتمرد على سلطة أمى التى فاجأها دخول الفرنسيين فكانت ترتعد خوفاً • فلو كنت فى الخامسة عشرة من عمرى لشاركتها رعبها • أما فى العاشرة فقد كنت لا أخشى شيئاً ، فتسللت بين الجمهور حتى بلغت دوجات مدخل القصر ، لحظةً كان نابوليون ينزل عن حصانه •

قال الأمير يؤيد كلامه خجلاً :

— فعلاً ، لقد أصبت حين لاحظت أن سن العاشرة هى السن التى يكون فيها المرء أشد ما يكون جرأةً وتهوراً ...

وكان يمتدب الأمير أن يتصور أنه سيجمر وجهه • قال الجنرال :

— طبعاً • • • ولقد جرى كل شيء على نحو بسيط طبيعي لا يوجد مثله الا في الحياة الواقعية • فلو كتب هذه القصة روائي لخرجت من بين يديه ترهات باطلة وأموراً لا يصدق العقل أنها يمكن أن تطابق الواقع • هتف الأمير يقول :

— حقاً ! لقد خطفت هذه الفكرة انتباهي أنا أيضاً ، ومنذ مدة قصيرة • انتي أعرف قضية واقعية عن جريمة قتل كان الدافع ايها سرقة ساعة • وقد تحدثت الجرائد عن هذه الجريمة منذ وقعت • فلو أن روائياً تخيل هذه الجريمة ، لانبرى الناس الذين يعرفون حياة الشعب يصيحون قائلين مع النقاد : هذا لا يمكن أن يكون واقعاً • ولكنك حين تقرأ حكاية هذا الحادث في الجرائد تحس أنه واحد من تلك الحوادث التي تعلمت حقائق الحياة الروسية •

وختم الأمير كلامه قائلاً بحرارة وقد سرّ أنه لم يظهر عليه احمرار الوجه :

— انك قد أجدت ملاحظة هذه الظاهرة يا جنرال !

فهتف الجنرال يقول وقد سطعت عيناه سروراً :

— أليس كذلك ؟ هذا طفل ، هذا صبي لا يشعر بالحظر ، يتسلل خلال الجمهور ليرى بهاء الموكب وسناء البزات العسكرية وليرى الرجل العظيم الذي طالما سمع الناس يتحدثون عنه ؛ ذلك أن العالم كان قد أصبح منذ عدة سنين لا يتكلم الا عن نابوليون • لقد ملأ اسمه الدنيا وشغل الناس ، حتى ليمكنني أن أقول انتي وضعت اسمه مع حليب أمي • ويعمر نابوليون على بعد خطوتين مني ، فاذا ببصره يقع على نظرتي مصادفة • كنت اتردى ثياب طفل من أبناء النبلاء • كان أهلي يكسوتني بأجمل الملابس • وكنت

بين ذلك الحشد الكبير ، الشخص الوحيد الذى يرتدى ثياباً من هذا المستوى ، فتصور أنت نفسك ما عسى يكون أثر ذلك فى نفسه ...

— لا شك أن ذلك خطف بصره وبرهن له على أن الناس لم ينفذوا جميعاً ، حتى ان أفراداً من النبلاء قد لبثوا بموسكو مع أولادهم .

— تماماً ! كانت هذه هى فكرته : أن يجتذب اليه النبلاء ! فحين حدّق الى بنظرته التى تشبه نظرة النسر ، فلا بد أنه رأى جواباً يسطع فى عينيه . قال : « هذا صبي يقطر . من أبوك ؟ » (بالفرنسية) فأجبتته فوراً بصوت يكاد يخنقه الانفعال : « جنرال قضى فى ساحة الشرف ذائداً عن وطنه . » قال : « ابن نبيل ، نبيل وشجاع فوق ذلك ! أحب النبلاء ! هل تحبني يا صغير ؟ » (بالفرنسية) . كان السؤال سريعاً ، ولكن جوابي لم يكن أقل سرعة ، فانتى لم ألبث أن قلت له : « ان قلب الروسى يقدر أن يعرف الرجل العظيم ولو كان عدو وطنه ! » . الحق اننى لا أتذكر هل كان جوابي بهذه الكلمات حرفاً حرفاً ... لقد كنت طفلاً ... ولكن لا شك أن هذا كان هو المعنى الذى عبّرت عنه أقوالى .

« أخذ نابوليون . وفكّر لحظة » ثم قال لرجال حاشيته : « أحب كبرياء هذا الفتى ! ولكن اذا كان جميع تفكير جميع الروس هو هذا التفكير ، فان ... » ولم يكمل جملة ودخل القصر . وأسرعت اختلط بحاشيته وأركض وراه . فكان رجال الموكب يفسحون لى طريقاً منذ ذلك الوقت ، لأنهم أصبحوا يعدوننى أثيراً عنده ، محبباً الى قلبه . حدث هذا كله فى طرفة عين ... ولكننى أتذكر أن الامبراطور ، حين بلغ القاعة الأولى ، توقف فجأة أمام صورة الامبراطورة كاترين ، فتأملها ملياً شارد الذهن حالم الهية ، وهتف يقول أخيراً : « كانت امرأة عظيمة ! » . ثم مضى فى طريقه .

« ما انقضى يومان الا كان كل من فى القصر وفى الكرملن يعرفوننى .

وكانوا يلقبوننى « النيل الصغير » (بالفرنسية) • وكنت لا أرجع الى البيت الا لقتضاء الليل • وكاد أهلى أن يجنوا من ذلك • وغداة غد مات وصيف نابوليون ، البارون بازاتكور ، مرهقاً من المشاق التى عانها أثناء الحملة • فتذكرنى نابوليون ، فجاءوا يبحثون عنى ويأخذوننى دون أى شرح أو تفسير • ألبسنى بزة المتوفى الذى كان فتى فى الثانية عشرة من العمر ، وأدخلونى على الأمبراطور مرتدياً تلك البزة • فأومأ برأسه ، فأبلغونى عندئذ أتنى فزت يرضى الامبراطور عن تسميى وصيفاً لصاحب الجلالة • شعرت بسعادة ، لأننى كنت أحسن منذ زمن طويل بمطابقة قوية نحوه • • • ثم لا شك أنك تقدّر ما فى البزة اللامعة من قوة الاغراء لطفل • أصبحت أرتدى فراكاً أخضر قاتم الخضرة ، تزينه أزرار مذهبة ، مع ذبول ضيقة طويلة وأكمام ذات حواش حمراء ؛ وكانت تطريزات الذهب تغطى الحواف والأكمام واياقة ، وكانت الياقة عالية مستقيمة مفتوحة • أما السروال فملتصق بالجسم ، أبيض اللون ، مصنوع من جلد الشاموا ؛ وفوق السروال صديرة من حرير أبيض ؛ والجوربان من حرير أيضاً ، ولحذاءين عرى وأزرار • • • فإذا قم الامبراطور بنزهة على الحصان وكنت أنا فى حاشيته ، ألبست حذاءين لهما ساقان عاليتان على طريقة الفرسان • ورغم أن الحالة لم تكن حسنة ، ورغم أن كوارث ضخمة كانت متوقعة ، فقد كانت قواعد الآداب تراعى مراعاة صارمة فى حدود الامكان ، حتى لقد كانت الدقة فى مراعاتها على قدر قوة الاحساس بأن الكوارث قريبة •

تمتم الأمير يقول بلهجة تكاد تكون يائسة :

— نعم ، طبعاً • • • لا شك أن مذكراتك سيكون لها شأن •

أغلب الظن أن الجنرال كان يردد على مسامع الأمير ما قاله أمس لصاحبه ليبيديف • فلذلك كانت أقواله تسيل غزيرة • لكنه فى تلك

اللحظة التي على الأمير نظرة جديدة فيها ارتياح • ثم استأنف كلامه
يقول بمزيد من الكبرياء :

— مذكراتي ؟ تكلمني عن تموين مذكراتي ؟ ان هذا لم يغرنى
يا أمير ! أو قل ان شئت انها مدونة منذ الآن ، ولكنني أخفيها مقفلاً عليها
بالمفتاح • فلتنشر بعد أن يغطي التراب عيني • • • • • ولسوف ترجع عندئذ الى
عدة لغات حتمًا ، لا لقيمتها الأدبية طبعًا ، بل لحظورة الأحداث الضخمة
التي كنت شاهد عيان لها ، رغم أنني طفل • بل تستطيع أن تقول أكثر من
ذلك : ان صغر سني هو الذي أتاح لي أن أنفذ الى أخفى خفايا ما يجري
في غرفة « الرجل العظيم » ! كنت في الليل أسمع أنات ذلك « العملاق في
السماء » • لم يكن ثمة سبب يدعو الى اخفاء أناته ودموعه عن طفل ،
رغم أنني كنت قد أدركت أن سبب عذابه هو صمت الامبراطور الكسندر •
قال الأمير خجلاً :

— صحيح • لقد كتب اليه رسائل • • • • • ليعرض عليه الصلح •
— الواقع أننا لا نعرف ماذا تضمنت رسائله من عروض ، ولكنه كان
يكتب يكتب كل يوم ، في كل ساعة ، رسالة تلو رسالة ! كان مضطرباً
اضطراباً رهيباً • وكنا وحيدين في ذات ليلة من الليالي فأمرعت اليه
مخضلاً العينين بالدموع (آه • • • • • كم كنت أحبه !) وقلت له صارخاً :
« اطلب المغفرة من الامبراطور الكسندر ، اطلب عفو » • كان يجب
على طبعاً أن أقول : « اعقد صلحاً مع الامبراطور الكسندر » ، لكنني
طفل ، فكنت أعبر عن تفكيري كله بسداجة • أجايني وهو يذرع الفرقة
طولاً وعرضاً : « آه يا بني ! آه يا بني ! أنا مستعد لأن ألتئم قدمي
الامبراطور الكسندر ، (لكأنه نسي أنني لا أبلغ من العمر الا عشرة
أعوام ، حتى لقد كان يحد لذة في محادثتي) ولكنني في مقابل ذلك قد
نذرت كرهاً خالداً ومقتاً أبدياً للملك بروسيا وامبراطور النمسا ، و • • •

على كل حال ... أنت لا تفهم من أمور السياسة شيئاً ، لكأنه تذكر فجأة أنه يخاطب طفلاً ، فصمت ، ولكن عينيه ظلنا قمرسلان شرراً خلال مدة طويلة . فتصور الآن ، تصور أنني أدون هذه الوقائع كلها ، أنا الذى شهدت أضخم الأحداث ، وأنتى أشهرها : وتصور عندئذ انواع النقد وصنوف الفرور الأدبى ، وألوان الحسد ، وروح التحيز ، و ... آه ... لا ... لا ... أشكرك أجزل الشكر ! » .

أجاب الأمير بركة ولطف بعد لحظة تفكير :

... فيما يتعلق بروح التحيز ، فانك على حق تماماً ، وأنا أؤيد قولك كل التأكيد . من ذلك اننى قرأت فى الآونة الأخيرة كتاب شاراس * عن معركة واترلو . ان الكتاب جاد ولا ريب . والاختصاصيون يقطعون بأن كاتبه مطلع اطلاقاً واسعاً . ولكنك تلاحظ فى كل صفحة من صفحاته تلذذاً بخفض قيمة نابوليون . حتى لكأن المؤلف كان يمكن أن يسره أعظم السرور أن ينكر على نابوليون أى ظل لموهبة ، حتى فى المعارك الأخرى . فلا شك أن هذا التحيز لا يليق بكتاب جاد الى هذا الحد . هل كان وقتك كله مشغولاً بالعمل قرب ... الامبراطور ؟

طار الجنرال فرحاً . ان ملاحظة الأمير هذه قد بددت بما فيها من رصانة وبساطة آخر ما كان يساوره من شكوك .

... شاراس ! آه ... أنا أيضاً ، أثار استيائى ، حتى لقد كتبت اليه عندئذ ، ولكننى لا أتذكر الآن على وجه الدقة ... أتسألنى هل كان عملى يستغرق كل وقتى ؟ لا ، لا ! لقد سُميت وصيفاً للامبراطور ، لكننى منذ ذلك الحين لم آخذ الأمر مأخذ الجد ؛ ثم ان نابوليون لم يلبث أن فقد كل أمل فى تقارب بينه وبين الروس ؛ وكان لا بد له والحالة هذه من أن ينسائى ، لأنه لم يجتذبنى اليه فى الأصل الا لأغراض سياسية ، هذا اذا لم يكن قد تعلق بى تعلقاً عاطفياً شخصياً مع ذلك ... الآن أقول هذا

صراحة • أما أنا فإن القلب هو الذى كان يدفعنى اليه • ولم أكن أطالب بعمل • كل ما هنالك اتى كان على* أن أجيء الى القصر من حين الى حين • وأن أصحب الامبراطور فى نزحاته على الحصان • ذلك كل شيء • كنت أجد ركوب الخيل • وقد اعتاد أن يخرج الى النزهة قبل العشاء • وكانت حاشيته تتألف من دافو • والمملوك رستان • وأنا ••

أضاف الأمير على غير شعور منه تقريباً !

- وكونستان أيضاً •

فقال الجنرال :

- لا ، لم يكن كونستان من الحاشية • كان قد ذهب يحمل رسالة ••• الى الامبراطورة جوزيفين • فحلّ محله ضابطان من ضباط الحرس • وبضعة فرسان بولنديين • تلك كانت حاشيته كلها • بالإضافة - طبعاً - الى الجنرالات والمارشالات الذين كان نابوليون يصطحبهم للتراسلة الأرض وتوزيع الحيوش • ولاستشارتهم • واذا صدقت ذاكرتى الآن • فان دافو هو الذى يصحبه أكثر من أى شخص آخر : كان دافو ضخّم الجسم بديناً • وكان هادى • الطبع بارد الأعصاب • وكان يضع على عينيه نظارتين • وكانت له نظرة غريبة ••• فمع دافو انما كان الجنرال يحب أن يتشاور أكثر مما كان يحب أن يتشاور مع أى شخص آخر • كان يحترم آراءه • أذكر أنهما فى ظرف من الظروف ظلّا يبحثان معاً خلال عدة أيام متتالية • كان دافو يأتى صباحاً ومساءً • وكانت تعجى بينهما مناقشات كثيرة • وأخيراً بدا أن نابوليون أصبح على أهبة أن يسلم • كانا فى المكتب معاً • وكنت أنا ثالثهما • ولكنهما كانا لا ينتبهان الى ••• ووقع بصر نابوليون على مصادفة على حين فجأة • فانهكست فى عينيه فكرة غريبة • فقال يسألنى بفتة : • ما رأيك أيها الصبي ؟ أنذا اعتنقت الديانة الارثوذكسية وحررت أقنانكم • يتعنى الروس ؟ • فهتفت أقول له مستاءً : • لن يتبعوك فى يوم

من الأيام ! » • شدة نابوليون من جوابي • قال : « فى وميض الوطنيه
الذى التمع فى عينى هذا الصبى ، قرأت الآن رأى الشعب الروسى كله •
كفى يا دافو ! ما هذا كله الا خيال ! أرنى مشروعك الآخر ! » •
قال الأمير مهتماً اهتماماً قوياً :

— لكن ذلك المشروع الذى عدل عنه يشتمل على فكرة عظيمة • هل
تعتقد أن ذلك المشروع كان من صنع دافو ؟
— اتفقا عليه فى أقل تقدير • لا شك أن الفكرة جاءت من نابوليون •
انها فكرة نسر • ولكن المشروع الثانى كان يشتمل أيضاً على فكرة •••
انه مشروع « مجلس الأسد » * المشهور ، كما سسمى نابوليون ذلك
المشروع فيما بعد ؟ وهو أن يعتصم بالكرملن مع الجيش كله ، وأن يقيم
فيه أبنية من خشب ، ومتاريس قوية ، وأن يصف فيه سريّات مدفعية ،
وأن يذبح أكبر عدد من الخيول ليصنع من لحومها قديداً ، ثم أن يقتصب
من السكان جميع ما لديهم من غلال ليستطيع الصمود حتى الربيع • فإذا
طلع الربيع حاول أن يشق طريقاً بين الروس • ولقد فتن نابوليون بهذه
الخطّة • فكنا نقوم كل يوم بجولات على صهوات الخيل حول الكرملن ،
فيشير نابوليون الى الأماكن التى يجب فيها الهدم ، والى المواضع التى
ينبنى فيها البناء ، والى حيث يجب وضع نظارة ، أو الى حيث يجب تعزيز
تحصين أو الى حيث يجب اقامة أبراج • ما كان أسرع خاطره وأثبت
بصره وأحزم قراره ! وسوّى أخيراً كل شئ • وكان دافو يلح من أجل
أن يصدر اليه الأمر الحاسم النهائى • وعادا يجتمعان فى خلوة لا يشاركما
فيها ثالث غيرى • وعاد نابوليون يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، عاقداً ذراعيه
على صدره • فكنت لا أستطيع أن أحول عيني عن وجهه ، وكان قلبى
يخفق خفقاناً قوياً • قال دافو : « أنا ماض أباطر العمل » • فسأله
نابوليون : « الى أين ؟ » ، فأجاب دافو : « آمر بتسليح القديد » • فارتجف

تابوليون • كان المصير يتقرر • سألتني تابوليون فجأة : « ما رأيك في خطتنا يا فتى ؟ » • طبعي أنه وجهه الى هذا السؤال كما يمد عقل عظيم في آخر لحظة الى استعمال طريقة « البانصيب » • فبدلاً من أن أجيب تابوليون التفت نحو دافو وقلت له بما يشبه الوحي أو الالهام : « سافروا الى بلادكم بسرعة يا جنرال • تهدم المشروع • هزم دافو كفيه وخرج مدمماً : « أمر عجيب • أصبح يؤمن بالخرافات * » • وفي النداء صدر الأمر بالانسحاب •

قال الأمير بصوت خافت جداً :

— هذا كله شائق جداً ••• اذا كانت الأمور قد جرت هنا على هذا النحو •••

ثم أسرع يقول مصححاً بقوة :

— بل قل ••• أقصد •••

كان الجنرال قد بلغ من النشوة بالقصة التي رواها أنه أصبح لا يستطيع أن يحجم عن التورط في أى تهور • وها هو ذا يهتف قائلاً :

— آ ••• أمير ••• انك تقول : « اذا كانت الأمور قد جرت هنا على هذا النحو ••• » • ولكنني أقسم لك صادقاً لا خاتماً أن ما قصصته عليك هو أقل من الواقع ، أقل من الواقع ، أقل كثيراً من الواقع ! ان كل ما رويته لك لا يتصل الا بأمور سياسية يسيرة الشأن • غير أنني أكرر أنني قد نهدت الدموع بسكبها في الليل ذلك الرجل العظيم ، وسمعت الأنات تخرج من صدره في جوف الظلام • ما من أحد يستطيع أن يروى ما أروى وأن يصف ما أصف • صحيح أنه أصبح في نهاية الأمر لا يبكي ، فقد نضبت دموعه ، وأصبح لا يزيد على أن يشن من حين الى حين • وكان وجهه يزداد عبوساً وجهامه ، واكفهراراً وتقطياً • لكن الأبدية قد مدت

جناحها عليه منذ ذلك الحين • وكنا في بعض الأحيان نقضى في الليل ساعات بكاملها وحيدين صامتين ، بينما الملوك روستان يغط بالفرقة الجاورة في نوم عميق • ألا ما كان أعسق نوم ذلك الرجل ! وكان نابوليون يقول اذا تحدث عنه : « لكنه في مقابل ذلك مخلص لى وفى لمرشى ! » •

« وفى يوم من الأيام كنت مثقل القلب ، فرأى الامبراطور دموعاً فى عيني • فنظر الى بختان وقال متعجباً : « تشاركنى أخرانى ؟ لعلك الولد الوحيد الذى يشاطرنى ألى ، عدا ابنى ، ملك روما * • أما الآخرون فانهم جميعاً يكرهوننى • حتى اخوتى سيكونون أول من يخونوننى أمام أعدائى » • فأخذت أبكى ناشجاً وهرعت اليه ، فأصبح لا يستطيع كظم ما فى نفسه ، فتعانقنا وامتزجت دموعنا • قلت له باكية : « اكتب رسالة الى الامبراطورة جوزفين » • فارتشى نابوليون ، وفكر لحظة ، ثم قال يجيبنى : « لقد ذكررتى بالقلب الثالث الذى يجبنى • شكرآ يا صديقى ! » • وكتب على الفور رسالة الى جوزيفين حملها كوستان فى الغداة •

قال الأمير :

— أحسنت جداً • فانك ، فى وسط الأفكار السيئة التى كانت تغزوه وتحاصر نفسه قد أيقظت فى قلبه عاطفة جميلة نبيلة •

هتف الجنرال يقول متحمساً :

— تماماً ! ما أحسن تمييزك عن هذا وأنت تستسلم لاندفاعات قلبك !

والأمر الغريب أن دموعاً قد انبجست عندئذ من عينيه حقاً حينذاك • وقابع كلامه يقول :

— نعم يا أمير ، كانت لذلك المشهد عظمتة • هل تعلم أنتى أوشكت أن أصحبه الى باريس ؟ ولو فعلت ذلك لتبته حتماً الى « منفاه فى الجزيرة

المدارية * ، ، ولكن مصيرنا كانا مفترقين ، وا أسفاه ! فأنفصلنا ، فأما هو
فرحل الى تلك الجزيرة المدارية التي لعله تذكر فيها ، أثناء لحظة من
لحظات حزن قاس وألم ممض ، دموع ذلك الفتى المسكين الذى عانقه
وسامحه بعوسكو ؟ وأما أنا فأرسلت الى مدرسة الضباط الفتيان حيث لم
أجد الا نظاماً قاسياً ورفاقاً غلاظاً وا أسفاه ! وانهار كل شئ .
بعد ذلك

« لقد قال لى نابوليون فى يوم الانسحاب : « لا أريد أن انتزعك من
أماك لأصطحبك . لكننى أتمنى أن أفعل شيئاً لك وكان قد امتطى
صهوة جواده . فقلت له خجلان : « اكتب لى كلمة فى ألبوم أختى
للتذكرى » ؛ ذلك أنه كان مظلم الوجه شديد الاضطراب . فعاد أدراجه
وطلب منى قلماً ، وتناول الألبوم ، وقال يسألنى ممسكاً بالقلم : « كم عمر
اختك ؟ » فأجبته : « ثلاث سنين » فقال : « هى اذن بنت صغيرة * » .
وكتب على الألبوم :

اياك والكذب *

نابوليون ، صديقك المخلص *

أرأيت يا أمير ؟ نصيحة كهذه النصيحة ، فى لحظة كتلك اللحظة . .
ما رأيك ؟
قال الأمير :

— نعم . . . لهذا دلالة البليغة ! . . .

— وقد وضعنا تلك الورقة من الألبوم وراء زجاج فى اطار .
واحتفظت بها أختى طوال حياتها فى صالونها ، معلقة اياها فى أكرم مكان
من منزلها . وماتت أختى أثناء ولادة . . . ومنذ ذلك الحين لا أدرى ماذا
حل بتلك الورقة . . ولا أين صارت ! ياه ! . . . الساعة الآن هى
الثانية ! . . . لقد احتجزتك مدة طويلة يا أمير ! ذلك أمر لا يُغتفر .

تعمم الأمير يقول :

- بالعكس ... لقد أسرت لبي ... و ... وان لا رويته لقيمة كبيرة ، فأنا ممتن أشد الامتنان •

مرة أخرى شدّ الجنرال على يد الأمير شدّاً قوياً الى حد الايلام . وحدّق الىه بعينين ساطعتين ووجه انسان ثاب الى نفسه فجأة وومضت في رأسه فكرة مباغتة • قال :

- يا أمير ، انك تبلغ من طيبة القلب وبساطة العقل أنني أشفق عليك في بعض الأحيان • انني أتأملك بعاطفة وحنان • أسأل الله أن يباركك ! انني أتمنى لك أن تبدأ حياتك أخيراً وأن تزدهر • في الحب • أما حياتي أنا فقد انتهت ! آه ... مغفرة ! مغفرة !

وأسرع يخرج مخفياً وجهه في يديه •

لم يستطع الأمير أن يشك في صدق انفعال الجنرال • وقد أدرك أيضاً أن الشيخ انصرف متشياً بما حقق من نجاح • ولكنه كان يحس احساساً غامضاً بأنه ازاء واحد من أولئك المتشدين الذين يبلغون من تلذذهم بكذبهم أنهم ينسون أنفسهم ولكنهم يظلون مع ذلك في أشد حالات نشوتهم يشعرون شعوراً صميماً بأن الناس لا يصدقونهم ولا يمكن أن يصدقوهم • لقد كان الشيخ ، وهو في مثل تلك الحالة النفسية ، يمكن أن يعود الى نفسه وأن يتوب الى رشده بعد تلك النبوة من نوبات الكذب الذي لا حياء فيه ، فيشعر بأنه قد أهين اذا هو تصوّر أن الأمير أحس نحوه بشفقة شديدة • لذلك تساءل الأمير قلقاً : « ألم أرتكب خطأ حين تركت له أن يتحمس ذلك التحمس وأن يندفع ذلك الاندفاع ؟ » • وما هي الا لحظة حتى انطلق الأمير يضحك على حين فجأة ضحكاً استمر عشر دقائق • وأوشك بعد ذلك أن يلوم نفسه على ذلك المرح الشديد والضحك القوي ،

لكنه عدل عن رأيه وأدرك أنه ما ينبغي له أن يؤاخذ نفسه على شيء ،
ما دام يحمل للجنرال ذلك العطف كله وتلك الشفقة كلها .

وقد صدقت تنبؤاته . ففي ذلك المساء نفسه تلقى من الجنرال بطاقة
غريبة هي رسالة مقتضبة لكنها جازمة ، فيها يعلن له الجنرال أنه يقطع
صلته به الى الأبد ، فهو ما يزال يفسر له الاعتبار والشكر ، ولكنه
يرفض من جهته أن يقبل . تلك الشفقة التي تقتل كرامة انسان عانى حتى
الآن من صنوف الخطوب وأنواع المحن ما يكفيه .

حين علم الأمير أن الجنرال أصبح يعيش مكتفياً عند نينا ألكسندروفنا
زال قلقه عليه تقريباً . ولكن الجنرال ، كما أسلفنا ، مضى يفعل جرسه
عند اليزابت بروكوفيتا . اتنا لا نستطيع أن نروى هنا تفاصيل ما وقع .
وحسبنا أن تشير بكلمتين الى موضوع الحديث الذي جرى بينهما . ان
اليزابت بروكوفيتا ، بعد أن روتها ثمرات الجنرال التي تشبه أن تكون
هذياناً ، قد استبد بها استياء قوى حين سمعته يبدى آراء شديدة المראה
فى حق جانيا . فلم يكن منها الا أن أمرت باخراجه من البيت مطروداً
مجللاً بالعار . لذلك قضى الليل كله والصباح مهتاجاً اعينجاً بلغ من
الشدّة أنه فقد كل سيطرة على نفسه فاذا هو يندفع فى الشارع أخيراً
كانما اصابه جنون .

كان كولا لا يدرك ما يجرى الا بعض الادراك ، وكان لا يزال
يأمل أن يؤثر فى أبيه بالتخجل . قال له :

— هيه ! أين سنطوّف الآن ؟ ما رأيك يا جنرال ؟ ألا تريد أن
تذهب الى الأمير ؟ لقد حدث شقاق بينك وبين ليديف . وليس ملك مال .
وأنا لا يكون معي مال أبداً . وما نحن فى وسط الشارع نخبط خبط
عشواء !

قال الجنرال مدمماً :

- لأن يكون المرء مع نساء ، خير من أن يخطب هنا وهناك خبط عشواء . لقد كفلت لى هذه القافية * نجاحاً قوياً ... فى نادى الضباط سنة ٤٤ ... نعم سنة الف وثمانمائة .. وأربع وأربعين ! .. أصبحت لا أتذكر على وجه الدقة .. آه .. اننى لا أتذكر .. لا أتذكر ... لا تحدثنى فى هذا الأمر . « أين شبابى ؟ أين شبابى ؟ أين نضارتى ؟ ، كما كان يهتف ... من الذى كان يهتف بهذا يا كوليا ؟

- نعم ... هذه كلمات مستمدة من كتاب جوجول « النفوس الميتة »
يا أبتِ .

بهذا أجاب كوليا وهو يرمى أباه بنظرة سريعة قلقة .

قال الجنرال :

- النفوس الميتة ؟ آ ... نعم .. الميتة ! ... حين ستدفننى ، اكتب على قبرى : « هنا ترقد نفس ميتة ! » .
« العار يلاحقنى فى كل مكان »

- من قال هذا يا كوليا ؟

- لا أعرف يا أبتاه !

- يا روباجوف لم يوجد ! يا روشكا ياروباجوف ! ..

كذلك صاح يقول الجنرال بلهجة حائقة وهو يقف فى وسط الشارع . وتابع كلامه قائلاً :

- ان ابنى ، ابنى نفسه هو الذى يكذبنى هذا التكذيب . ياروباجوف الذى ظل لى أخاً حقاً خلال أحد عشر شهراً ، الذى من أجله خضت تلك المباراة ... لقد قال له رئيسنا الأمير فيجورسكى ،

ذات يوم ، بينما كنا نشرب : « اسمع أنت يا جريشا * ! وددت لو أعرف من أين حصلت على صليبك ، صليب القديسة آنا ؟ » فأجابه قائلاً : « من ساحات معارك وطني انما حصلت عليه ! » . وهتفت أنا أقول : « مرحى يا جريشا ! » . فكان ذلك سبب مبارزة . ثم تزوج . . . ماريا بتروفنا . . . سوتوجين ، وقتل بعد ذلك في ميدان القتال . . . لقد وثبت رصاصة عن الصليب الذي كنت أحمله على صدري ، وثبت الى جبينه فقتلته . وهتف قائلاً قبل أن يموت : « لن أنسى أبداً » ثم سقط ميتاً . اننى خدمت . . . خدمت وطني بشرف يا كوليا ، خدمت وطني بنبل واخلاص . . . ولكن « العار بطاردني في كل مكان ! » . ستأتين أنت وأملك الى قبري . . . « نينا المسكينة » ، كذلك كنت أسميها في الماضي يا كولي ، منذ زمن طويل ، في الآونة الأولى ، وكان ذلك يسرها . . . نينا ! نينا ! ماذا صنعت بحياتك ؟ كيف يمكنك أن تحييني ، أيتها النفس الصابرة المذعنة ؟ ان أملك لها نفس ملاك يا كوليا . هل تسمعن ؟ ان لها نفس ملاك !

— أعرف هذا يا بابا ! حبيبي بابا ! فلنعد الى البيت ، الى ماما ! لقد أرادت أن تركض وراءنا . لما تردد ؟ لكأنك لا تدرك . . . كفى يا بابا ! لماذا تبكي ؟

وكان كوليا نفسه يبكي ويلثم يدي أبيه .
قال له أبوه :

— أنلثم يدي أنا ؟

— نعم ، يدك أنت ، يدك أنت ! آفى هذا ما يدهش ؟ كفى ، كفى ! ما بالك تبكي في وسط الشارع ، أنت الجنرال ، أنت المقاتل ، أنت رجل الحرب ؟ تعال !

— بارك الله فيك يا بني الصغير ، لأنك ما تزال تحترم أباك الشيخ الساقط ، رغم العار ، رغم العار الذي يجلبه ! أسأل الله أن يجعل لك

ولدا مثلك ... « ملك روما » * ... اه ... « ألا فلتحل لعنة الله على
هذا المنزل ! » .

صاح كوليا مندفعاً يقول :

- ولكن ماذا جرى ؟ ماذا حدث ؟ لماذا أصبحت لا تريد ان تعود
الى البيت ؟ هل فقدت عقلك ؟
- سوف أشرح لك ، سوف أشرح لك ... سوف أقول لك كل
شيء . لا تصرخ ، والا سمعنا الناس ... « ملك روما » * .. أوام ! اننى
احس باشمزاز وحزن .

« اين قبرك يا من ارضعتنى ؟ »

من قائل هذا يا كوليا ؟

- لا أعرف من ذا الذى أمكن أن يقول هذا الكلام . فلنذهب فوراً
الى البيت ، فوراً ! لآظلمن جانباً ارباً ارباً اذا لزم الأمر ... ولكن
الى أين تمضى أيضاً ؟

كان الجنرال يجبره نحو درجات المدخل من منزل مجاور .

- الى أين تذهب ؟ ليس هذا البيت بيتنا !

كان الجنرال قد جلس على درجات المدخل جاذباً اليه كوليا من
يده ، ودمدم يقول له :

- امحن على ، امحن على ... سأقول لك كل شيء . .. سأشرح
لك عارى ... ميل على ... اصغ بسمك الى ... سأقول لك ذلك
فى أذنيك .

صاح كوليا يقو مرتاعاً ، ولكنه يصيح بسمعه مع ذلك :

- ماذا أصابك ؟ ما الذى حل بك ؟

قال الجنرال مدمماً وهو يرتجف ارتجافاً شديداً :

— « ملك روما » ...

— ما هذا الذى تقول ؟ ماذا دهلك حتى أخذت تحدث عن ملك روما
طول الوقت ؟ ... ما معنى هذا ؟

عاد الجنرال يتمتم قائلاً وهو يتشبث بكف « صغيره » مزيداً من
التشبث :

— آآآآ آآآآ آريد .. آريد أن أقول لك كل شيء .. ماريا
.. ماريا .. بتروقنا .. سو .. سو .. سو ..

تخلص كوليا من عناقه وأمسكه من كتفيه ونظر إليه مشدوها •
كان العجوز قد احمر وجهه احمراراً شديداً ، وازرقت شفاته وأخذت
تلم بوجهه تشنجات خفيفة • وتهاوى فجأة متهاكاً على ذراعى كوليا برفق •
فأعوك كوليا صارخاً فى اتجاه الشارع :

— سكته قلبية •

لقد أدرك الواقع أخيراً •

الفصل الخامس



أن باربارا آرداليونوفنا ، حين حدثت أخاها ،
قد بالفت بعض المبالغة في ادعاء الصحة والدقة
للمعلومات التي توافرت لديها عن خطبة الأمير
وآجلايا ايباتشينينا ، من الجائز أيضاً أن تكون
من شدة حسرتها على تبديد حلم مساورها (حلم لعلها لم تصدقه هي
نفسها في يوم من الأيام) لم تستطع أن تمنع نفسها عن التمتع بتلك اللذة
التي يستطيعها الطبع البشرى وهي لذة تضخيم الشقاء الذي ألمَّ والكارثة
التي نزلت ، وأن تسكب في قلب أخيها قطرة جديدة من مرارة .
ومهما يكن من أمر ، فإنها ما كانت لتستطيع أن تحصل من صديقاتها ،
الأمسات ايباتشينين ، على معلومات تبلغ ذلك المبلغ من الوضوح والدقة .
فإن الأمر قد اقتصر على اشارات ، وجمل ناقصة لم تكتمل ، ووقفات عن
الكلام وصمت ، وألغاز أسرار . من الجائز كذلك أن تكون أختا آجلايا
قد اندفعتا متعمدتين في البوح ببعض الأمور بقية أن تستدرجا باربارا
آرداليونوفنا الى الكلام وأن تستخرجا منها شيئاً ، وليس بالمستبعد على كل
حال أن تكونا قد انقادتا لتلك اللذة التي يستطيعها طبع النساء فاكدتا
صديقتيهما قليلاً رغم أنها من صديقات طفولتهما حقاً . فلا بد أنهما قد
أدركتا ، بعد كل ذلك الوقت ، الهدف الذي كانت تسعى اليه المرأة
الشابة ، أو بعض هذا الهدف على الأقل .

ومن جهة أخرى ، فلعل الأمير قد أخطأ هو نفسه ، ولو عن سلامة

نية ، حين زعم للبيديف أنه ليس ثمة ما ينقله اليه أو يبلغه اياه وأن حياته لم يطرأ عليها أى شئ خاص . الواقع أن كل واحد كان ازاء ظاهرة غريبة . لا شئ حدث فعلاً ، ولكن جميع الأمور تجرى كما لو كان قد حدث أمر هام جداً . ذلك ما حذرته ياربارا آرداليونوفنا بما تملك من غريزة المرأة وصدق حدسها الذى لا يخطئ .

من الصعب جداً مع ذلك أن نعرض عرضاً منطقياً كيف أدرك جميع أفراد أسرة ايباتشين ، فى وقت واحد ، أن حدثاً هاماً قد طرأ على حياة آجلايا وأنه سيقدر مصيرها . ولكنهم ، منذ أن قامت هذه الفكرة فى أذهانهم ، قد أحسوا جميعاً ، على الفور ، أنهم كانوا قد توقعوا هذا الأمر بل تنبأوا تنبؤاً واضحاً بهذا الاحتمال الذى أصبح جلياً منذ حادثة « الفارس الفقير » ، وربما قبل ذلك ؟ غير أنهم كانوا يرفضون فى ذلك الألوان أن يصدقوا سخافة كهذه السخافة .

ذلك ما كانت تؤكد أخنآ آجلايا . وطبعاً أن اليزابت بروكوفينا كانت قد تنبأت بكل شئ وفهمت كل شئ قبل غيرها ، « حتى أن قلبها شعر من ذلك بألم شديد » . ولكن سواء أكان ذلك الادراك النافذ قد ثأنى لها منذ مدة طويلة أم قصيرة ، فإن الأمير قد أصبح لا يوقف فى ذهنها الا فكرة منفردة غير محنية ، لأنها فكرة تحير عقلها . كان هناك سؤال يقتضى حلاً على الفور . ولكن المسكينة اليزابت بروكوفينا لم تكن عاجزة عن حل هذا السؤال حلاً حاسماً فحسب بل كانت عاجزة كذلك حتى عن طرحه على نفسها طرْحاً واضحاً . ان الأمر خرج دقيق : « هل الأمير زوج مناسب للفتاة أو لا ؟ هل المشروع حسن أم هو سئ ؟ واذا كان سيئاً (وذلك ما كان يبدو ثابتاً لا سبيل الى الشك فيه) فلماذا هو سئ ؟ واذا كان حسناً (وهذا يبدو ممكناً كذلك) فما هو الأساس الذى يمكن بناء هذا الحكم عليه ؟ » .

أما رب الأسرة ، ايفان فيدوروفتش ، فقد أظهر دهشته فى أول الأمر طبعاً ، ثم اعترف يقول انه « فى الحقيقة قد اشتبه هو أيضاً فى المسألة وانه كان يحس أن هناك شيئاً ما ، طوال تلك المدة ، ولو من حين الى حين أو فى القينة بعد القينة » ! واذ شعر بثقل نظرة قاسية كانت زوجته تلقىها عليه ، سكت عن الكلام ولم يزد شيئاً . ولكن ذلك لم يدم الا نهاراً ، ذلك أنه اذ خلا الى امرأته فى المساء ورأى نفسه مضطراً الى أن يتكلم ، عزم على أن يشرح ما بنفسه ، وتجراً فأبدى آراء لم تكن متوقعة . قال : « ما هو الأمر فى الواقع ؟ ... (برهة صمت) ... لا شك أن هذا كله عجيب غريب اذا صح : أنه صادق فعلاً ... (برهة صمت أخرى) ... ومن جهة ثانية ، اذا نظرنا الى الأمور نظرة سليمة وواجهناها مواجهة صحيحة ، رأينا أن الأمير فى طيب جداً ، والله ! ... ثم ... انه يحمل اسماً يتسمى الى أسرتنا . وذلك كله من شأنه ... أن يعلى مقام اسمنا فى المجتمع ... من وجهة نظر المجتمع طبعاً ... لأن ... على كل حال ... المجتمع هو المجتمع ! ... ثم ان الأمير ، مهما يكن من أمر ، يملك ثروة ، وان لم تكن ثروة طائلة ... انه ... و ... و ... هنا نضبت بلاغة ايفان فيدوروفتش ونفدت فصاحته ، فسكت عن الكلام .

ومارت نائرة اليزابت بروكوفيتسا وخرجت عن طورها اذ رأت زوجها ينظر الى الأمور هذه النظرة . كان رأيها أن كل ما جرى انما هو « حماقة لا يمكن اغتفارها ، بل حماقة مجرمة ، بل خيالات سخيفة دنيئة . » فمن جهة أولى يجب أن نتذكر أن هذا « الأمير الصغير رجل مريض ، رجل أبله . » ويجب أن نتذكر من جهة ثانية أنه انسان غيى لا يعرف المجتمع ولا يستطيع أن يكون له فيه مكان : لمن نقدته ؟ الى أين تدخله ؟ هذا شخص ديموقراطى غير لائق ، محروم من كل رتبة

طبيقة ... ثم ... ثم ... ما عسى تقول بيلوكونسكايا ؟ أهذا هو الزوج
الذى حلمنا به لابنتنا أجلايا ؟ »

وكانت هذه الحجة الأخيرة قاطعة دامغة بطبيعة الحال . لقد كان قلب
الأم ينزف ، ويرتعش حين تخطر ببالها هذه الفكرة التى تستهطل دموع
عينها ، رغم أن ذلك القلب نفسه ، كان يصعد منه ، فى اللحظة نفسها ،
صوت يسألها : « فى أى شئ لا يستحق الأمير أن يكون الصهر المنشود ؟ »
كانت اعتراضات ضميرها نفسه هى التى تبث فى اليزابت بروكوفينا أكبر
الهم وأشد القلق .

أما أختا أجلايا فكاتا لا تنظران الى زواج أجلايا بالأمير نظرة
سيئة ، حتى لقد كاتا لا تريان فيه أية غرابة . الخلاصة أنهما كان يمكن
أن تنحازا الى تأييد هذا الزواج انجيازاً مباغتاً لولا أنهما عاهدتا نفسيهما
على التزام الصمت . يجب أن نذكر أن المحيطين باليزابت بروكوفينا
كانوا قد لاحظوا منذ زمن طويل أنها على قدر اصرارها وعنادها وحماسها
فى محاربة مشروع من المشروعات العائلية التى يجرى حولها نقاش ،
يكون اقتناعها فى كثير من الأحيان بصواب هذا المشروع .

وكان لا يمكن اعفاء الكسندرا ايفانوفنا من أن تقول شيئاً . لقد
ألقت أمها منذ مدة طويلة أن تستشيرها وتستصحبها ، فها هى ذى ما تنفك
تستوضحها رأيها ، وتسألها عن ذكرياتها خاصة : « كيف جرت الأمور
حتى وصلت الى ما وصلت اليه ؟ لماذا لم يلاحظ أحد شيئاً من قبل ؟ كيف
لم يجر كلام حول هذا الموضوع ؟ ماذا كانت تعنى تلك المزاحة الدنيئة عن
« الفارس الفقير » ؟ لماذا قضى عليها ، هى اليزابت بروكوفينا ، أن تنفرد
بحمل الهم عن الجميع ، أن تلاحظ كل شئ ، وأن تدرك كل شئ . »
بينما لا يزيد الآخرون على أن ينظروا الى الأمور بغير اكتراث ؟ »
النخ النخ النخ ...

استمرت ألكسندرا ايفانوفنا على تحفظها في أول الأمر ، واكتفت بأن ذكرت أنها توافق أباهما على رأيه في أن زواج أمير من أسرة ميشكين وآمنة من آل ايباتشين أمر يمكن أن ينظر إليه المجتمع نظرة احترام كبير ؛ ثم تشبعت شيئاً فشيئاً وتجاوزت فأضافت الى ذلك أن الأمير ليس رجلاً « محدود العقل » ولا كان محدود العقل في يوم من الأيام ؛ أما عن وضعه الاجتماعي فلا أحد يستطيع الآن أن يعرف الأسس التي قد يبنى عليها المجتمع ، بعد بضع سنين ، رأيه في قيمة رجل من الرجال في روسيا ، لا ولا يستطيع أحد أن يعرف هل ستقاس قيمة الرجل في المستقبل بما يحققه من نجاح في وظيفة رسمية أم هي ستقاس بمقياس آخر . فسرعان ما أجابت الأم غاضبةً بأن ألكسندرا فتاة « تحرورية » وأن الذنب في ذلك كله إنما هو ذنب تلك القضية المشؤومة التي يسمونها قضية المرأة ، . وما انقضى نصف ساعة حتى مضت الزايت بروكوفينا الى المدينة ، ومنها ذهبت الى كامنى أوستروف * لترى بيلوكونسكايا التي كانت قد وصلت الى بطرسبرج منذ برهة وجيزة ولكنها لا تنوى أن تمكث فيها الا وقتاً قصيراً . لقد كانت الأميرة بيلوكونسكايا عرابة آجلايا .

أصفت « السيدة العجوز » الى جميع مسارات الزايت بروكوفينا ، المحموعة الياسة ، ولكنها بدلاً من أن تؤثر فيها تلك الدموع السخينة التي ذرفتها الأم الحزينة ، وتلك المخاوف الشديدة التي عبرت عنها الزائرة الياسة ، لم تزد على أن ألقت نظرة ساخرة مستهزئة . لقد كانت الأميرة بيلوكونسكايا تتصف باستبداد واضح وطفيان قوى . وكانت ترفض أن تساوى بينها وبين الأشخاص الذين تربطها بهم ولو صداقة قديمة . وكانت تعتمد أن تعامل الزايت بروكوفينا معاملتها لامرأة هي « حاميئها » * كما كانت تفعل ذلك قبل خمسة وثلاثين عاماً ، ولاستطيع أن تألف ما تبديه هذه من أوضاع فيها اندفاع واستقلال . وقد لاحظت ،

فيما لاحظت ، أن « هاته السيدات يضحخن الأمور دائماً ، فيجعلن من الذبابة فيلاً ويتصورن الحبة قبة » . ان ما سمعته الآن من الزبابت بروكوفينا لا يكفي لاقناعها بأن حادثاً هاماً خطير الشأن قد حدث فعلاً . أليس من الأفضل للمرء أن يصبر ويتنظر فيرى ما يحى به المستقبل ؟ وكان من رأيها أن الأمير « شاب لائق » ، وان يكن مريضاً وخيالياً وثافهاً الى أقصى حدود التفاهة ؛ وأنتكى ما فى الأمر أنه يسول خيلة » . ادركت الزبابت بروكوفينا حق الادراك أن الأميرة بيلوكونسكايا كانت مثالة من الاخفاق الذى منى به أوجين بافلوفتش رغم أنها زكته وأوصت به خيراً .

عادت الزبابت بروكوفينا الى بافلوفسك وهى أشد حقناً وأقوى احتياجاً منها حين تركتها ، وسرعان ما أظهرت ذلك لنويها حين قالت لهم « انهم قد فقدوا عقولهم » ، وان احداً لا يسير أموره بهذه الطريقة ، وان ما تراه لا وجود له الا فى بيتها . « لماذا هذا التعجل ! ماذا جرى ؟ اننى ، مهما أبحث ، لا أجد أى سبب يدعو الى أن نظن أن شيئاً قد وقع بالفعل ! فاصبروا وانتظروا فترروا الأحداث بالأعين ! ان أشياء كثيرة يمكن أن تخطر ببال ايغان فيدوروفتش ! هل يجب أن نجعل من الذبابة فيلاً وأن تصور الحبة قبة ؟ » ، الخ الخ الخ ...

وكانت النتيجة هى أن عليهم أن يسكنوا وأن يواجهوا الموقف بهدوء وأن يصبروا . ولكن الهدوء لم يدم عشر دقائق ، وا أسفاه ! فان قصة ما جرى فى الليلة البارحة ، بينما كانت الأم فى كامنى أوستروف ، سببت أول اخلال للقاعدة التى نصحت بها الأم وهى هدوء الأعصاب . (ان زيارة الزبابت بروكوفينا للأميرة بيلوكونسكايا قد تمت فى الصباح . وفى العشية اما كان الأمير قد جاء بعد نصف الليل ظاناً أن الساعة هى

العاشرة) • فحين ساءلت الأم بتيها محمومةً عن هذا الموضوع ذكرت لها أختا آجلايا تفاصيل كثيرة • لقد قالتا في أول الأمر • ما من شيء حدث البتة • ثم مضتا تسردان ما وقع • قالتا ان الأمير جاء • فجعلته آجلايا ينتظر نصف ساعة قبل أن تظهر له • ثم ما ان دخلت حتى اقترحت عليه أن يلعبا بالشطرنج • وكان الأمير لا يعرف هذه اللعبة فسرعان ما غلب • وفاضت نفس آجلايا فرحاً بهذا الانتصار • فعبرته بجهله • وبلغت من الضحك عليه أن منظره أصبح يثير الشفقة • ثم اقترحت عليه أن يلعبا بالورق لعبة « المهبول » ، غير أن ما حدث هذه المرة كان تقيض ما حدث قبل ذلك : فان الأمير كان يجيد هذه اللعبة كما يجيدها • • • استاذ ! كان فيها أستاذاً حقاً ! وقد لجأت آجلايا الى النش والاحتيال فكانت تبديل أوراقها خلسةً ، وكانت تسترق النظر الى أوراقه ، ورغم ذلك كله كانت تظل هي « المهبول » • • • وتكرر هذا خمس مرات أو ستاً • فغضبت آجلايا غضباً شديداً حتى فقدت كل سيطرة لها على نفسها ، وأخذت تصب على رأس الأمير ألغازاً تبلغ من الغلظة والنبو والوقاحة أنه كف عن الضحك ، بل اصفر وجهه اصفراداً شديداً حين سمعها تقول • انها لن تطلقاً قدماها هذه الفرقة ما كان هو فيها ، وان مجيئه اليهن ، في منتصف الليل ، كان وقاحةً منه بعد كل ما جرى * ، • وقد قالت آجلايا هذا الكلام ثم خرجت من الفرقة صافقةً وراءها الباب صفقاً أحدث فرقة شديدة • فانصرف الأمير بوجه كوجه الموتى صفرةً رغم كل ما بذلته الأختان من جهود للملاطفة ومواساة والتسرية عنه •

وبعد انصرافه برع ساعة عادت آجلايا تنزل من الطابق الأعلى الى الشرفة فجأةً ، وقد بلغت من السرعة والمججلة في نزولها أنها لم يتسع وقتها حتى لمسح عينيها اللتين يرى فيهما الناظر آثار دموع • وانما هرعت هابطةً هذا الهبوط السريع لأن كوليها قد جاء ومعه قنفذ • فألحقت البنات

جميعاً تنظر في الحيوان الصغير . وسأله عن القنفذ فقال انه ليس له بل لرفيقه بالمدرسة كوستيا ليديف ، وانهما قد اشترياه من فلاح صادفاه ، كما اشتريا من هذا الفلاح في الوقت نفسه فأساً . وقد بقي كوستيا في الشارع لأنه لم يجزؤ أن يدخل حاملاً فأسه . وكان الفلاح في أول الأمر لا يريد أن يبيع الا القنفذ ، وقد طلب خمسين كوبكاً ثمناً له ، ولكنهما أقنعا بأن يبيع أيضاً فأسه التي يمكن أن تنفعهما والتي كانت فأساً جيدة كل الجودة على كل حال .

أخذت آجلانيا تضرع الى كوليا أن يبيعهما القنفذ فوراً ، وبلغت من الحاحها أنها خاطبته بقولها : « عزيزى كوليا » ، وقد قاوم الفتى مدة طويلة ، لكنه لم يصد الى النهاية ، فنادى كوستيا ليديف ، فصعد هذا حاملاً فأسه بيده ، مرتبكاً أشد الارتباك . وعلم عندئذ على حين فجأة أن القنفذ ليس لهما ، وانما هو لرفيق ثالث من رفاق المدرسة اسمه بتروف عهد اليهما بمبلغ صغير من المال ليشتريا له به « تاريخ » شلوسر* الذى كان رفيق رابع يحاول أن يبيعه بثمن بخس لحاجته الى المال . فلما مضيا الى شراء الكتاب استسلما للغواية أثناء الطريق ، فاشتريا القنفذ ، فهما الآن يأتیان بتروف بالحيوان والفأس بدلاً من أن يأتياه بكتاب التاريخ الذى ألفه شلوسر . لكن آجلانيا بلغت من عنادها فى الاصرار على أخذ القنفذ أن الصبيين لم يسمحا الا ينصاعا لها فباعها القنفذ . فما ان امتلكنه حتى وضعتا بمساعدة كوليا فى سلة مضمورة وغطته بمنشفة وعهدت الى تلميذ المدرسة بأن يحمله الى الأمير على الفور راجيةً منه أن يقبله « هدية » تعبّر عن عميق تقديرها له . فقبل كوليا أن يقوم بهذه المهمة مسروراً ، ووعد بأن يتولى انفاذاها على أحسن وجه ، ولكنه أسرع يسأل آجلانيا عما تعنيه هذه الهدية ، والى أى شىء يرمز القنفذ ؟ فأجابته آجلانيا بأن هذا ليس من شأنه ، فردّ قائلاً ان هدية كهذه الهدية لا بد أن يكون لها دلالة

رمزية، ففضبت آجلایا وقالت له انه صبی شقی مفتر، لا أكر من ذلك .
فأجابها قائلاً : لولا أنه يحترم فيها المرأة ولولا أن مبادئه تصدده لأراها
فوراً كيف يستطيع أن يردّ اهانة كهذه الإهانة . ولكن ذلك لم يمنعه
أخيراً من أن يقوم بالمهمة متحمساً ، فعصى بحمل القنفذ الى الأمير ووراءه
كوسنيا ليديف . ولم تحقد عليه آجلایا . فحين رأته يهز السلة هزاً
قوياً صاحت تقول له : « أرجوك يا عزيزي كوليّا ، حذار أن تسقط السلة
من يدك ! » . وكذلك كان شأن كوليّا ، فانه هو أيضاً قد نسي انهما قد
تشاجرا منذ قليل ، وأسرع يقف ليحييها متحمساً بقوله : « لا ، لن أدع
للسلة أن تسقط من يدي يا آجلایا ايقاتوفنا . اطمئني بالأ ! » ثم استأنف
سيره بخطى واسعة . وانفجرت آجلایا تضحك ، وعادت تصعد الى غرفتها
مشرقة الوجه منبسطة الأسارير ، ولبت على هذه الحال من اثسراح
المزاج طوال النهار .

هزّت هذه الأنباء الزبابت بروكوفينا هزاً قوياً وبشت في نفسها
اضطراباً شديداً . ولم يكن ثمة داع الى ذلك فيما يبدو . ولكن حالتها
النفسية كانت لا تتيح لها أن ترى الأمور رؤية أخرى . لقد بلغ قلقها
ذروته . وكان القنفذ هو الذي يذكي هذا القلق خاصة . ما معنى ارسال
القنفذ الى الأمير ؟ أليس هذا اشارة متفقاً عليها ؟ أليس اصطلاحاً يضمّر
معنى خبيثاً ؟ فما هو معناه اذن ؟ هل هذا نوع من البرقية ؟ وقد حضر
المسكين ايفان فيدوروفتش مسألة بئيه ، فلمّا أدلى بدلوه محاولاً
الاجابة ، أخرج الزبابت بروكوفينا عن طورها أخيراً . قال ان ارسال
القنفذ لا يشتمل في رأيه على أية رسالة متفق عليها . والأبسط من هذا
ان نقول ان « القنفذ قنفذ لا أكثر » وقد برمز الى الصداقة ، أو الى تسيان
الاساءات ، أو الى المصالحة ، وليس ارساله ، على كل حال ، الا دعابة
بريئة ومزاحة طائفة .

يجب أن نذكر ، عابرين ، أن الجنرال كان على صواب . فان الأمير قد عاد الى بيته ، بعد أن أهانتة آجلايا وطردته ، مستسلماً لأعمق اليأس ، فلما رأى كوليا على حين فجأة بعد نصف ساعة من حزن شديد وكرب مظلم ، أضاعت السماء فوراً أمام عينيه ، فكانه بُعث الى الحياة بعثاً جديداً بعد موت . وأخذ يسائل كوليا متلقفاً كل كلمة تفرج عنها شفتا الصبي ، مكرراً السؤال الواحد عشر مرات ، ضاحكاً كطفل ، شاداً على يدي التلميذين في كل لحظة ، وكان الصبيان يضحكان هما أيضاً ، وينظران اليه فرحين كل الفرح . ان هناك أمراً أصبح ثابتاً محققاً لا مراء فيه : هو أن آجلايا قد صفحت عنه وغفرت له فأصبح في وسعه أن يعود اليها في هذا المساء نفسه . كان هذا هو الأمر الأساسي في نظره ، بل كان هذا أكثر من ذلك أيضاً ، كان هذا عنده كل شيء !

وصاح يقول أخيراً وهو في ذروة الفرح والنشوة :

— كم نحن أطفال حتى الآن يا كوليا !... و ... وما أحسن أن يكون المرء طفلاً !...

فأجابه كوليا بلهجة تعبّر عن السلطة والسطوة وخطورة الشأن :

— انها هائلة بحبك ... ذلك هو الأمر كله يا أمير !

فاحمر وجه الأمير ، لكنه لم يجب هذه المرة بكلمة واحدة . وأخذ كوليا يضحك صافقاً يديه احدهما بالأخرى . فما هي الا لحظة حتى شاركه الأمير مرحه ؛ وأخذ ، منذ ذلك الحين حتى المساء ، ينظر في ساعته كل خمس دقائق ليرى كم مضى من الزمن وكم من الوقت بقى عليه أن ينتظر .

ولتعد الى الزابت بروكوفينا . لقد تغلبت حالتها النفسية في تلك اللحظة على كل شيء . أصبحت لا تستطيع السيطرة على نفسها ، وأوشكت

أن تصيبها نوبة عصبية • وها هي ذى ، رغم اعتراضات زوجها وبتيها ، ترسل فى طلب آجلايا فوراً لتلقى عليها سؤالاً آخرى ولتحصل منها على جواب واضح قاطع شافى • « يجب أن تفرغ من هذه القضية مرة واحدة ، فلا تتكلم عنها بعد اليوم أبداً » • قالت ذلك ثم أضافت : « والا فلن أظل حية الى هذا المساء ! » وعندئذ انما أدرك الجميع مدى البلبله التى بلغت الأمور • وقد استحال انطاق آجلايا بكلمة واحدة ؛ فانها لم ترد على أن أظهرت دهشة عميقة ، فاستاء شديداً ، ثم انفجرت ضاحكة ، وتهكمت على الأمير ، واستهزأت بجميع الذين كانوا يسألونها . ومضت اليزابت بروكوفينا الى سريرها لتضطجع قليلاً ، ثم لم تمد الى الظهور الا ساعة الشاى ، فى اللحظة التى يفترض أن الأمير يصل فيها • فكانت ترتعش من شدة الانفعال بانتظار مجىء الأمير ، حتى اذا وصل أو شكت أن تصاب بنوبة عصبية •

اما الأمير فقد دخل خائفاً وجلالاً ، كمن يخطو متلمساً طريقه فى الظلام • وكان يتسهم ابتسامة غريبة وهو ينظر الى الحضور حتى لكأنه يسألهم لماذا لا يرى آجلايا فى الغرفة • لقد دهش أشد الدهشة حين لاحظ منذ وصوله أن الفتاة غائبة • وكان الجمع لا يضم الا أهل الدار فما من غريب بينهم • حتى الأمير • شتت • • • • • ، كانت قد احتجرتة فى بطر مسرج أمور تشأت عن وفاة عمّ أوجين بافلوفتش • وقد أسفت اليزابت بروكوفينا على غيابه • « لو كان هنا لوجد شيئاً يقوله حتماً ! » • وكانت هيئة ايفان فيدوروفتش تدل على هم عميق وغم شديد • وكانت أختا آجلايا رصيتين رزيتين تلزمان الصمت كأنهما تماهدتا على ذلك • لم تعرف اليزابت بروكوفينا من أى طرف تبدأ الحديث • وها هي ذى تفرغ غضبها فجأةً بمناسبة الكلام على السكك الحديدية ، وترشق الأمير بنظرة تحمل معنى التحدى •

واأسفاه ! ان آجلانيا لم تجيء بعد ، فما هو ذا الأمير يحس بأنه ضائع هالك ! كان يشمر بارتباك شديد وحيرة بالغة ، وحاول بتمتمة مضطربة أن يقول ان اصلاح شبكة السكك الحديدية يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة ، ولكن آديلايد أخذت تضحك على حين فجأة ، فاذا هو يرى نفسه أعزل مرة أخرى ، فقد انتزع منه هذا الضحك كل سلاح . وفي تلك اللحظة دخلت آجلانيا هادئة رصينة وقورة ، فردت على نحية الأمير رداً فيه أبهة واحتفال ، ومضت تجلس ببطء مهيب في أبرز مكان مرموق حول المائدة المستديرة . ثم ألقت على الأمير نظرة مستفهمة سائلة . فأدرك الجميع أن لحظة تهديد جميع أنواع سوء التفاهم قد حامت .

قالت آجلانيا تسأل الأمير بلهجة واثقة توشك أن تشتعل على قسوة :
- هل وصلك قنفذى ؟

فأجاب الأمير وقد احمر احمراراً شديداً وشعر بانتهيار :

- نعم .

- فحق لنا على الفور مانا ترى في هذا . ذلك أمر لا بد منه ولا غنى عنه حتى يهدأ بال أمى ، وحتى يهدأ بال أسرتنا كلها .

فهتف الجنرال فجأة يقول بقلق :

- آجلانيا ... ما هذا الكلام ؟

وأردفت الزابث بروكوفينا تقول مرتاعة :

- هذا يتجاوز كل حد من الحدود !

فردت الفتاة على كلام أمها تقول بشيء من الشدة :

- ليست المسألة مسألة حدود يا ماما . لقد بعثت اليوم الى الأمير

قنفذاً ، فأريد الآن أن أعرف ما الذى يراه هو فى هذا من رأى . اتنى مصفية اليك يا أمير .

قال الأمير يسألها :

- ماذا تقصدين بكلمة « الرأى » هنا يا آجلایا ایفانوفنا ؟

- أقصد رأيك فى أمر ارسال القنفذ اليك طبعاً !...

- بتعبير آخر ... أنا أقدر يا آجلایا ایفانوفنا ... أنك تريدین

أن تعرفى كيف استقبلت أنا فكرة ارسالك القنفذ الى ... أى كيف

ظهرت الى الأمر ... أعنى كيف فمعت مسألة إرسال قنفذ ... فإذا

صدق ظنى ، فأننى افترض ... باختصار ...

وانقطعت أنفاسه فصمت .

فاستأنفت آجلایا استجوابها قائلة له بعد خمس ثوان :

- هيه ... ما أراك قلت شيئاً ذا بال !... طيب .. أنا أوافق على

أن ندع أمر القنفذ جانباً . ولكن يسرنى ويريجنى أن أستطيع أخيراً أن

أضع حداً لجميع الالتباسات التى تجمعت حتى الآن وتراكم بعضها فوق

بعض . فاسمع لى أن أعرف من فمك أنت تنوى أن تخطبنى

للزواج أم لا ؟

صاحت الیزابت بروكوفينا تقول :

- آه ... رباه !...

وارتمش الأمير وقام بحركة تفهقر الى وراء . وتجمد ایفان

فيدوروفتش شدهماً . وقطبت الأختان حواجبهما .

- لا تكذب يا أمير . قل الحقيقة ! انهم بسبك يصدعوننى بأسئلة

غريبة . فهل لاستفساراتهم وتحقيقاتهم هذه من أساس تقوم عليه ؟ تكلم !

أجاب الأمير وهو يتحمس فجأة :

- أنا لم أطلبك للزواج يا آجلایا ایفانوفنا . ولكنك ... ترفین

بنفسك مدى حبى لك وفتى بك ... حتى فى هذه اللحظة ...

قالت آجلآيا :

- لقد طرحت عليك سؤالاً : أخطبني للزواج أم لا ؟

فأجاب الأمير بصوت منطفيء :

- بل أخطبك *

قال ايفان فيدوروفتش وقد انفعل انفعالاً قوياً :

- ما هكذا تُعالج هذه الأمور يا صديقي العزيز !... وأنت

يا جلاشاً * اذا كان ما تريد من الوصول اليه هو هذا ، فأمرك غريب

اذن !... معذرة يا أمير ، معذرة يا صديقي العزيز *

ثم أضاف ينادي زوجته مستجداً بها :

- اليزابت بروكوفينا ... ينبغي ... ينبغي أن نفهم ...

فصاحت اليزابت بروكوفينا تقول بحركة انكار :

- أنا أرفض ... أنا أرفض ...

- اسمحي لي يا ماما أن أقول كلمتي أنا أيضاً * أعتقد أن لي حقاً

في الادلاء بصوتي في موضوع من هذا النوع : هذه لحظة حاسمة في حياتي

(تلك هي الجملة التي قالتها آجلآيا بهذه الألفاظ نفسها) ، فأريد أن

أعرف أنا نفسي أين موقفي ، ويسرني عدا ذلك أن تكونوا كلكم شهوداً

على ... فاسمح لي أن أسألك اذن ، يا أمير ، ما هي الوسائل التي تنوي

أن تحقق لي بها سعادتي * ما دمت قد عقدت العزم على أن تخطبني ، ؟

قال الأمير :

- الحقيقة أنني لا أعرف بماذا أجيبك يا آجلآيا ايفانوفنا !... ماهو

الجواب الذي يمكن أن يُجاب به عن هذا السؤال ؟ ثم ... أهذا

ضروري حقاً ؟

- انك تبدو لى مضطرباً مختق الأنفاس ، فاسترح لحظة واسترد
قواك : اشرب كأساً من الماء • على أنك ستوتى بشئ من الشاى حالاً •
- أحبك يا آجلایا ایفانوفنا ، أحبك كثيراً ••• ولا أحب غيرك •
لا تمزحى ، أرجوك • أنا أحبك كثيراً •

- ولكن القضية قضية هامة • نحن لسنا أطفالاً ، ويجب أن ننظر
الى الأمر نظرة وضعية ••• عللاً تفضلت فذكرت لنا الآن مقدار الثروة
التي تملكها !

تمتم ایفان فيدوروفتش يقول مشدوهاً :
- كفى ! كفى يا آجلایا ! ماذا أصابك ؟ ما هكذا •• لا •• لا •••
حقاً ! •••

وهست الیزابت بروكوفينا تقول بصوت يمكن أن يُسمع :
- يا للعار !

وأضافت ألكسندرا تقول بتلك اللهجة نفسها :

- هى مجنونة •

ومألها الأمير مدهوشاً :

- ثروتى ؟ تقصدین المال الذى أملكه ؟

- نعم ، تماماً •

تمتم الأمير يقول وقد احمر وجهه :

- أملك •• أملك الآن مائة وخمسة وثلاثین ألف روبل •••

فقال آجلایا معبرة عن دهشتها بصراحة دون أن تحمر البتة :

- لا أكثر ؟ على كل حال ، ليس هذا بالأمر الهام كثيراً اذا عرف

المرء كيف يقصد فى نفقاته ••• هل تنوى الحصول على وظيفة ؟

- كنت أريد أن أقدم امتحاناً لأصبح معلم أطفال •
- فكرة عظيمة • هذه وسيلة مضمونة لزيادة مواردنا • هل يمكنك
أن تصبح من رجال البلاط ؟

- من رجال البلاط ؟ لم أفكر في هذا من قبل قط ، ولكن ...
نفدت قدرة الأختين في هذه المرة على كظم ما في نفسيهما فانفجرتا
تضحكان ضحكاً تحاولان خنقه • كانت ألكسندرا قد لاحظت منذ مدة ،
من بعض التقبضات العصية في وجه آجلايا ، علامات ضحك تحاول
آجلايا حبسه ولكنه لن يلبث أن ينطلق انطلاقاً لا سبيل إلى مخالفته •
وأرادت آجلايا أن تصطنع هيئة تهديد ازاء ضحك أختيها ولكنها لم تستطع
أن تتمالك نفسها ثانية واحدة فاستسلمت لنوبة ضحك مجنون يوشك أن
يكون هسترياً • ثم نهضت في النهاية بوثة واحدة ، وخرجت من الغرفة
راكضة •

هتفت آديلايد تقول :

- كنت أعلم حق العلم أن ذلك كله سينتهي بانفجارات ضحك •
لقد تنبأت بذلك منذ البداية ، منذ حكاية القنفذ •
فصاحت اليزابت بروكوفيتنا تقول وقد اعترتها نوبة غضب شديد :
- لا ، هذا لن أسمع به ، لن أسمع به •
واندفعت في اثر آجلايا •

وتبعتهما بتأها مسرعين • ولم يبق في الغرفة الا الأمير ورب الأسرة •
قال الجنرال بفتة ، ولكن دون أن يبدو عليه أنه يعرف هو نفسه
ماذا يريد أن يقول على وجه الدقة :

- اسمع يا ليون نيقولايفتش ، هل كان يمكنك تصور شيء كهذا ؟
لا ، حقاً لا ... هه ؟

أجاب الأمير حزيناً :

— أرى أن آجلايا ايفانوفنا قد سخرت منى وضحكت على •

— انتظر يا صديقى ، سأذهب الى هناك • ابقى انت هنا لأن ••
قل لى أنت على الأقل يا يون نيقولايفتش كيف وقع ذلك كله وما معنى
هذا الأمر فى جملته ان صح التعبير ؟ عليك أن تعرف يا صديقى اننى
أنا الأب • ومع ذلك ، رغم اننى الأب ، فاننى لا أفهم من الأمر شيئاً البتة !
فاشرح لى أنت على الأقل !

— اننى أحب آجلايا ايفانوفنا ؟ وهى تعرف ذلك تعرفه منذ
زمن طويل فيما أظن •

رفع الجنرال منكبيه • وقال :

— غريب غريب ! وهل تحبها كثيراً ؟

— أحبها كثيراً •

— غريب • هذا كله يبدو لى غريباً • أقصد مفاجأة كهذه
المفاجأة حب مبالغته كهذا الحب اسمع يا صديقى أنا ليست
الثروة هى التى تهمنى (رغم اننى كنت أقدر أن تكون ثروتك أكبر
كثيراً من المبلغ الذى ذكرت) ولكننى أفكر فى مستقبل ابنتى
الخلاصة •• هل أنت قادر ، ان صح التعبير ، على أن تحقق لها تلك ••
السعادة ؟ ثم ما هو الأمر ؟ أمراحة منها أم تصريح صادق ؟ عنك
أنت لا أتكلم • ولكن ماذا من جهتها ؟

فى تلك اللحظة سمع صوت ألكسندرا ايفانوفنا وراء الباب : كانت
الفتاة تنادى أباه •

— انتظرنى يا صديقى العزيز ، انتظرنى • انتظر وفكر ، سأرجع
حالاً •

وركض يلبي نداء ألكسندرا شبه مذعور •

فوجد هنالك امرأته وابنته تذرقان دموعاً غزيرة وقد ارتمت كل
منهما فى ذراعى الأخرى • كانت دموعهما دموع سعادة ، وحنان ،
ومصالحة • وكانت آجلايا تقبل يدى أمها وخديها وشفتيها • كانت
المرأتان تحضن كل منهما الأخرى بحرارة •

قالت اليزابت بروكوفينا مخاطبة زوجها :

— هى ذى يا ايفان فيدوروفتش ، انظر اليها الآن ، انها هى ، انها
هى بكاملها !

حوّلت آجلايا وجهها عن صدر أمها • انه مبلل بالدموع ولكنه
مشرق بالسعادة • نظرت الى أبيها ، وانطلقت تضحك ضحكة رنانة ، ثم
اندفعت نحوه فاحتضنته بذراعيها احتضاناً شديداً وقبلته عدة مرات • ثم
ارتمت على أمها من جديد ، فدفنت وجهها فى صدرها حتى لا يراه أحد ،
وعادت تبكى • فغطتها أمها بطرف شالها •

— هيه ! ماذا ؟ انك لتذيقنا الواناً من العذاب ايها البنت الصغيرة
القاسية !

كذلك قالت الأم لابنتها ، ولكنها قالت هذا الكلام فى هذه المرة مع
تعبير عن الفرح ، حتى لكانها تتنفس بحرية أكبر •
فصاحت آجلايا تقول فجأة :

— قاسية ! نعم ، قاسية ! أنا فتاة شريرة ، طفلة أفسدها الدلال !
قولى هذا الكلام لأبى ! • • • هو ذا هنا • أأنت هنا يا بابا ؟ هل
سمعت ؟

بهذا خاطبت أباها ضاحكة من خلال الدموع •
فقال الجنرال وقد أسكرته النشوة وراح يلثم يد ابنته :

— عزيزتى ... مبهودتى ! أأنت تحيين اذن هذا ... الفتى ؟

فصرخت آجلانيا تقول فجأة وهى تنصب رأسها :

— كلا ثم كلا ثم كلا ! ... أنا لا أطيقه .. فتاك هذا ! لا أطيقه !
واذا تجرأت أن تقول لى مرة أخرى يا بابا ... اعرف أنتى أكلمك
جادة لا هازلة . هل سمعت ؟ انتى أكلمك جادة !

وكانت آجلانيا تتكلم جادةً بالفعل ، حتى لقد كانت محمرة أشد
الاحمرار وكانت عيناها تقطعان شرراً .

صمت الأب مرتاعاً ، ولكن اليزابت بروكوفينا أومأت له من وراء
آجلانيا ، فأدرك أن تلك الایماة تعنى « أن عليه أن لا يسألها عن شيء » .
قال :

— إذا كان الأمر كذلك يا ملاكى فليكن ما تشائين . افعلى ما يحلو
لك . ولكنه ينتظر هناك وحيداً . أفلا يجب افهامه بالحسنى واللفظ أنه
لم يبق له إلا أن ينصرف ؟

وأوما الجنرال لامرأته ، هو أيضاً ، بغمرة من عينيه .

قالت الفتاة :

— لا ، لا ، لا داعى الى هذا . لا لزوم لاصطناع « اللطف » .
امضى اليه انت . وسأجىء بعدك فوراً ، سوف أستعفر هذا ... الشاب ،
لأننى أسأت اليه .

قال ايوان فيدوروفتش مزايدهاً بهيئة جادة رصينة :

— بل أسأت اليه إساءةً بالغة +

— اذن ... فابقوا جميعاً هنا + أذهب اليه أنا أولاً ، ثم تلحقون
بى فوراً . هذا أفضل +

فما ان وصلت الى الباب حتى استدارت فجأة وقالت لهم بلهجة حزينة :

- أحس أنتى سوف أضحك • أحس أنتى سوف احترق شوقاً الى الضحك ورغبةً فيه !

ولكنها لم تلبث أن عادت تسعى الى الأمير راكضة •
سأل ايفان فيدوروفتش امرأته متعجباً :

- هيه ؟ على أى شىء يدل هذا ؟ ما رأيك ؟

فأجابته اليزابت بروكوفيتنا بتلك اللهجة المتحجلة نفسها :

- أخاف أن أقول رأى • الأمر فى نظرى واضح •

- وهو واضح فى نظرى أنا أيضاً • واضح كالنهار • انها تحب •

- بل قولاً انها مولّهة حباً ! ولكن ألم يكن فى وسعها أن تجد خيراً منه زوجاً ؟

كذلك قالت الكسندرا ايفانوفنا •

قالت اليزابت بروكوفيتنا :

- اذا كان هذا هو قدرها فليباركها الله !

قال الجنرال مؤيداً :

- نعم ، هذه هى الكلمة : انه قدرها • ولا مفرّ للانسان من قدره !

وعاد الجميع الى الصالون حيث كانت تنتظرهم مفاجأة جديدة •

ان أجلايا ، حين لقيت الأمير ، لم تضحك كما كانت تخشى ذلك ؟

حتى انها خاطبته بلهجة تكاد تكون بخجل • قالت له :

- اغفر لفتاة حمقاء طائشة ، لطفلة أفسدها الدلال (قالت له ذلك

وتناولت يده) ، وثق ثقة تامة بأننا جميعاً نحمل لك احتراماً كبيراً • فإذا

كنتُ قد سمحت لنفسى بأن أجعل براءتك الطيبة ومذاجتك الكريمة
محلَّ استهزاء وتهكم ، فاصفح عني ولا تعدد ذلك منى الاعداء من عبث
الأطفال . اغفر لى اننى ألححت على أمر سخيف لا يمكن تحقيقه طبعاً ..
قالت آجلايا هذه الكلمات الأخيرة بشيرة خاصة .

وقد دخل الأب والأم والأختان الى الصالون فى اللحظة المناسبة
تماماً ، فسمعوا تلك الجملة التى أذهلتهم : « أمر سخيف لا يمكن أن
يتحقق طبعاً » وقد ذهّلوا خاصة من اللهجة الجادة التى قالت
آجلايا بها تلك الجملة . فنظرت الأعين الى الأعين يسأل بعضها بعضاً .
ولكن الأمير لم يكن يبدو عليه أنه فهم ، وكان مشرق الوجه متهملاً
الأسارير .

ودمدم يقول :

— لماذا تتكلمين هكذا ؟ لماذا ... أنت ... تستغفريننى ؟

حتى لقد أراد أن يضيف أنه ليس جديراً بأن يُستغفر . من
يدرى ؟ لعله كان قد أدرك معنى تلك الجملة : « أمر سخيف لا يمكن أن
يتحقق طبعاً » . ولكن طبيعة فكره كانت خاصة جداً بحيث أن تلك
الكلمات نفسها لعلها غمرتة فرحاً . وما من شك فى أنه قد بلغ ذروة
السعادة منذ قدّر أنه سيكون فى وسعه أن يعود فيرى آجلايا ، وأنه
سيُسمح له بأن يكلمها ، وأن يبقى الى جانبها ، وأن يتنزه فى صحبتها .
لعل هذا الأمل وحده كان يكفيه لحياته كلها ! (ولقد كان يبدو على
اليزابت بروكوفينا أنها تخشى بغريزتها ذلك الطبع المسير الذى أدركته
فيه ، فكانت تشعر بمخاوف صميّة ما كان لها أن تستطيع الإفصاح عنها) .
يصعب على المرء أن يصف ما أظهره الأمير فى ذلك المساء من
حرارة وحماسة وتآلق وسلطوع . لقد بلغ من المرح أن مرّحه انتقل الى

أولئك الذين كانوا يرونه • هذا ما قالته أختا آجلایا فيما بعد • لقد كان متدفقاً فى الكلام ، وذلك أمر لم يحدث له منذ ستة أشهر ، أى منذ ذلك الصباح الذى تعرف فيه الى آل ايباتشين • ولقد كان واضحاً أنه منذ عودته الى بطرسبرج قد قرر عامداً أن ينطوى على نفسه وأن يلتزم الصمت • حتى انه قبل ذلك المساء بزم من قصير قد قال للأمير « شئت • • • » على مرأى ومسمع من الجميع انه يعتقد أن عليه أن يلتزم الصمت ، لأنه لا يحق له افساد الفكر والخط من قدره بسوء أسلوبه فى التعبير • أما فى ذلك المساء فانه كاد يكون الشخص الوحيد الذى تكلم • كان حاضر البديهة طلق اللسان يجيب عن جميع الأسئلة بوضوح كامل وانشراح تام وافاضة مسبهة • ومن جهة أخرى ، لم يشتمل حديثه على أى شيء يشف عن عواطف حبه • انه فى البداية لم يعبر الا عن أفكار جديدة وآراء رصينة كانت فى بعض الأحيان عويصة • وأبدى كذلك ملاحظات شخصية ونظرات خاصة • ولقد كان يمكن أن يكون هذا كله محل هزء وتهكم لولا أن الأمير كان يتكلم « بلغة منتقاة » ويعبر عن فكره بالفاظ مختارة ، كما شهد له الحضور بذلك فيما بعد •

ولئن كان الجنرال يحب حديث المواضيع الجديدة ، فقد وجد هو واليزابت بروكوفيتسا أن أحاديث الأمير مسرفة فى الجدة ، حتى أن وجهيهما قد تجهما قیل نهاية السهرة •

ولكن الأمير بلغ من الاتعاش والحمية أنه أخذ يروى فى النهاية حكايات فكهة ونوادر مضحكة كان هو أول من يضحك لها ، فبأخذ الآخرون يضحكون الا لأن الحكايات والنوادر مضحكة فعسب ، بل كذلك لان عدوى المرح كانت تسرى اليهم منه قوة لا تقالب •

أما آجلایا فانها لم يكذب يفتري ثمرها عن ابتسامه طوال السهرة •

ولكنها فى مقابل ذلك لم تنقطع عن الاصغاء الى الأمير لحظة واحدة وكانت تتأملهم بنهم ما ينفك يشتد ويقوى .

قالت اليزابت بروكوفينا لزوجها :

— انظر كيف تتأملهم ! انها لا تحول بصرها عنه لحظة . انها تشرب كل كلمة من كلماته . انها كالفتونة أو كالسحورة . فاذا قال لها أحد انها تحبه قلبت الدنيا رأساً على عقب ، وجعلت كل شيء غاليه سافله .
أجاب الجنرال قائلاً وهو يرفع منكبيه :

— ما العمل ؟ هذا هو القدر !

وظل الجنرال مدة طويلة يكرر هذا الجملة التى كان يحب أن يردددها .

يجب أن تضيف الى هذا أن الجنرال ، من حيث هو رجل أعمال ، كان ينتظر نظرة عدم الارتياح الى كثير من جوانب الموقف الراهن ، ولا سيما خلوه من الموضوع . ولكنه كان قد قرر أن يصمت ، وأن يفكر فى الأمور على نحو ما تفكر ... اليزابت بروكوفينا .

لم تدم نشوة الأسرة الامدة قصيرة ، ففى الغداة وقعت بين آجلايا وبين الأمير مشاجرة جديدة ، وتكرر ذلك فى كل يوم من الأيام التى تلتها . فكانت آجلايا تظل تستهزئ بالأمير وتسخر منه حتى لتكاد تعامله كما يعامل مهرج .

صحيح أنهما كانا فى بعض الأحيان يتترهان فى الحديقة تحت العريشة . ولكن لوحظ أن الأمير كان فى مثل هذه الأحوال يقرأ لها جريدة أو كتاباً طول الوقت تقريباً .

وبينما كان يقرأ لها الجريدة ذات يوم ، قاطعتة قائلة :

— غريب ! لقد لاحظت منذ مدة طويلة أن ثقافتك ناقصة نقصاً يدعو

الى الأسف الشديد حقاً ؟ فإذا سئلت عن أمر من الأمور عجزت عن أن تقول ماذا فعلت الشخصية الفلانية ، ومتى وقع الحادث الفلاني ، وما هو موضوع الكتاب الفلاني . ذلك أمر يدعو الى الشفقة عليك والرتناء لك فضلاً .

فأجابها الأمير :

ـ قلت لك ان حظى من التعليم ضئيل .

ـ فماذا بقى لك اذن ؟ اى اعتبار يمكن أن أحمله لك بعد هذا ؟

هياً واصل القراءة ، بل كفى الآن ، اكفف عن القراءة .

وفى ذلك المساء نفسه أثارت أزمة جديدة سريعة بدت للجميع لغزاً لا يفهم . فحين عاد الأمير « شتت » ، ، أظهرت له كثيراً من المودة واللطف ، وسأله طويلاً عن أوجين بافلوفتش (لم يكن الأمير ليون نيقولايفتش قد وصل بعد) . وفجأة أباح الأمير « شتت » ، لنفسه أن يلمح الى « تغير جديد قريب سيحدث فى الأسرة » ، وذكر فكرة كانت قد أفلتت من اليزابت بروكوفينا هى أنه ربما كان من الأفضل ارجاء زواج آديلايد قليلاً لىتم الاحتفال بالزفافين فى آن واحد معاً . فلما سمعت آجلانيا هذه الكلمات غضبت غضباً شديداً فظليماً لا يتصوره الخيال ، ووصفت هذا كله بأنه « افتراضات سخيفة » ، بل مضت الى أبعد من ذلك فقالت فيما قالت : « انها لا تتوى أن تحل محل خليلات أى انسان » .

فوجىء الجميع بهذه الكلمات ، وفوجئ بها الأبوان خاصة . وألحت اليزابت بروكوفينا ، أثناء اجتماع سرى مع زوجها ، على ضرورة أن يسأل الأمير ايضاحاً حاسماً فى أمر ناستاسيا فيليوفا .

فحلف ايفان فيدوروفتش على أن ما قالته آجلانيا لم يكن الا « اندفاع » ، أثارها فيها شعور بالحياء و « الحقر » ، وأن هذه الاندفاع

ما كان لها أن تحدث لولا أن الأمير « شتش » ، تكلم عن الزواج ، لأن آجلایا تعرف هي نفسها حق المعرفة أن الكلام عن علاقة بين الأمير وناستاسيا فيليوفنا ليس إلا نصيحة كاذبة ، وأن ناستاسيا فيليوفنا ستزوج روجوين . وأضاف الجنرال الى ذلك أن الأمير لا شأن له في هذا الموضوع كله ، وأن الصلة التي زعم بعضهم أنها قامت بينه وبين ناستاسيا لا وجود لها الآن ، بل ولم يكن لها وجود في يوم من الأيام اذا أردنا أن نقول الحقيقة كلها .

أما الأمير فإنه لم يفقد شيئاً من صفاء مزاجه وبهجة نفسه وظل يتمتع بهنائه وسعادته . صحيح أنه كان يلاحظ في بعض الأحيان تصيراً عن الحزن وعن نفاد الصبر في عيني آجلایا ، ولكنه كان يزيرو هذا التعبير الى بواعث أخرى ، فكانت هذه السحابة تضيّب عن بصره من تلقاء نفسها . كان قد اقتنع فلا يمكن أن يززعزع اقتناعه شيء . ولعله قد غلا في هدوء البال وطمأنينة النفس ؟ وهذا على الأقل ما شعر به هيوليت الذي لقيه ذات يوم في الحديقة العامة .

لقد استوقف هيوليت ' الأمير ' يومئذ وبدأ كلامه بأن قال له :

— هيه ! ألم أكن على حق يومَ قلت لك انك مولّه حياً ؟

فمدّ الأمير اليه يده وهنأه على أن وجهه يدل على تحصن صحته . وكان يبدو على المريض نفسه أنه استرد بعض أمله وشجاعته ، وذلك ما يحدث للمصدورين في كثير من الأحيان .

ولقد كان هيوليت يتوى خاصة ، حين اقترّب من الأمير ، أن يقول له كلاماً جارحاً عن هيئة السعادة التي تبدو عليه . ولكنه سرعان ما زایلته هذه الفكرة وأخذ يتكلم عن نفسه ، فأنافض في ارسال الشكايات تلو الشكايات متكررة لا نهاية لها ولا انساق بينها . وختم كلامه قائلاً :

- لا تستطيع أن تتصور مدى ما يتصفون به هناك من شدة الترقق والصغار وسرعة الاحتياج وقوة الأثرة وحب الظهور وتفاحة النفوس . هل تصدق أنهم قبلوا ايوائى على شرط صريح هو أن أموت بأقصى سرعة ممكنة . لذلك تراهم الآن غاضبين غضباً شديداً لأننى لم ألفظ آخر أنفاسى بل تحسنت صحتى . يا للمهزلة ! أراهن على أنك لا تصدق كلامى !

امتنع الأمير عن الاجابة .

وأضاف هيبوليت يقول باهمال :

- حتى ليخطر ببالي أحياناً أن أعود أسكن عندك ! أنت لا تصدق اذن أنهم لا يتورعون عن ايواء انسان بشرط أن لا يتأخر موته ، هه ؟ قال الأمير :

- كنت أتصور أنهم حين دعوك اليهم كانوا يسعون الى هدف آخر وينفذون خطة أخرى .

- هه هه ! ما أنت بالبسيط الى الحد الذى يحلو للناس أن يزعموه ! لم يحن الحين بعد ، والا لكشفت لك بعض الأمور عن جانبها الصغير هذا وعن الآمال التى تملأ رأسه . انهم يحاولون نسفك يا أمير . وهم يبذلون فى سبيل ذلك جهوداً كبيرة لذلك يشفق عليك المرء ويرئى لحالك حين يراك تمام نوماً هادئاً هذا الهدوء . ولكن من المؤسف أنك لا تستطيع أن تكون غير هذا ! سأله الأمير ضاحكاً :

- أهذا ما يجعلك ترئى لحالى ! هل ترى اذن اننى أكون أسعد حالاً اذا كنت أكثر قلقاً ؟

- خير للانسان أن يكون تيساً و « عارقاً » من أن يكون سعيداً و « مخدوعاً » . يبدو أنك لا تفضى منافسة من تلك الجهة ، هه ؟

— ان تلميحاتك الى المنافسة فيها شيء من الاستهتار يا هيوليت •
يوسفنى أنتى لا يحق لى أن أجيبك • أما جبريل أرداليونوفتش ، فلا بد
أن تسلّم لى بأنه يصعب عليه أن يحافظ على الهدوء بعد كل ما فقد ، هذا
اذا كنت تعرف شئونه ولو بعض المعرفة • يخيّل الى أن من الأفضل أن
يشنّظر الى الأمور من هذه الزاوية • ما يزال فى وسعه أن يصلح نفسه •
ان أمامه سنين طويلة ، وان الحياة غنية بالدروس غنى لا حدود له •••
على أن ••• على أن •••

هنا أخذ الأمير يتمتم متلعثماً وقد فقد تسلسل أفكاره فجأة ، فقال :
— ••• أما مسألة نفسى ••• فأننى لا أفهم حتى ماذا تقصد •
الأفضل ترك هذا الحديث يا هيوليت •

— لتتركه الآن • لا سيما وأنك لا تستطيع أن تستغنى عن اظهار
كرمك والتدليل على سماحتك • نعم يا أمير ، أنت لا بد لك من أن تلمس
بيدك • وهبك لمست بيدك فانك لن تصدق • ها ها ••• ولكن قل لى :
ألا تحقرنى الآن احتقاراً عميقاً ؟

— لماذا ؟ ألائك تألمت وتألّم أكثر منا جميعاً ؟

— لا ، بل لأننى غير جدير بالامى •

— ان من أمكنه أن يتألّم أكثر من الآخرين هو بهذا نفسه جدير
بتلك الزيادة من المحن • حين قرأت آجلايا ايفانوفنا اعترافك ، تمنيت أن
تراك ، ولكن •••

قاطعه هيوليت ، كأنما ليغيّر مجرى الحديث بأقصى سرعة ، قاطعه
قائلًا :

— انها ترجى ••• ذلك مستحيل عليها ••• أفهم ، أفهم ! •••
بالمناسبة : يقال انك أنت الذى قرأت لها ، بصوت عالٍ ، كل تلك الثثرة

المشوشة المضطربة • الحق أننى كتبت ما كتبت ... وفعلت ما فعلت ، فى نوبة هذيان • اننى لا أتصور كيف يستطيع امرؤ أن يكون - لا أقول قاسياً (فلو قلت ذلك لكنت أذل نفسى) بل أقوله صيانياً ومشرأً وحقوقاً الى الحد الذى يمكنه فيه أن يؤاخذنى على هذا الاعتراف وأن يستعمله سلاحاً ضدى ! لا تخف ، فلست أتكلم عنك أنت ...

- ولكن يؤسفنى أن أراك تتبرأ من تلك الأوراق يا هيوليت ، فان فيها نبرة صدق واضحة ! حتى الفقرات السخيفة منها وهى كثيرة (هنا صرَّ هيوليت وجهه) ، انما يكفَّر عنها الألم ، لأن الادلاء بهذه الاعترافات قد أوجب هو نفسه مواجهة الألم أيضاً ... ولعله كان فعلاً كبيراً من أفعال البسالة • لا شك أن الفكرة التى انقادت لها كانت تستوحى عاطفة نبيلة ، مهما تكن المظاهر • كلما فكرت فى هذا مزيداً من التفكير ، اقتنعت به مزيداً من الاقتناع ، أحلف لك • اننى لا أحكم عليك • اننى أقول لك رأى ؟ ويؤسفنى اننى صمتُ حينذاك ...

احمر وجه هيوليت • وقد خطر بباله فى لحظة من اللحظات أن الأمير يهزل ، وأنه يمد له شباكاً أو ينصب له فخاً • ولكنه تأمل وجهه فلم يسمعه الا أن يؤمن بأنه صادق مخلص • فعاد الهدوء الى أسارير وجهه • وقال :

- ويجب أن أموت !

وأوشك أن يضيف الى ذلك قوله : • كيف يجوز أن يموت رجل مثلى ؟ ، لكنه أمسك ، وتابع كلامه يقول :

- لا تستطيع أن تتخيل مدى التشعريرة التى يحدنها فى نفسى صاحبك جانبا ؟ لقد اعترض على ذات يوم قائلاً ان الذين سمعوا اعترافى قد يكون بينهم ثلاثة أو أربعة سيموتون قبل ! يا لها من فكرة ! هو يظن

أن هذا يعزىنى • ها ها ! ••• هم أولاً لم يموتوا بعد • ثم هبهم نفقوا
قبل فملاً ، فلا شك أنك تسلم لي بأن ذلك لا يسرني عنى كثيراً • انه
يقيس الناس بنفسه • على أنه مضى الى أبعد من ذلك أيضاً • لقد شتمنى
قائلاً ببساطة : ان على المرء في مثل هذه الحالة ، اذا كان يحترم نفسه ،
أن يموت صامتاً ، وان هذه القضية كلها لا تشتمل من جانبي الا على
أنانية ! لقد غلا قليلاً ، هه ؟ والحق أن الأنانية فيه هو ! ما أنهم أنانية
أمثال هؤلاء الناس ، بل قل ما أكف أنانية أمثال هؤلاء الناس الذين
لا يشعرون مع ذلك بأنهم أنانيون ! ••• هل قرأت ، يا أمير ، شيئاً عن
موت رجل اسمه ستيفان جليوف * في القرن الثامن عشر ؟ لقد وقع
تحت بصرى أمس مصادفة •••

— من هو ستيفان جليوف هذا ؟

— هو رجل رُفِع على الحازوق في عهد بطرس الأكبر •

— آ ••• رباه ! عرفت من هو ! لقد ظل على الحازوق خمس عشرة
ساعة ، في برد شديد ، لا يغطيه الا معطف على كتفيه ، ثم مات صامداً
بقوة نفسية خارقة • نعم قرأت هذا ••• ولكن ما الذى تريد أن تقول ؟

— أسأل الله أن يهب لبعض الناس ميتةً كذلك الميتة ! ولكن أن
لا يهبها لنا نحن • أترأى تظن مع ذلك أنني غير قادر على أن أموت كما
مات جليوف ؟

قال الأمير مرتبكاً :

— لا ، لا ، أبداً ••• كل ما أردت أن أعبر عنه هو أنك ••• بل
قل اننى لم أرد أن أزعج أمك لا تشبه جليوف ، وانما أردت أن أشير
الى أنك ••• فى ذلك الزمان يمكن أن •••

- حضرت : تريد أن تقول اننى فى ذلك الزمان يمكن أن أكون
مثل أوترمان * لا مثل جليوف • أليس هذا ما تريد أن تقوله ؟

سأله الأمير مدهوشاً :

- أى أوترمان ؟

فتمتم هيوليت يقول متحيراً :

- أوترمان ، الدبلوماسى أوترمان ، الذى عاصر بطرس الأكبر .

وتبع ذلك صمت فيه ارتباك •

ثم قال الأمير بلمهجة بطيئة بعد لحظة تأمل :

- لا ، ليس ذلك ما أردت ' أن أقوله • ليس يخيّل الى أنه يمكن
أن تكون مثل أوترمان •••

اكفهر وجه هيوليت •

فأسرع الأمير يضيف مستدركاً :

- على كل حال ، سأقول لك الآن لماذا قامت فى ذهنى هذه الفكرة •
ان أناس ذلك الزمان (ويمينا ان هذا قد خطف انتباهى دائماً) كانوا
يختلفون اختلافاً كبيراً عن أناس العهد الذى نعيش فيه • لكنهم كانوا
من جنس آخر • نعم ، حقاً ، لكنهم ينتمون الى نوع انسانى غير النوع
الذى نتمى اليه نحن • فى ذلك الزمان ، كان الانسان انساناً الفكرة
الواحدة ان صبح التمير • أما معاصرونا فلأن أعصابهم أكثر توتراً ، ولأنهم
أكثر تطوراً وأشد حساسية فهم يستطيعون أن يتبعوا فكرتين أو ثلاثاً فى
آن واحد ••• ان الانسان الحديث أوسع وأرحب • وانى أؤكد لك أن
هذا هو ما يمنعه من أن يكون كتلة واحدة متسقة الجوانب كما كان انسان

القرون الخوالى ... اننى ... اننى لم أقل كلامى الا بهذا المعنى ،
وليس ...

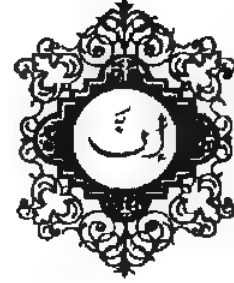
— انك تحاول الآن أن تعزى عن معارضتك اياى بتلك السذاجة .
ها ها ! .. انك لطفل تماماً يا أمير ! على وجه المصوم ، ألاحظ أنكم
جميعاً تعاملوتى كما يعامل فتجان من خزف ... لا بأس ... لست
أزعل . على كل حال ، لقد جرى حديثنا مبهجاً مضحكاً ! ... أنت فى
بعض الأحيان طفل حقاً يا أمير . واعلم من جهة أخرى يا أمير اننى
كنت أطمح فى أن أكون شيئاً أفضل من أوسترمان . لا يستحق العناء أن
يُبعث المرء حياً من بين الأموات فى سبيل أن يكون رجلاً مثل أوسترمان
... وعلى كل حال يجب فى رأى أن أموت بأقصى سرعة ممكنة ، والا
لرأيتى أتمنى أنا نفسى أن ... دعنى ! الى اللقاء ! ولكن قل لى : ماهى
فى رأيك أفضل مية ؟ أقصد ... ما أقرب مية الى الفضيلة فى نظرك ؟
عجيب ! لماذا لا تجيب ؟

قال الأمير بصوت عذب :

— مُرَّاً بقربنا وأنت تغفر لنا سعادتنا !

— ها ها ها ! هذا بعينه ما كنت أفكر فيه ! لقد توقعت كلاماً من
هذا النوع حتماً ! ومع ذلك ، فانك ... فانك ... هياً .. هياً ...
طيب ! آه ! يا للناس البلاء ! الى اللقاء ! الى اللقاء !

الفصل السادس



النبا الذي نقلته باربارا آرداليونوفنا الى أخيها كان صحيحاً كل الصحة : ستقام سهرة في فيلا آل ايباتشين ، ومن المتوقع أن تحضرها الأميرة بيلوكونسكايا . لقد وجهت الدعوات لذلك المساء فعلاً . لكن باربارا تكلمت في الأمر ، على عاداتها ، بحرارة تزيد قليلاً عن الحد اللازم . صحيح أن السهرة قد تقرر بسرعة متعجلة ، ووسط اضطراب شديد لا محل له . ولكن مرد ذلك الى أنه « لا شيء في هذه الأسرة يتم كما يتم في غيرها » ؟ وكل شيء يُفسَّر بنفاد الصبر لدى اليزابت بروكوفيتنا التي كانت « لا تريد أن تبقى في الشك » ، كما يُفسَّر بما يعاينه الأبوان من قلق وهم وخوف على سعادة ابنتهما الحبيبة . ثم ان الأميرة بيلوكونسكايا كانت على وشك أن تسافر فعلاً ؟ واذ أن حمايتها وزناً كبيراً في المجتمع ، واذ كان المأمول أن تهتم كثيراً بالأمير ، فقد كان الأبوان يعوّلان على ما تنعم به تركيه « السيدة العجوز » من قدرة كبيرة على فتح أبواب المجتمع الراقى أمام خليف آجلابا . فاذا كان في هذا الزواج جانب غير طبيعي أو غير عادي كان في وسع الحماية التي تسبغها الأميرة بيلوكونسكايا عليه أن تخفي ذلك الجانب . ولقد كانت عقدة العقد لدى الأبوين أنهما كانا لا يستطيعان أن يفصلا في هذا السؤال : « هل يشتمل هذا الزواج على شيء غير طبيعي » ، والى أي حد ؟ أم هو طبيعي جداً فلا غرابة فيه ؟ . لذلك فإن الرأي الصريح الصديق

الذى يمكن أن يقدمه أشخاص لهم قيمتهم وكفاءتهم ووزنهم يمكن أن يكون مواتياً جداً فى هذا الأوان الذى لم يُبرم فيه شيء حاسم بعد ، بفضل موقف آجلایا .

وعلى كل حال كان لا بد من ادخال الأمير ، عاجلاً أو آجلاً ، الى المجتمع الراقى الذى لا يعرف الأمير عنه شيئاً حتى الآن . ففى وسعك أن تقول بتعبير آخر ان المراد كان هو « عرض » الأمير . على أن ذلك لا ينفى أن السهرة ستحتفظ بطابع البساطة ، وأنها لن تضم الا « أصدقاء الأسرة » عددهم محدود جداً . والى جانب الأميرة بيلوكونسكيا كان يؤمل حضور زوجة شخص مرموق هو رجل من كبار أصحاب المناصب العليا . أما من بين الشبان فكان لا يُنتظر الا حضور أوجين بافلوفتش الذى كان عليه عند حضوره أن يرافق الأميرة بيلوكونسكيا .

ولقد علم الأمير ، قبل ثلاثة أيام ، أن هذه السيدة ستجىء ، لكنه لم يسمع عن السهرة الا قبل موعدها بيوم واحد . وقد لاحظ طبعاً ما كان يبدو على أفراد الأسرة من انشغال ، وأدرك من بعض الاشارات أنهم ليسوا واثقين بأنه سيحدث فى نفوس الناس أثراً حسناً . ولكن أفراد أسرة ايباتشين جميعاً كانوا يمدونه عاجزاً من شدة سذاجته وبساطته عن ادراك أنواع القلق التى يحدثها لهم ، لذلك كانوا فى قرارة أنفسهم ينظرون اليه شاعرين بغم وخوف .

أما هو فكان لا يكاد يهتم أى اهتمام بهذا الحديث ، وكان ما يشغل باله غير هذا تماماً . ان آجلایا تزداد نزقاً وجهامة وتكثر نزواتها ساعة بعد ساعة . فكان ذلك يقتله قتلاً . ولما علم أن أوجين بافلوفتش سيحضر الاستقبال أيضاً ، أظهر فرحاً شديداً وقال انه يود أن يراه منذ مدة طويلة . فاذا بهذه الكلمات ، لسبب لم يستطع أن يدركه ، تسوء الجميع وتزعجهم ، واذا بآجلایا تخرج من الشرفة غاضبة . وفى وقت متأخر

من الليل ، بعد الساعة الحادية عشرة ، بينما كان الأمير يهم أن ينصرف ، انتهزت آجلايا هذه الفرصة فأعادته لتقول له بضع كلمات فى خلوة :

— أود أن لا تجيئنا غداً طوال النهار ، وأن لا تظهر الا فى المساء ، بعد أن يلتئم شمل جميع المدعوين . هل تعرف أننا نقيم استقبالا ؟ قالت آجلايا هذه الكلمات بلهجة فيها تملل وقسوة . هذه أول مرة تشير فيها الى « السهرة » . كانت هى أيضاً تكره فكرة السهرة هذه ولا تكاد تطيقها . لقد لاحظ الجميع ذلك . ولعلها كانت تشعر برغبة مسعورة فى أن تخلق مشاجرة مع أبويها فى هذه المناسبة ، غير أن شعوراً بالكبرياء والحياء صدّها عن ذلك . وقد أدرك الأمير فوراً أنها توجس هى أيضاً بعض المخاوف فى شأنه ، لكنها لا تريد أن تعترف بالداعى إليها والباعث عليها . وأحسّ هو نفسه فجأة بنوع من الرعب . قال يجيبها :

— نعم ، أعلم . اننى مدعو .

وأحست بخرج من المضى الى أبعد من ذلك .

قالت له وهى تنفجر غاضبة ، دون أن تدري لماذا ، ولكن دون أن تستطيع السيطرة على نفسها :

— هل يستطيع المرء أن يكلمك جاداً ولو مرة واحدة فى حياتك ؟

— تستطيعين ذلك . اننى مصغى اليك . يسرنى هذا .

كذلك تمتع الأمير .

فصمت آجلايا لحظة ، ثم قررت أن تتكلم ، ولكن بنفور واضح

لا يخفى . قالت :

— لم أشتأ أن أناقشهم فى هذا الأمر : هناك حالات لا يستطيع المرء فيها أن يسمعهم صوت العقل . لطالما كرهت بعض القواعد التى تحكم

سلوك الناس في المجتمع الراقى والتي تخضع لها ماما بل تستعبد لها استعباداً • أنا لا أتكلم عن بابا : فان المرء لا يطالبه بشيء • ولا كذلك ماما ، فان لها خلقاً نبيلاً وطبعاً يتصف بالشهامة حتماً : حاول أن تطلب منها شيئاً دنيئاً فترى ! ولكنها تنصاع مع ذلك لهذا المجتمع الدنيء الذى هو المجتمع الراقى !... لا أتكلم عن الأميرة بيلوكونسكايا : فهذه عجوز شريرة وطبيعة سيئة رديئة ؛ ولكنها تملك شكيمة قوية فتعرف كيف تمسكهم جميعاً بيديها • ان لها هذه الحصلة على الأقل • آه ! يا للحطة ! والأمر مضحك حقاً : لقد كنا ننتمى دائماً الى الطبقة المتوسطة ، الى الطبقة المتوسطة كل التوسط • فما بالنا نريد دفع أنفسنا الى المجتمع الراقى ؟ ان اختنى تهويان هما أيضاً الى هذه الآفة • لقد أفسد عقلهما الأمير « شتسه » لماذا سررت ذلك السرور كله حين عرفت أن أوجين بافلوفتش آت ؟

قال الأمير :

— اسمعى يا أجلايا • يخيل الى أنك تخافين كثيراً أن « أتبهذل » غداً ... فى ذلك المجتمع ؟

قالت أجلايا وقد احمرت احمراراً شديداً :

— أخاف عليك ؟ لماذا يجب أن أخاف عليك ؟ هل يهمنى أنا أن .. تتجمل أنت بالحزى ؟ ما شأنى أنا وهذا ؟ ثم كيف يمكنك أن تستعمل مثل هذه التعابير ؟ ما معنى كلمة « تبهذل » ؟ هذا لفظ متحط عامى مبتذل ؟

— كلمة من كلمات ... التلاميذ •

— نعم •• كلمة من كلمات التلاميذ • كلمة بشمة • واضح أنك تتوى استعمال ألفاظ من هذا النوع فى الحديث غداً • ما عليك الا أن تبحث فى المعجم ، متى عدت الى البيت ، عن ألفاظ أخرى من هذا الطراز : انك بذلك تضمن لنفسك أن تحدث فى « أمراً رائعاً !... خسارة » أنك

تجيد الدخول الى صالون ! أين تعلمت هذا ؟ هل تستطيع كذلك أن تحسن احتساء فنجان من الشساى حين ينظر الجميع اليك ليروا كيف عسى تفعل ذلك ؟

- أحسب اننى أستطيع •

- يؤسفنى هذا : لأنه يُفقدنى فرصة التندر عليك والضحك منك •
حطّم على الأقل اثناء الحزف الصينى الموجود فى الصالون • انه غالى الثمن • هلاً سررتنى فحطمته ؟ انه هدية ؟ حطّمه فتُجنّ ماما وتطفق تبكى أمام الجميع من شدة تعلقها به وحرصها عليه • قم بحركة من تلك الحركات الممهودة فيك : اخطب الاناء واكسره • تعمد أن تجلس قربه •
- بالعكس • سأحاول أن أجلس بعيداً عنه الى أقصى حد • شكراً على أنك نهتتى الى هذا •

- هذا أنت خائف منذ الآن من حركاتك واشارات يديك الكثيرة ! وأراهن على أنك ستختار « موضوعاً » للحديث تسترسل فيه مطلباً مسهباً ... موضوعاً جدياً ، رفيحاً ، يتاح لك فيه أن تنفيق ! ما أجمل ذلك !

- أعتقد أن هذا يكون غباءً ... اذا لم يجيء فى محله ولم يناسب المقام •

قالت أخيراً وقد نفذ صبرها :

- اسمع ما سأقوله لك الآن مرةً واحدة الى الأبد : اذا تكلمت فى موضوع كموضوع عقوبة الاعدام أو الوضع الاقتصادى فى روسيا ، أو النظرية القائلة بأن « الجمال سينقذ كل شئ » ، فسيُسرنى هذا ، لأنه يتيح لى أن أستهزى به واضحك منه كثيراً ، ولكننى أخذتُك منذ الآن :

إذا فعلت شيئاً من هذا فلا تظهرن أمامي بعدئذ قط ! هل تسمعين ؟ اننى
أتكلم جادة لا هازلة ، اننى أتكلم فى هذه المرة جادة !

وقد قالت هذا التهديد بلهجة « الجدة » فعلاً . حتى لقد كان فى
أقوالها وفى نظراتها تعبير غير معهود لم يسبق للأمير أن لاحظته فيها يوماً
حتى ذلك الحين ولا يشبه رغبة فى مزاح حتماً !

— أرى أنك تتصرفين تصرفاً سيئاً سيئاً أصاب قطعاً بنوبة « ثرثرة »
... وقد أكسرت اناء الخزف أيضاً . منذ قليل كنت غير خائفة من شيء ،
أما الآن فقد أصبحت أخاف كل شيء . أنا الآن على يقين من أننى لن
أحدث فى نفوس الحضور أثراً حسناً .

— ما عليك اذن الا أن تصمت . اجلس وابق ساكناً ساكناً .

— مستحيل . اننى مقتنع بأن الخوف سيدفعنى الى الكلام وسيجعلنى
أكسر اناء الخزف . وقد قزل قدمى فأقع على الأرض أو أرتكب أية
خرافة أخرى من هذا النوع ، فقد سبق أن حدث لى ذلك . وسأظل أحلم
بهذا طوال الليل . لماذا كلمتنى فى هذا الأمر ؟

نظرت اليه آجلايا مظلمة الوجه .

فقال الأمير بلهجة قاطعة :

— هل تعلمين ؟ اتنى أفضل أن لا أجيء غداً . استمرض وكفى !

فصربت آجلايا الأرض بقدمها واصفرت وجهها غضباً وقالت :

— رباه ! هل رأى أحد شيئاً كهذا فى يوم من الأيام ؟ يقرر أن
لا يجيء بينما السهرة مقامة من أجله هو ! آه ... يا رب ! ... ما أعظمها
سعادة أن يعامل المرء رجلاً مثل ... أن يعامل المرء رجلاً يبلغ من البعد
عن العقل ما يبلغه هذا الرجل ...

قاطعها الأمير بقوة قائلاً :

- طيب .. طيب .. سأجى .. سأجى .. لك على عهد أن
أجى .. وأن لا أنطق بكلمة واحدة طوال السهرة .. ذلك ما سأفعله ..

- وسيكون هذا حسناً جداً .. ولكنك قلت منذ برهة: «سأستمرض»
فمن أين تعجى .. بأمثال هذه التعابير ؟ أأنت تعتمد تعمداً أن تكلمنى بهذه
اللغة ؟ انك تقصد مضايقتى ومناكدتى ، أليس كذلك ؟

- عفوك .. هذه أيضاً كلمة من كلمات التلاميذ ! لن أستعملها بعد
الآن .. أنا أفهم حق الفهم أن تساورك مخاوف فى شأنى (لا .. لا تزعلنى) ،
وهذا يسرنى سروراً عظيماً .. انك لا تستطيعين أن تتصورى مدى
ما أشعر به الآن من خوف ، ومدى ما تضررنى به كلماتك من فرح .. ولكن
ذلك الخوف كله لا قيمة له .. أوكد لك أنه سخف .. شهد الله يا أجلايا
أن الفرح وحده سيقى .. اننى لأحب كثيراً أن أراك طفلة الى هذا الحد ،
طفلة تبلغ هذا المبلغ من نبل النفس وطيب القلب ! أم يا أجلايا ...
ما أروعك !

كانت أجلايا على وشك أن تغضب ، غير أن عاطفة كانت هى نفسها
لا تتوقها قد اجتاحت كل روحها فى تلك اللحظة على حين فجأة .. قالت
تسأله بقتة :

- ألن تلومنى ذات يوم ... فى المستقبل ... على هذه الأقوال
الفضة التى خاطبتك بها الآن ؟

- دعيك من هذا ! ماذا تظنين ؟ ولكن ما لى أرى وجهك يصطبغ
بالحمرة من جديد ؟ هذه نظرتك تعود الى الاظلام ! انها مظلمة مسرقة
فى الاظلام أحياناً يا أجلايا ! لم تكن لك هذه النظرة فى الماضى .. اننى
أعرف مصدر هذا ...

- اسكت ... اسكت ...

- بل الأفضل أن أتكلم .. اننى أريد أن أفاتحك فى هذا الأمر منذ

مدة طويلة • وقد سبق أن كلمتك فيه ... ولكن ذلك لم يكفِ ، لأنك
تم تصدقنى • ان هناك شخصاً يقف بيننا ...
- اسكت • اسكت • اسكت • اسكت !
هكذا قاطعته أجلايا بشدة ، ممسكة ذراعه امساکاً قوياً عنيفاً ،
وقد اعتراها نوع من الرعب •
ونوديت فى تلك اللحظة ، فتركه وولّت هاربة ، سعيدة بهذا
المخرج •

أصيب الأمير بحمى طوال الليل • من الغريب أن الحمى أخذت
تجتاحه كل ليلة منذ بعض الوقت • وفى هذه المرة وصل الى حالة قريبة
من الهذيان ، فكانت تحاصره هذه الفكرة : ماذا لو أصابته نوبة صرع
فى الند أمام جميع الضيوف ؟ ألم يسبق أن أصيب بنوبات فى حالة
اليقظة ؟ جمدته هذه الفكرة رعباً • وظل طول الليل يرى نفسه فى
سهرة مدعشة لا مثل لها وسط أناس غرباء • ان الشيء الأسامى هو أنه
أخذ يسهب فى الثروة • كان يعرف أن عليه أن يصمت ، ومع ذلك ظل
يتكلم طول الوقت محاولاً اجبار ساميه على شيء ما • وكان أوجين
بافلوفتش وهيوليت بين المدعويين ، وكان يبدو أن بينهما علاقة وثيقة
حميمة •

واستيقظ بعد الساعة الثامنة على صداد وأفكار مشوشة ومشاعر
غريبة • ان رغبة عارمة جامحة لا يعرف لها سبباً معقولاً تستبد الآن به ،
وهى أن يرى روجوين • لماذا ؟ ليس يدرى • ثم ها هو ذا يقرر أن
يذهب الى هيوليت دون أن يكون هنالك باعث واضح على ذلك • كان
قلبه قد بلغ من الاضطراب أن جميع أحداث هذا الصباح ، رغم أنها
أحدثت فى نفسه أثراً قوياً ، لم تستطع أن تستفد كل انتباهه • ومن
بين هذه الأحداث زيارة ليديف له •

لقد جاءه ليديف فى وقت مبكر ، بعد الساعة التاسعة بقليل ، وكان نملاً بعض الشيء . كان الأمير قد لاحظ ، رغم أنه أصبح فى الآونة الأخيرة قليل الانتباه ، أن ليديف صار رث الثياب منذ غادر الجنرال ابفولجين بيته ، أى منذ ثلاثة أيام . ذلك أمر يخطف البصر ولا يحتاج الى ملاحظة قوية . ان ليديف شديد الوساعة والرثانة الآن ، فملابسه ملطخة بالبقع ، ورباط عنقه مقلوب ، وياقة ردتجوته فيها تمزقات . وهو يحدث فى بيته كثيراً من الصخب والجلبة حتى يُسمع زعيقه من خلال فناء الدار . وقد جاءت فيرا الى الأمير باكية فى ذات يوم ، فروت له أموراً شتى .

أخذ ليديف يتكلم أعلم الأمير بلهجة غريبة كل الغرابية ، لاطماً صدره متهماً نفسه بفقطة سيئة لا يدرى السامع ما عسى تكون . . . وختم كلامه قائلاً بلهجة المساة :

— لقد حصل . . . وتلقيت جزاء خيائى وخطئى . . . تلقيت صفقة ! . .
قال الأمير :

— صفقة ؟ ممن ؟ . . . وفى مثل هذه الساعة المبكرة ؟

فأجاب ليديف وهو يتشم ابتسامة ساخرة :

— فى مثل هذه الساعة المبكرة ؟ لا شأن للساعة فى الأمر . . . حتى ولو كانت العقوبة عقوبة جسمية . . . ولكنها عقوبة معنوية . . . عقوبة نفسية لا جسمية ، تلك العقوبة التى تلقيتها ! . . .

قال ليديف ذلك وجلس فجأة دون احتفال فى هذه المرة ، وأخذ يروى قصته . واذ كانت القصة مفككة جداً ، فقد قلب الأمير حاجبيه ونهياً للانصراف . غير أن بعض كلمات خلطت انتباهه على حين فجأة ، فلبث فى مكانه كالتجمد من الدهشة . . . لقد كان السيد ليديف يروى أموراً غريبة .

يبدو أنه تكلم فى أول الأمر عن رسالة ما ، ذكر بصددها اسم
آجلايا ايفانوفنا . ثم أخذ ، دون أى تمهيد ، يتهم الأمير نفسه بألفاظ
مُرّة ، ويفهمه أن الأمير قد أهانه ، لأنه - أى الأمير - قد شرفه فى أول
الأمر بأن محضه نقته فى أمور تتعلق « بشخص » ما (يقصد ناستاسيا
فيليوفا) ، ثم قطع صلته به قطعاً كاملاً وأبعداه ابعاداً مشيناً مهيناً ، حتى
لقد تخلص تخلصاً فظلاً من الاجابة عن « سؤال برىء يتعلق باحتمال
حدوث تغير قريب فى المنزل » . واعترف ليديف وهو يذرف دموعاً من
دموع السكارى أنه بعد تلك الاهانة أصبح لا يطبق الصبر على هذا الوضع ،
لا سيما وأنه كان يعرف ... أشياء كثيرة ، من روجوين ، ومن ناستاسيا
فيليوفا ، ومن صديقة لها ، ومن ياربارا آرداليونوفنا ... وحتى من ...
من آجلايا ايفانوفنا نفسها . « تصور أن هذا حدث بواسطة فيرا ، بواسطة
بنتى الحبيبة فيرا ، بنتى الوحيدة ... نعم نعم ... على أنها ليست وحيدة ،
ما دام لى ثلاث بنات . ولكن من ذا الذى كتب الى اليزابت بروكوفينا
ليطلعها على الأمور فى سرية تامة ؟ هى . هى . ! من أعلمها بجميع الوقائع
والحركات ... المتعلقة بناستاسيا فيليوفا ؟ هى . هى . ! من هو ذلك
المراسل الذى لم يذكر اسمه ، هه ؟ هلاً قلت لى ان كنت تعرف ! .. ،
صاح الأمير قائلاً :

— هل يمكن أن تكون أنت ؟ ... ؟

فأجاب ليديف برصانة السكير وكبريائه :

— نعم أنا ! وفى هذا اليوم نفسه ، فى الساعة الثامنة والنصف ، أى
منذ نصف ساعة ... لا بل منذ ثلاثة أرباع الساعة ، أبلغت تلك الأم
النيلة جداً أن هناك مقامرة ... ذات دلالة . ابلغتها ذلك ببساطة قتلها
اليها الخادمة من باب الخدم . فاستقبلتنى .
سأله الأمير وهو لا يصدق أذنيه :

- رأيت اليزابت بروكوفينا منذ قليل؟

- رأيتها منذ برهة ، وتلقيت منها صفة ... صفة معنوية طبعاً •
فلقد ردت الى الرسالة بل لقد رمتها في وجهي دون أن تفضها ثم
أمسكت تلايبي وأخرجتني من الفرقة ... معنوياً لا جسياً .. على أنها
أوشكت أن تفعل ذلك جسياً !

- ما هي تلك الرسالة التي رمتها في وجهك دون أن تفضها ؟

- ولكن أأنا لم ... هي هي هي ! كيف لم أقل لك ذلك بعد ؟
يبدو لي أنني ذكرت لك هذا من قبل المسألة هي أنني كنت قد
استلمت رسالة لأوصلها الى المرسلة اليه ...

- رسالة الى من ؟ الى من ؟

لقد كانت بعض « ايضاحات » ليديف عسيرة الفهم الى أبعد الحدود ،
وكان يصعب على المرء أن يستخرج منها أي شيء • كل ما استطاع الأمير
أن يميزه هو أن الرسالة كانت قد استلمتها فيرا ليديفا من خادمة بنية أن
توصلها فيرا الى الشخص المرسلة اليه ... • كما في السابق ، كما في
السابق ، لتوصلها الى شخص معين من الشخصية نفسها (انني أطلق كلمة
«الشخص» على احدي المرأتين ، واطلق اسم الشخصية على المرأة الثانية
اشارة الى صغار الأولى ، والى الفرق الكبير بين ابنة جنرال نبيلة جداً
وبين امرأة هي عادة كاميليا) • المهم أن الرسالة قد كتبها « واحدة »
• يبدأ اسمها بحرف آ •

صاح الأمير قائلاً :

- أهذا ممكن ؟ أتراها كتبت الى ناستاسيا فيليوفنا ؟ ذلك

مستحيل ! ...

- حصل • كل ما هنالك أن الرسائل ان لم تكن قد أرسلت الى

ناستاسيا فيليوفا فقد أرسلت على الأقل الى روجوين ، والأمران واحد
... حتى ان هناك رسالة من تلك التي يبدأ اسمها بحرف « آ » قد بُعثت
الى السيد تيرتيف ليتولى ايصالها •

أضاف ليديف هذه الجملة الأخيرة وهو يغمز بعينه ويبتسم •

واذ كان ليديف يقفز فى كل لحظة من موضوع الى موضوع
وينسى ما كان بدأ يقوله ، فقد صمت الأمير ليتيح له أن يفرغ جعبته •
غير أن هناك نقطة ظلت غامضة جداً : أكانت الرسائل تُبعث بواسطته أم
بواسطة فيرا ؟ انه حين أكد أن الكتابة الى روجوين والكتابة الى ناستاسيا
فيليوفا سيان ، قد ترك للسامع أن يفهم أن هذه الرسائل ، اذا كان ثمة
رسائل ، لا تُنقل بواسطته • فما يزال يصعب على المرء أن يعرف ما هى
المصادفة التي جعلت تلك الرسالة تقع فى يديه • أغلب الظن أنه سرقها
من فيرا بطريقة من الطرق • حتى اذا تمَّ له الاستيلاء عليها بالاختلاس
حملها الى الزايت بروكوفينا وهو يضمرة نية ما • ذلك هو الافتراض
الذى انتهى به الأمر الى تصويره •

صاح يقول وقد اعتراه اضطراب شديد :

— لقد فقدت عقلك !

فأجابه ليديف بشيء من المكر :

— لم أفقده تماماً أيها الأمير العظم • • • والحق أن الفكرة الأولى
التي خطرت لى هى أن أعطيك أنت الرسالة ، خدمة لك • • • لكننى
فكرت فرأيت أن هذه الخدمة أولى أن تُقدَّم هناك ، وأن من الأفضل أن
أحمل كل شيء الى علم تلك الأم التي هى أنبل الأمهات طراً • • • لا سيما
وأنتى سبق أن نهتها مرة فى كتاب لم أذبله بتوقيعى ولا ذكرت فيه
اسمى • وفى البطاقة التي بعثتها اليها فى الساعة الثامنة والنصف من هذا

الصباح وقعت هذا التوقيع أيضاً : « مراسلك المجهول » ، فسرعان
ما قبلوا باهتمام شديد أن أدخل من سلم الخدم على الأم التي هي أنبل
الأمهات طراً ...

- ثم ؟

- تعرفُ التهمة : لقد أوشكتُ أن تضربني ، حتى ليكاد يمكنني
أن أعدتني مضروباً . أما الرسالة فقد رمتها في وجهي + صحيح أنها
تساءلت لحظةً هل تحتفظ بالرسالة ، لكنني رأيت ... أو لاحظت أنها
عدلت عن هذه الفكرة ، فرمت الرسالة قائلة : « ما دام قد كلّف شخص
مثلك بإيصال الرسالة ، فهلمَّ أوصلها ! » + حتى لقد شعرت بأنها
مهانة . فقلوا أنها شعرت بذلك لاستحيت أن تقول مثل هذا الكلام أمامي .
انها امرأة شديدة الاندفاع .

- أين الرسالة الآن ؟

- ممى : هذه هي !

قال ليديف ذلك وأعطى الأمير رسالةً آجلايا الى جبريل
آرداليونوفتش . انها البطاقة التي كاڤ على جبريل آرداليونوفتش أن
يوصلها الى أخته متصراً بعد ساعتين .

قال الأمير :

- لا يجوز أن تبقى هذه الرسالة في حوزتك +

فقال ليديف بحرارة :

- اننى أعطيك اياها ، أعطيك اياها . أنا أعود الآن الى خدمتك
مخلصاً ، أنا الآن ملك يديك ، رأساً وقلباً . أعود الى خدمتك بعد خيانة
طارئة عارضة ! اطعن قلبي ، ولكن دع لى اللحية ، كما قال توماس
موروس * فى انجلترا وفى بريطانيا العظمى . هذا ذنبى * ، كما قال
أبو روما ، أى بابا روما ، لكننى أسحبه أنا دائماً ، أبو روما ، .

قال الأمير ملحاً :

— يجب إيصال هذه الرسالة فوراً • أنا أتولى ذلك •

— أليس الأفضل ، يا أيها الأمير اللطيف الاحساس ، المرفف

الشعور ، المؤدب ، أن ...

قال ليديف ذلك وهو يجتد وجهه تجعيدة غريبة مزعجة ،

وتحرك على كرسيه كأن أحداً وخزه بآبرة فجأة ، وغمز بعينه غمزة

ماكرة ، وأشار يديه الى شيء ما •

قال له الأمير بلهجة التهديد :

— ماذا تعنى ؟

فهمس ليديف يقول بلهجة المسارعة والبوح :

— يجب فتح الرسالة أولاً •

فوثب الأمير وقد عبّر وجهه عن غضب يبلغ من القوة أن ليديف

أوشك أن يولى هارباً ولكنه حين بلغ الباب، توقف ينتظر الصفح والعفو •

هتف الأمير يقول بلهجة تعبر عن حزن عميق :

— آه يا ليديف ! هل يمكن حقاً أن يبلغ امرؤ من الفوضى والحطة

ما بلغت أنت ؟

استردت ملامح ليديف هدوءها • وسرعان ما اقترب من الأمير

يقول لاطماً صدره ، والدموع فى عينيه :

— أنا منحط ! أنا منحط !

— هذه دناءات •

— بالضبط : دناءات • هذه هي الكلمة المناسبة •

— علام هذا السلوك ... العجيب ؟ ما أنت فى حقيقة الأمر الا

جاسوس ! لماذا تكتب رسالةً بغير توقيع ، لتروّع امرأة طيبة هذا الطبيب نبيلة هذا النبيل ؟ ولماذا لا يكون من حق آجلايا أن تكتب الى من تشاء الكتابة اليه ؟ هل ذهبت اليوم الى هناك لتسكى ؟ ماذا كنت تتظر من هذه الخطوة التي قمت بها ؟ ما الذي دفعك الى هذه الوشاية ؟

- الفضول هو الذي دفعنى اليها وورطنى فيها وكذلك الرغبة فى أن أخدم اسانته نبيلة . نعم

كذلك تتم ليديف ثم أودف يقول :

- أما الآن فأنا لك وحدك ، أنا ملك يمينك من جديد . اشتقنى اذا شئت !

سأله الأمير باستطلاع يمازجه استمزاز :

- هل ذهبت الى اليزابت بروكوفينا وأنت على هذه الحال ؟

- لا ، لا كنت أنضر نفساً وأكثر انتعاشاً ، بل كنت كذلك أسلم سلوكاً وأقوم أدباً . ولم أصبح على الحال التي ترانى فيها الآن الا بعد تلك المهانة التي نالتني وذلك الاذلال الذي أصابنى .

- طيب ، كفى ، دعنى !

ومع ذلك اضطر الأمير أن يكرر هذا الرجاء عدة مرات قبل أن يقرر زائره الانصراف . وحتى بعد أن فتح ليديف الباب عاد الى وسط الغرفة سائراً على رموس الأصابع ، واستأنف تجعيد وجهه محاكياً الحركات الدالة على ضرورة فض الرسالة . ولكنه لم يجزؤ أن يقرن الإشارة بالقول ، ثم خرج وعلى شفتيه ابتسامة وادعة ودود .

من كل ثمرته التي يصعب فهمها كثيراً ، تبرز واقعة رئيسية خارقة : هي أن آجلايا تعاني أزمة شديدة من قلق وحيرة واضطراب . ان أمراً ما يعذبها عذاباً قوياً (همس الأمير يقول : « الغيرة ») وهناك

ملاحظة أخرى تفرض نفسها هي أن أناساً سيئى النية لا بد أنهم يلقون
الروع فى نفسها ؛ وانه لغريب كل الغرابة أن تمحضهم كل هذه الثقة .
لا ريب فى أن أهدافاً خاصة ، أهدافاً لعلها مشؤمة ... أهدافاً غريبة
على كل حال قد نبئت فى هذا الرأس الصغير الذى تعوزه الخبرة والتجربة
ولكنه شديد الحياء كثير الكبرياء ...

هذه الاستنتاجات أغرقت الأمير فى ذعر رهيب ، حتى بلغ من
الاضطراب أنه أصبح لا يدري ماذا يقرر . كان يحس أنه إذا احتمال
يجب منعه بأى ثمن . ونظر مرة أخرى فى عنوان الرسالة المخومة :
آه ... انه من جهته لا يساوره شك ولا يخامرہ قلق ، فان ثقته بحميمه
من ذلك . وانما يأتى الخوف الذى توقظه هذه الرسالة فى نفسه من أنه
لا يشق بجبريل آرداليونوفتش . ومع ذلك أوشك أن يقرر تسليم الرسالة
بنفسه ، حتى لقد خرج من بيته وقد توى هذه النية ، ولكنه عدل عن هذا
الرأى فى أثناء الطريق . وبمصادفة تشبه أن تكون عمداً اتفق أن لقي
كوليا حين كاد يبلغ بيت بتسين . فكلفه بأن يوصل الرسالة الى أخيه كما
لو كانت رسالةً اليه من آجلاليا ايقاتوفنا رأساً . ولم يلقى كوليا أى
سؤال ، وحمل الرسالة الى أخيه ، فلم يخطر ببال جانبا أن الرسالة يمكن
أن تكون قد تنقلت بين أيدي ذلك العدد كله من الوسطاء .

وحين عاد الأمير الى البيت رجا فبرا لوكياتوفنا بأن تجيء اليه وقال
لها ما كان يجب أن يقوله ليهدىء روعها ويخفف اضطرابها ، ذلك أنها
كانت قد ظلت حتى ذلك الحين تبحث عن الرسالة باكية . وقد شُدهت الى
أبعد حدود الشده حين علمت أن أباه سرقها منها . (وقد باحت له فيما
بعد بأنها سبق أن توسطت عدة مرات سرّاً بين روجوين وآجلاليا ايقاتوفنا .
لم يكن قد دار فى خلد الفتاة أو خطر ببالها أن فى ذلك شيئاً مخالفاً
لمصالح الأمير ...)

كان الأمير مبلبل الأفكار كثيراً • فلما هرعوا يقولون له نقلاً عن كوليا ان الجنرال مريض • لم يكذب يفهم ماذا يقصدون • ولكن انصرافه الى هذا الحادث أحسن اليه احساناً كبيراً • لقد قضى النهار كله • حتى المساء • فى بيت نينا الكسندروفنا (الذى نقل اليه المريض طبعاً) • ولم يكن لحضوره أى فائدة تُذكر • غير أن هناك أناساً يحب المرء أن يكونوا بقربه فى بعض الظروف الشاقة الصعبة • لقد كان كوليا متأثراً أشد التأثير • وكان يبكى بكاءً من أصابته نوبة عصبية • ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون فى عمل متصل طوال الوقت : فقد مضى يبحث عن طبيب ووجد ثلاثة أطباء • وسعى راکضاً الى الصيدلى وإلى الحلاق • وأُنعش الجنرال • لكنه لم يسترد شعوره • وقال الأطباء • انه فى خطر على كل حال • لم تترك فاريا ونينا الكسندروفنا المريض • وكان جانيا مضطرباً مصعوقاً • ولكنه لا يريد أن يصعد • حتى لقد كان يخاف أن يرى أباه • انه يعقف يديه ألماً وحسرة • واستطاع فى حديث مفكك جرى بينه وبين الأمير أن يقول ان « هذه مصيبة تنزل فى مثل هذا الوقت بما يشبه العمد ! » وتراءى للأمير أنه فهم التلميح التى تضمنها هذه الكلمات •

كان هيو ليت قد ترك منزل بتسين • وفى نحو المساء هرع ليديف • كان قد نام نوماً متصلاً منذ « الايضاح » الذى تم فى الصباح حتى هذا الوقت • وكان قد ذهب عنه سكره تقريباً • وكان يذرف على المريض دموعاً صادقة كأنه أخوه • وكان يتهم نفسه بصوت عال دون أن يحدد الخطأ الذى ارتكبه • وكان يتعب نينا الكسندروفنا بما يكرره عليها فى كل لحظة من أنه وحده سبب كل شئ • ولا أحد سواه ••• وأن سلوكه لم تدفعه اليه الا لثة الفضول ••• بل أن « المرحوم » (لا يدرى المرء لماذا كان يصير على أن يصف الجنرال بهذا مع أن الجنرال ما يزال حياً) كان رجلاً عبقرياً ! كان ليديف يلعب على عبقرية الجنرال جاداً جداً خاصاً •

كَانَ لَهُنَّه الْوَاقِعَةُ فِي اللَّحْظَةِ الرَّاهِنَةِ شَأْنًا كَبِيرًا وَفَائِدَةً ضَخْمَةً • فَقَالَتْ لَهُ
نِينَا أَلْكَسَنْدَرُوفْنَا أَخِيرًا ، وَقَدْ رَأَتْ صَدَقَ دُمُوعُهُ ، قَالَتْ لَهُ بِلَهْجَةٍ وَدُودٍ
دُونَ أَنْ يَبْدُو عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ لُومٍ : « طَيِّبٌ ••• أَسْأَلُ اللَّهَ لَكَ الْعَمَلُ !
لَا تَبْكُ ! لَا تَبْكُ ! سَيَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ! » ، فَكَانَ لَهُنَّه الْكَلِمَاتُ وَاللَّهْجَةُ الَّتِي
قِيلَتْ بِهَا أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي لِيْدِيْفٍ ، أَثَرٌ يَلْغُ مِنَ الشَّدَةِ أَنَّهُ لَمْ يَتْرَكْ بَعْدَ ذَلِكَ
نِينَا أَلْكَسَنْدَرُوفْنَا طَوَالَ السَّهْرَةِ (وَفِي الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ ، إِلَى أَنْ مَاتَ الْجُنَرَالُ ،
ظَلَّ يَبْقَى عِنْدَهُمْ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الْمَسَاءِ تَقْرِيْبًا) • وَقَدْ أَوْفَدَتْ الْيَزَابِتُ
فِيدُورُوفْنَا مَنْ يَسْأَلُ عَنْ أَتْبَاءِ الشَّيْخِ مَرَّتَيْنِ أَتْنَاهُ ذَلِكَ النَّهَارَ •

وَفِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الْمَسَاءِ حِينَ ظَهَرَ الْأَمِيرُ فِي صَالُونِ آلِ
إِيْبَاتَشِيْنِ الَّذِي كَانَ قَدْ اِمْتَلَأَ بِالْمَدْعُوِّينَ مِنْ ذَلِكَ الْحَيْنِ ، أَخَذَتْ الْيَزَابِتُ
بِرُوكُوفِيْنَا تَسْأَلُ عَنِ الْمَرِيضِ فَوْرًا بِاهْتِمَامٍ كَبِيرٍ ، حَرِيصَةً عَلَى مَعْرِفَةِ
التَّفَاصِيلِ • فَلَمَّا سَأَلَتْهَا الْأَمِيرَةُ بِيْلُوكُونْسْكَايَا : « مَنْ هُوَ هَذَا الْمَرِيضُ ؟
وَمَنْ هِيَ نِينَا أَلْكَسَنْدَرُوفْنَا ؟ » ، كَانَ جَوَابُهَا يَشْتَمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْجَدِّ
وَالْوَقَارِ • فَأَعْجَبَ الْأَمِيرُ بِهَذِهِ الْبَادِرَةِ اعْجَابًا كَبِيرًا • وَكَانَ هُوَ نَفْسَهُ ،
فِي الْإِبْضَاحَاتِ الَّتِي قَدَّمَهَا إِلَى الْيَزَابِتِ بِرُوكُوفِيْنَا ، يَتَكَلَّمُ بِطَرِيقَةٍ « رَائِعَةٍ »
كَمَا عَبَّرَتْ أَخْتَا آجَلَايَا عَنْ ذَلِكَ فِيمَا بَعْدَ : لَقَدْ تَكَلَّمُ « بِتَوَاضُعٍ » وَهَدُوءٍ ،
وَرِصَانَةٍ ، وَوَقَارٍ ، دُونَ أَنْ يَقُولَ كَلَامًا زَائِدًا لَا مَحَلَّ لَهُ وَلَا دَاعِيَ إِلَيْهِ ،
وَدُونَ أَنْ يَحْرُكَ يَدَيْهِ بِإِشَارَاتٍ لَا جَدْوَى مِنْهَا • وَكَانَ قَدْ دَخَلَ الصَّالُونَ
دُخُولًا مَوْفَقًا كُلَّ التَّوْفِيقِ ، نَاجِحًا كُلَّ التَّجَاحِ ، وَكَانَتْ ثِيَابُهُ لَا مَأْخُذَ
عَلَيْهَا الْبَتَّةَ ! • لَمْ تَتَمَرَّ قَدَمُهُ فَيَسْقُطَ عَلَى الْأَرْضِ ، كَمَا كَانَ يَخْشَى
بِالْأَمْسِ !••• حَتَّى لَقَدْ أَحْدَثَ فِي نَفُوسِ جَمِيعِ الْحَاضِرِينَ أَجْمَلِ تَأْثِيرٍ •
وَقَدْ لَاحَظَ مِنْ جِهَتِهِ فَوْرًا ، بَعْدَ أَنْ جَلَسَ وَتَلَفَّتْ يَنْظُرَ فِيمَا حَوْلَهُ ،
أَنْ هَذَا الْجَمْعُ لَا يَشْبِهُ فِي شَيْءٍ ، الْأَشْبَاحَ الَّتِي أَخَافَهُ مِنْهَا آجَلَايَا بِالْأَمْسِ
وَلَا الْكُوَابِيسَ الَّتِي وَافَقَهُ فِي اللَّيْلَةِ الْبَارِحَةِ • هَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ

يكشف فيها زاوية مما يُطلق عليه هذا الاسم المروّج : « المجتمع الراقى » . لقد كان منذ مدة طويلة ، بسبب ما اعتقدت عليه نفسه من نيات ومشاريع وميول ، يحترق شوقاً الى دخول تلك الدائرة المسحورة ؛ وكان لذلك يساهل متحيراً أشد التحير عن الاحساس الأول الذى سوف يحسه فى هذا المجتمع . وكان احساسه قائماً رائماً . لقد بدا له فى الوهلة الأولى أن هؤلاء الناس كافة انما خلّقوا ليجتمعوا ، وأن آل ايبانتشين لا يقيمون « سهرة » ، وأنه ليس ازاء مدعوين بل ازاء اصدقاء « حميمين » ، وأنه هو نفسه فى موقف رجل يعود بعد فراق قصير الى أشخاص يحضهم الود ويشاركهم آراءهم . ان آداب سلوكهم التى تتميز بالفتنة والرقى ، وبساطتهم وصدقهم الظاهرى ، ان ذلك كله قد أحدث فى نفسه أثراً يشبه أن يكون سحرياً . لم يستطع حتى أن يخطر بباله أن هذه الطيبة وهذا النبل فى آداب السلوك وهذا السمو فى الفكر وهذا الشعور الرفيع بالكرامة ، أن ذلك كله قد لا يكون الا اخراجاً مسرحياً . والحق أن أكثر المدعوين كانوا رغم مهابتهم الظاهرية أناساً تافهين الى حد بعيد ، وكان غرورهم يمنهم من جهة أخرى أن يدركوا أن عدداً من مزاياهم ليس لهم فيه أى فضل لأنه غير شعورى أو لأنه مستعار أو لأنه موروث ؛ بل ان الأمير ، فى غمرة افتتانه بالاحساس الأول ، لم يُغره حتى أن يفترض هذا الافتراض . انه ، على سبيل المثال ، يرى شيخاً من كبار موظفى الدولة (يمكن أن يكون فى السن جداً له) ، يقطع حديثه لبصنى الى كلام شاب غرٍ مثله ليس بنذى خبرة . حتى ان هذا الشيخ لا يصغى اليه فحسب ، بل يبدو عليه أيضاً أنه يحترم رأيه ، فهو يظهر له كثيراً من الود واللطف ، وهو يبش له بشاشة فيها كثير من الصدق ، رغم أنهما لا يعرف أحدهما الآخر ، وانما يلتقيان أول مرة . لعل هذه التهذيب الناعم الرقيق هو الذى أثّر فى طبيعة الأمير الحارة الحساسة . ولعله حين جاء كان فى حالة نفسية تهيئ للنفاؤل .

والحقيقة هي ان الروابط التي كانت تصل بين جميع هؤلاء الأشخاص وبين أسرة ايباتشين ، كما تربطهم بعضهم ببعض ، كانت أوهى كثيراً مما ظن الأمير حين قدّم اليهم وتعرّف بهم . ان بينهم أناساً ما كان لهم أبداً أن يحدوا آل ايباتشين اتداداً لهم بحال من الأحوال . بل ان بينهم أناساً يكره بعضهم بعضاً أعماق الكره . ان العجوز بيلوكونسكايا كانت طوال حياتها «تزدري» امرأة ذلك الشيخ الذي هو من كبار موظفي الدولة . وكانت هذه الأخيرة من جهتها لا تحب اليزابت بروكوفينا .

ان « الموظف الكبير » الذي كان حامى الزوجين ايباتشين منذ منذ شبابهما والذي يحتل الآن فى بيتهما مكان الشرف ، كان له فى نظر الجنرال ايباتشين شأن يبلغ من العلو والرفعة أن الجنرال ايباتشين ما كان يستطيع بحال من الأحوال أن يشعر ازاءه بعاطفة غير عاطفة التقديس والرهبة . فلو ظن فى لحظات من اللحظات أنه ندّ له فكفّ عن اعتباره الهاة من آلهة الأولمب مثل جوبيتر ، اذن لاحتر نفسه صادقاً مخلصاً .

وكان بين الحضور أيضاً أناس لم يلتق بعضهم ببعض منذ سنين ، ولا يحمل بعضهم لبعض من عاطفة غير علم الاكرات ، هذا اذا لم يحمل بعضهم لبعض عداوة . ولكن هذا لا ينفي أنهم يلتقون الآن التقاء من كانوا بالأمس معاً ، فهم فى أشهى صحبة وأمتع مجالسة .

ولم يكن عدد المجتمعين كبيراً على كل حال . هناك ، عدا الأميرة بيلوكونسكايا ، و « الشيخ الجليل » الذي كان فى الواقع شخصية خطيرة الشأن ، وزوجته ، هناك رجل آخر يلتفت الانتباه ، هو جنرال يحمل لقب يارون أو كونت ، واسمه ألماني . ان هذا الرجل الصموت الى حد خارق كان يُشتهر بأنه يعرف شئون الدولة معرفة معجزة ، حتى لقد كان يُعدّ عالماً من العلماء ان صبح التعبير . انه واحد من أولئك الاداريين الفطاحل الذين يعرفون « كل شيء » الا روسيا ، والذين يصدرون فى كل خمسة

أعوام « فكرة يهز الناس عمقها ويكون لها دوى كبير » والذين يذهب كلامهم مذهب الأمثال ويصل الى مسامع أعلى الشخصيات مقاماً ، انه واحد من أولئك الموظفين الأعلين الذين يموتون فى العادة بعد عمر فى الوظيفة طويل جداً (بل طويل طويلاً عجيلاً) ، والذين يكونون قد وصلوا الى رتب عالية واحتلوا مناصب رائجة وملكوا ثروة ضخمة ، دون أن يكونوا قد قاموا مع ذلك بأية أعمال ساطعة بهرة ، حتى انهم يظهرون بعض النفور من الأعمال الساطعة الباهرة .

ان هذا الجنرال هو ، فى الوظيفة ، الرئيس المباشر لصاحبها الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشين الذى كان يعاطفة السكر الحارة ويدافع حب الذات أيضاً يرى أن لرئيسه عليه أياذى بيضاء ويعتقد أنه مدين له بفضل كبير ، رغم أن الآخر سم يكن يعد نفسه محصناً الى ايفان فيدوروفتش أو منعماً عليه ، حتى لقد كان لا يكثرث به كثيراً . وهو رغم رضاه عن الخدمات التى يقدمها اليه ايفان فيدوروفتش ، مستعد لأن يستبدل به شخصاً آخر على الفور اذا ظهر له أن نمة اعتبارات ، ولو كانت ثانوية ، تجعل الاستغناء عنه أمراً مناسباً .

وكان الحفل يضم شخصية أخرى خطيرة الشأن هى رجل متقدم فى السن يبدو عليه أنه يمت بقربى الى اليزابت بروكوفينا ، ولكنه فى حقيقة الأمر لا تربطه بها أية قرابة . ان له رتبة ومركزاً يحسد عليها . هو رجل غنى كريم المحتد ، قوى البنية ، مزدهر الصحة . وهو الى ذلك محدث بارع . وقد اشتهر بأنه رجل مستاء (بالمعنى المقبول لهذه الكلمة) بل أنه رجل ساخط (وتلك سمة كانت فيه ذات سحر وفنة) وكانت آدابه فى السلوك آداب رجل ارستوقراطى انجليزى ، وكانت ميوله وأذواقه انجليزية أيضاً (من ذلك أنه كان يحب أن يأكل الشواء دامياً ، ويحب المركبات الفخمة ، ويحب الحدم بأزيائهم الرسمية) . وهو على

علاقة حميمة بالشيخ الجليل ، « الموظف الكبير » ، يذل في سبيل تسليته كل جهد . وكانت اليزابت بروكوفينا ، من جهة أخرى ، تداعب خيالها فكرة غريبة هي أن هذا البارون (الذي كان لا يُعد من المتمسكين كثيراً بأهداب الفضيلة ، وكان يُعد من هواة الجنس اللطيف) قد يريد ذات يوم أن يحقق سعادة ألكسندرا بطلب يدها .

وتحت هؤلاء المدعويين الذين هم أعلى أفراد الحفل مقاماً وأكثرهم مهابة ، تأتي فئة من المدعويين أصغر سناً ، لكن أفرادها أناس مرموقون أيضاً . فمن هؤلاء الأمير « شتش . . . » وأوجين بافلوفتش ، ومنهم الأمير « ن . . . » المعروف بما حقق من انتصارات مع النساء في أوروبا . انه في نحو الخامسة والأربعين من العمر ، فأرع القامة ممشوق القد ، يملك موهبة مدهشة في الحديث ويتمتع بقدرة عجيبة على سرد القصص ورواية الحكايات . وهو رغم أن ثروته تضائلت قليلاً ، ما يزال يؤثر أن يقضى أيامه في الخارج محتفظاً بهذه العادة .

وهناك أخيراً فئة ثالثة تضم أولئك الذين لا ينتمون الى « الدائرة المغلقة » من المجتمع ، ولكن يمكن أن نراهم فيها أحياناً ، فمن هؤلاء مثلاً أسرة ايباتشين نفسها . كان آل ايباتشين ، بما لهم من حسن سليم ولباقة يستوحونها سلوكهم ، يحبون في المناسبات القليلة التي يقيمون فيها حفلات استقبال ، أن يجلبوا بين أفراد المجتمع العالي وبين أفراد طبقة أدنى تمثل صفوة « المجتمع المتوسط » . فكان الناس يحمدون لهم هذا الحساب ويصفونهم بأنهم يعرفون مكانهم ويحسنون التصرف ، وذلك رأى كان آل ايباتشين يعززون به .

فالى تلك الطبقة المتوسطة كان ينتمى أحد المدعويين وهو مهندس برتبة كولونيل ، يتصف بالجد وتربطه بالأمير « شتش . . . » صداقة قوية ، فالأمير « شتش . . . » هو الذي عرفه بأسرة ايباتشين وأدخله الى بيتها .

وكان الرجل قليل الكلام فى المجتمع ، يزيّن ابهام يده اليمنى خاتم
ضخم أغلب الظن أنه هدية امبراطورية .
وأخيراً فقد كان بين الحضور أديب شاعر أصله ألماني لكن أدبه
روسى . انه رجل فى نحو الثامنة والثلاثين من عمره ، لائق المظهر
فلا ضير فى ادخاله الى المجتمع الراقى . ان هيئته حسنة ، رغم أن فى وجهه
شيئاً يبعث على النفور . وهو يعنى بهندامه عناية كاملة ، وينتمى الى أسرة
ألمانية ان تكن بورجوازية فانها تحظى باعتبار كبير . ولقد كان يحسن
الاستفادة من الظروف وانتهاز الفرص ليندس تحت حماية شخصية من
الشخصيات العالية ، وأن يحافظ على الخطوة لديها . وقد ترجم فى الماضى
عن اللغة الألمانية الى اللغة الروسية كتاب شاعر جرمانى كبير ، وصدر
الكتاب المترجم باهداء مفيد . وكان يحسن الانتفاع بعلاقات الصداقة مع
شاعر روسى شهير توفى الآن (ان هناك قصة كبيرة من الكتاب يحلو
لأفرادها أن يعرضوا ما كان بينهم وبين مؤلف مشهور من صداقة حميمة ،
متى مات ذلك المؤلف) ، وقد أدخلته الى أسرة ايباتشين منذ مدة قصيرة
زوجة « الشيخ الجليل ، الموظف الكبير » . كانت هذه السيدة تعد
حامية الأدباء والعلماء . والحق أنها قد دبّرت راتباً لكاتب أو كاتبين
بواسطة أناس من اصحاب المناصب الرفيعة الذين كان لها عليهم نفوذ .
ولقد كان لها فى الواقع تأثير ووزن . انها فى الخامسة والأربعين من
عمرها (فهى اذن شابة بالنسبة الى زوجها الذى كان شيخاً) ، ولقد كانت
جميلة وكانت ما تزال تحب . وذلك ميل شائع فى كثير من النساء اللواتى
بلفن عمرها - أن تتردى ملابس فيها كثير من البهرج . وكان ذكاؤها
دون الوسط ، وكانت ثقافتها الأدبية مشكوكاً فيها . ولكنها كانت مولعة
أشد الولع بحماية الأدباء ، كولعها بارتداء أحلى الملابس . وكانت تهدى
اليها كتب كثيرة وترجمات كثيرة . وقد تشر كاتبان أو ثلاثة ، بمد
استئذانها ، الرسائل التى كانوا قد كتبوها اليها فى موضوعات هامة جداً .

ذلك هو المجتمع الذى حسبه الأمير فضة خالصة أو ذهباً نقياً بغير شائبة . وعدا هذا فقد اتفق أن كان جميع هؤلاء فى ذلك المساء ، زاحرين بالتفاؤل مفتئين بأنفسهم . كان كل واحد منهم مقتنعاً بأن زياته تقرر أسرة ايباتشين فخرأ وشرفاً . ولكن الأمير ، وا أسفاه ، لم يكن يدرك هذه اللطائف ولا كانت تخطر له على بال . لم يدر فى خلده مثلاً أن آل ايباتشين ، وقد اتخذوا قراراً يبلغ من الخطورة مبلغ هذا القرار الذى يتوقف عليه مصير ابنتهم ، ما كان لهم أن يتجرأوا على اعفاء أنفسهم من تقديمه ، هو الأمير ليون يقولانفتش ، الى هذا الموظف الكبير الشيخ ، الذى يعد حامى أسرته ؛ وأن هذا الشيخ الذى يمكن أن يحتفظ بأكمل هدوءه وأنتم سكينته اذا علم أن كارثة كبيرة قد حلت بأسرة ايباتشين ، لا بد أن يستاء أشد الاستياء وأن يعد نفسه مهاناً الى أبعد حدود الاهانة لو زوج الأبوان ابنتهما دون أن يستشيراه ودون أن يحصلا على موافقته ان صبح التعبير . أما الأمير « ن . . . » ، هذا الشاب الفتان ، الذى لا شك فى أنه يفيض مرحاً وصراحة ، فقد كان مقتنعاً اقتناعاً مطلقاً بأن ظهوره هذه الليلة فى صالون أسرة ايباتشين حادث يشبه شروق الشمس . انه يضعهم فى موضع أدنى منه بمائة قدم ؛ ولا شك أن هذه الفكرة البريئة النبيلة هى التى كان يستمد منها طلاقته المحببة وبشاشته الودود فى معاملتهم . كان يعلم أنه سيجب عليه فى تلك السهرة أن يروى شيئاً ليبهج الحفل ويفتنه ، فكان يستمد لهذا الأمر وينتهي للقيام بهذا الدور وقد توقدت قريحته ووافاه الهامه . ان الأمير ليون يقولانفتش حين أصغى بعد قليل الى ما حكاه هذا الشاب قد أحس أنه ما سمع فى يوم من أيام حياته شيئاً يمكن أن يقارن بهذه الفكاهة المتألقة ، وهذا المرح المدهش وهذه السذاجة التى تكاد تكون مؤثرة فى فم دون جوان مثل الأمير « ن . . . » . ليته عرف الى أى حد كانت هذه الحكاية قديمة عتيقة ، ذابطة زاوية ، معادة مكرورة . ان هذه القصة التى رواها الأمير

• ن • • • • • : يمكن أن تمد عند آل ايباتشين السذج اليسطاء فكاهة جديدة وارتجالاً متألقاً يصدر صادقاً عفواً الحاطر عن محدث بارع فنان فكاهة ، ولكنها فى أى صالون آخر لا بد أن يُحكّم عليها بأنها باعثة على أكبر الضجر وأشد الملل والسأم • وحتى الشويمير الألمانى ، رغم كل ما اصطنعه من تودد وتواضع ، كان يميل كذلك الى الاعتقاد بأن حضوره يشرف الدار •

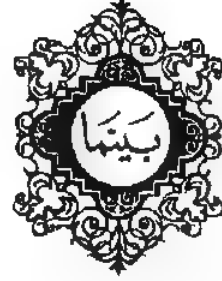
ولكن الأمير لم يلاحظ من الموقف الا وجهه الحسن ، أما وجوهه الأخرى فهو لا يراها • ولم تكن آجلانيا قد تنبأت بذلك كله • حتى انها كانت هى نفسها فى ذلك المساء رائحة الحسن باهرة الجمال • كانت الفتيات الثلاث يرتدين ثياباً أنيقة ، ولكن بنير غلو واسراف ، وقد صقّفن شعورهن تصفيفاً جديداً غير مألوف لهن أو معهود فيهن •

وكانت آجلانيا جالسةً قرب أوجين بافلوفتشس تكلمه وتمازحه بلهجة حسيمة جداً • وكان أوجين بافلوفتشس أكثر رصانة مما عهد فيه ، ولا شك أن ذلك كان منه مراعاة ومداراة للشخصيات المرموقة التى يضمها الحفل • على أنه رجل معروف فى اجتماعات المجتمع الراقى منذ مدة طويلة ، وكان ينظر اليه على أنه واحد من أبناء ذلك المجتمع • وقد حضر فى ذلك المساء وعلى قبعته شريط أسود ، وهذا ما جلب له ثناء الأميرة بيلوكونسكايا : ففى ظروف كهذه الظروف ما كان لرجل آخر من أبناء المجتمع الراقى أن يفعل مثل هذا حداداً على وفاة عم كذلك العم • وقد أظهرت الزابت بروكوفينا رضاها عن ذلك وارتياحها له أيضاً • ولكن كان يبدو عليها كثير من الهم واشغال البال •

ولاحظ الأمير أن آجلانيا نظرت اليه مرة أو مرتين باتباه ، وبدا عليها الرضى عنه • وشيئاً بعد شيء أحس بقلبه يتفتح سعادةً • ان الحواطر «الخيالية» والمخاوف التى اجتاحتها من قبل (بعد حديثه مع ليديف) تبدو

له الآن ، من خلال تذكرها تذكراً مفاجئاً ولكنه متكرر ، أشبهه بأحلام
لا صلة بينها وبين الواقع ، أحلام غير مقبولة بل ومضحكة ! (وقبل
ذلك ، طوال النهار ، كانت أعزُّ رغبة في قلبه ، وإن تكن رغبة غير
شعورية ، هي أن يبرهن لنفسه على أنه لم يكن نعمة مجال لتصديق تلك
الأحلام) . وكان يتكلم قليلاً ، ويقتصر على الإجابة عن الأسئلة التي
تُلقى عليه . وفي النهاية لزم صمتاً كاملاً ، وظل يصغى الى الآخرين
كإنسان بلغ قمة السعادة . شيئاً فشيئاً ، استولى عليه نوع من الإلهام
مستعد لأن ينطلق في كل لحظة ... ومع ذلك ، لئن عاد يتكلم فهو إنما
تكلم مصادفةً ليجيب عن سؤال ، دون أية نية مبيتة فيما يبدو ...

الفصل السابع



كان الأمير يتأمل آجلايا وقد غمرته السعادة ،
متابعاً مع الأمير « ن . . . » وأوجين بافلوفتش
حديثاً مرحاً ، كان الرجل المسن الذى يصطنع
سلوكاً انجليزياً ، كان يتحدث فى الطرف الآخر
من الصالون مع « الموظف الكبير » ، فاذا هو أثناء الاندفاع فى الكلام
ينطق باسم نيقولا أندريفتش بافلتشيف فجأة . فالتفت اليهما الأمير على
الفور وأخذ يتابع حوارهما .

كان الكلام يدور على الأنظمة الجديدة وعلى مانسأ عنها من اضطرابات
فى توزيع أملاك كبار المالكين بمقاطعة « ز . . . » . ولا بد أن القصة التى
كان يرويها الرجل المشغوف بصادات الانجليز كانت فى ذاتها باعثة على
الضحك لأن « الموظف الكبير » قد أخذ يضحك أخيراً حين سمع صاحبه
يعبر عملاً فى نفسه من مرارة . كان الرجل المشغوف بصادات الانجليز
يتكلم بسهولة ويسر ، مصنفاً مطلاً ألفاظه وتلين حروفه ، وكان يروى
كيف أن تلك النظم الجديدة قد أجبرته على أن يبيع بنصف الثمن أرضاً
رائمة كان يملكها فى تلك المقاطعة ، رغم أنه لم يكن فى حاجة الى مال ؟
وكيف احتفظ فى الوقت نفسه بأرض خراب يباب لا يجنى منها الا
الحسارة ، عدا اضطرابه الى ملاحقة دعوى فى شأنها لدى القضاء . « ومن
أجل أن أحاضى ملاحقة دعوى أخرى تتعلق بالأراضى التى خلفها
بافلتشيف ، آثرت أن أزهّد بالميراث أصلاً . يكفى أن يثول الى ميراث

أو ميراثان من هذا النوع حتى تصبح حالي الى دمار • لاحظ أن نصيبي
من ذلك الارث كان يقدر بثلاثة آلاف هكتار ، أحياناً ممتازة ! » •

لاحظ ايغان فيدوروفتش الاهتمام الشديد الذي كان ينصرف به
الأمير الى ذلك الحديث ، فاقرب منه فجأة وقال له بصوت خافت :

- اسمع ••• ان ايغان بتروفتش يمت بقرابة الى المرحوم نيقولا
آندريفتش بافلتشف • أظن أنك تبحث عن أقرباء له ، أليس كذلك ؟

كان ايغان فيدوروفتش حتى ذلك الحين لا يتجه بنظره وعنايته الى
أحد غير رئيسه الجنرال • لكنه وقد لاحظ منذ برهة أن ليون نيقولايفتش
مهمل اهمالاً تاماً ، شعر من ذلك بشيء من القلق • لهذا حاول أن
يشركه في الحديث بعض الاشراك بتقديمه الى «الشخصيات» مرة أخرى
وبتركيبته لديها • فلما وقع بصره على ايغان بتروفتش قال :

- ان ليون نيقولايفتش انما نشأ نيقولا آندريفتش بافلتشف ،
حين مات عنه أبواه •

فأجاب ايغان بتروفتش بقوله :

- ت ••••• فنا • واني لأذكرك تذكراً واضحاً • لقد
عرفتك وتذكرت حتى وجهك منذ تولى ايغان فيدوروفتش تعريف كل منا
بالآخر • الحق أنك لم تتغير كثيراً ، رغم أن عمرك لم يكن يتجاوز العاشرة
أو الحادية عشرة حين رأيتك • حتى أن في ملامحك شيئاً رسخ في
ذاكرتي •••

سأله الأمير بما يشبه الشده :

- عرفتي طفلاً ؟

فتابع ايغان بتروفتش كلامه يقول :

- منذ زمن بعيد جداً!... كان ذلك في زلاتوفرخوفو ، حيث كنت تقيم عند قريباتي . كنت في ذلك العهد أكثر من الذهاب الى هناك . ألا تذكرني ؟ لا عجب ... لقد كنت عندئذ في حالة مرضية لا أدري ما هي ... حتى انني أذكر أن دهشة شديدة قد اعترتني حين رأيته .
قال الأمير مؤكداً بحرارة :

- أنا لا أنذكر شيئاً !

وأضاف ايفان بتروفتش ، بكثير من الرصانة والوقار ، بضعة أقوال أخرى أدهشت الأمير وأثرت في نفسه . قال ان الآستين المعجوزين اللتين تمان بقراءة الى المرحوم بافلتشف وكاتنا تعيشان في أراضيه بزلاتوفرخوفو ، واللتي عهد إليهما بتربية الأمير ، هما في الوقت نفسه قريبتان له . وكسائر الناس ، كان ايفان بتروفتش لا يكاد يعرف شيئاً عن البواعث التي خضع لها بافلتشف حين اهتم ذلك الاهتمام كله بالأمير الصغير الذي كفله بافلتشف وجعل نفسه وصياً عليه . « لم يخطر ببالي أن أسأل عن هذا الأمر في ذلك الوقت » . كذلك قال ايفان بتروفتش . ولكنه برهن مع ذلك على أن له ذاكرة ممتازة ، فهو لم ينس حتى أن كبرى قريباته ، وهي مارتا نيكيتشينا ، كانت شديدة القسوة على الأمير الذي عهد به إليها ، وأضاف ايفان بتروفتش الى ذلك قوله : « حتى لقد بلغت من قسوتها انني شاجرتها مرة بسبيك ، لأنني كنت أشجب أسلوبها في التربية ، القائم على أن تلهب بالسياط جسم طفل مريض ... وهذا ... كما تعلم ... » ولا كذلك أختها الصغرى ناتاليا نيكيتشينا ، فقد كانت نفسها زاخرة بالحنان على الطفل المسكين ... لا بد أن تكونا الآن كلاهما في مقاطعة ز ، حيث أورثهما بافلتشف أرضاً ممتازة (ولكن أما تزالان على قيد الحياة ؟ لا أدري) . أظن أن مارتا نيكيتشينا كانت تتوى أن تدخل الدير . على أنني لا أؤكد ذلك . من الجائز أن أكون

قد سمعت هذا الكلام عن امرأة أخرى ... نعم .. تذكرت ...
لقد قيل لي هذا عن زوجة طيب ... ،

كان الأمير يصنى الى هذه الأقوال وقد سطعت عيناه فرحاً ونشوة
وحناً . وأعلن من جهته بحرارة شديدة أنه لن يغفر لنفسه في يوم من
الأيام أنه تنقل في داخل البلاد خلال هذه الأشهر الستة ثم لم يتج له
أن يعضى الى زيارة مربيته . لقد كان في كل يوم ينوى أن يفعل ذلك ،
ثم تحول الظروف بينه وبين انفاذ ما يعقد النية عليه ... غير أنه في هذه
المرّة قد قرر جازماً أن يذهب الى مقاطعة ز ... وأضاف الأمير : « أنت
تعرف اذن ناتاليا نيكيتشينا ؟ يا لها من امرأة عظيمة ، قديسة ! وكذلك
مارتا نيكيتشينا ... معذرة .. يخيّل الى أنك تخطيء الظن فيها قليلاً
... صحيح أنها كانت قاسية ، ولكن يجب أن تُعذر ... كيف
لا يُفقدّها صبراً طفل أبله تماماً في ذلك الأوان ؟ (هيء هيء !)
اتى كنت أبله كل البلاءة حينذاك . ألا تصدق ؟ (ها ها !) ثم ..
ثم انك قد رأيتني في ذلك العهد ، و ... ألا تلاحظ أنني لا اتذكرك ؟
ألا يدل هذا على أنني ... آه ... يا رب ! أضحح أنك قريب يقولوا
آندريفتشس يافلتشيف حقاً ؟

قال ايفان بتروفتشس مبتسماً وهو يتفرس في الأمير :

— أ ... و ... كد لك ذلك !

— أرجوك ... ما أردت أن أقول أنني أشك في صدق كلامك .
ثم ... هل يمكن الشك في هذا (هيء هيء !) ... ولو قليلاً ؟ نعم ،
ولو قليلاً ؟ (هيء هيء !) . وانما أردت أن أقول ان المرحوم يقولوا
آندريفتشس يافلتشيف كان رجلاً رائعاً ، كان انساناً عظيماً ! ما كان
أكرمه ! أحلف لك ...

لا أقول ان الأمير كان يشعر باختناق ، بل أقول ان « امتلاء قلبه
بالسعادة قد سدَّ حلقه » على حد التعبير الذى استعملته آديلايد فى الغداة
حين تحدثت مع خطيبها الأمير « شئت ... »

قال ايفان بتروفتش ضاحكاً :

— ولكن لماذا يستحيل أن أمت بقرابة لرجل كريم كرماء .. خطيباً؟
اضطرب الأمير وشعر بهخجل شديد فأسرع يقول بتمجمل وحرارة
ما ينفكان يترايدان :

— أنا ... أنا ... هذه حماقة جديدة أرتكبها ... هذه سخافة
جديدة أقولها ... لأننى .. لأننى .. لأننى .. يميناً ان لسانى قد خان
فكرى ! ولكننى أعود فأسألك ما عسى تكون قيمة شخصى أنا بالقياس الى
أمر كهذه الأمور ، بالقياس الى أمور ضخمة هذه الضخامة ؟ بالقياس
الى رجل عظيم هذه العظمة ! ذلك أنه — شهد الله — كان أعظم الرجال
... أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

كانت أعضاء الأمير كلها ترتعش . أما من أين جاء هذا التأثير
المباغت ولماذا اجتاحت هذه العاطفة كلها فجأة ، دون تناسب بينها وبين
موضوع الحديث ، فذلك أمر يصعب تحليله . ولكننا نستطيع أن نقطع بأنه
بلغ من الانفعال فى تلك اللحظة أنه كان يحس بشعور الشكر كأولياً
محرفاً ، دون أن يعرف ماذا يشكر ولا من يشكر ، حتى لكأن الشكر
لايفان بتروفتش نفسه ولسائر الحضور أيضاً . كان الأمير يفتح سعادة .
نظر الى ايفان بتروفتش بعز يد من التفرس . وحدق ايه « الموظف
الكبير » بكثير من الانتباه كذلك . وألفت عليه الأميرة بيلوكونسكايا نظرات
تفيض غضباً وحققاً ، وأخذت تقرص شفتيها . وتوقف الأمير « ن .. » ،
وأوجين بافلوفتشي ، والأمير « شئت ... » والآسات ، وسائر

الحاضرين ، توقفوا جميعاً عن الكلام وأصاخوا بأسماعهم • وكانت أجلايا تبدى اشارات رعب ، وكانت اليزابت بروكوفينا قد خرجت عن طورها حقاً • عجيب أمر الأم وبناتها : انهن هن اللواتى قررن وارتأين أن من الأفضل أن يبقى الأمير صامتاً طوال السهرة ، فلما رأيته متمزلاً كل الانزال فى ركن من الصالون راضياً عن حظه مفتوناً به ، أخذ يساورهن الحوف ؟ حتى لقد خطر ببال آديلايد أن تقطع الغرفة كلها مقربة منه على حذر لتقوده الى جماعتها التى تضم الأمير • ن • • • ، قرب الأميرة بيلوكونسكايا • حتى اذا اندفع الآن فى الحديث تضاعف قلقهن وازدادت مخاوفهن •

قال ايفان بتروفتش بلهجة فخمة وقد كف عن التبسم :

— انك لعلى حق حين تصفه بأنه كان انساناً رائعاً • • • نعم ، لقد كان انساناً ممتازاً •

وأضاف بعد صمت قصير :

— انساناً ممتازاً وجديراً بالاعتبار •

وزاد على ذلك بعد برهة أخرى فقال :

— بل ويمكن القول انه كان جديراً بكل احترام • ومما يثلج صدر المرء حقاً أن يرى أنك من جهتك • • •

قال « الموظف الكبير » وهو يحاول أن يستجمع ذكرياته :

— أليس بافتشيف هذا هو ذلك الرجل الذى كانت له حكاية • •

خاصة • • • مع قس • • مع القس • • • نسيت اسمه • • ولكن أتارت حكايته فى حينها لفظاً كثيراً • • ؟

قال ايفان بتروفتش :

- القس جورو ، رجل يسوعى • نعم ، أولئك هم رجالنا המתأزون
الجدىرون بالاعتبار ! ولكن بأفلتشيف كان نبيل المحتد وكان يملك ثروة ،
وكان موظفاً بالبلاط ... ولو بقى فى الوظيفة لأمكن أن ... ولكنه
ترك وظائفه وترك جميع علاقاته فجأة ليعتنق الديانة الكاثوليكية ويصبح
يسوعياً حتى لقد فعل ذلك بما يشبه الحماسة • بصراحة : لقد مات فى
الوقت المناسب • نعم • جميع الناس قالوا هذا حين مات ...

أصبح الأمير لا يستطيع كبح جماح نفسه ، فصاح يقول بلهجة
مروعة :

- بأفلتشيف ... بأفلتشيف اعتنق الكاثوليكية ؟ مستحيل !
فدمدم ايفان بتروفتش بلهجة رصينة :

- كيف « مستحيل » ؟ هذا كثير يا عزيزى الأمير • يجب أن توافق
على أن ... ولكنك تقدر المتوفى قدراً كبيراً والحق أنه كان انساناً ذا قلب
كبير ، وذلك هو السبب الذى أعزوا ابيه خاصة كل ما حققه ذلك المحتال
جورو من نجاح لديه • ولكن فى وسعك أن تسألنى أنا عن المتاعب والهموم
التي أصابتنى فى أعقاب هذا الأمر ... ولا سيما مع جورو ذاك نفسه !

وأضاف ايفان بتروفتش يقول ملتفتاً نحو الرجل العجوز مخاطباً
اياه :

- تصور انهم أرادوا حتى أن يدعوا حقوقاً فى الميراث • فاضطرت
أن أعمد الى أشد الاجراءات لأسمهم صوت العقل وأردهم الى الصواب •
ذلك أنهم يعرفون ما يفعلون • هؤلاء أناس مدهشون ! ولكن ... الحمد
لله ! لقد حدث الأمر بموسكو ، فاتجهت فوراً الى الكونت وأرجعناهم
الى الرشاد •

هتف الأمير يقول من جديد :

- لا تستطيع أن تتصور مدى ما أحدثته في نفسي من ألم واضطراب!
- آسف . ولكن ذلك كله لم يكن في حقيقة الأمر الا سفاسف ،
وكان يمكن أن ينتهى بسلام ، كما يحدث عادة . اننى مقتنع بذلك .
ثم أضاف يقول مخاطباً العجوز من جديد :

- فى الصيف الماضى دخلت الكويتية ك أحد الأديرة
بالخارج ، فيما يقال . ان مواطنينا لا يملكون أية قدرة على المقاومة حين
يتسلط عليهم أولئك المحتالون ، ولا سيما فى الخارج .

- أظن أن مرد ذلك كله الى أننا متعبون . ثم ان لأولئك الناس
أسلوباً فى التبشير يمتاز بكثير بكثير من الرشاقة والأناقة ، هذا عدا
أن لهم شخصية قوية ، فيعرفون كيف يخيفونك ويروغونك . لقد
أخافونى أنا نفسى . اعترف لكم بذلك . حدث هذا سنة ١٨٣٢ بمدينة
فيينا . ولكننى لم أسقط بين أيديهم ، بل وليت هارباً . ها ها ! يميناً لقد
وليت هارباً !

هنا تدخلت الأميرة بيلوكونسكايا فجاءت فقالت :

- لقد سمعت يا سديقى العزيز أنك فى ذلك الوقت قد هربت من
فيينا الى باريس فى صحبة امرأة جميلة هى الكويتية ليفيكي . فمن أجل
تلك المرأة ، لا تخلصاً من يسوعى ، انما تركت الخدمة .

أجاب العجوز مبتسماً لحلاوة تلك الذكرى الجميلة :

- طيب ولكن هذا لا ينفى أن ذلك حدث بسبب يسوعى . . .

ثم أضاف يقول بلهجة لطيفة ودود ، مخاطباً الأمير ليون يقول لايفتش
الذى كان يصفى الى الحديث فأنغر الفم من الدهشة ، وكان ما يزال يبدو
مصعوقاً :

— يبدو عليك أن لك عواطف دينية قوية جداً ، وذلك أمر يندر أن نراه الآن لدى الشباب •

كان واضحاً أن المعجوز يرغب في معرفة الأمير معرفة أكمل ، وأن هناك أسباباً تدفعه الى بدء الاهتمام به اهتماماً قوياً •
قال الأمير فجأة :

— كان بافلتشفيف رجلاً صافى الذهن راجح العقل ، وكان مسيحياً حقاً • فكيف يمكن أن يعتنق ديانة ••• ليست مسيحية ؟ ذلك أن الكاثوليكية دين ليس من المسيحية فى شيء !

كانت عيناه مسطمان وكان يعجل بصره على من حوله كأنه يريد أن يشمل الحضور كافة بنظرة واحدة •

جمعهم المعجوز يقول وهو يرشق ايفان بتروفتش بنظرة تتم على الدهشة :

— أظن أن فى هذا بعض الغلو !
وانبرى ايفان بتروفتش يسأل الأمير قائلاً له وهو يستدير على كرسيه :

— أفليست الكاثوليكية ديانة مسيحية ؟ فما هى إذن ؟
استأنف الأمير كلامه قائلاً بانفعال شديد ولهجة قاطعة الى أقصى الحدود :

— هى أولاً ديانة ليس فيها شيء من المسيحية • هذه نقطة أولى •
أما النقطة الثانية فهى أن المسيحية الرومانية أسوأ من الألحاد نفسه فى رأيى ! نعم ، ذلك هو رأيى ! ان الألحاد يقتصر على المنادة بالعدم ، أما الكاثوليكية الرومانية فهى تمضى الى أبعد من ذلك : انها تبشر بمسيح

شوهته وأفسدت صورته وسوأت وجهه ، انها تبشر بمسيح هو نقيض الحقيقة . انها تبشر بنقيض المسيح ، أؤكد لكم ! هذه قناعتى الشخصية منذ زمن طويل ، وما أكثر ما عذبتنى أنا نفسى . ان الكاثوليكية الرومانية تؤمن بأن الكنيسة لا يمكن أن تبقى على الأرض ما لم تمارس سلطة سياسية شاملة ، وتكتب : « لا نستطيع » * ! بن ان الكنيسة الرومانية فى رأى ليست ديانة . وانما هى استمرار للإمبراطورية الرومانية الغربية . فكل شئ فيها خاضع لهذه الفكرة ؛ حتى الايمان . لقد استولى البابا على أرض ، وأصبح لك مُلك زمنى ، وأشهر السيف . ثم لم يتغير شئ منذ ذلك الحين ، اللهم الا أن يكون السيف قد أُضيف اليك الكذب والمكر والخديعة والتعصب والخرافة والسفالة . لقد عبثوا بأقدس عواطف الشعب وأثقاها وأكثرها سذاجة وبراءة ، وحماسة وحرارة . لقد باعوا كل شئ بالمال ، كل شئ باعوا كل شئ بسلطة زمنية حقيرة . فكيف لا تكون هذه العقيدة نقيض المسيحية ؟ وكيف يمكن أن لا تكون الكاثوليكية سبب الالحاد ؟ لقد خرج الالحاد من الكاثوليكية الرومانية نفسها ! وبأتباع الكاثوليكية انما بدأ الالحاد : هل كان يمكن أن يصدقوا أنفسهم ؟ ثم قوى الالحاد بالكره الذى حملته لهم الناس . ان الالحاد ثمرة أكاذيبهم وعجزهم الأخلاقى . الالحاد ! ما يزال الالحاد فى بلادنا لا يرى الا فى بعض فئات المجتمع ، لا يرى الا لدى « المجنونة جفوره » على حد التعبير الموفق الذى استعمله أوجين بافلوفتش . أما هناك ، فى أوروبا ، فان جماهير كبيرة من الشعب قد بدأت تفقد الايمان . كان عدم تدينها فى الماضى ناشئاً عن الجهل والكذب . أما الآن فهو ناشئ عن التعصب وعن كره الكنيسة والمسيحية !

توقف الأمير عن الكلام لاهتاً . لقد تكلم بتدفق شديد . هو الآن صاحب اللون مخفق الصدر . تبادل الحضور نظرات دهشة . وأخيراً

أخذ الشيخ الصغير يضحك ضحكاً صريحاً • وأخرج الأمير « ن • • »
نظارته وأخذ يحدق بها الى الأمير ليون يقول لا يقتش • وترك الشويسر
الألماني الركن الذي كان قد تلبث فيه حتى ذلك الحين فاقرب من المائدة
وعلى شفتيه ابتسامة عداوة •

قال ايفان بتروفتش بصوت ممطوط ، وقد لاح في وجهه الضجر
بل والانزعاج :

— أن • • ت • • تبا • • لغ • • كثيراً ! ان تلك الكنيسة يمثلها
كذلك رجال يستحقون كل احترام ، رجال فضلاء • • •

— أنا لم أتكلم عن ممثلي الكنيسة كأفراد • وانما تكلمت عن الكنيسة
الرومانية في حقيقتها ، أنا انما تكلمت عن روما • هل يمكن أن تزول
الكنيسة زوالاً تاماً ؟ أنا لم أقل هذا قط !

— موافق • ولكن كل ما تقوله معروف فلا داعي الى الكلام فيه •
ثم • • • ثم ان هذا كله من اختصاص علم اللاهوت • • •

— لا ، لا ، ليس هذا من اختصاص علم اللاهوت وحده ، أؤكد
لك ! هذا أمر يمينا كلنا مساً أقرب كثيراً مما تتصور • هنا انما يمكن
خطؤنا : ما يزال يصعب علينا أن نألف فكرة أن هذه المسألة ليست مسألة
لاهوتية فحسب ! لا تنسوا أن الاشتراكية هي أيضاً ثمرة الكاثوليكية •
فلاشترائية ، كأخيها الاتحاد ، انما ولدت من اليأس • انها ردت على
الكاثوليكية • انها ترمي الى امتلاك السلطة الروحية التي فقدتها الدين ،
تهدف الى ارواء الظمأ الشديد الذي يحرق النفس الانسانية ؛ وهي تشد
السلام لا في المسيح بل في العنف ! انما نرى هنا ، كما نرى في
الكاثوليكية ، أناساً يريدون تأمين الحرية بواسطة العنف ، ويريدون
تحقيق الاتحاد بالسيف والدم ! « ممنوع » الايمان بالله • ممنوع التملك •

ممنوع أن يكون للمرء شخصية • الأخوة أو الموت • ولو قطع مليوناً رأس • • وقد يماً قيل : تعرفونهم من أعمالهم ! ألا لا يذهبن بكم الظن الى أن هذا كله لا أذى فيه ، ولا خطر علينا منه ! لا • • • يجب علينا أن نعمل ، وأن نعمل بأقصى سرعة • ينبغي لمسيحنا ، للمسيح الذي حافظنا عليه ولم يستطعوا حتى أن يعرفوه ، ينبغي لهذا المسيح أن يشرق ويتألق في مواجهة الغرب • علينا أن نتعصب أمامهم ، لا لنعض صنادير يسوع فتصطادنا ، بل لتنفث فيهم حضارتنا الروسية • ولا يقل أحد لنا انهم يعرفون كيف يبشرون بآفاق ورشاقة ، كما قال واحد منا منذ برهة • • • أجاب إيفان بتروفتش قائلاً وقد لاح في وجهه قلق شديد ، وأخذ يلقي على ما حوله نظرات دهشة ، بل وطفق يظهر علامات رعب :

- ولكن اسمح لي ، اسمح لي • • • لا شك أن آراءك آراء محمودة ، ولا شك أنها تزرخ وطنية ، ولكن ذلك كله فيه غلو كثير ، فمن الخير أن نقف عند هذا الحد لا نتجاوزه • • •

- لا ، ليس ثمة شيء من غلو ، بل ان ما أقوله هو دون الحقيقة ، لأنني عاجز عن التعبير عن فكري كله ، ولكن • • •
- آ • • • اس • • • مح لي !

صمت الأمير جامداً على كرسيه ، رافعاً رأسه ، راشقاً إيفان بتروفتش بنظرة مشتتة •

قال الشيخ الصغير بلهجة ودود دون أن يخرج عن هدوئه :

- يبدو لي أنك أخذت فعلة صاحبك المحسن اليك مأخذ الفاجعة • ان أعصابك مهتاجة • • • وربما كان مرد ذلك الى العزلة التي تعيش فيها • فلو عاشرت الناس (وأنا آمل أن يحسن المجتمع الراقى استقبال شباب

ممتاز مثلك) لهدأت ثائرتك ولوجدت أن هذا كله أبسط كثيراً مما
تصور تم ان هذه الحالات نادرة جداً وفى رأى أن بعضها
يرجع الى شعبنا ، وأن بعضها الآخر يرجع الى السأم ..
صاح الأمير يقول :

- نعم هذا هو الأمر تماماً . هذه فكرة عظيمة ! انه «السأم» !
ان «سأماً» هو السبب . ليس الشعب هو السبب بل السأم ! هنا جافيت أنا
الصواب . فحن أناس عطاش لم يرتو ظمؤنا . بل قل أن ظمأً محموماً
يلتهمنا التهاماً ! و لا تظنوا أن ذلك ظاهرة تبلغ من قفاحة الشأن أنها
لا تستحق منا الا الضحك . معذرة ، يجب على المرء أن يحسن الاحساس
بالأمور قبل وقوعها ، والتنبؤ بالأشياء قبل حدوثها . ان مواملتنا متى لسوا
الشاطئ ، ومتى اطمأنوا الى أنه هو الشاطئ . فملأ ، بلغوا من السرور
والجور أنهم ما يلبثون أن يصلوا من ذلك الى أقصى التطرف . لم هذا ؟
ان حالة يافلتشيف تدهشكم ، فانتهم تصورون أنه فقد عقله أو أنه هوى
من فرط طيبته . وليس الأمر كذلك فى الحقيقة . ان تحمس النفس
الروسية فى مثل هذه الظروف لا يثير دهشتنا نحن وحدنا ، بل يثير دهشة
أوروبا كلها . حين يتقل روسى الى الكاثوليكية فانه لا بد أن يصبح
يسوعياً ، و لابد أن يصبح من أكثر اليسوعيين تطرفاً وتعصباً . واذا
اعتنق الروسى مذهب الالحاد ، فانه لا يتردد فى المطالبة باستئصال الايمان
بالله بحد السيف ! فما سبب التعصب المفاجئ ؟ ألا تعرفون ذلك ؟ سببه
أن الروسى يعتقد أنه اكتشف وطناً جديداً ، لأنه لم يدرك أن به وطناً
هنا ، فاذا هذا الاكتشاف يملؤه فرحاً . لقد وجد شاطئ الأمان ، لقد
وصل الى البر . فما هو ذا يهرع اليه ويفرحه بالقبالات ! انه لا يفضل ذلك
من باب الفرور ؟ ان الروس لا يصبحون ملاحدة أو يسوعيين لأن شعوراً
مستكيناً بالزهو قد سيطر على أنفسهم . وانما هم يصبحون ملاحدة أو

يسوعيين بتأثير ظلماً نفسى ، بتأثير حنين الى عالم أرفع وأسمى ، الى أرض ثابتة وطيدة ، الى وطن يحل محل الوطن الذى كفوا عن الايمان به لأنهم لم يعرفوه فى يوم من الأيام ! ان الشعب الروسى سهل الانتقال الى الاتحاد ، انه أسهل انتقالاً الى الاتحاد من أى شعب فى العالم . ومواطنونا لا يصبحون ملاحدة فحسب ، بل هم « يؤمنون » بهذا الاتحاد أيضاً ، كانه دين جديد ، لا يلاحظون انهم بذلك انما يؤمنون بالعدم . فالى هذا الحد نحن عطاش الى الايمان . « من لم يكن تحت قدميه أرض » لم يكن له اله أيضاً . « ليست هذه الفكرة منى أنا . وانما عبّر لى عنها تاجر التفتت به فى سفر . الحقيقة أنه لم يقل هذا الكلام بنصه ، وانما قال : « من يجحد وطنه يجحد الهه أيضاً » . تصوروا أنه قد وجد فى روسيا أناس متقفون ثقافة عالية اتموا الى ملة « الخليلين » * . . . والحق أننى أتساءل لماذا نعد هذه الملة أسوأ من المدميين واليسوعيين والملحددين ؟ ألا ان عقيدتهم قد تكون أعمق من عقيدة هؤلاء . ولكن ذلكم ما يمكن أن يؤدى اليه قلق النفس ! . . . أروا رفاق كريستوف كولومب العطاش الملهين ، أروهم شواطئ « العالم الجديد » ؟ اكشفوا للإنسان الروسى عن « العالم » الروسى ؟ أتيحوا له أن يجد ذلك الذهب ، ذلك الكنز الذى تخفيه الأرض عن بصره ؟ أظهروه على ما سيتحقق للإنسانية كلها من تجدد وانبعاث ربما بفضل الفكر الروسى والاله الروسى والمسيح الروسى ؟ افعلوا ذلك كله تروا أى عملاق قوى عادل ، حكيم حلیم ، سيتصب قائماً أمام العالم المذهول المروع . ذلك أنهم لا يتوقعون منا الا السيف ، اسيف والعنف ، فهم اذ يقيسوننا بمقياس أنفسهم لا يستطيعون أن يتصوروا قوتنا فى صور غير صور الهمجية . ذلك ما كان حتى الآن ، ولسوف ينمو هذا الظن الخطأ مزيداً من النمو فى المستقبل . . . و . . .

غير أن حادثاً وقع في تلك اللحظة فقطع كلام الخطيب على نحو لم يكن في الحسبان .

ان هذا الحديث الطويل المحموم كله ، ان هذا السيل التدفق من الكلام المضطرب المصطخب الذي يعبر عن فوضى من الأفكار المتحمسة المشوشة المتصادمة ، انما كان اذن علامة استعداد عقلي لدى الشاب ، استعداد خطر كل الخطر ، فار وعلى الآن على حين فجأة دون سبب ظاهر . وقد دُهن من بين الحضور جميع أولئك الذين يصرفون الأمير (حتى لقد شعروا بخجل وخزي) ، دهنوا من اندفاعته هذه التي لا تتفق وما عهدوا فيه من وضع متخبط بل خجول يتسم في جميع الظروف بكياسة نادرة ولباقة كاملة وشعور فطري بما يليق التزامه من آداب . ولم يفلحوا في فهم علة هذا الخروج عن عادته المعهودة فيه ، وهو خروج لا يمكن تعليله حتماً بما انكشف له من أمر بافلتشفيف . أما في ركن السيدات فقد عُدَّ انساناً فقد عقله وأصابه جنون . وقد اعترفت الأميرة بيلوكونسكايا فيما بعد أنها « كانت مستهزئة لو دام ذلك المشهد برهة أخرى » . وأما « الشيخان الصغيران » فقد كادا يفقدان سطرتهما على نفسيهما منذ لحظة الشدة الأولى . اصطنع الجنرال الموظف الكبير هيئة الاستياء والقسوة دون أن يتحرك عن كرسيه . ولزم الكولونيل هدوءاً تاماً ، فلم يحرك ساكناً ولا اهتزت نفسه . وشحب لون الألماني ، لكنه ظل يتسم ابتسامة زائفة وهو ينظر فيما حوله ليرى كيف يتصرف الآخرون وبماذا عساهم يردون . وعلى كل حال ، كان يمكن أن تنتهي هذه الفضيحة كلها على أبسط نحو طبيعى ، ربما في دقيقة واحدة . حتى لقد قام ايفان فيدوروفتش الذي شُده شديداً قوياً ، ولكنه تاب الى نفسه واسترد هدوءه قبل الآخرين ، قام بعدة محاولات لوقف الأمير ، فلما لم يفلح اقترب منه بشات وعزم . فلو انقضت دقيقة واحدة أخرى لكان

من الممكن ، اذا اقتضت الضرورة ذلك ، أن يقرر اخراجه بلطف ومودة
وصداقة ، زاعماً له أنه مريض ، وذلك زعم قد يكون صادقاً ، وهو على
كل حال زعم كان ايضاً فيدوروفتش من جهته مقتنعاً به ككل الاقتناع
فلا يخالجه فيه ريب ... ولكن الأمور جرت مجرى آخر ! ...

كان الأمير ، منذ دخل الصالون ، قد مضى يجلس في أقصى مكان
عن اناء الحزف الصيني التي خوفه أجلايا من كسره ذلك التخويف
كله . شيء لا يكاد يصدق العقل : ان الأمير ، بعد الذي قالته له أجلايا
بالأمس ، قد ترسخ في نفسه اقتناع لا سبيل الى مغالته بأنه لن يستطيع
تحاشي كسر هذا الاناء مهما يبذل من جهد لتفادي هذه المصيبة . ذلك
توجس غريب لا يصدق . فاليكم ما حدث : في أثناء السهرة كانت قد
اجتاحت نفس الأمير مشاعر أخرى ، قوية ممتعة في آن واحد ، هي تلك
المشاعر التي سبق أن تحدثنا عنها . وقد صرفته هذه المشاعر عن توجسه
وأنته اياه . فلما سمع أحداً ينطق باسم بافلتشيف ، وقاده ايضاً
فيدوروفتش الى ايضاً بتروفتش ليقدمه اليه ويسرّقه به مرة أخرى ،
اقترب من المائدة وجلس على مقعد قرب اناء الحزف الصيني ، الضخم
الرائع ، الموضوع فوق قاعدة في مستوى كوعه تقريباً ، ووراء قليلاً .

وحين نطق بالكلمات الأخيرة من خطابه نهض فجأة ، وأجرى
ذراعه بحركة واسعة طائشة ، ولفت كفيه على غير ارادة منه ، فاذا ...
اذا بصرخة تدوّى منطلقة من أفواه الحضور جميعاً ! لقد ترنح الاناء ،
وترجع في أول الأمر ولاح أنه يهم أن يسقط على رأس أحد الشيوخ
الصغيرين ، لكنه لم يلبث أن مال الى الجهة الأخرى التي كان فيها
الألماني ، فلولا أن أسرع الألماني يشب من مكانه مرتاعاً لسقط عليه ،
لكنه وقد استطاع الألماني أن يفر منه بثقل ملح البصر سرعة ، هوى على
الأرض ، فأحدث سقوطه قرعة شديدة ردّها عليها الحضور بصيحات .

وتناثر حطامه الثمين على المسجادة هنا وهناك ! استولى على الحفل دعر ودهشة • أما الأمير فمن الصعب بل ومن نافل القول أن نصف عواطفه ! لكننا لا نستطيع أن نعفى أنفسنا من الاشارة الى أن احساساً خاصاً قد اجتلحه فى تلك اللحظة عينها وسرعان ما تميز عن احساسات أخرى غيره ، أليمة أو مرعبة • ان الاحساس الذى شدهه وآسره أكثر من أى احساس آخر ، لم يكن هو الشعور بالحنين أو الفضيحة أو الرعب أو المفاجأة ، بل هو الشعور بتحقيق النبوة ! لو سأله أن يملل لك ما يشتمل عليه ذلك الشعور من قوة الأسر لما استطاع أن يجيبك ولكنه كان يحس أن هذا الشعور قد حاصر قلبه وملأ نفسه برهبة تكاد تكون غيبية • وانقضت لحظة : بدا له أن كل شيء يتسع من حوله وأن الرهبة تتبدد أمام احساس بالضياء والفرح والنشوة والوجد • انقطعت من ذلك أنفاسه و... ولكن ذلك لم يدم الا مدة قصيرة • الحمد لله ! لم يكن الأمر ما كان يظن • استرد نفسه ، ونظر حوله •

لبث وهلة طويلة كمن لا يشعر بالاضطراب الذى يحيط به ؟ بل قل انه كان يفهم ويرى رؤية واضحة كل ما كان يجرى ، ولكنه كان يحس كأنه فى خارج الحادثة ، كشخص خفى من شخوص الحكايات الخرافية ، يرقب فى حجرة تسلك اليها أناساً غريباء يهمهم أمرهم • رأى حطام الاناء يجمع ، وسمع أحاديث سرية ، وأبصر أجلايا محدقة اليه : كان وجه أجلايا شاحباً وكانت هيئتها غريبة ، غريبة جداً ، ولكن نظرتها لا تعبر عن أى كره ، ولا تعبر عن أى غضب • كانت تأمله مرتاعة ، غير أن عينها زاخرتان بالمعطف والمحبة ، بينما هى تلقى على الآخرين نظرات ساطعة ••• فاجتاحت قلبه بهجة لذينة على حين فجأة •

وفى النهاية لاحظ مبهوتاً أن جميع الحضور قد جلسوا ، حتى لقد كانوا يضحكون فكأن شيئاً لم يحدث ! وانقضت دقيقة فاشتد الضحك •

انهم يضحكون الآن من اشداده ، ولكنهم يضحكون باشين مرحين ،
يضحكون بمودة ومحبة . وهؤلاء أشخاص عدة يكلمونه بعبارات فيها
كثير من الملاحظة ، ولا سيما اليزابت بروكوفينا التي تتكلم ضاحكة وتقول
كلمات رقيقة غاية الرقة . وها هو ذا يحس بايفان فيدوروفتش يرت
على كتفه فجأة بكثير من الصداقة . وكان ايفان يتروفتش يضحك هو
أيضاً . ولكن الشيخ الصغير كان أكثر الحضور بشاشة ولطفاً ومحبة
ومودة : انه يتناول يد الأمير ويشد عليها برفق ويربث عليها بيده الأخرى ،
ويناشده أن يهدأ بالاً ويطيب نفساً ، كما يفعل المرء مع طفل اعتراه
خوف ، فكان لذلك وقعٌ جميل في نفس الأمير . أخذ الأمير يتأمل وجه
الشيخ مفتوناً ، وبلغ من شدة الابتهاج أن أنفاسه تقطعت فهو لا يقوى على
أن ينطق بكلمة واحدة .

وتتم يقول أخيراً :

— كيف ؟ أصبح حقاً أنكم تنفرون لى ؟ و ... أمت أيضاً
يا اليزابت بروكوفينا ؟

فاشتد الضحك ، وترقرقت الدموع في عيني الأمير من التأثر .
انه لا يستطيع أن يصدق بهجة كهذه البهجة .
قال ايفان يتروفتش :

— لا شك في أنه كان اناءً رائساً . اننى أعرفه منذ خمس عشرة
سنة ... نعم ... منذ خمس عشرة سنة ...
وقالت اليزابت بروكوفينا بصوت عال :

— أهذه كارثة ؟ ان الانسان نفسه الى زوال ، فلا يتحسر المرء على
جرة من فخار !

ثم أصافت تقول وقد لاح في وجهها تعبير عن الخوف :

- أصبح أن الأمر أحدث فيك هذا الاضطراب كله يا لبيون
يقولون لا يفش ؟ هيّا يا صديقي ! كفاه كفاك ! انك لتخيفني حقاً !
سألها الأمير :

- وهل غفرتكم لى « كل شيء » ؟ لا كسر الاناء وحده ، بل
« كل شيء » أيضاً ؟

وهمّ الأمير أن ينهض ، ولكن الشيخ الصغير أمسك يده ، وأبى
أن يتركه .

همس يقول من فوق المائدة لصاحبه ايقان بتروفتش ، ولكن صوته
لم يكن من الحفوت بحيث لا يسمعه الأمير :
- « أمر غريب جداً وخطير جداً » !
قال الأمير :

- ألم أسيء اذن الى أحد منكم ؟ انكم لا تستطيعون أن تتصوروا
مدى السعادة التى تغمرنى حين أتصور أنى لم أسيء الى أحد منكم ، ولم
أجرح شعور أحد منكم ! على أن الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك :
فأبى لئلى أن يسيء الى واحد مثلكم ؟ ان مجرد افتراض هذا اهانة لكم !
- هدىء نفسك يا صديقي . انك تبالغ . لا داعى الى اظهار هذا
الشكر كله ، بل لا محل لهذا الشكر كله البتة . هى عاطفة جميلة ، لكنها
تجاوز الحدود .

أنا لست شاكرآ لكم فحسب ، بل أنا معجب بكم أيضاً ، وانى لسعيد
بتأملكم . لعلى أعبر عن شعورى تعبيراً غيباً ، ولكن لا بد لى من الكلام ،
لا بد لى من الافصاح عما يجول فى خاطرى ، ولو من أجل نفسى .
كانت تعترى الأمير حركات اندفاعية تدل على الاضطراب والحسنى .
من الجائز جداً أن كلماته لم تعبر دائماً عما كان يود أن يقوله . كان

بدو عليه أنه يريد أن يستأذن في الكلام • ووقع بصره على الأميرة بيلوكونسكايا •

قالت الأميرة بيلوكونسكايا :

- لا تتخرج يا عزيزى ، لا تتخرج • أكمل ، أكمل ، لا تلتفت • ولكن تكلم بغير خشية أو رهبة • ان هؤلاء السادة قد رأوا أناساً كثيرين أغرب منك وأعجب ، فلن تدهشهم • يعلم الله أن فهمك أمر عسير ، لكنك قد كسرت هذا الاناء فأخفت الجميع •

كان الأمير يصفى إليها مبتسماً ، وفجأة سأل الشيخ الصغير قائلاً :

- أنت الذى أخذت من النفى ، منذ ثلاثة أشهر ، الطالب

بودكوموف والموظف شفايرين ؟

فاحمر الشيخ قليلاً ، وحمم بكلام يدعو فيه أن يهدى نفسه •

وأردف الأمير يقول مخاطباً إيفان بتروفتش :

- وعليك أنت سميت أنك فى مقاطعة ن قد وهبت أخشاب بناء

لفلاحين يسكنون فى أراضيك حين امتحنوا بحريق ، رغم أنهم بعد اعتاقهم كانوا قد أساموا معاملتك •

قدم إيفان بتروفتش يقول :

- أوه ! هذه مبالغة !

على أن وجهه قد عبّر عن ارتياح واعتزاز • والحق أنه لم يخطئ • فى هذه المرة حين تحدث عن مبالغة ، ذلك أن الأمر لم يكن الا شائعة كاذبة وصلت الى مسامع الأمير •

واستأنف الأمير كلامه ملتفتاً الى الأميرة بيلوكونسكايا فقال لها وهو

يتسم ابتسامة مشرقة :

- وأنت يا أميرة ، ألم تكرمى وفادتى وتعاملينى معاملة الابن اعتماداً

على رسالة توصية من اليزابت بروكوفينا ؟ ألم تسدى الى ذلك نصيحة
لن أنساها ما حيت ، كما تنصح أم ابنتها ؟

قالت الأميرة فى غضب :

— ماذا أصابك ؟ انك لشاب طيب ولكنك مضحك . فإذا فحك أحد
قرشين أخذت تكيل له الشكر كأنه أنقذ حياتك ؟ أنظن أن هذا حسن ؟
الواقع أن هذا مستقيم مستهجن !

وأوشكت الأميرة بيلوكونسكايا أن تغضب مزيداً من الغضب ،
ولكنها أخذت تضحك على حين فجأة ، وكان فى ضحكها هذه المرة بشاشة
ومودة . فبدأ وجه اليزابت بروكوفينا أيضاً ، وأشرق محبباً لايفان
فيدوروفتش .

تمتم الجنوال بلهجة الارتياح والفرح مردداً كلمات الأميرة
بيلوكونسكايا التى أثرت فيه تأثيراً كبيراً :

— لقد قلت حقاً أن ليون يقول لايفتش رجل يبلغ من ال ٠٠٠ رجل
يمكن أن ٠٠٠ على شرط أن لا يلتهك ويختنق أثناء الكلام ، كما نهت
الأميرة الى ذلك ٠٠٠

وكانت أجلايا وحدها تبدو حزينة . ومع ذلك كان وجهها ما يزال
مسطحاً بحمرة ، ربما من أثر الاستياء .

كرر الشيخ الصغير يقول لايفان بتروفتش :

— حقاً انه لطيف جداً .

كان الأمير فى حالة اضطراب ما ينفك يزداد . وها هو ذا يستأنف
الكلام فيقول بتدفق يتسارع أكثر فأكثر ، تدفق غير عادى ، تدفق مندفع
حار محمود :

— لقد دخلت الى هنا معذب القلب ، و ٠٠٠ وكنت خائفاً منكم ،

وكت خائفاً من نفسى • كت خائفاً من نفسى خاصة • حين عدت الى
 بطرسبرج كنت قد آليت على نفسى لأعرفن أناس الطبقة الأولى مهما
 كلف الأمر ، أولئك الذين ينتمون الى أسر عريقة أتنمى أما الى واحدة
 منها بالووانة • أما الآن بين أمراء مثلى ، أليس كذلك ؟ كت أريد أن
 أتعرف اليكم ... كان ذلك أمراً لا بد منه ، لا بد منه قطعاً ! لقد طالما
 سمعت عنكم سوءاً كثيراً ، لقد سمعت عنكم من السوء أكثر مما سمعت
 عنكم من الخير • حدثت عن ضيق فكركم ، عن فقر اهتماماتكم ، عن
 رجعية عقلكم ، عن ضحالة ثقافتكم ، عن سخافة عاداتكم • آه ... ما أكر
 ما يكتب عنكم من أمور ! لذلك كت زاهر النفس بحب الاطلاع وشدة
 القلق حين جئت الى هنا اليوم • كان ينبغي لى أن أرى بعينى ، وأن أفكر
 بعقلى ، وأن أكوّن لنفسى اقتناعاً شخصياً عن السؤال التالى : هل صحيح
 أن الطبقة العليا من المجتمع الروسى تافهة لا تساوى شيئاً ولا تصلح
 لشيء ، وأن زمانها قد مضى ، وأن جيويتها قد نضبت ، وأنها أصبحت
 عاجزة عن أى شيء الا أن تموت ، وأنها رغم ذلك ما تزال مصرة
 اصراراً عنيداً بدافع الفيرة الحقةرة على أن تحارب رجال ... رجال
 المستقبل ، وأن تسدّ أمامهم الطريق ، دون أن تدرك أنها هى نفسها
 تُحتضر وتلفظ أنفاسها الأخيرة ؟ صحيح اننى كت لا أصدق كثيراً هذه
 الآراء ، لأن بلادنا روسيا لم تضم فى يوم من الأيام طبقة ارسقراطية
 حقاً ، اللهم الا رجال البلاط الذين تميزوا بزيّهم الرسمى أو تميزوا
 بمصادفة • ولكن تلك الطبقة قد زالت الآن زوالاً تاماً ، أليس الأمر
 كذلك ؟

قال ايفان بتروفتش وهو يضحك ساخراً ببحث ومكر :

— دعك من هذا الكلام ! ليس الأمر كذلك !

فدمعت الأميرة بيلوكونسكايا تقول نافذة الصبر :

— ها هو ذا يستأنف... —

فقال الشيخ الصغير بصوت خافت :

— دعوه يتكلم ! * ان جسمه كله يرتجف !

كان الأمير قد خرج عن حاله الطبيعية قطعاً • وانطلق يقول :

— فماذا رأيت هنا ؟ رأيت أناساً يفيضون لطافة فكر ، وصراحة قول ، وقوة ذكاء • رأيت شيخاً وقوراً ينتبه الى صبي مثلى اتباعاً زاهراً بالعاطفة والمحبة ، ويصنئ الى كلامه حتى النهاية • وأرى أناساً قادرين على أن يفهموا وأن يفهموا • وهؤلاء أناس روس طيبون لا يكادون يفلون طيبة وميلاً الى المودة والصداقة عن أولئك الذين لقيتهم هناك؟ وهم لا يفلون عنهم قيمة على كل حال • فهل ثمة مفاجأة أحلى من هذه المفاجأة ؟ آه... اسمحوا لى أن أفصح عن شعورى هذا ! سمعت الناس كثيراً يقولون ان كل شيء فى المجتمع الراقى لا يعدو أن يكون آداباً سطحية ومحافظة على الشكل بالية ، أما نسخ الحياة فقد جف • وكثيراً ما اعتقدت أنا بصدق هذا الكلام • ولكننى أرى الآن رؤية العين أن هذا لا يمكن أن يصدق على بلادنا • هل يمكن أن يصدق المرء أنكم الآن جميعاً يسوعيون ودجالون ؟ منذ قليل سمعت قصة الأمير ن : أليست تشتمل على فكاهة زاحرة بالصدق والعفوية ؟ أليست تشتمل على طيبة حقيقة ؟ هل يمكن أن تخرج أقوال كهذه الأقوال من فم رجل... ميت ، من فم رجل جف قلبه وبست موهبته ؟ هل كان فى وسع أموات أن يستقبلونى كما استقبلونى ؟ أليس فى هذا عنصر للمستقبل يجيز لنا أن تصور أجمل الآمال ؟ هل يمكن أفراداً مثلكم أن لا يدركوا وأن يبقوا فى خلف ؟

قال « الموظف الكبير » ، وهو ينسم ابتسامة فيها قليل من السخر :

— أرجوك • هدى • نفسك يا صديقى العزيز • ستتكلم عن هذا كله
فى يوم آخر ، وسيسررنى كثيراً أن ...

وتتخرج ايفان بتروفتش والتفت على مقدمه • وعاد ايفان فيدوروفش
يضطرب ويتحرك • ان رئيسه الجنرال شغل بالحديث مع زوجة الموظف
الكبير ، وأصبح لا يولى الأمير أى انتباه • ولكن السيدة تصفى الى الموظف
الكبير باحدى اذنيها ، وكثيراً ما كانت تنقل بصرها الى الأمير •

تابع الأمير كلامه يقول بان دفاعه محمومة جديدة مخاطباً الشيخ
الصغير بلهجة الثقة بل وبلهجة السارّة :

— لا ، لا ، ان الأفضل أن أتكلم ! ان آجلا يا ايفانوفنا قد حظرت
علىّ بالأمس أن أتكلم ، حتى لقد حددت لى مواضيع يجب أن لا أقاربها ،
فهى تعلم أنني أكون مضحكاً حين أعالج أمثال تلك المواضيع • أنا فى
السنة السابعة والشرين من عمري ، ولكنى أدرك أن سلوكى سلوك
طفل • لا يجوز لى أن أعبر عن فكرى • قلت هذا منذ زمن طويل •
لم أستطع أن أتكلم بصراحة ، مفتوح القلب ، الا فى موسكو ، مع
روجويين ... قرأنا بوشكين معاً ، قرأناه كاملاً • كان هو لا يعرفه ؟
كان لا يعرف حتى اسم بوشكين • ما زلت أخشى أن تفسد هيتى المضحكة
فكرى ، وأن تحط من قدر « الفكرة الرئيسية » • ان حركاتى وإشاراتى
غير موفقة • انها تجىء فى غير محلها وأوانها ، فتثير الضحك وتفسد الفكرة •
ينقصنى أيضاً حس الاعتدال والقصد • وذلك أمر خطير ، بل هو أخطر
شئ • أنا أعلم أن خير ما أقوله هو أن أبقى ساكناً لا أتحرك ، وصامتاً
لا أتكلم • فحين أسكن وأصمت يمكن أن أبدو للناس عاقلاً بل عاقلاً
جداً ، ويتأخ لى عدا ذلك أن أفكر • ولكن من الأفضل الآن أن أتكلم •
انكم تنظرون الىّ بترحيب كبير وبشاشة عظيمة ، لذلك قررت أن أتكلم •

ان فى ملامح وجوهكم فتنة راثية • لقد وعدت آجلايا ايفانوفنا بالأمس أن
أصمت طوال السهرة ...

قال الشيخ الصغير وهو يتسم :

- « حقاً » ؟

- غير أن هناك لحظات أقول فيها لنفسى ان هذا التفكير خطأ ،
فالمصدق المخلص يساوى حركة موقفة • أليس كذلك ؟ أليس هذا
صحيحاً ؟

- أحياناً •

- أريد أن أشرح لكم كل شىء ، كل شىء ، كل شىء ! آ ...
نعم ... أتظنون اننى امرؤ خيالى ؟ مثالى ؟ لا ، لا ؛ يميناً ان أفكارى
كلها بسيطة كل البساطة ... ألا تصدقوننى ؟ أتتسمون ؟ اسمعوا ...
أنا فى بعض الأحيان جبان لأننى أفقد الايمان بنفسى • منذ قليل ، حين
كنت آتياً الى هنا ، تساءلت : « كيف عسانى أكلهم ؟ ما هى العبارات التى
أستهل بها الحديث حتى يفهموا عنى ولو قليلاً ؟ » شعرت بخوف شديد ،
ومنكم أتم انما خفت • فهل كان من حقى أن أخاف ؟ ألم يكن خوفى
شيئاً مخجلاً معيماً ؟ أى ضمير فى أن يوجد أمام انسان تقدمى جمهور
كبير من الرجعيين والشريرين ؟ على أن فرحى الآن ناشئ عن اقتناعى
بأن ذلك الجمهور لا وجود له فى الواقع ، وأن ليس ثمة الا عناصر
زاخرة بالحياة • ثم انه ما ينبغي لنا أن يث الاضطراب فى نفوسنا أن
تصور أننا مضحكون ، أليس كذلك ؟ الحق أننا مضحكون • فنحن خفاف
طاشون ، ونحن ذوو عبادات سخيفة مؤسفة ، ونحن نضجر ونمل ،
لا نجد أن نرى ولا أن نفهم • نحن جميعاً هكنا ، جميعاً ، أتم ، وأنا ،
وهم أيضاً • آه ... لا يزعلنكم أن تسمعونى أقول لكم وجهاً لوجه

انكم مضحكون ؟ واذا كان الأمر كذلك ، أفلا يمكن أن تُعدُّوا صنَّاع
 تقدم ؟ بل اننى لأقول لكم ان من الخير فى بعض الأحيان أن يكون المرء
 مضحكاً ، فيكون الناس أميل الى الصفح والتواضع . انه لم يوهب لنا أن
 نفهم كل شئ . جملة واحدة ؛ والانسان لا يبلغ الكمال دفعة واحدة ! فمن
 أجل الوصول الى الكمال ، يجب فى أول الأمر أن لا يفهم المرء أشياء
 كثيرة . فمن يدرك بسرعة مفرطة يدرك ادراكاً فاسداً فى أغلب الظن .
 اننى أقول هذا لكم ، لكم أنتم الذين أمكن أن تفهموا أشياء كثيرة جداً
 ... دون أن تفهموها . لقد أصبحت الآن لا أخشى من جانبكم شيئاً .
 فانكم تصفون بغير غضب الى صبي مثلى يكلمكم بهذه اللهجة ، أليس
 كذلك ؟ قطعاً ! أوه ... لسوف تستطيعون أن تتسوا ... لسوف
 تستطيعون أن تغفروا لأولئك الذين أساءوا اليكم ، ولأولئك الذين لم
 يسيئوا اليكم ، على حد سواء ؛ والأصعب أن تغفروا للذين لم يسيئوا
 اليكم فى شئ ، وذلك لسبب بسيط هو أنهم لم يذنبوا فى حقكم «البتة» ،
 وأن شكواكم منهم لا تقوم اذن على أساس . ذلكم ما كنت أنتظره من
 أهل المجتمع الراقى ، ذلكم ما كنت أتعجل أن أقوله لكم حين كنت آتياً
 الى هنا دون أن أعرف العبارات التى يجب على أن أستخدمها فى التعبير عنه
 . . أنضحك يا ايفان بتروفتش ؟ أنت تعتمد أننى ديموقراطى ، اننى داعية
 من دعاة المساواة ، اننى هنا محام « عنهم » ، وأننى « عليهم » خائف ، أليس
 كذلك ؟ (أضاف الأمير هذا وهو يطلق ضحكة تشنجية ؛ ولقد كان فى
 كل لحظة يطلق ضحكة صغيرة متقطعة متحمسة) . فاعلم اذن اننى عليكم
 خائف ، عليكم جميعاً وعلينا جميعاً فى آن واحد . أنا نفسى أمير من سلالة
 قديمة أجلس الآن مع أمراء . اننى أتكلم عن سلامتنا المشتركة ، عن
 خلاصتنا المشترك ، حتى لا تندثر طبقتنا وتغيب فى الظلمات بغير نفع ، لأنها
 لم تنبأ بالمستقبل ولم تزد على أن تشاجرت وفقدت كل شئ . لماذا نزول

ونحلى مكاننا للآخرين بينما نحن نستطيع أن نحقق بمكاننا فى الطبيعة
على رأس المجتمع ؟ لكن تقديم فنحن الأوائل • فلنصبح خداماً
لنكون نحن الأعلى •

وهم فجأة أن ينهض عن مقعده ، لكن الشيخ المجوز ظل ممسكاً
به يحدق إليه بعينين يزداد قلقهما لحظة بعد لحظة •

— اسمعوا ! أنا أعرف أن الكلام لا ينفع • وأن الأفضل أن ندعو
الى الخير بالقوة والعمل ••• ولقد بدأت •• و •• و ••• هل يمكن
حقاً أن يكون المرء شقياً ؟ أو •• ما قيمة حزنى وشقاى اذا كنت أحس
أننى أملك القدرة على أن أكون سعيداً ؟ اعلموا اننى لا أفهم أن يمر
امرؤ بشجرة دون أن يشعر لمرآها بالسعادة ، أو أن يكلم انساناً دون أن
يسعد بحبه ••• أو •• ! ان الكلمات تعوزنى للتعبير عن هذا ••• ولكن
ما أكثر الأشياء الجميلة التى نراها عند كل خطوة نخطوها ، والتى يحس
بجمالها كل انسان مهما يكن متديناً ! انظروا الى الطفل ، انظروا الى فجر
الاله الخالق ، انظروا الى المشبب الذى ينبت فى الأرض ، انظروا الى
الأعين التى تتأملكم وتحبكم •••

فى أثناء هذا الخطاب الطويل كان الأمير قد نهض وهو يتكلم •
وكان الشيخ الصغير يتابعه بنظراته مرتاعاً • ولوحت اليزابت بروكوفيتا
بذراعيها وصاحت تقول : « آ ••• رياه ! ••• » • كانت قد حزرت
ما يجرى ، قبل سائر الحضور • وهرعت آحلايا نحو الأمير فأمكنها أن
تصل اليه فى اللحظة المناسبة لتلقى بسقوطه بذراعيها • كانت الفتاة
مصعوقة من الرعب ، متقلبة السحنة من الحزن ، وقد سمعت المويل
الوحتى « للروح التى رنحت الشاب المسكين وطرحته أرضاً » • ان الأمير
يسجد الآن على السجادة وقد أمرع أحدهم قدس تحت رأسه وسادة •
لم يكن أحد يتوقع هذه الحادثة • وحاول الأمير « ن » وأوجين

بافلوفتش والشيخ الصغير ، بعد ربع ساعة ، أن يعيدوا الى السهرة حياتها ونشاطها ، ولكن ما انقضى نصف ساعة حتى انفض المدعوون جميعاً دون أن يفوتهم طبعاً أن يسبروا عن مواساتهم وأسفهم ممزوجين بتعليقات على الحوادث . قال ايفان بتروفتش فيما قال ان رأيه هو : أن الشاب متعصب للسلافية * ، أو هو يدين بشئ من هذا القبيل ، ولكن حالته ليست خطيرة ، . ولم ينطق الشيخ المعجوز بكلمة واحدة . صحح أن الجميع قد زعلوا كثيراً أو قليلاً في غد أو في غداة غد . حتى ان ايفان بتروفتش شعر بأن كرامته قد أهنت ، ولو اهانة يسيرة . ورئيس ايفان فيدوروفتش أظهر لرموسه شيئاً من الجفاء مدة من الوقت . و « الموظف الكبير » ، « حامى » أسرة ايباتشين أصدر هو أيضاً ، من جهته ، ملاحظات متفخمة عن رب الأسرة ، ولكنه أضاف اليها عبارات لطيفة أنه شديد الاهتمام بمصير آجلایا . الواقع أنه رجل لا يخلو من طيبة ، ولكن من الأسباب التي أثارته اهتمامه بالأمير في ذلك المساء ، ما كان قد سمعه عن قصة العلاقات السابقة التي قامت بين الأمير وبين ناستاسيا فيليوفنا . ان الأشياء القليلة التي سمعها عن هذا الأمر قد حيرته حيرة شديدة ، وكان يود لو يلقى أسئلة حول هذا الموضوع .

قالت الأميرة بيلوكونسكايا لاليزابت بروكوفينا بعد السهرة ، لحظة الانصراف :

— ما عسى أقول لك ؟ انه حسن وانه سيء . واذا أردت معرفة رأيي صريحاً قلت لك انه الى السوء أقرب . انك لترين بنفسك ما نوعه رجلاً : انه مريض !

قررت اليزابت بروكوفينا في قرارة نفسها أن الأمير « لا يمكن » أن يكون لابنتها خطيباً . وفي الليل حلفت لنفسها أنه « لن يتزوج آجلایا ما بقيت هي على قيد الحياة » . . . وقد استيقظت في الصباح على هذه الحال

نفسها وهذا العزم نفسه • ولكنها وقفت فى تناقض واضح عند الغداء بعد الظهر بقليل •

ذلك أن آجلايا قد أجابت عن سؤال ألقته عليها أختها (يكثر من اللباقة والكياسة فى الواقع) ، فقالت بلهجة باردة لكنها متفطرة :

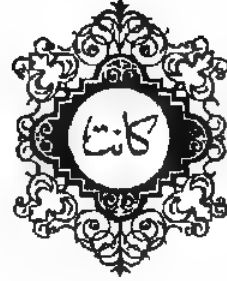
— أنا لم أقطع له عهداً قط ، ولا عددته خطيبي فى يوم من الأيام •
اننى لا أكرث به أكثر مما أكرث بأى شخص •

فما كان من الزابت بروكوفينا الا أن انبرت تقول بلهجة حزن :

— لم أكن أتوقع منك لغة كهذه اللعة ! أنا أعلم أنه لا يصلح لك زوجاً ، والحمد لله على أن الأمر انتهى هذه النهاية ! ولكننى ما كنت لأصدق أن يصدر عنك كلام مثل هذا الكلام ! كانت فكرتى عنك مختلفة عما أراه الآن فىك كل الاختلاف • أنا من جهتى كان يمكننى أن أطرد جميع ضيوف الأمس ولا أحتفظ بأحد غيره • ذلك هو رأى فيه !...

قالت الزابت بروكوفينا ذلك وصمتت فجأة كالمرثغة مما قالت •
آه... ليتها علمت كم كانت ظالمة لا ينتها فى تلك اللحضة ! كان كل شئ قد تقرر فى ذهن آجلايا • ان آجلايا أيضاً كانت تنتظر ساعتها ، ساعتها الحاسمة ؟ وكان كل تلميح طائش أو الماع متهور يحدث فى قلبها جرحاً عميقاً •

الفصل الثامن



بداية ذلك الصباح متأثرة لدى الأمير أيضاً
باحساسات أليمة . ولقد كان يمكن تفسير تلك
الاحساسات بحالته المرضية . غير أن حزنه كان
يخالطه شيء يبلغ من صعوبة التحديد أن ذلك
بعينه كان مسبب عذابه . صحيح أنه كان ازاء وقائع محسوسة ملموسة ،
دقيقة دقة أليمة مشجية ، لكن حزنه يمضي الى أبعد من كل ما كان
يتذكره أو يتخيله . وكان يدرك أنه لن يستطيع وحده أن يهدئ قلقه .
وشيئاً فشيئاً ترسخ في نفسه انتظار حادث خارق حاسم سيقع له في ذلك
اليوم ذاته . ان النوبة التي اعترته في الليلة البارحة أخرى أن تمعد نوبة
بسيطة ؟ حتى انها لم تخلف من الاضطرابات غير نوع من السوידاء ،
وشيء من الثقل في الرأس ، وآلام في الأعضاء . وكان ذهنه صافياً ، رغم
أن نفسه كانت متأللة . لقد صحا من نومه في ساعة متأخرة ، فسرعان
ما عاودته ذكرى السهرة الماضية واضحة وضوحاً تاماً . حتى لقد وعى
أنه نُقل الى منزله بعد النوبة بنصف ساعة .

وعلم أن أسرة اياتشين أرسلت تسأل عن صحته . ثم أرسلت
تسأل عن صحته مرة ثانية في الساعة الحادية عشرة والنصف . فأبهجه
ذلك . وكانت فيرا ليديفا من أوائل الأشخاص الذين زاروه وقدموا له
خدماتهم . لقد أجهشت تبكي فجأة منذ رأته . ولكنها أخذت تضحك
حين هدا الأمير روعها . وتأثر هو تأثراً قوياً بهذا العطف الذي أظهرته

له الفتاة فتناول يدها وقبّلها ، فاحمرت الفتاة وهتفت تقول مروّعة وهي تصحب يدها بسرعة :

— آه ... ماذا تفعل ؟ ماذا تفعل ؟

ولم تلبث أن غادرت الغرفة مضطربة اضطراباً خاصاً ، ولكن وقتها قد اتسع لأن تروى للأمير أن أباهما أسرع في الصباح المبكر الى بيت « المتوفى » (بذلك سمّت الجنرال ايفولجين) ، ليسأل هل مات في الليل . وأضافت أن الرأي مجمع على أن المريض لن يعيش مدة طويلة .

وحين عاد ليديف الى داره قبل الظهر ، جاء الى الأمير بنفسه ، قائلاً انه « لن يمكث الا دقيقة واحدة » ، وانه لا يريد الا أن يطمئن عن صحة الأمير « الغالية » ، النح . هذا عدا أنه يريد أن يزور « خزائنه الصغيرة » . وكان لا يتوقف عن الشكوى والأين واطلاق الصيحات تلو الصيحات ، فلم يلبث الأمير أن طرده ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يتجسّأ فيلقى أسئلة عن النوبة التي اعترت الأمير في الليلة البارحة ، رغم أنه كان واضحاً أنه يعرف الأمر بأدق تفاصيله .

وبعد ليديف وصل كوليا مسرعاً ، وقال هو أيضاً انه لا يريد أن يمكث الا دقيقة واحدة . ولكن كوليا كان صادقاً حقاً ، وكان يستبد به اضطراب عارم وقلق قائم . وقد بدأ كلامه بأن سأل الأمير صريحاً بجازماً ملحاً أن يوضح له كل ما كانوا يخفونه عنه ، وأضاف أنهم قد أعلموه بالأمس كل شيء تقريباً . لقد كان انفعاله عنيفاً عميقاً .

أطلعه الأمير على حقيقة الأمر بكل ما يحمله قلبه من مودة ويضمّره من محبة . عرض عليه الوقائع بدقة تامة . فكان وقعها على الفتى المسكين كوقع الصاعقة ، فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ، وطفق يبكي صامتاً . وأحس الأمير أن هذا انطباع من الانطباعات التي لا تمحى من النفس في

يوم من الايام ، والتي لا بد أن تكون منعطفاً حاسماً فى حياة مراهق .
وأُسرع بطلمه على الطريقة التى سيطالج بها الأمر ، مضيقاً الى قوله أن
موت العجوز ، فى رأيه ، ربما كان يرجع خاصة الى الارتجاع الذى
خلفه فى قلبه العمل السىء الذى اقترفه ، وأن هذا التأثير قد لا يقدر عليه
سائر الناس .

سقطت عينا كوليّا حين أنهى الأمير كلامه ، وقال :

— ما أحقر جانبا وفاريا وبتسين ! لن أشاجرهم ، لكن كلاً منا
سيسير بعد اليوم فى طريقه ! أم يا أمير ، لقد شعرت منذ أمس بعواطف
جديدة كثيرة . هذا درس لى ! اننى أرى الآن أن على أن أكفل معيشة
أمى وأن أهمل لها ما تحتاج اليه . انها على كونها فى منجى من العوز عند
فاريا ، فليس ...

وتذكر كوليّا أنهم ينتظرونه فأُسرع ينهض ؛ ثم سأل الأمير عن
صحته متجلاً ، فلما أجابه الأمير عن سؤاله قال له بحرارة :

— أليس هناك شىء آخر ؟ لقد سمعت أنه بالأسف ... (على اننى
لا شأن لى أنا بهذا) ... ولكن اذا احتجت فى أى يوم من الايام الى
خادم وفى مخلص ، لأى أمر من الأمور ، فإن هذا الخادم واقف الآن
أمامك . يخيل الى أننا لسنا سعيدين ، لا أنت ولا أنا ، أليس كذلك ؟
ولكن ... ولكن لا أسألك ... لا أسألك ...

وحين انصرف كوليّا غرق الأمير فى أفكاره مزيداً من الفرق
العميق . ان صحبه كافة يتأبون له بالشقاء ؛ انهم جميعاً قد خلصوا الى
تائجهم ؛ هم جميعاً يلوح عليهم أنهم يعرفون شيئاً يجهله هو . ليديف
يلقى أسئلة مستخفية ؛ كوليّا يلمح تلميحات مباشرة ، فيرا تبكى . وحرك

الأمير يده أخيراً بإشارة غضب قاتلاً لنفسه : « لعن الله سوء الظن . انه
مرض ! » .

وفي نحو الساعة الثانية ، استرد وجهه هدوء حين رأى السيدات
ايبانتشين يجئن اليه زائرات « مدة دقيقة واحدة » . ان زيارة دقيقة
واحدة هي التي جاءت بهن فعلاً . لقد أعلنت الزابت بروكوفينا بمد
الغداء رأساً ، أنهم سيخرجون لنزهة يشتركون فيها جميعاً . قالت ذلك
بلهجة آمرة ، قاطعة ، جافة ، دون شرح أو تعليل . وخرج الجميع ، أي
الأم والآنسات والأمير « تمتب . . . » . وسرعان ما سارت الزابت
بروكوفينا في اتجاه هو عكس الاتجاه الذي يسرون فيه كل يوم .
فأدرك الجميع ما تنبؤ ، لكنهم لم يملوا الصمت مخافة أن يثيروا غضب ماما
التي كانت تمشي في طليعتهم دون أن تلتفت ، كأنها تريد أن تتحاشى
اللوم أو الاعتراض . ونهتتها آديلايد أخيراً الى أنه ليس من الضروري
أن يركضوا هذا الركض كله للقيام بنزهة ، وأنهم عاجزون عن مجاراتها
في السير بهذه العجلة .

قالت الزابت بروكوفينا وهي تلتفت الى وراء :

- بالمناسبة : نحن الآن قريبون من بيته . وهو قريبنا على كل حال ،
مهما يكن رأى آجلايا ، ومهما يحدث من بعد ؟ لا سيما وأنه الآن شقي
ومريض . أنا على الأقل سوف أزوره حتماً . فمن شاء صحبني ، ومن شاء
أكمل نزهته .

دخل الجميع طبعاً . وبادر الأمير يستد مرة أخرى عن كسر الاناء
الذي تهشم بالأس . . . وعن الفضيحة التي وقعت . . .
فأجابت الزابت ألكسندروفنا تقول :

- دعك من هذا . لم يحدث شيء ذو بال . ليس تحطم الاناء هو

ما يؤلمنى ، وانما تؤلمنى حالتك أنت • انك تعترف الآن اذن بأن فضيحة قد وقعت : لا يدرك المرء ما حدث الا فى الغداة !... على أن هذا نفسه لا قيمة له ، لأن كل واحد يرى الآن أنك غير مسئول • هيئاً ، الى اللقاء ! اذا شعرت بقدرة على القيام بنزهة فافعل ، ثم نم قليلاً مرة أخرى • هذه نصيحتى لك • واذا بدا لك أن تزورنا كما كنت تزورنا فى الماضى فلا تحجم • عليك أن تثق الى الأبد بأنك ستظل صديق أسرتنا أو صديقى أنا على الأقل ، مهما يحدث من أمر ، ومهما ينتج من نتائج • أنا أضمن نفسى على الأقل ...

ويادر الجميع يثبتون عواطف اليزابت بروكوفينا ، ويشنون عليها • ثم خرجوا ينصرفون • غير انهم باستمجالهم الساذج فى قول كلام يلاطف المسكين ويواسيه ويقوى عزيمته قد ارتكبوا قسوة لم تستطع اليزابت بروكوفينا حتى أن تظن اليها • ان دعوته الى أن يزورهم • كما كان يزورهم فى الماضى ، وكذلك قصر صداقته عليها هى (« صديقى أنا على الأقل ») ، ان ذلك كان بمثابة تنيه •

ولقد تذكر الأمير وضع آجلايا • صحيح أنها ابتسمت له ابتسامة أخاذة حين دخلت وحين خرجت ، ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة ، حتى حين أكد الآخرون صداقتهم • ومع ذلك تبثت نظرها عليه مرتين • كان وجهها أشد شحوباً مما عهد فيه من شحوب ، كأنها قضت ليلة مسهدة • وقرر الأمير أن يزورهم حتماً فى مساء ذلك اليوم نفسه • كما كان يزورهم فى الماضى • ونظر الى ساعته محموماً •

بعد خروج آل ايباتشين بثلاث دقائق ، دخلت فيرا • وقالت له :

— ليون نيقولايفتش ، عهدي الى آجلايا ابقاتوفنا منذ هنيهة بأن أنقل اليك رسالة سرية •

انفعل الأمير انفصلاً بلغ من القوة أنه أخذ يرتجف • وقال يسألها :
- رسالة مكتوبة ؟

- لا ، ان وقتها لم يكد يتسع لأن تحملنى الكلمات التى أقولها
لك : انها ترجوك ملحة أن لا تغيب عن بيتك طوال النهار دقيقة واحدة ،
الى الساعة السابعة أو حتى الساعة التاسعة • اننى لم أسمع كلامها دقيقاً
واضحاً فى هذه النقطة •

- ولكن لمَ هذا ؟ ما معناه ؟
- لا أدرى • لكنها كلفتنى أن أهمل اليك هذه الرسالة آمرةً أمراً
صارماً ؟

- أهى استعملت تعبير « الأمر الصارم » ؟
- لا ، لم يكن تعبيرها واضحاً هذا الوضوح كله • ان وقتها لم يكد
يتسع لأن تكلمنى ملتفتة • من حسن الحظ اننى دنوت منها • ولكن المرء
يقرأ فى وجهها أنها تأمر أمراً ، سواء أكان الأمر صارماً أم لم يكن
كذلك • لقد ألقت على نظرة انخلع لها قلبى ...
ألقي الأمير سؤالين أو ثلاثة أسئلة أخرى ، لكنه لم يعلم أكثر مما
علم • وفى مقابل ذلك اشتد قلقه • حتى اذا خلا الى نفسه تمدد على
الديوان وعاد الى تخميناته : « قد يكون عندهم أحد قبل الساعة التاسعة ،
فهى تخشى أن أقارف شذوذاً آخر وأن أثير فضيحة جديدة أمام الزوار ،
كذلك قال لنفسه أخيراً وعاد ينتظر حلول المساء نافذ الصبر ناظراً
فى ساعته •

لكن حل اللغز قد جاء قبل حلول المساء بمدة طويلة ، جاءه فى
صورة زيارة جديدة بل فى صورة لغز ثان لا يقل عن الأول اقلاقاً :
بعد انصراف آل ايباتشين بنصف ساعة تماماً حضر اليه هيوليت •

كان هيبوليت متعباً مرهقاً مهدّماً ، فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة بل تهاوى على أحد المقاعد تهاوياً كمن أغمى عليه ، واعتزته نوبة سعال رهيبة أخذت تهزه هزاً قوياً ، وكان السعال مصحوباً ببصقات دم . ان عينيّه تلتصقان ، وان بقعاً حمراً تظهر على خديه . دمدم له الأمير ببضع كلمات لم يجب عنها ، مقتصرأ أثناء مدة طويلة على تحريك يده بإشارة معناها أن يترك مرتاحاً . حتى اذا امترد شيئاً من قوته ، قال بجهد ظاهر وصوت أبح :

— أنا ذاهب !

فقال الأمير يسأله وهو ينهض :

— أتريد أن أصحبك ؟؟؟

لكنه توقف فجأة اذ تذكر أنه سُع من الخروج منذ قليل .

فأخذ هيبوليت يضحك . وتابع يقول بذلك الصوت المحنرج المختنق نفسه :

— لست ذاهباً من عندك . بالعكس : لقد رأيت من اللازم أن أجيء اليك لأحدثك فى أمر من الأمور . . . ولولا ذلك ما أزعجتك . أنا ذاهب من عندهم . وأحسب أن المسألة فى هذه المرة جد لا هزل . انتهى كل شيء . لا أقول هذا التماساً للشفقة ، أؤكد لك . . . حتى لقد استلقيت هذا الصباح على فراشى مقررأ أن لا أغادره قبل حلول تلك اللحظة ، لكنى عدلت عن ذلك الرأى ونهضت مرة أخرى لأجىء اليك . معنى ذلك أن مجيئى كان لا بد منه .

— منظره مؤلم . كان أحرى بك أن تستدعيني لأن تحمل نفسك عنه المجرى .

— طيب . كفى هذا الآن . لقد ربيت لىلى ، فقمتم بما توجبه آداب

المجتمع ، ومقتضيات الكياسة والفوق والتعذيب • آ ••• نسيت : كيف
صحكت أنت ؟

- صحتي الآن حسنة • ولم تكن أمس كذلك ••• تماماً !

- أعرف • ذُكر لك هذا • وكان اثناء الحزف الصيني هو الضحية •
خسارة أنني لم أكن هناك ! ولكن فلنصل الى الأمر الذي أريد الكلام فيه •
أولاً : لقد سعدت اليوم برؤية جبريل آرداليونوفتشس يوافي آجلايا
ايفانوفتشس فى موعد مضروب قرب الدكة الخضراء ••• وأعجبت أعظم
الاعجاب بمدى ما يمكن أن يظهر فى هيئة انسان من حماقة وغباء • وقد
ذكرت هذه الملاحظة لآجلايا ايفانوفتشا نفسها بعد انصراف جبريل
آرداليونوفتشس •••

ثم أضاف هيوليت يقول وهو ينظر مرتباً الى وجه محدته الذى
لم يكن يعبر عن شيء :

- أظن أنك أنت لا يدهشك شيء يا أمير • يقال ان من علامات قوة
الفكر أن لا يدهش المرء شيء • أما أنا ففى رأيى أن ذلك يمكن أن
يكون علامة غباء عميق أيضاً ! ••• على كل حال ، لست أعنيك أنت حين
أقول هذا الكلام ••• معذرة ••• اننى اليوم غير موفق فى اختيار
تأبيرى •

بدأ الأمير يتكلم فقال :

- كنت أعلم منذ أمس أن جبريل آرداليونوفتشس •••
لكنه لم يلبث أن صمت فجأة وقد اضطرب اضطراباً واضحاً مع أن
هيوليت قد ساءت قلة انفعاله •

- كنت تعلم ذلك ؟ هذا نبأ حقاً ! ••• على كل حال ، لا تكلف
نفسك عناء أن تحكى لى ••• ألم تشهد لقاء اليوم أيضاً ؟ •••

— لا بد أنك تعرف الجواب ، ما دمت قد حضرت اللقاء !
— بملك اختيأت وراء دغل • على كل حال ، أنا مسرور لك طبعاً ،
لأننى كنت أظن فى السابق أن جبريل آرداليونوفتش قد حلَّ عندها
محلك •

— أرجوك أن لا تكلمنى فى هذا الأمر يا هيبوليت ، خاصةً بهذه
اللهجة •

— لا سيما وأنت تعرف كل شيء •

— أنت مخطئ • لم أطلع على شيء تقريباً ؛ وإن أجلايا ايغانوفنا
لتعلم حتماً اننى غير مطلع على شيء • كنت أجهل حتى أمر ذلك الموعد •
نقول ان لقاء قد تم بينهما على موعد مضروب ، أليس كذلك ؟ طيب ...
دعنا من هذا ...

— ولكن كيف يستطيع المرء أن يفهم عنك ؟ تارة تقول انك كنت
تسلم ، وتارة أنك لم تكن تسلم ، ثم تضيف : « طيب ... دعنا من
هذا ... » • ولكن لا ، حذار من فرط الثقة ! لا سيما اذا كنت لا تعلم
شيئاً • وإن فرط ثقتك انما مرده الى أنك لا تعلم شيئاً • هل تعرف
حسابات ذيك الشخصين : الأنخ واخته ؟ ... ربما كنت تشبه فيها
وتصورها ، هه ؟

ولاحظ هيبوليت حركة تمللمل من الأمير فأصرع يضيف قوله :

— طيب ، طيب ... انا انما جئت الى هنا لأمر شخصى أريد أن ...
أوضحه ! شيطان يأخذنى ... رهيبٌ عدد الايضاحات التى يجب على
أن أقدمها ! هل تريد أن تصفى الى ؟

— تكلم ، اننى أصفى اليك •

— لكننى أغير رأى مرة أخرى : سوف أبدأ مع ذلك بالكلام على

جانبا . هل تخيل هذا ؟ لقد ضُرب لى موعد قرب الدكة الحضرء ،
أنا أيضاً ! على أننى لا أريد أن أكذب : يجب أن أذكر أننى أنا الذى
ألححت على أن تحدد لى هذا الموعد واعدأ بالكشف عن سر . لا أدرى
هل وصلت قبل الأوان (أظن اننى سبقت الساعة فعلا) ، ولكننى ما ان
جلست الى جانب آجلایا ایفانوفنا حتى رأیت جبریل آردالیونوفتش وقادیا
آردالیونوفتش مقبلین وقد تأبط کل منهما ذراع الآخر كأنهما یقومان
بنزمة . فلما رأیانی شدھا بل وارتيك ، لأنهما كانا لا ی توقعان أن أكون
هناك . واحمرت آجلایا ، بل صدقنى اذا قلت لك انها اضطربت وفقدت
سیطرتها على نفسها قليلاً ، سواء أكان ذلك لوجودى أنا أم لمجرد أنها
رأت جبریل آردالیونوفتش الذى كان فى غاية الجمال حقاً . المهم أنها
احمرت احمراراً شديداً ، وختمت الموقف بأن غمزت بعینها غمزة
مضحكة ، ونهضت نصف نهوض ، وردت على تحية جبریل آردالیونوفتش
وعلى ابتسامة اللالطفة والمدارة التى ابتسمتها باربارا آردالیونوفنا ، ثم
قالت لهما بلهجة مفاجئة حاسمة : « انما أردت أن أعبر لكما شخصياً عن
سرورى بصدق عواطفكما . فكونا على ثقة باننى متى احتجت الى هذه
المواطف لن يفوتنى أن أُلجأ اليها وأعتمد عليها . » . قالت لهما ذلك ثم
صرفهما بإشارة من رأسها ، فانصرفا لا أدرى أمهزومين أم منتصرين .
أما جانبا فلا شك أنه كان غيياً كل الغباء . انه لم يفهم شيئاً ، واصطبغ
وجهه بحمرة قاتية (ان سحته تكتسى فى بعض الأحيان تمييراً غريباً) .
وأما باربارا آردالیونوفنا فأظن أنها أدركت أن عليها أن تسأل بأقصى سرعة
وأن آجلایا لا يمكن أن يُطلب منها أكثر من ذلك . فالتذت أخاها .
انها أعقل منه ، وانى لمقتنع بأنها الآن تحقق انتصاراً . وأما أنا فقد جئت
لأتفاهم مع آجلایا على موضوع لقائهما المزمع مع ناستاسيا فيليوفنا .
صاح الأمير يسأل :

— مع ناستاسيا فيليوفا ؟

— على مهلك ، على مهلك ! يبدو لى أنك فقدت هدوءك فبدأت
تندھش ، هه ؟ يسرنى أن أرى أنك تريد أن تشبه الرجال ؟ ولسوف
أسألك فى مقابل ذلك • انظر كم يربح المراء حين يخدم ويماون آتسات
شابات نيلات • لقد تلقت منها اليوم صفقة !

— صفقة معنوية طبعاً ؟

كذلك سأله الأمير بغير ارادة •

— نعم ، صفقة معنوية لا مادية • أظن أنه ما من يدٍ يمكن أن ترتفع
على انسان فى مثل حالتى ، ولو كانت يد امرأة • حتى جانيا لا يمكن أن
يضربنى • ومع ذلك فقد اعتقدت أمس فى لحظة من اللحظات أنه سيرقى
على ليشبغنى ضرباً ••• آ ••• بينما انتى أحرر الآن ما يجول فى ذهنك •
انك تقول لنفسك : • طيب • يجب أن لا يُضرب • ولكن من الممكن فى
مقابل ذلك بل ومن الواجب أن يُخنق أثناء نومه بوسادة أو بغطاء
مبتل ••• • انتى أقرأ الآن هذا الحاطر فى وجهك •

قال الأمير محتجاً باشمتراز :

— لا أدرى •• ولكننى حلمت هذه الليلة أن شخصاً يخنقنى بغطاء
مبتل ••• وسأقول لك من هو ذلك الشخص : تصور أنه روجوين !
ما رأيك ؟ هل يمكن خنق انسان بغطاء مبتل ؟

— لا أدرى •••

— سمعت أن الأمر ممكن • طيب • طيب • دعنا من هذا ،
ولا تتكلمن فيه • والآن أريد أن ألقى هذا السؤال : لماذا أعدت أنا نماماً ؟
لماذا وصفتنى هى اليوم بأننى نمام ؟ لاحظ أنها لم تفعل ذلك الا بعد أن
أصغت الى كلامى حتى آخر كلمة ، وبعد أن ألفت على أسئلة •• كذلك

هنّ النساء ! من أجلها هي انما كنت على علاقة بروجوين (وهو شخص طريف شائق على كل حال) . ومن أجلها انما هيأت لها لقاءً مع ناستاسيا فيليوفنا . أثرائى جرحت شعورها وأساءت الى كبريائها حين أسمعته أنها تريد أن تستفيد من « بقايا » ناستاسيا فيليوفنا ؟ أنا لا أنكر هذه الحقيقة . وقد رددت لها ذلك الكلام مراراً . لكننى انما فعلت ما فعلت من أجلها وفى سبيل مصلحتها . كتبت لها رسالتين بهذا المعنى وبهذه اللهجة ، وعبرت عن رأيى بهذا الأسلوب أثناء لقائنا اليوم أيضاً . . . وفى مرة أخيرة رأيت من واجبى أن أقول لها ان هذا يشتمل على مذلة لها . ثم ان كلمة « بقايا » هذه ليست اختراعاً منى ، وانما أنا استعرتها من غيرى ، وجميع من فى بيت جانيا يستعملونها على الأقل . وقد أيدت هى نفسها ذلك . فلماذا وصفتنى اذن باننى نمام ؟ رأيت ، رأيت : ان رغبة محبومة فى الضحك علىّ تستمر بها الآن نفسك ؟ وانى لأراهن أنك تطبّق على حالتى هذه الأبيات السخيفة :

وفى يوم نهايتى الحزينة

قد يسطم الحب على شفتى

بابتسامة وداع *

ها ها ها !

كذلك صاح يضحك ضحكاً تشنجياً أعقبته نوبة سعال .

ثم أضاف يقول بصوت محشرج :

— لاحظ مدى تناقض جانيا : انه يتكلم عن بقايا ؟ أفليس يسمى هو نفسه الى الاستفادة من « بقايا » ؟

لبث الأمير صامتاً برهةً طويلة . كان مصروعاً .
وتنعم أخيراً يقول :

- ذكرت لقاء مع ناستاسيا فيليوفا ، أليس كذلك ؟

- دعك من هذا الكلام ، هل يمكن أن تجهل حقاً أن لقاء سيم اليوم بين آجلايا ايفانوفنا وناستاسيا فيليوفا ؟ بفضل المساعي التي قمت بها أنا ، فقد تولى روجوين ، تلبية طلب من آجلايا ايفانوفنا ، دعوة ناستاسيا فيليوفا الى المجيء من بطرسبرج خصيصاً ، وهى الآن فى صحة روجوين ، بالقرب من مسكنك ، فى البيت الذى سبق أن أقامت فيه ، عند داريا ألكسييتا . . . صديقتها ذات السمعة المشبوهة . . . فالى ذلك البيت المشبوه انما ستذهب اليوم آجلايا ايفانوفنا لاجراء حديث ودى مع ناستاسيا فيليوفا ، ولحل مشكلات مختلفة . انهما تريدان أن تتكلما بلغة الرياضيات . اكنت لا تعرف هذا ؟ بشرفك ؟

- غير معقول !

- هذا أحسن ! ولكن أين لك أن تعرف بالأمر ؟ ومع ذلك ، فى حجر كالجحر الذى نعيش فيه ، لا يمكن أن نصير ذبابة الا وبلغ نبأ طيرانها جميع الناس ! الخلاصة . . . لقد نبهتك ، وفى امكانك أن تكون لى شاكراً ممتازاً . هياً ، الى اللقاء ! ربما فى الحياة الآخرة ! فى العالم الثانى ! كلمة أخرى : اذا كنت قد تصرفت معك تصرفاً وضعياً دنيئاً ، فذلك . . . لأننى ليس ثمة سبب يدعونى الى أن أضحى فى سبيلك بمصالحى . قل لى من فضلك : لماذا عسانى أؤثر مصالحك على مصالحى ؟ اليها انما أهديت أنا ، اعترافى ، (اكنت لا تعرف ذلك ؟) ، فسرعان ما قبلت هديتى راضية ! هى . هى ! لكننى تصرفت معها هى تصرفاً لا وضاعة فيه ولا دناءة . لم أرتكب أى خطأ فى حقها . بل هى التى دبّرت لى « مقلباً » ووضعتنى فى موضع حرج . . على اننى لم اقدر ذنباً حتى فى حقك أنت . وثّن أبحت لنفسى تجاهها أن الملح ذلك التلميح الى « البقايا » والى أشياء أخرى من هذا القيل ، فاننى فى مقابل هذا أحدد لك يوم الموعد

وساعته ومكانه ، فأكشف لك الأوراق كلها !... صحيح أتني أفعل هذا
عن غضب وحقد ، لا عن نبل وشهامة . استودعك الله ! انني ثرثار ثرثرة
انسان عي اللسان أو مسلول الصدر . افتح عينيك ، اتخذ اجراءاتك ،
تصرف بأقصى سرعة ، اذا كنت جديراً بأن تسمى رجلاً . سيتم اللقاء
هذا المساء . ذلك أمر مؤكد محقق .

اتجه هيبوليت نحو الباب ، لكنه قد ناداه الأمير وقف في العتبة .
سأله الأمير :

- في اعتقادك اذن أن آجلايا ايفانوفنا ستذهب اليوم الى ناستاسيا
فيليوفا بشخصها ؟

كانت بقع حمر تصبغ خديه وجبينه .

أجابه هيبوليت وهو يلقي نظرة وراعه :

- لا أعرف تماماً . ولكن ذلك جائز . على أن الأمر لا يمكن أن
يكون غير هذا . فان ناستاسيا فيليوفا لن تذهب اليها ، أليس كذلك ؟
والحديث لا يمكن أن يجري عند أهل جانيا حيث يُحتضر الجنرال .
ما قولك في الجنرال ؟

قال الأمير معترضاً :

- اسمع . يكفي هذا السبب وحده حتى يكون الأمر مستحيلاً ،
كيف يمكنها أن تخرج ولمو أرادت ؟ انك لا تعرف عادات ... هذا
المنزل ؟ انها لا تستطيع أن تذهب الى ناستاسيا فيليوفا وحيدة . تلك
مزحة !

- سأقول لك شيئاً يا أمير : لا أحد يقفز من النافذة . ولكن حين
يشب حريق فان أحسن رجل مهذب وأرقى سيدة مرموقة لا يترددان عن
القفز من النافذة . اذا مسّت الحاجة فستكون آنستة مضطرة أن تسلك

هذا السيل ، وأن تذهب الى ناستاسيا فيليوفنا • ولكن قل لى : هل
الأمسات ايباتشين لا يُسمح لهن فى دارهن أن يذهبن الى أى مكان ؟
- ليس هذا ما أردت أن أقوله ...

- طيب • اذا لم يكن الأمر كذلك ، فسوف يكفينا أن تهبط درجات
المدخل ، وأن تصير قُدُماً ، ولو ترتب على ذلك أن لا تعود الى الدار فى
يوم من الأيام • هناك ظروف يحرق فيها الانسان سقنه ويمتدح حتى عن
العودة الى منزل أبويه • ليست الحياة وجبات غداء ووجبات عشاء وأمرأة
أسماءهم • تشتت ... ، فحسب ! ... يبدو لى أنك تنظر الى آجلايا
ايفانوفنا نظرتك الى صبية صغيرة أو تلميذة فى مدرسة داخلية • لقد قلت
لها أنا هذا ، وأحسب أنها وافقتنى على رأى • انتظر الساعة السابعة أو
الثامنة • لو كنت فى مكانك لأوفدت شخصاً يرقبها فيعرف لحظة خروجها
من الدار • فى وسعك أن ترسل كولييا على الأقل • نق أنه سيسره أن
يعمل جاسوساً ، فى سيل مصلحتك طبعاً • هذه أمور نسبية جداً ...
ها ها ! ...

قال هيوليت ذلك وخرج • لم يكن ثمة سبب يدعو الأمير الى
تكليف أى انسان بأن يتجسس له ، حتى ولو كان يرضى لنفسه استعمال
مثل هذه الوسيلة • لقد أدرك الآن بعض الادراك لماذا أمرته آجلايا بأن
لا يغادر بيته • لعلها تتوى أى تجمىء اليه ؛ أو لعلها أرادت أن تجسسه فى
البيت حتى لا يجمىء بينما هى على مباد • نعم ربما كان هذا هو الأمر •
شعر الأمير بدوار ، وبدا له أنه يرى الغرفة كلها ترقص من حوله •
استلقى على الديوان وأغمض عينيه •

ان القضية تجرى مجرى حاسماً نهائياً ، بطريقة أو بأخرى • لا ،
انه لا ينظر الى آجلايا نظرتة الى صبية صغيرة أو الى تلميذة فى مدرسة

داخلية • انه يدرك الأمر الآن : لقد طالما شعر بخوف ، وإن شيئاً من هذا النوع هو ما كان يخشاه فعلاً • ولكن لماذا تريد آجلايا أن تراه ؟ سرت رعدة فى جسمه كله • واعتزته حمى شديدة من جديد •

لا ، انه لا بعدها طفلة ! فى الآونة الأخيرة كانت لها آراء وأقوال روعته • وفى مرات أخرى ، كان يلوح له أنها تبذل جهداً فوق طاقة الانسان فى سبيل أن تسيطر على نفسها ، فى سبيل أن تكبح اندفاعاتها ؟ وانه ليتذكر الآن أن ذلك كان يملؤه رعباً • صحيح أنه جهد فى هذه الأيام الأخيرة أن لا يوقظ تلك الذكريات ، وأن يطرد الأفكار السوداء • ولكن ماذا كان يخفى فى قرارة تلك النفس ؟ هذا سؤال عذبه مدة طويلة ، رغم كل ما كان يشعر به نحو آجلايا من ثقة • على كل حال ، سوف ينحل كل شيء ويتضح كل شيء فى هذا المساء نفسه ! فكرة قطيعة ! مرة أخرى « تلك المرأة » ! لماذا بدا له دائماً أن تلك المرأة سوف تظهر فى آخر لحظة فتحطم مصيره كما يُقطع خيط مهترى ؟ أما أن هذا التوجس لم يبارحه فى يوم من الأيام فذلك أمر لا يتردد اليوم فى أن يؤكده حالفاً أغلظ الأيمان • لكن حاول أن ينساها فى الآونة الأخيرة ، فما ذلك الا لأنه كان يخشاها • ماذا اذن ؟ أهو يجبها أم هو يكرهها ؟ انه لم يلق على نفسه هذا السؤال مرة واحدة أثناء النهار • كان قلبه من هذه الناحية نقياً : كان يعرف من ذا يحب • • ليس لقاؤهما هو ما يخيفه ، لا ولا وجه الغرابة فى هذا الموعد ، ولا الأسباب الداعية اليه ، المجهولة لديه ، ولا النهاية التى سينتهى اليها هذا الاجتماع أية كانت تلك النهاية وانما هو يخشى تامتاسيا فيليوفا نفسها • لقد تدكّر بعد بضعة أيام أنه أثناء تلك الساعات من الحمى ، كان يلوح له دائماً أنه يرى عينها ونظرتها ، وأنه يسمع صوتها ، صوتها الذى يلفظ أفعوالاً غريبة ، ولكن لم يبق فى ذاكرته الا أشياء قليلة بعد تلك اللحظات من الحمى والقلق والخوف • لقد

احتفظ باحساس غامض بأن فيرا جاءت بهشائه ، وأنه أكل الطعام الذي
جاءته به ، ولكنه لا يتذكر أنام بعد ذلك أم لا . كل ما يعلمه أن وضوح
الادراكات لم يعاوده في ذلك المساء الا حين ظهرت آجلايا فجأة في
الشرقة . فنهض عن ديوانه واثباً ، وهباً يستقبلها في وسط الغرفة .
كانت الساعة هي السابعة والربع . لقد جاءت آجلايا وحيدة . وهي تلبس
ثياباً بسيطة كأنما ارتدتها متعجلة وخلعت عليها برنساً خفيفاً . وكان
وجهها شاحباً شحوبه أثناء لقائهما الأخير ، ولكن عينيها مسطمانان ببريق
قوى بارد . انه لم يلاحظ في نظرتها تعبيراً كهذا التعبير في يوم من
الأيام .

تفرست فيه بانتباه . ثم قالت له بصوت خافت ولهجة تبدو هادئة :
- أمت متألم كل التألم ، قد ارتدبت ثيابك وحملت قبعتك
بيدك . اننى استنتج من ذلك أنك قد آبلغت . أعرف من الذى أبلغك :
هو هيبوليت ، أليس كذلك !

تمتم الأمير يقول وهو الى الموت أقرب منه الى الحياة :

- نعم ... حدثنى ...

- طيب ... فلنذهب : انك لتعلم حق العلم أن عليك أن تصحبنى
حتماً . أظن أنك تقوى على الخروج .

- أقوى ... نعم ... ولكن .. هل هذا ممكن ؟

وسكت فجأة ، وأصبح لا يستطيع أن ينطق بكلمة واحدة . تلك
هى المحاولة الوحيدة التى قام بها لصدّ هذه الطائشة وثنيها عن عزمها .
ثم تبعها بعد ذلك كما يتبع عبدٌ سيّده . انه رغم كل ما كان عليه فكره
من اضطراب وتشوش وبلبلة قد أدرك أنها ستذهب « الى هناك » ، ولو لم

يصحبها ، فالأولى اذن أن يصحبها • لقد أدرك قوة التسييم والعزم لدى الفتاة ، وأحس أنه غير قادر على أن يوقف هذه الاندفاع الوخشية • سارا صامتتين ، ولم يكادا يتبادلان كلمة واحدة طوال الطريق • ولكنه لاحظ أنها تعرف الطريق معرفة جيدة ، فلما اقترح عليها أن يسلك شارعاً صغيراً بعيداً بعض البعد لكنه غير مطروق كثيراً أصفت الى كلامه وبدأ عليها أنها تزن ما للاقتراح وما عليه ، ثم أجابت باقتضاب : « الأمران واحد ! » •

حتى اذا صاروا قرب منزل داريا ألكسيفنا (وهو مبنى كبير عتيق من خشب) ، رأيا سيدة مرثدية ثياباً فضحة تخرج منه في صحبة فتاة ، ورأيا المرأتين تركبان عربة رائمة كانتت تنتظرهما أمام درجات المدخل • كانتا تضحكان وتحدثان في صخب ، ولم تنفرا الى القادمين الجديدين فكأنهما لم ترياهما • فما ان ابتمدت العربة حتى فُتح الباب من جديد ، وظهر روجويين الذي كان ينتظرهما فأدخلهما ثم أغلق الباب وراءهما •

قال روجويين بصوت عال وهو يلقي على الأمير نظرة غريبة :

— ليس في الدار كلها الآن أحد غيرنا نحن الأربعة !

كانت ناستاسيا فيليوفا تنتظرهما في الحجرة الأولى • وكانت هي أيضاً تلبس ثياباً بسيطة جداً ، سوداء جميعاً • ونهضت لتستقبلهما ، لكنها لم تبسم ولم تمدد يدها للأمير ، وثبتت نظرتها القلقة على آجلايا نافذة الصبر • جلست المرأتان متائمتين : فأما آجلايا فقد جلست على الديوان بركن من الغرفة وأما ناستاسيا فيليوفا فقد جلست قرب النافذة • ولبت الأمير وروجويين واقفين ؟ وما دعاهما أحد الى الجلوس على كل حال • ونظر الأمير الى روجويين مرة أخرى بارتباك وحيرة بمازجهما ألم

ويخالطهما عذاب ، ولكن روجوين احتفظت شفتاه بابتسامة واحدة لم تتغير .

وأخيراً طافت بوجه ناستاسيا فيليوفنا سحابة مشؤومة : ان نظرتها التي ما تزال محدقة الى الزائرة ثابتة عليها قد اتخذت الآن تعبيراً عن عناد ، وقسوة ، وعن كره وبغض تقريباً . وكانت آجلايا ظاهرة الاضطراب ولكن على غير تهيب أو رهبة . انها حين دخلت لم تكذب تلقى نظرة على منافستها ، وكانت مسبلة جفניה على وضع الانتظار وكأنها تفكر . مرة أو مرتين أجالت بصرها على الغرفة ، كأنها عرضاً بغير عمد ، فعبّر وجهها عندئذ عن الاشتزاز كأنها تخشى أن تسخ في مكان كهذا المكان . ليس مؤكداً أنها كانت شاعرة بكل حركاتها ، ولكن اذا كانت هذه الحركات قد صدرت عنها عفواً فذلك أدعى الى ايذاء الشعور وجرح الكرامة .

وأخيراً عزمت أمرها على أن تواجه بثبات وقوة تلك النظرة الساطعة التي كانت تلقيها عليها ناستاسيا فيليوفنا والتي لم تلبث أن قرأت فيها كره المنافسة واضحاً جلياً على الفور . لقد فهمت المرأة المرأة . فارتدت .

وقالت بعد لحظة ، لكن بصوت خافت جداً ، حتى أنها توقفت عن الكلام مرتين أثناء النطق بهذه الجملة القصيرة :

— لا شك أنك تعرفين السبب الذي حملني الى استدعائك .

فأجابتها ناستاسيا فيليوفنا بلمهجة جافة قاطعة :

— لا ، لا أعرفه .

فاحمرت آجلايا . لعلها قد بدا لها فجأة أن وجودها الآن قرب هذه المرأة ، في بيت « تلك المخلوقة » ، أمر مذهل لا يصدق العقل ، ولعلها كانت تشمر بالحاجة الى سماع جواب ناستاسيا فيليوفنا . فما ان

سمعت أولى نبرات صوت ناستاسيا فيليوفنا حتى سرى فى جسمها كله
نوع من رعدة • ولاحظت «الأخرى» ذلك كله طبعاً ، لم يفتها منه شئ ••
قالت آجلایا بفتةً وهى تطرق محدقة الا الأرض بنظرة متجهمة
كالحلقة ، قالت بصوت يكاد يكون خافتاً :

– أنت تفهمين كل شئ ••• ولكنك تتظاهرين بأنك لا تفهمين •
فأجابت ناستاسيا فيليوفنا وهى تبسم ابتسامة لا تكاد تُدرك :

– لماذا عسانى أظهار هذا التظاهر ؟
قالت آجلایا بخراقة تكاد تكون مضحكة :

– تستغلين وضعى •• لأننى فى بيتك ••• تحت سقفك •••
هتفت ناستاسيا فيليوفنا تقول بحدة وقوة :

– أنت المسئولة عن هذا الوضع ، فأنا لم أستدعك ، وإنما انت التى
دعوتنى الى هذا اللقاء الذى ما زلت أجهل سببه •

رفعت آجلایا رأسها فى استعلاء وغطرسة • وقالت :

– صونى لسانك • أنا ما جئت الى هنا لأقاتلك بهذا السلاح الذى
هو سلاحك •••

– ها ••• اذن لقد جئت الى هنا لتقاتلى على كل حال ! ••• تصورى
أننى كنت أفضلك ••• أصفى روحاً •••

وتبادلت المرأتان نظرة لم تحاولا أن تخيا ما فيها من بغض • ومع
ذلك كانت احدى هاتين المرأتين هى تلك المرأة نفسها التى بعثت الى
الأخرى برسائل تشتمل على ذلك التأثير كله وتلك العاطفة كلها • لقد
تبددت تلك المودة كلها فى أول لقاء ، منذ أولى الكلمات • فكيف نفسر

هذا ؟ وكان أحداً الأشخاص الأربعة الموجودين فى تلك الغرفة لم يخطر بباله أن يصحب لهذا الأمر . فالأمير الذى كان بالأسس لا يصدق أن يكون حدوث هذا المشهد ممكناً ولو فى الحلم ، يراه الآن وكأنه قد تبا به منذ زمن طويل . ان الحلم العجيب الشاذ قد اكتسى على حين فجأة صورة واقع محسوس ملموس . وكانت إحدى المرأتين فى تلك اللحظة تشعر نحو غريبتها باحتقار يبلغ من القوة وبرغبة فى اظهار هذا الاحتقار تبلغ من العنف (ولعلها لم تجىء الا لهذا الغرض ، كما زعم ذلك روجوين فى القند) أن الأخرى ما كان لها فيما يظهر أن تستطيع التزام أى موقف عقدت عليه عزمها من قبل أو أن تحافظ على أية فكرة انطوت عليها نفسها ، رغم كل ما فيها من غرابة الطبع واضطراب الفكر ومرض النفس ، مادامت غريبتها تواجهها بهذا الاحتقار المسموم . وأيقن الأمير بأن تاستاسيا فيليوفا لن تكون هى البادئة فى الاتيان على ذكر الرسائل . لقد أدرك من الشرر الذى كان يخرج من عينيها أن أمر هذه الرسائل يؤلمها الآن أشد الايلام . ولكنه كان مستعداً لأن يدفع نصف حياته ثمناً لاغفال آجالها أمر اللامع الى هذه الرسائل أيضاً .

غير أن آجالها بدا عليها فجأة أنها ثابت الى رشدتها واستردت سيطرتها على نفسها . قالت :

— لم تفهمى عنى . أنا لم أجيء الى هنا ... لأشاجرك ، رغم أننى لا أحبك كثيراً . وانما جئت ... لأكلمك بطريقة انسانية . اننى حين دعوتك الى هذا اللقاء ، كنت قد حددت موضوعه ، ولن انشئ عن عزمى ولو لم تفهمينى البتة . واذا لم تفهمينى فذلك يضيرك أنت ولا يضيرنى أنا . لقد أردت أن أجيء عن مضمون الرسائل التى بعثت بها الى ، وأن يكون جوابى كلاماً لا كتابةً فذلك فى رأى أنسب . فاسمعى اذن جوابى على رسائلك . لقد أخذتنى بالأمير ليون يقول لا يقتض شفقة منذ

اليوم الأول الذى عرفته فيه ، وقويت هذه العاطفة فى نفسى حين علمت بكل ما جرى أثناء سهرتك • أخذتني به شفقة لأنه انسان يبلغ من بساطة الفكر أنه ظن أن فى وسعه أن يكون سعيداً ••• مع امرأة ••• لها مثل هذا الطبع وهذا الخلق • وقد وقع ما كنت أخشى منه عليه : لم تستطع أن تحببه ، وسيبت له عذاباً كثيراً ، ثم هجرته • ولئن لم تستطع أن تحببه فان مرد ذلك الى فرط زهوك ••• لا ••• لقد أخطأت التعبير ••• فما ينبغي أن أقول الزهو •• بل الفرور •• وحتى كلمة الفرور ليست هى الكلمة المناسبة ، فانما الأحرى أن أقول الأثانية • انك أثنائية الى حد •• الجنون • وان الرسائل التى بعثت بها الى تهض دليلاً على ذلك • لم يكن فى إمكانك أن تحببى انساناً يبلغ مبلغه من البساطة • حتى ان من الجائز أن تكونى فى قرارة نفسك قد احتقرته وهزئت به وضحكت عليه • كنت لا تستطيعين أن تحببى الا عارك والا الفكرة الثابتة التى استبدت بنفسك وهى أنك قد دُئست وأُهنت • فلو أنك لم تسقطي ذلك السقوط كله ، أو لو أنك لم تسقطي البتة ، لما زادك ذلك الا شقاء •••

نطقت آجلايا هذه الكلمات بنوع من التلذذ ، وكانت تتدفق فى الكلام تدفقاً سريعاً ، ولكنها تستعمل تعابير سبق أن تصورتها واجترتها منذ أن كانت لا تصدق ، حتى فى الحلم ، امكان حدوث هذا اللقاء • وكانت تراقب بنظرة كارهة مبغضة ما تحدث أقوالها من أثر فى وجه ناستاميا فيليوفنا الذى اضطرب وانقلب •

تابعت آجلايا كلامها تقول :

— هل تذكرين رسالةً كتبها الىّ وقال لى فيها انك تعرفينها بل وانك قرأتها ؟ اننى حين قرأت تلك الرسالة انما فهمت كل شيء ، وأدركت كل شيء • حق الادراك • وقد أبد هو نفسه ، فى الآونة الأخيرة ، كل

كلمة من الكلمات التي أقولها لك الآن . وانتظرت بعد تلك الرسالة ،
حزرت أنك ستضطرين أن تجيئي الى هنا ، لأنك لن تستطعي الاستثناء
عن بطرسبرج : انك ما تزالين أصغر سنًا وأبرع جمالاً من أن تطيقي
الحياة في الأقاليم ...

وأضافت تقول بينما كان وجهها يحمر احمراراً شديداً (ولم يفارق
هذا الاحمرار وجهها طوال مدة كلامها بعد ذلك) :

- ليست هذه الكلمات كلماتي أنا على كل حال ! .. وحين التقيت
بالأمير من جديد تأملت له ألماً قوياً وأحسست أنه أهن . لا تضحكى .
وإذا ضحكك كان ذلك دليلاً على أنك غير جديرة بأن تفهمي هذا ...
ودت ناستاسيا فيليوفنا تقول بلهجة حزينة قاسية :

- انك لترين بعينك اننى لا أضحك .

- لمست أكثر على كل حال . اضحكى ما شئت أن تضحكى .
وحين سألته بنفسى قال لى انه أصبح لا يحبك منذ مدة طويلة حتى ان
ذكراك وحدها أصبحت تؤلمه ، ولكنه يرئى لحالك ، وإذا فكر فيك شعر
بأن قلبه قد « طُعن الى الأبد » . يجب أن أضيف أيضاً أننى لم ألاحظ
طوال حياتى رجلاً يضارعه فيما تتصف به نفسه من بساطة نبيلة وفيما
يزخر به قلبه من ثقة لا حدود لها . فبعد أن سمعت كلامه ، أدركت أن
فى امكان أى انسان أن يخدعه اذا أراد ، وأن من يخدعه يمكن أن
يطمئن كل الإطمئنان الى أنه سيفقر له ويصفح عنه . لذلك أحبيته ..

صمتت آجلايا مصعوقة ، وهى تساءل كيف أمكنها أن تنطق هذه
الكلمة . لكن كبرياء قوية سطعت فى نظرتها فى الوقت نفسه . وبدا عليها
أنها لن تكثر بشئ . بعد الآن ، ولو أخذت « هذه المرأة » تضحك منها
للاعتراف الذى أقلت من لسانها . قالت :

- هذا كل شيء قد قلته لك ؟ ولا شك أنك تدركين الآن ما أنتظرنه منك ، هه ؟

أجابت ناستاسيا فيليوفا بهدوء ورفق :

- ربما كنت أدركه • لكنني أحب أن أسمعك منك •

فاستعل وجه آجلايا غضباً ، وقالت بلمهجة جازمة وهي تقطع كلماتها :

- أردت أن أسألك بأي حق أجزت لنفسك أن تتدخل في عواطفه نحوي ؟ بأي حق تجرأت أن تكتبي لي تلك الرسائل ؟ بأي حق تصرحين له في كل لحظة ، له ولي أنا ، بأنك تحبينه ، بعد أن هجرته وقررت منه ذلك الفرار المهيمن •• والمشين أيضاً ؟

أجابت ناستاسيا فيليوفا تقول مكدودة مجهدة :

- أنا لم أصرح بأنني أحبه ، لا لك ولا له ، ولكن ••• ولكنك على حق ••• لقد قررت منه •

وقد أضافت ناستاسيا فيليوفا هذه الحملة الأخيرة بصوت يكاد يكون منطفئاً •

صاحت آجلايا تسألها :

- كيف ؟ لم تصرحي بأنه تحبينه ، لا لي ولا له • ؟ ورسائلك ؟ من ذا الذي رجاك أن تكوني سمسارة زواج ، وأن تحصيني على تزوجه ؟ أليس هذا تصريحاً بحب ؟ لماذا تضعين نفسك بيتنا ؟ لقد اعتقدت في أول الأمر أنك إنما تريدني أن تحمليني على كرهه والنفور منه بتدخلك في شئوننا بغية أن أقطع صلتى به • ثم لم أفهم حقيقة تفكيرك الا بعد ذلك : فأنت انما تخيلت أن تحققى عملاً باهراً باللجوء الى تلك الأساليب

من الرياء والنفاق ... أكنت قادرة على أن تحييه ، أنت يا من تحيين
غرورك ذلك الحب كله لماذا لم ترحلى من هنا وكفى ، بدلاً من كتابة
تلك الرسائل الى ؟ لماذا لا تتزوجين الآن هذا الرجل الشريف الذى
يجبك كثيراً ، والذى شرفك بأن قدم اليك يده خاطباً ؟ ان السبب
واضح كل الوضوح : قلوب تزوجت روجوين لما استطعت بعد ذلك أن
تصطنعى دور المرأة المطعونة ، ولما بقى لديك ما تسوغين به حقك .
بالعكس : ان تزوجك روجوين يمكن أن يكون لك مدعاة فخر ! لقد
قال عنك أوجين بافلوفتش انك قد قرأت شعراً كثيراً ؛ وانك قد حصلت
من الثقافة فوق ما يتناسب مع ... وضعت ؛ وانك تؤثرين أن تقرئى على
أن تعملى ؛ فاذا أضفنا الى هذا ما يعتل فى نفسك من غرور أحصينا بذلك
جميع البواعث والأسباب ...

ـ وأنت ، ألسنت عاطلة عن العمل أيضاً ؟

كانت الأمور قد أسرع تجرى مجرى غير متوقع ، وتسير سيراً لم
يكن فى الحسبان . لم يكن فى الحسبان ، لأن ناستاسيا فيليوفا ، حين جاءت
الى بافلوفسك ، كانت ما تزال تراودها أحلام ، وكانت ما تزال تعلق نفسها
ببعض الأوهام ، رغم أنها كانت تتوقع الشر أكثر مما تتوقع الخير طبعاً .
ولكن آجلايا قد انجرفت فوراً كمن ينحدر من أعلى الجبل ، ولم تستطع
أن تقاوم ما فى الانتقام من اغراء فظيع . حتى لقد دهشت ناستاسيا
فيليوفا من رؤيتها على هذه الحال . فكانت وقد تحيرت وارتبكت منذ أول
لحظة تنظر اليها ولا تصدق عينها . أهى امرأة أسرفت فى قراءة قصائد
الشعر كما افترض أوجين بافلوفتش ، أم هى امرأة فقدت صوابها وكفى ،
كما أيقن الأمير بذلك ؟ مهما يكن من أمر فإن ناستاسيا فيليوفا رغم كل
ما تحرص على ابدائه من استهتار وقع فى بعض الأحيان ، كانت أكثر
حياء ، وأكثر رقة ، وأكثر ثقة مما يمكن أن يظن المرء . صحيح أن

نفسها كانت تنطوى على كثير من صور الخيال وتهاويل الوهم مولكن المراء
يجد فيها عواطف قوية عميقة الى جانب ما يجد من حب النزوة والميل الى
الجموح . ولقد أدرك الأمير ذلك : ان تعبيراً عن ألم شديد يرسم الآن
فى وجهها . ولاحظت آجلايا هذا فاختلجت كرهاً ومقتاً . وانبرت تقول
بخطرة لا توصف ، جواباً على الملاحظة التى "بدتها ناستاسيا فيليوفنا :

- كيف تجسرين أن تكلمين بهذه اللهجة ؟

فأجابت ناستاسيا فيليوفنا مدهوشة :

- لعلك لم تسمعين سماعاً واضحاً . ما اللهجة التى كلمتك بها ؟

فاذا بأجلايا تقذفها فجأة بهذا الكلام :

- لو أنك أردت أن تكونى امرأة شريفة فلماذا لم تعمدى بكل
بساطة الى قطع صلتك بالرجل الذى أغواك ، توتسكى ، مستغنيةً عن هذه
الأوضاع المسرحية كلها ؟

فأجابتها ناستاسيا فيليوفنا وقد أخذت ترتجف ارتجافاً شديداً ،
واصفر لونها اصفراراً رهيباً :

- ماذا تعلمين عن وضى حتى تسمحن لنفسك بأن تحكمى على ؟

- أعلم أنك بدلاً من أن تلمسى عملاً تجنين منه رزقك ، قد
هربت مع روجوين الثرى الواسع الثراء ، لتصطنعى بعد ذلك دور ملاك
سقط . ليس يدهشنى أن توتسكى قد أوشك أن يتحجر بسبب هذا الملاك
الساقط !

قالت ناستاسيا فيليوفنا باللهجة الاشتمتزاز والألم :

- حسبك ! انك تفهمينى على نحو ما فهمتى خادمة داريا ألكسييفنا
التي ذهبت فى هذه الأيام الأخيرة الى محكمة الصلح تقاضى خطيئها . ان
خادمة داريا ألكسييفنا قادرة على أن تفهمك أنت فهماً أصح

— أظن أنها فتاة شريفة تعيش من عملها • لماذا تتكلمين عن خادمة بهذا الاحتقار ؟

— أنا لا أحتقر الذين يعملون ، وإنما أحتقرك أنت حين تتحدثين عن العمل !

— لو أنك أردت أن تكوني شريفة لعملت غسالة •
ونهضت المراتان شاحبتين شحوباً شديداً ، ورازت كل منها الأخرى
ينظرهما ازدراءً •

صاح الأمير يقول مصموقاً :

— هدئي نفسك يا آجلايا • هذا ظلم !
وكان روجوين قد كفّ عن الابتسام ، لكنه كان يصغى زاماً
شفتيه ، عاقداً على صدره ذراعيه •

قالت ناستاسيا فيليوفنا وهي ترتعش غضباً :

— انظر ! انظر اليها ! انظر الى هذه الآمنة ! ما كان أغباني ! لقد
كنت أتصورها ملاكاً ! أجيئت الى هنا دون أن تصطحبي مربيتك يا آجلايا
ايفانوفنا ؟ ... هل تريدان ... هل تريدان أن أقول
لك على الفور ، بصراحة ، دون لف أو دوران ، لماذا جئت الى ؟ لقد
كنت خائفة • ذلك هو سبب مجيئك !
— خائفة منك أنت ؟

كذلك سألتها آجلايا خارجةً عن طورها ، وقد شدها شدهاً ساذجاً
وفجأً أن ترى غريمتها تجرؤ أن تقول لها هذا الكلام •

أجابت ناستاسيا فيليوفنا :

— نعم ، خائفة مني أنا ! لكن جئت الى هنا فلأنك كنت خائفة مني •
المرء لا يحقر من يخشاه • ما كان أضلّني حين أمكنني أن أحترمك ،

حتى الى هذه اللحظة ؟ لقد أردت أن تعرفى بنفسك من منا يحبها أكثر
مما يحب الأخرى . ذلك أنك غيورة غيرة فظيعة ، رهيبة ...

تمتت آجلايا تقول زافرة :

- سبق أن قال لى انه يكرهك ...

- جائز . جائز أن لا أكون جديرة به ... لكننى أعتقد أنك
كذبت ! لا يمكن أن يكرهنى ، ولا يمكن أن يكون قد قال لك هذا الكلام !
على أننى مستعدة لأن أغفر لك ... مراعاة لوضعك ... رغم أننى كنت
أرى فيك رأياً أفضل ! .. كنت أظنك أذكى وأجمل ! يميناً كنت أظن
ذلك ! ... على كل حال ، خذنى كنزك ... خذيه .. انظرى ..
انه يتأملك مقتوناً غائباً عن نفسه .. خذيه ، ولكن على شرط : اخرجى
من هنا فوراً ! اخرجى فى هذه اللحظة نفسها ! ...

قالت ناستاسيا فيليوفا ذلك وتهالكت على مقعد وأجهشت باكية .
لكن عينها ما لبثت أن سطعت فجأة ببريق جديد ، فها هى ذى تنظر الى
آجلايا محدثة ، ثم تنهض قائلة لها :

- وهل تريد أن أمره ... فى هذه اللحظة نفسها ... أن أمره
... هل تسمعين ... أن أمره بأن يهجررك فوراً وأن يبقى معى الى
الأبد وأن يتزوجنى ؟ يكفى أن أمره بهذا حتى يدعنى للأمر . أما أنت
فترجعين الى دارك راكضة وحيدة . هل تريد أن أفعل هذا ؟
هل تريد ؟

كذلك قالت ناستاسيا فيليوفا صارخة كالجنونة ، ربما دون أن
تصدق أنها قادرة على النطق بمثل هذه الأقوال .

وكانت آجلايا قد اندفعت نحو الباب مذعورة ، ولكنها توقفت فى
العتبة جامدة تصنى . وتابعت ناستاسيا فيليوفا كلامها تقول :

— هل تريد أن أطرد روجوين ؟ أكنت تظنين أنني سأتزوج روجوين ارضاءً لك ؟ لسوف أصرخ أمامك قائلة : « ارحل يا روجوين ! » ، وسوف أقول للأمير : « هل تذكر وعدك ؟ » ، رباه ! لماذا هونت شأنى وحقت قيمتى فى نظرهم ؟ أنت يا أمير ، ألم تؤكد لى أنك ستبغى حينما أذهب وأنتك لن تهجرنى فى يوم من الأيام مهما يحدث لى ؟ ألم تؤكد أنك تحبى وأنتك سوف تغفر لى ، وأنتك تحترمنى . . نعم . . لقد قلتَ هذا أيضاً ؟ وأنا التى قررت منك ، لا لشيء إلا أن أدعك حراً طليقاً . ولكننى عدلت الآن عن هذا . لماذا عاملتسى كما تعامل امرأة داعر ؟ أسأل روجوين هل أنا امرأة داعر ؟ أسأله فيقول لك ! . . أبعد أن جللتسى الآن بالعار ، على مرأى منك ومسمع ، تشيح وجهك عنى وتمضى معها متأبطاً ذراعها ؟ ألا فلتصبّ عليك اللعنة اذا فعلت ذلك ، لأنك الرجل الوحيد الذى محضته تقى .

ثم هتفت تقول باندفاعه جنون :

— اذهب يا روجوين !

كانت الكلمات تخرج من صدرها بكثير من المشقة والغناء ، وقد تشوهت ملامح وجهها ويست شفتاها : واضح أنها كانت لا تصدق كلمة واحدة من هذا الكلام الذى اطلقته فى نوبة افتخار ، ولكنها كانت تريد أن تطيل الوهم برهة أخرى . لقد بلغت التوبة من القوة والعنف أنها كان يمكن أن تميتها ، فى تقدير الأمير على الأقل .

وصرخت تقول لأجلايا أخيراً وهى تومىء الى الأمير بإشارة من

يدها :

— هذا هو . انظرى اليه : ان لم يجرىء الى فوراً ، ان لم يرض أن

يتركك من أجلى ، فما عليك إلا أن تأخذه . اننى أتنازل عنه ، فلا أريده

بعد الآن . . .

لبث المرأتان ساكنتين جامدتين كأنهما تنتظران جواب الأمير الذي
كانتا تنظران إليه زائفتي الهيئة . ولكن لعله ، هو ، لم يدرك كل ما كان
فى ذلك التحدى من عنف ؛ بل انه لم يدركه حتماً . فمن ينظر إليه
يتحقق من ذلك . كان لا يميز أمامه الا ذلك الوجه الذى يلوح فيه
الأس والجنون والذى كان منظره « قد طعن قلبه الى الأبد » ، كما سبق
أن قال ذلك يوماً لأجلانيا . ثم لم يطلق احتمال رؤية هذا المشهد أكثر من
ذلك ، فهاهو ذا يلتفت الى آجلانيا ، فيسألها بلهجة الرجاء والعتب مشيراً
الى ناستاسيا فيليوفنا :

— أهنأ جائر ؟ ألا ترين كم هى بائسة شقية ؟

ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك . فان نظرة ألقتهما عليه آجلانيا
قد عقلت لسانه . ورأى فى هذه النظرة ألماً يبلغ من الشدة ، ورأى فيها
كرهاً يبلغ من القسوة أنه ضمَّ يديه احدهما الى الأخرى ، وأطلق
صرخة ، وهرع نحو الفتاة . ولكن كان قد فات الأوان . انها لم تنطق أن
يتردد ولو ثانية واحدة . فغطت وجهها بيديها ، وانطلقت تخرج من الغرفة
صائحة : « آه ... رباة ! » ، وكان روجويين قد تبعها ليفتح لها الباب .

وهرع الأمير ورامها أيضاً ، غير أن ذراعين قد احتضنتاه عند العتبة .
كانت ناستاسيا فيليوفنا تحديق فيه منقلبة السحنة مكفهرة الوجه ، وتمتمت
شفاتها المزرقعتان تقولان له :

— أتركض ورامها ؟ ورامها ؟

وسقطت فى ذراعيه متضياً عليها . فأنهضها وحملها الى الضرفة
ووضعها على مقعد من المقاعد ، ولبت مائلاً عليها منتظراً مشدوهاً . وكان
يوجد على مائدة صغيرة كأس ماء . فتناول روجويين حين عاد ، ورش
شفاً من مائه على وجه المرأة الشابة . ففتحت عينيها ، وظلت خلال دقيقة

لا تمى شيئاً ، لكنها لم تلبث أن استردت شعورها فجأة ، فارتعشت ،
وأسرعت الى الأمير تصيح قائلة له :

- أنت لى ، لى أنا ! هل انصرفت الآنسة المتكبرة ؟ ها ها ها !

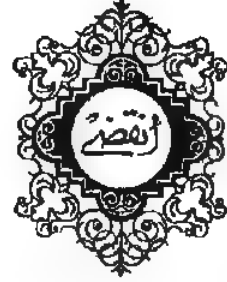
كذلك قهقهت فى نوبة ضحك قسطنجى ، وتابت ضحكها وكلامها :

- ها ها ها ... كنت قد تنازلت عنه لتلك الآنسة ! لماذا فعلت ذلك ؟

لماذا ؟ كنت مجنونة ! ... يا روجوين ، امض فى سيلك ... اذهب !
ها ها ها ! ...

وبعد عشر دقائق كان الأمير جالساً قرب نامتاميا فيليبونا يحضنها
بمنيه ، ويمسح وجهها وشعرها بيديه فى رفق كما يفعل المرء بطفل .
وكان يضحك ضحكاً مجلجلاً حين يسمعها تضحك ، وكان يوشك أن
يجهش باكياً اذا رآها تبكى . وكان لا يقول شيئاً ، وانما يتبى الى
تمتمتها المحمومة المفككة التى لا يفهم منها شيئاً البتة ، ولكنه يصنى اليها
مبتسماً ابتسامة رقيقة لطيفة . حتى اذا لاحظ بزوغ نوبة جديدة من
الحزن والدموع واللوم والتشكى ، عاد يلعب شعرها ويمسح خديها
بحنان ، ويحاول أن يواسيها وأن يثقلها كنبية صغيرة .

الفصل التاسع



اسبوعان على الأحداث التي رويها في الفصل السابق ، وقد تغيرت أحوال شخصيات قصتنا أثناء تلك المدة تغيراً كبيراً جداً ، حتى ليصعب أن نمضي في الطريق الى آخره دون الدخول في بعض التفسيرات ، ولكننا نشعر نحن أنفسنا بأن من العسير علينا في كثير من الحالات أن نحلل هذه الأحداث ،

أغلب الظن أن مثل هذا التنبيه سيبدو للقارئ غريباً وغير مفهوم في آن واحد ؛ فكيف يمكن أن يسرد المرء أحداثاً ليس في ذهنه فكرة واضحة عنها ، وليس له رأى شخصي فيها ؟ فمن أجل أن لا نضع أنفسنا في موضع ادعى الى شبهة الضلال والزيغ أيضاً ، سنحاول أن نوضح فكرتنا بمثال ، أملين أن نجعل القارئ السمع يفهم أمأزق الذي نجد أنفسنا أمامه ؛ وسيكون لهذا مزية ، هي أن المثال الذي اخترناه لن يكون استطراداً وخروجاً عن الموضوع ، بل سيكون التمهيد المباشرة للقصة .

فبعد خمسة عشر يوماً ، أى في مطلع شهر تموز - يولييه (بل وأثناء هذين الأسبوعين) ، اتخذت قصة بطلنا ، ولا سيما حدثها الأخير ، اتخذت في ألسن الناس صورة عجيبة كان يسليهم جداً أن يتناقلوها . قصة لا يكاد يصدقها العقل ، ولكنها لا تكاد توضع موضع شك ، انتشرت شيئاً فشيئاً في جميع الشوارع التي تجاور فيلات ليديف وبستين وداريا ألكسييفا وآب ايباتشين ، أى في المدينة كلها تقريباً ، بل وفيما حولها

أيضاً • ان المجتمع ككله ، أو ككله على وجه التقريب (أهل البلدة أو سكان الفيللات أو الوافدين من المدينة لسماع الموسيقى) قد أشاعوا القصة نفسها بألف شكل وشكل ؛ ومن تلك الأشكال كلها يخرج أن أميراً قد قام بفضيحة في أسرة محترمة معروفة ، فترك أمسه من تلك الأسرة رغم أنه كان قد أتم خطبته لها ، ومضى يتشبث بأذيال امرأة خليعة • لقد قطع جميع صلاته ، واستخف بجميع التهديدات ، ولم يكثر اى اكتراث باستياء الناس وامتاعهم ، فأعلن - على خلاف ما توجهه أبسط مبادئ اللباقة الاجتماعية - أنه يتنوى أن يتزوج تلك المرأة الضائعة ، ببلدة بافلوفسك نفسها ، على مرأى وسماع من جميع الملأ ، رافعاً رأسه ، شامخاً بأنفه ، محدقاً الى البشر فى أعينهم بغير مبالاة •

لقد رُيئت هذه القصة بتفاصيل فاضحة كثيرة • وأفحم فيها أفراد معروفون محترمون ، وصُغت بألوان تضيئ عليها حالة من الخيال والسحر والسر ، ودُعمت من جهة أخرى بوقائع ثابتة لا سبيل الى جحودها ، فلا غرابة أن أيقظت اهتماماً عاماً وأثارت لنظراً كثيراً •

وقد قيل فى تأويل الحادث كلام كثير ، ولكن التأويل المرفف البارع أكثر من سائر التأويلات (وهو فى الوقت نفسه أقربها الى التصديق) هو ذلك الذين أشاعته تقويلات بعض أولئك الأفراد الرصين العقلاء الذين نراهم فى كل طبقة من طبقات المجتمع والذين لا يعدمون أن يجدوا وسيلة لتأويل حادث من الحوادث للآخرين ، فهذه هى رسالتهم فى الحياة بل هذا هو عزائهم وتلك هى سلوهم فى كثير من الأحيان •

ففى رواية هؤلاء أن الشاب ينتمى الى أسرة كريمة المحتد ، فهو أمير ، وهو غنى تقريباً ، وهو محدود الفكر ، ولكنه ديموقراطى ومتشبع لذلك المذهب العدمى المعاصر الذى أوضحه السيد تورجنيف • فهذا

الشاب الذي لا يكاد يحسن التكلم بالروسية قد وقع فى غرام ابنة الجنرال ايباتشين ، وظفر بأن يجعل الأسرة تستقبله فى بيتها استقبال خطيب . ولكنه قد خدع هذه الأسرة بأسلوب يذكر بأسلوب ذلك الشاب الفرنسى ، طالب اللاهوت ، الذى نُشرت مغامرته منذ مدة قصيرة . ان طالب اللاهوت هذا قد طلب عند تخرجه أن يُنصب كاهناً ، وكان يبيت نية معينة ، فبعد أن قلم بجميع الطقوس والشعائر ، وتلا جميع الأدعية والصلوات ، وحلف جميع الأيمان ، وتم تنصيبه كاهناً ، نشر فى الغداة رسالةً مفتوحة الى أسقفه يعلن فيها على رموس الشهاد أنه لا يؤمن بالله ، وأنه يرى أن من الحطة والدناءة من جانبه أن يخدع الشعب وأن يستغله ويعيش عالةً عليه ، فهو لذلك ينكل عما فعله بالأمس ، وينشر رسالته هذه فى الجرائد اللبرالية .

فعلى غرار ما فعله ذلك الملحد ، انتظر الأمير سهرةً ضخمة أقامها أهل الفتاة ، وقدموه أثناءها الى كثير من الشخصيات البارزة المرموقة ، فأعلن أفكاره صراحةً أمام جميع الناس ، وأهان عدداً من وجوه القوم وصفوة رجال المجتمع ، وطرده خطيبته على مرأى ومسمع من الملأ بطريقة مهينة مشينة . وحين كلف الخدم باخراجه من المنزل راح يقاومهم مقاومة عنيفة فهشم أثناء ذلك الماء رائماً من خزف صينى .

وهناك سمة بارزة من سمات الأخلاق السائدة فى عصرنا تضاف الى هذه القصة ، هى أن ذلك الشاب الطائش كان يحب خطيبته ابنة الجنرال حباً صادقاً ، ولكنه قطع صلته بها لا لسبب آخر غير اشهار تشيعه للمذهب العدمى . وهو من أجل أن يجعل الفضيحة أنهر للأبصار تحدى الناس فتزوج امرأة ضائعة ليبرهن بذلك على اعتقاده الراسخ بأنه ليس ثمة نساء ساقطات ونساء فاضلات ، وانما هنالك المرأة المتحررة فحسب . فهو لا يؤمن بالتصنيفات البالية التى يأخذ بها المجتمع الراقى ، وانما يؤمن

« بقضية المرأة » وحدها دون سواها ؛ بل هو يزعم أن للمرأة الساقطة
فى نظره قيمة أكبر من قيمة المرأة التى لم تسقط .

لقد بدا هذا التأويل معقولاً جداً ، محتملاً كل الاحتمال ، وأخذ
به أكثر المصطفين فى بافلوفسك . ومما يستر عليهم ذلك مزيداً من التيسير
أن الوقائع اليومية كانت تأتى مصدقة له . صحيح أن كثيراً من التفاصيل
ظلت أموراً لا سبيل الى فهمها . لقد كان يُقال ان الفتاة المسكينة قد بلغت
من حب خطيبها (وكان بعضهم يسميه « مغويها ») أنها هرعت ايه غداً
تركها ولحقت به فى بيت عشيقته . وذهب بعض آخر الى غير هذا فقالوا
انه استدرجها الى بيت تلك المرأة متممداً ، بدافع العدمية وحدها ، أى
ليجلبها بالعار وليطبخها بالدمس .

مهما يكن من أمر فان الاهتمام الذى أثاره هذا الحادث كان يشتد
يوماً بعد يوم ، لا سيما وأنه لم يبق أى شك فى أن ذلك الزواج المشين
قد أصبح وشيكاً .

والآن ، اذا سألنا أحدً ايضاحات أو تفسيرات (لا عمماً يتصف به
الحادث من أنه ينتمى الى المذهب العدمى ، لا ...) ، وانما عن مدى
انطباق هذا الزواج على رغبات الأمير ، وعما كان الأمير يرغب فيه حقاً ،
وعن حالته النفسية فى تلك الآونة ، وعن أمور أخرى من هذا النوع ،
لوجدنا أنفسنا مرتبكين فى الاجابة أشد الارتباك ، يجب أن نعترف بذلك .
ولكننا نعلم أن الزواج قد تقرر فعلاً ، وأن الأمير قد كلف ليديف
وكيلر وصديقاً لليديف قدّم اليه وعُرف به فى هذه المناسبة ، كلفهم
بأن يتخذوا جميع التدابير وأن يعدوا جميع الاجراءات فى الكنيسة وفى
البيت معاً ، وأمرهم بأن لا يحتفلوا بالنفقات وأن لا يبالوها . وقد أُلح
ناستاسيا فيليوفنا على أن يتم الزفاف فى أقرب وقت . وأُلحّ كيلر على
أن يجعله الأمير فى الشرف فى عرسه ، فلبى الأمير طلبه ، ووقع اختيار

ناستاسيا فيليوفنا على بوردوفسكى فنى من جهتها ، فارتضى بوردوفسكى هذا الاختيار متحمساً • وحدّد أول نموذج - يوليه • موعداً لحفلة الزفاف •

وعدا هذه الوقائع الدقيقة الصحيحة كل الصحة ، فمن نعلم كذلك تفاصيل تحيّرننا أشد الحيرة لأنها تناقض ما سبق • لهذا يحق أن نفدّر أن الأمير ما ان كلّف ليديف والآخرين باعداد كل الترتيبات حتى نسي أن هناك زواجا وزفافاً وعريساً وفتيان شرف وما الى ذلك ! ولعله لم يسرع الى تكليف غيره بهذه الأمور الا ليكفّ هو عن التفكير فيها والانشغال بها ، وربما لمحوها من ذاكرته محوآ تاماً •

ولكن اذا صدق هذا ففى أى شيء كان يفكر ؟ ما هو الشيء الذى كان يريد أن يحتفظ بذكره ؟ ماذا كانت نيته ؟ لا شك فى أن الأمير لم يتعرض لأى ضغط أو اكراه (من جانب ناستاسيا فيليوفنا مثلاً) • صحيح أن ناستاسيا فيليوفنا هى التى أرادت تسجيل الزفاف ؟ وأنها هى التى تخيلت هذا الزواج ، لا الأمير ؟ ولكن الأمير قد وافق موافقة حرة لم يجبره عليها أحد ، حتى انه وافق وهو ذاهل الهيئة كأن الأمر أمر عادى ليس على شيء من خطورة الشأن •

اننا نعرف عدداً كبيراً من وقائع لا تقل غرابة عن ذلك ، ولكننا نرى أن تلك الوقائع لن تساهم فى ايضاح الحادث بل ستزيده • بتراكمها غموضاً على غموض • ولنضرب مع ذلك مثلاً آخر •

نحن نعلم علم اليقين أن الأمير قد قضى فى أثناء هذين الأسبوعين أياماً وسهرات كاملة مع ناستاسيا فيليوفنا وأنه كان يصحبها فى نزهاتها ويرافقها لسماع الموسيقى • كان يخرج معها كل يوم فى عربة • واذا انقضت ساعة دون أن يراها أخذ يقلق عليها (كانت كل المظاهر تدل اذن على أنه يحبها حباً صادقاً) • كان يبقى الى جانبها ساعات طوالاً يصنى

اليها وهي تتكلم بابتسامة رقيقة عذبة أياً كان الموضوع الذى تتكلم فيه .
وكان هو يصمت طول الوقت تقريباً .

ولكننا تعلم أيضاً أنه فى تلك الأيام نفسها قد ذهب عدة مرات ، بل
مراراً كثيرة ، الى منزل آل ايباتشين على حين فجأة ، دون أن يكتم ذلك
عن ناستاسيا فيليوفنا التى كانت تلك الزيارات تهوى بها الى حضيض
الكمد والكرب واليأس . ونحن تعلم أن آل ايباتشين قد رفضوا استقباله
الى آخر يوم من أيام اقامتهم فى بافلوفسك ، وأنهم اعترضوا دائماً على أن
يتم لقاء بينه وبين آجلايا . فكان ينصرف دون أن يقول كلمة واحدة ،
ثم يعود فى الغد وكأنه نسي رفض الأمس ، ثم يُرفض مرة أخرى طبعاً .

ونحن نعرف أيضاً أن الأمير ، بعد هرب آجلايا من بيت ناستاسيا
فيليوفا بساعة أو بأقل من ساعة ، قد مضى الى منزل أسرة ايباتشين معتقداً
أنه سيلقى الفتاة هناك . فما كان أشد الدهر الذى أحدثه فى المنزل
وصوله ، لأن آجلايا لم تكن قد رجعت بعد ، وعلم أهل الدار منه أول
نبأ عن الزيارة التى قامت بها آجلايا فى صحبته لناستاسيا فيليوفنا . وقد
حكى بعد ذلك أن اليزابت بروكوفينا وبنتها وحتى الأمير « شتش » ،
قد عاملوه بقسوة وخشونة وعداوة ، وأعلنوا له بالفاظ غاضبة انهم
لا يريدون أن يشارروه بعد الآن ولا أن يعرفوه ، لا سيما حين وصلت
باربارا آرداليونوفنا تبلغ اليزابت بروكوفينا فجأة أن آجلايا موجودة
عنده منذ ساعة وأنها فى حالة رهبة وأنها لا تريد الرجوع الى البيت
فيما يبدو .

وقد ثبت صدق هذا النبأ الأخير الذى بث الاضطراب فى نفس
اليزابت بروكوفينا أكثر من أى شئ آخر . والواقع أن آجلايا حين
خرجت من عند ناستاسيا فيليوفنا كانت تؤثر أن تموت على أن تظهر أمام
أطوار أهلها من جديد . لذلك لجأت الى نينا الكسندروفنا . ورأت باربارا

آرداليونوفنا من جهتها أن من الواجب أن تبادر الى ابلاغ الزابت بروكوفينا كل ما جرى بغير إبطاء . فهرعت الأم وابنتها فوراً الى عند نينا ألكسندروفنا ، ولحق بهن الأب ، ايفان فيدوروفتش ، الى هناك منذ عاد الى البيت . وركض الأمير ليون نيقولايفتش وراء السيدات ابانتشين رغم أنهن صرفته ورغم أنهن وجهن اليه كلمات جارحة . ولكن باربارا آرداليونوفنا أمرت هناك بمنعه من الوصول الى آجلايا .

وقد انتهت القضية على النحو التالى : حين رأت آجلايا أمها وأختها يبكين بسببها ولكنهن لا يوجّهن اليها أى لوم ، ارتمت فى أحضانهن ورجعت معهن الى البيت فوراً .

وحكى أيضاً - غير أن هذه الشائعة ظلت غير واضحة - أن جبريل آرداليونوفتش قد منى بسوء الحظ مرة أخرى : فانه حين خلا الى آجلايا أثناء ذهاب باربارا آرداليونوفنا الى الزابت بروكوفينا ، ظن أن عليه أن ينتهر هذه الفرصة ليحدث آجلايا عن حبه . فلما سمعته آجلايا نسيت حزنها ودموعها وانطلقت تضحك فى قهقهة مجلجلة ، ثم ألقت عليه السؤال التالى : أهو مستعد ، فى سبيل البرهان على حبه ، لأن يحرق اصبعه على لهب شمعة ؟ ويبدو أن جبريل آرداليونوفتش قد تحير وشده وصعق لهذا الاقتراح ، فلما رأت آجلايا ما تعبر عنه هيئته من هذا كله ، اعترتها نوبة ضحك فظيع ، وهربت الى الطابق الأعلى ، الى عند نينا ألكسندروفنا ، حيث وجدها أهلها بعد ذلك بقليل .

وقد نقل هيوليت هذه الواقعة الى الأمير فى الغد . ان هيوليت الذى أصبح لا يستطيع أن يترك مرقده قد استدعى الأمير خصيصاً لينقل اليه تلك الواقعة . لا نعرف كيف اطلع هو عليها . ولكننا نعرف أن الأمير حين سمع حكاية الأصبع والشمعة قد أخذ يضحك ضحكاً بلغ من الشدة

أن هيبوليت نفسه تحير تحيراً كبيراً • غير أن الأمير لم يلبث أن أخذ يرتجف ، وأجهش باكياً ...

ولقد كان الأمير خلال تلك الأيام ، على وجه العموم ، فريسة قلقٍ شديد واضطراب خارق وخوف غامض • حتى ان هيبوليت أعلن صراحةً أن الأمير يُشعره بأنه وجل أصابه اختلال عقلي • على أن هذا الظن كان يصعب بناؤه على أساس محسوس حتى ذلك الحين •

اننا ، حين نعرض هذه الوقائع جميعها ونرفض أن نفسرها ، لا نهدف الى أن نبيّن صفحة بطلنا وأن نبريء ساحته وأن نسوّغ سلوكه في نظر القارىء • بالعكس : نحن مستعدون لأن نشارك في هذا الاستياء الذى آثاره سلوك الأمير حتى فى نفوس اصدقائه • ان فيرا ليديفا نفسها قد أحققتها هذا السلوك مدةً من الوقت • وان كولييا وكيلر قد أظهرتا امتعاضهما كذلك • ولم يتغير كيلر رأيه الا حين اختاره الأمير فتى الشرف لزفافه • أما ليديف فقد بلغ استياؤه من الصدق أنه دفعه الى أن يدبر للأمير مكيده ستحدث عنها فيما بعد •

اننا من حيث المبدأ نؤيد بلا تحفظ بعض الأقوال التى تتصف بالشدة والصرامة بل وتتصف كذلك بعمق النفاذ السيكولوجي ، أعنى الأقوال التى وجهها أوجين بافلوفتش الى الأمير بغير لف أو دوران ، أثناء حديث ودى قام بينه وبينه بعد انقضاء ستة أيام أو سبعة على الحادث الذى وقع عند ناستاسيا فيليوفا • يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أن الأشخاص الذين تربطهم بأسرة اياتتشين صلات مباشرة أو غير مباشرة قد اعتقدوا أن من واجبهم أن يشاركوا الأسرة فى قطع أى صلة بالأمير • فالأمير «شتش» ، مثلاً قد أشاح عنه وجهه حين لقيه ، ولم يردد تحيته • ومع ذلك لم يخش أوجين بافلوفتش أن يتعرض لشر اذا هو زار الأمير ، رغم أنه قد استأنف

تردده على آل ايباتشين كل يوم ، وأن الأسرة استقبلته بمودة ظاهرة واضحة .

ففى غداة اليوم الذى غادر فيه آل ايباتشين بافلوفسك ، ذهب أوجين بافلوفتش الى الأمير . وكان حين دخوله عليه عالماً بالأقاويل التى كانت تروج فى المدينة ؛ بل لعله كان قد أسهم من جهته فى نشرها . وقد سرَّ الأمير برؤيته سروراً عظيماً ، وسرعان ما أدار الحديث على آل ايباتشين . فكان من شأن هذا الدخول فى الموضوع على نحو صريح مباشر أن حلَّ عقدة لسان أوجين بافلوفتش وأتاح له أن يمضى الى هدفه رأساً .

كان الأمير ما يزال يجهل رحيل آل ايباتشين . فحين أنبأه أوجين بافلوفتش بذلك تجعد دهشة وامتقع لونه . ولكنه بعد دقيقة ، هزَّ رأسه مضطرب الهيئة شارد الفكر وقال مسلماً مدعناً : « لم يكن من ذلك بد » ، ثم أسرع يسأل عن « محل اقامتهم الجديد » .

وكان أوجين بافلوفتش أثناء ذلك يرقبه بانتباه ، فأدهشه أن رأى الأمير يسرع فى سؤاله هذا الاسراع ، وأدهشه ما رآه من مناجاة فى الأسئلة التى يليقها عليه ، وما لاحظته فيه من اضطراب ، وما لاح له فى كلامه من نبرة صدق غريب ، وما كان يظهر عليه من قلق واضطراب وعصية . ومع ذلك أطلع الأمير على تفاصيل جميع الأحداث بكثير من الكياسة والبشاشة واللطافة . لقد أعلمه أشياء كثيرة ، وكان أول من يحمل اليه الأنباء من عند آل ايباتشين .

أكد له أوجين بافلوفتش أن آجلانيا قد مرضت فعلاً ، وأنها قضت ثلاث ليال فى حمى وأرق ، وأن صحتها الآن قد تحسنت فنجت من الخطر ، ولكنها ما تزال فى حالة شديدة من حالات فرط الاحتياج . وأضاف : « من حسن الحظ على كل حال أن سلاماً تاماً يسود جو المنزل ! انهم يحاولون أن لا يتكلموا عن الماضي ، لا بحضور آجلانيا فحسب ، بل

حتى فى غيابها • والأبوان يريدان أن تقوم الأسرة فى الحريف برحلة الى الخارج • بعد زواج آديلايد رأساً • وقد استقبلت آجلايا أولى التلميحات الى هذا المشروع صامتة فلم تعقب عليه بشئ • •
أما هو • أوجين بافلوفتش • فقد يسافر الى الخارج أيضاً • وحتى الأمير • شتت • • • قد يقرر أن يغيب مع آديلايد شهراً أو شهرين • اذا سمحت له أعماله بذلك • فلا يبقى عندئذ الا الجنرال • والأسرة كلها تقيم الآن فى كولينو • على مسافة عشرين فرسخاً من بطرسبرج • بمنزل ريفى واسع فى إحدى الأراضى التى تملكها • ولم تكن الأميرة بيلوكومسكايا قد سافرت بعد الى موسكو • ويظهر أنها تأخرت متمسدة • لقد ألحّت الزبابت بروكوفينا الحاحاً شديداً على استحالة البقاء فى بافلوفسك بعد كل ما حدث • وكان أوجين بافلوفتش ينقل اليها الشائعات التى تسرى فى المدينة • يوماً يوماً • وأعتقد آل ايباتشين أن الذهاب الى فيللا ايلاجين مستحيل أيضاً •

أضاف أوجين بافلوفتش يقول :

— لا شك أنك تسلّم يا أمير بأن الوضع قد أصبح لا يطاق • • •
ولا سيما عند من يعرف ما يجرى فى بيتك كل ساعة • وبعد زيارتك اليومية • هناك • • رغم الاصرار على رفض استقبالك •
أجاب الأمير وقد عاد يهز رأسه :

— نعم • نعم • أنت على حق • كنت أريد أن أرى آجلايا ايفانوفنا •

فصاح أوجين بافلوفتش يقول فجأة بلهجة مؤثرة حزينة :

— آه يا عزيزى الأمير ! كيف أمكنت أن تسمع اذن بحدوث كل ما حدث ؟ صحيح أن الأمر كان لك مفاجأة غير متوقعة • • • فانا أسلمت بأنك لم يكن فى وسعك الا أن يطيش صوابك • ولم يكن فى وسعك أن تصد تلك الفتاة عن الانقياد للنوبة الجنسوان التى اعترتها • فذلك كله فوق

طاقتك ! ولكن كان عليك أن تدرك مدى خطورة وقوة العاطفة ... التي كانت تدفع تلك الفتاة اليك ! انها لم تشأ أن يشاركها أحد فيك ، وأنت .. أنت تركت هذا الكنز وحطمته .

قال الأمير وقد أرهقه الحزن :

— نعم ، نعم ، أنت على حق . اسمع : ان آجاليا كانت هي الانسان الوحيد الذى ينظر الى ناستاسيا فيليوفنا هذه النظرة !... ما من أحد غيرها كان يرى فيها هذا الرأى ، ويحكم عليها هذا الحكم ... هتف أوجين بافلوفتش يقول باندفاع :

— ولكن هذا بعينه هو ما يثير الحلق : أن الأمر كله لم يكن فيه شيء من جد . معذرة يا أمير ... لكننى ... لكننى فكرت فى المسألة فكرت فيها ملياً . وأنا أعرف جميع المقدمات . أعرف كل ما حدث قبل ستة أشهر . لم يكن فى الأمر كله شيء من جد ، لم يكن ثمة الا فكر يعبت وخيال يهوى ، وهم ، ودخان .. والغيرة المروعة ، الغيرة التى عصفت بقلب فتاة غير ذات تجربة ، هى التى استطاعت وحدها أن تجعلها تأخذ الأمر مأخذ الجد ومأخذ المأساة !

وهنا شعر أوجين بافلوفتش بارتياح كامل ، فأطلق لسانه حراً يعبر عن استيائه بغير تحفظ . فاذا هو يرسم للأمير صورة للعلاقات بينه وبين ناستاسيا فيليوفنا بأقوال ذكية واضحة ، وينفذ سيكولوجى عميق ، كما أسلفنا من قبل . ان أوجين بافلوفتش قد أوتى موهبة الكلام فكانت هذه الموهبة تلاحظ فيه دائماً ، ولكنه ارتقى هذه المرة الى مرتبة البلاغة النادرة . قال :

— لقد كان فيك منذ البداية شيء من كذب . ومن كان الكذب بدايته فلا بد أن يكون الكذب نهايته . ذلك قانون من قوانين الطبيعة . اننى

لا أرى رأى أولئك الذين يعدونك أبلة • حتى اننى استاء حين أسمع كلامهم • انك أذكى من أن توصف بهذه الصفة • ولكن لا بد أنك تسلم أنت نفسك بأن فيك غرابة تميزك عن الناس كافة • لقد خلصت أنا الى هذه النتيجة : أن سبب كل ما جرى يكمن قبل كل شيء فيما أسماه « اللاحقة الفطرية » (لاحظ تعبير « الفطرية » يا أمير) ، وفيما تتصف به من سذاجة شاذة غير سوية • واني لأضيف الى ذلك أنك يعوزك حسن الاعتدال عوزاً خارقاً (تلك آفة فيك كثيراً ما اعترفت بها أنت نفسك) ؛ وينبغي أن نذكر أخيراً ذلك السيل التدفق من المعاني المجردة المكتسبة التي يمتلئ بها دماغك والتي حسبتها باخلاصك وبراءتك آراء أصيلة حقيقية صادقة طبيعية مباشرة ! عليك أن تعترف، أنت نفسك يا أمير بأن علاقاتك مع نامتاسيا فيليوفا قد قامت منذ البداية على فكرة « الديمقراطية الاصطلاحية » (استعمل هذا التعبير للإيجاز) وتأثرت بما تتصف به « قضية المرأة » من فتنة وسحر (أقول هذا لمزيد من الإيجاز أيضاً) • اعلم اننى مطلع على جميع تفاصيل الحادث الغريب الفاضح الذي جرى في بيت نامتاسيا فيليوفا حين جاء روجويين بأمواله • سأحاول ، اذا شئت، أن أحللك وأن أظهرك على صورتك كأنك تراها في مرآة • فالى هذه الدرجة من الدقة أعرف حقيقة القضية والسبب الذي جعلها تجرى هذا المجرى ! حين كنت شاباً تعيش في سويسرا ، كان بك حينئذ الى وطنك ، وكانت روسيا تجذبك كأنها بلد مجهول ، كأنها أرض موعودة • وقد قرأت حيثذ كتباً كثيرة عن روسيا • ولعلها كانت كتباً ممتازة ، لكنها قد أضرت بك • فلمّا عدت الى الأرض التي ولدت فيها كنت مثلاً بالحماسة ظاهراً الى النشاط • فارتفيت على العمل ارتفاءً ان صح التعبير • وهأنت ذا ، منذ وصولك أول يوم ، تحكى لك حكاية حزينة مؤلمة هي حكاية انسان أمين وأودى • لقد حكيت هذه الحكاية لك أنت ، أنت

الرجل العفّ الطاهر الذى يتصف بروح الفروسية ، والانسان الذى
قُصّت عليك قصته الأليمة تلك ، كان امرأة ! وفى ذلك اليوم نفسه ترى
تلك المرأة نفسها ، فيسحرك جمالها ، جمالها الحارق الشيطاني (هانت
ذا ترى انتى أعترف بجمالها) • أضف الى ذلك حالة أعصابك ، ومرض
الصرع ، وما يحدثه ذوبان الثلج ببطرسبرج من أثر حزين فى النفس •
أضف الى ذلك أيضاً أنك أثناء ذلك النهار الأول الذى قضيته فى مدينة
مجهولة شبه أسطورية فى نظرك ، قد شهدت مشاهد عدة ولقيت ناساً
كثيرين • لقد تعرفت ، على نحو لم يكن فى الحسبان قط ، بثلاث جيالات ،
الآسات ايبانتشين ، ومنهن آجلايا • أضف الى ذلك أيضاً ما كنت فيه من
تعب ، وأضف اليه الدوار ، وأضف اليه صالون ناستاسيا فيليوفنا والجو
الذى كان يسوده ، و ... فماذا يمكن أن تتوقع من نفسك فى تلك
اللحظة ؟ هلاً قلت لى ، من فضلك ...

قال الأمير هازاً رأسه وقد أخذ وجهه يحمر :

— نعم ، نعم ، تكاد تكون على حق • فعلاً ، لم أكن قد نمت فى
الليلة السابقة بالقطار ، ولا فى الليلة التى قبلها ... وكنت أشعر أنتى
فى غير حالتى الطبيعية ...

تابع أوجين بافلوفتش كلامه قائلاً :

— فهذا بعينه ما أردت أن أخلص اليه • واضح أنك ، وقد أسكرتك
الحماسة ، ارتويت على هذه الفرصة ارتماء لتبرز عظمة نفسك أمام الناس
معتباً على رموس الأشهاد أنك على كونك أميراً بالولادة ، وعلى كونك
رجلاً طاهراً ، لا ترى أن أى عار قد لحق بامرأة لم تُسقطها خطيئتها هى
بل أسقطتها خطيئة رجلٍ منحل كُريه من أبناء المجتمع الرافى • أمر
مفهوم جداً ! ولكن ليست هذه هى المسألة يا عزيزى الأمير • ان التوى •

الذى يجب أن نعرفه هو : أكانت عاطفتك حقيقية ، صادقة ، طيبة ، أم كانت ناشئة عن حماسة دماغية ؟ ما رأيك ؟ لئن غُفِرَ فى المبدل لامرأة من هذا النوع ، فما من أحد قال لها انها أحسنت صنعا ، ولا انها تستحق جميع الأمجاد وجميع أنواع الاحترام ! ألم تَرَ أن عقلك قد أرجع الأمور الى نصابها من تلقاء نفسه بعد ثلاثة أشهر ؟ لنسلم بأنها بريئة (هذه مسألة لا أريد أن ألج عليها) • هل ينفى هذا أن أعمالها لا تسوِّغ أى تسويغ ما يراه المرء فيها من عجب لا يطاق وزهو شيطاني لا يقتفر ، ووقاحة شديدة ، وأتانية مفرطة لا يرتوى لها ظمأ • معذرة يا أمير ، اذا أنا اندفعت واسترسلت ، ولكن ...

تمتم الأمير يقول من جديد :

- نعم ، ذلك كله ممكن • جائز أنك على حق ... انها فى حالة شديدة من حالات فرط الاحتياج فعلاً • وأنت على حق يقيناً ، ولكن ...
- أتريد أن تقول انها تستحق الشفقة يا أميرى الطيب ؟ ولكن هل من حقل ، شفقة بها وارضاء لها ، أن تجال بالمار فتاة أخرى كريمة المحتد طاهرة ، وأن تذللها أمام « تينك » العينين اللتين تفيضان احتقاراً وكرهاً ؟ فأين تقف الشفقة بعد هذا ؟ أليس ههنا غلو لا يصدق العقل ؟ حين يحب المرء فتاةً فهل يستطيع أن يحقر شأنها ذلك التحقير أمام غريمتها ، وأن يهجرها فى سبيل أخرى على مرأى من هذه الأخرى ، بعد أن خطبها خطبة شريفة ؟ ... ذلك أنك خطبتها وأعلنت خطبتها بحضور أبويها وأختها ! أفيمكن بعد هذا أن توصف بأنك رجل شريف يا أمير ؟ ثم ... ألم تخذع فتاة تستحق العبادة حين أكدت لها أنك تحبها ؟

جمجم الأمير يقول بحزن لا يغالب :

- نعم ، نعم ، أنت على حق • آه ... أنا أشعر بأننى آثم !

هتف أوجين بافلوفتش يقول مستاءً :

- ولكن هل يكفي هذا ؟ هل يكفي أن تصيح قهقراً : « آآآ... أنا آثم ! » . أنت آثم ، ولكنك مستمر في أخطائك وذنوبك . أين كان اذن قلبك ، قلبك « المسيحي » ؟ لقد رأيت وجهها في تلك اللحظة : فهل كان يعبر عن الألم أقل من وجه « الأخرى » ، وجه « صاحبك » التي تبث البلبلة والاضطراب ؟ فكيف ، وقد رأيت هذا النظر ، سمحت بحدوث ما حدث ، كيف ؟

تمتم الأمير المسكين يقول :

- ولكن ... ولكنني لم أسمع بشيء ...

- كيف لم تسمع بشيء !

- يميناً لم أسمع شيء ! ... وما زلت حتى الآن لا أفهم كيف حدث ذلك كله ... لقد ركضت عندئذ وراء آجلايا ايفانوفنا ، ولكن أنعمي في تلك اللحظة على ناستاسيا فيليوفنا ، ومنذ ذلك الحين لم يبيحوا لي أن اقترب من آجلايا ايفانوفنا .

- كان يجب عليك أن تركض وراء آجلايا وأن تترك الأخرى

مغمى عليها !

. - نعم ، نعم ، كان يجب عليّ ... كانت ستموت من ذلك ! كانت ستتحر ، انك لا تعرفها ... و ... على كل حال ... مهما يكن من أمر ... كنت سأقص كل شيء بعد ذلك على آجلايا ايفانوفنا ، و ... اسمع يا أوجين بافلوفتش : يلوح لي أنك لست على علم بكل شيء . هلاً قلت لي لماذا لا يبيحون لي الاقتراب من آجلايا ؟ لو سمحوا لي أن أفعل ، لشرحت لها كل شيء . أعلم هذه الحقيقة : هما كلتاها لم تتكلما عندئذ عما كان ينبغي الكلام عليه ، وذلك هو السبب في أن الأمور جرت بينهما هذا المعجزة .

يستحيل على استحالة مطلقة أن أشرح لك هذا شرحاً واضحاً ، ولكن قد
أفلح في شرحه لآجلآيا . آه ... رياه ! رياه ! انك تكلمنى عن وجهها
فى تلك اللحظة كيف كان ، هربت ... آه ... يا رب ! اننى أنذكر
كيف كان وجهها فى تلك اللحظة ! ... قم بنا ... قم بنا ...

كان الأمير قد قام بغتة وهو يحاول أن يجبر أوجين بافلوفس
من كفه .

— الى أين ؟

— الى عند آجلآيا ايغانوفنا . لنذهب اليها فوراً ! ...

— ولكننى قلت لك انهم رحلوا عن بافلوفسك . ثم ... ما عسانا
فاعلين عندها ؟

دمدم الأمير يقول ضاماً يديه بحركة التوسل والضراعة :

— انها سوف تفهم ، سوف تفهم ! سوف تفهم أن الأمر ليس « هذا » ،
بل هو شئ آخر تماماً !

— كيف يكون شيئاً آخر تماماً ؟ انك سوف تتزوج مع ذلك ! ما تزال
اذن تساند ... ألسنت مقللاً على زواج ؟

— بلى ... سأتزوج ... سأتزوج ! ...

— فكيف تقول اذن ان الأمر ليس « هذا » ؟

— لا ، ليس الأمر هذا ، ليس الأمر هذا ... ليس هاماً أن أتزوج
... ما زواجى بشئ ! ...

— كيف يمكنك أن تقول ان زواجك ليس هاماً ؟ ما زواجك مزاحة
على كل حال ! انك تتزوج امرأة تحبها ، من أجل أن تحقق سعادتها .
وآجلآيا ترى هذا وتعرفه . أهذا أمر لا قيمة له ولا شأن ؟

- سعادتها ؟ لا ، لا . اننى أتزوج هكذا ... أتزوج وكفى .
هى تحرص على أن أتزوجها . وما قيمة أن أتزوج ؟ اننى ... هذا كله
لا شأن له عندي . لو فعلت غير ما فعلت لماتت حتماً . اننى أرى الآن أن
فكرة زواجها بزوجين كانت جنوناً . الآن فهمت ما لم أكن أفهمه من
قبل . اسمع ما سأقوله لك : اننى حين اشنجرتا لم أستطع أن أتحسن رؤية
وجه ناستاسيا فيليوفنا .

ثم أضاف الأمير قائلاً وهو يخفض صوته كأنه يفضي بسر :

- أنت لا تعلم يا أوجين بافلوفتش ... اننى لم أقل هذا لأحد في
يوم من الأيام ، أبداً ، أبداً ، لم أقله حتى لآجلايا . ولكن الحقيقة هى
أننى لم أطق أن أحتمل رؤية وجه ناستاسيا فيليوفنا ... انك منذ قليل
قد أجدت أيما اجادة وصف السهرة التى تمت فى بيتها . غير أن هناك
أمراً تفصيلاً غاب عنك لأنك كنت تجهله : هو أننى نظرت الى «وجهها» .
وقبل ذلك ، فى الصباح ، حين رأيت صورتها لم أستطع أيضاً أن أحتمل
تعبير هذا الوجه ... انظر الى وجه قيرا ، بنت ليديف : ان لها عينين
مختلفتين عن عيني ناستاسيا فيليوفنا كل الاختلاف . اننى ... اننى أخاف
من وجه ناستاسيا فيليوفنا .

أضاف الأمير هذه الجملة الأخيرة بلهجة تدل على أكبر الرعب .

سأله أوجين بافلوفتش :

- تخاف من وجهها ؟

فأجاب الأمير قائلاً بحس وقدم امتنع لونه :

- نعم . انها مجنونة .

فسأله أوجين بافلوفتش وقد لاحت فى وجهه حيرة شديدة :

- أأنت متأكد من هذا ؟

- نعم ، متأكد . الآن أنا متأكد . لقد افقتت بهذا اقتناعاً راسخاً
فى هذه الأيام الأخيرة .

فصاح أوجين بافلوفتش يقول مرتاعاً :

- فماذا تفعل اذن أيها الشقى ؟ أأنت تتزوج اذن بتأثير نوع من
الخوف ؟ ذلك أمر لا يفهم المرء منه شيئاً . . . وربما كنت لا تحبها أيضاً ؟
- بلى بلى ! اننى أحبها بكل نفسى ! ما هذا الكلام الذى تقول ! !
انها طفلة . هى الآن أشبه بطفلة تماماً ! آه . . انك لا تعلم شيئاً !

- وفى الوقت نفسه أكدت لأجلاليا حبك ؟

- نعم . . . نعم ! . . .

- كيف تفسر هذا ؟ أتزعم اذن أنك تحبهما كليهما فى آن واحد ؟

- نعم . . . نعم ! . . .

- فكّر فيما تقول يا أمير !

- بدون آجلاليا سوف يوافينى . . . يجب أن أراها حتماً . سوف
يوافينى الموت وأنا نائم بعد حين . . . لقد قدّرت أن أموت هذه الليلة
أثناء النوم . آه . . . ليت آجلاليا تعلم ، لينها تعلم كل شيء . . . أقصد
أن تعلم كل شيء تماماً ! ذلك أن الأمر الأساسى هنا هو أن يعرف المرء
كل شيء ! لماذا لم يكتب لنا قط أن نعلم « كل شيء » عن شخص آخر
حين يكون هذا لازماً ، اذا ارتكب هذا الشخص الآخر ذنباً ! . . . على
كل حال ، أصبحت لا أعرف ماذا أقول ، لقد اختلطت فى عقلى الأمور .
انك ألقيتى فى اضطراب رهيب . . . هل يمكن أن تكون محتفظة الى
الآن بذلك التعبير الذى رأيته فى وجهها حين هربت ؟ آه . . . نعم . . .
أنا آثم ! الأرجح أن جميع الأخطاء قد صدرت عنى أنا . اننى لا أعرف
ماذا كانت تلك الأخطاء على وجه التحديد ، ولكننى مشغول ! . . . هناك

نعم ، لن أستطيع أن أشرح لك يا أوجين بافلوفتش ، لأننى لا أملك
الألفاظ التى يمكن أن تعبر عنه • ولكن ••• آجلايا ايفانوفنا ستفهم !
نعم ، لقد قدّرتُ دائماً أنها سوف تفهم •••

— لا يا أمير ، لن تفهم ! ان آجلايا ايفانوفنا قد أحبتك حباً إنسانياً ،
كما تحب امرأة ••• لا كما يحب روح صرف • هل تريد أن أقول لك
يا أميرى المسكين : أغلب الظن أنك ما أحبت واحدة منهما أبداً لا الأولى
ولا الثانية !

— لا أدري ••• جائر ••• جائر !•• انك على حق فى نقاط كثيرة
يا أوجين بافلوفتش • انك ذكى ذكاء متفوقاً يا أوجين بافلوفتش • آم ••
هذا رأسى قد عاوده الصداغ • لنذهب اليها • لنذهب اليها • ناشدت الله
••• ناشدتك الله !

— ولكننى قلت لك انها غادرت بافلوفسك ! هى الآن فى كولينو •

— فلنذهب الى كولينو • لنسافر حالاً !

— مس •• ت ••• حيل !

كذلك قال أوجين بافلوفتش بصوت ممصوط • ونهض •
قال له الأمير :

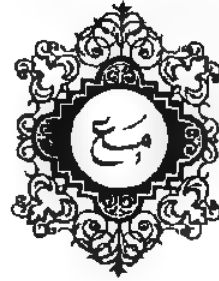
— اسمع • سأكتب رسالةً تحمّلها أنت اليها !

— لا يا أمير ، لا ! اعفى من مثل هذه المهمات • لا أستطيع أن أتولى
حمل الرسالة •
وافترقا •

مضى أوجين بافلوفتش وهو سعيد احساساً غريباً • لقد وصل الى
اقتناع راسخ بأن الأمير مخدّن العقل قليلاً • « ما معنى هذا الكلام عن

• وجه ، يخشاه كل هذه الحشية ويحبه كل هذا الحب ؟ وليس مستحيلاً
في الوقت نفسه أن يموت لفراق أجلايا فعلاً ، فلا تعرف الفتاة مدى
ما كان يحمله لها من حب • ها ها !... وكيف يمكنه أن يحب امرأتين؟
وأن يحب كلاهما حباً يختلف عن حبه للأخرى ؟ ذلك هو الشيء
الطريف •• يا للأبله المسكين ! ما عسى يصير إليه الآن ؟ •••••

الفصل العاشر



ذلك لم يمت الأمير قبل زواجه لا في حالة القفلة ولا « أثناء النوم » كما قُبِّبَ بذلك لأوجين بافلوفتش . لعله كان ينام نوماً غير هادئ . ولعله كان يرى أحلاماً سيئة . ولكنه أثناء النهار ، في معاشرته الناس ، كان يبدو حسن الصحة بل وراضى النفس . وإذا بدا في وجهه كثير من الاستفراق أحياناً فإن ذلك يحدث له حين يكون وحيداً .

لقد استعجلت أعدادات الزواج الذي كان سيتم بعد زيارة أوجين بافلوفتش بشمانية أيام . فكان يستحيل على أصدقاء الأمير الخُلص ، إذا كان له أصدقاء خُلص ، كان يستحيل عليهم وهم يرون ذلك الاستعجال كله إلا أن يبدلوا عن الأمل في أن تصل جهودهم إلى « انقاذ » المجنون المسكين مما عقد العزم عليه . وسرت شائعة تقول إن زيارة أوجين بافلوفتش إنما تمت بإيحاء من الجنرال ايدن فيدوروفتش وزوجته الزبابت بروتكوفيتنا . ولكن لئن دفعهما فرط طيبتهما كليهما إلى أن يتنصبا « انقاذ » المختل المسكين من الوحدة التي وقع فيها ، فلقد اضطررا أن يقتصر على تلك المحاولة الوحيدة الوجلة ، فلا وضمهما ولا عواطفهما ، في أغلب الظن (وذلك أمر طبيعي) ، تسمح لهما بأن يبذلا جهوداً أكبر . وقد سبق أن قلنا إن المحيطين بالأمير عارضوه هم أنفسهم . واكتفت فيرا ليديفا

بأن تسكب السموع حين تخلو الى نفسها • ثم انها كانت تسكت فى البيت أكثر الوقت ، فقلت زيارتها للأمير •

وفى تلك الأثناء كان كوليا يقوم بآخر واجباته تجاه أبيه • لقد مات أبوه بنوبة جديدة وافته بعد التوبة الأولى نحو ثمانية أيام • وشارك الأمير مشاركة كبيرة فى حداد الأسرة • ف قضى فى الأيام الأولى ساعات كاملة قرب نينا الكسندروفنا • وسار فى الجنازة وشهد الدفن وحضر القداس الذى أقيم على روح الفقيد فى الكنيسة • وقد لاحظ أشخاص كثيرون أن وصوله الى الكنيسة وانصرافه منها قد أثارا همسات تبادلها الناس فى الحفل على غير ارادة منهم ، وحدث مثل هذا فى الشارع وفى الحقيقة العامة • فكان الناس ، اذا مرَّ الأمير سائراً على قدميه أو راكباً عرباً ، تتعش الأحدث بينهم ويدل بعضهم بعضاً عليه ، وينطقون اسمه وينطقون اسم ناستاسيا فيليوفنا • وقد بحثوا عن ناستاسيا فيليوفنا فى جنازة الجنرال ، لكنهم لم يجدوها • ولم تشارك « أرملة الكابتن » فى الجنازة ، فقد استطاع ليديف أن يصدّها عن الخروج من البيت • وأحدث صلاة الجنازة فى نفس الأمير أثراً أليماً قوياً • فلما سأله ليديف عن ذلك أجاب بصوت خافت انه لأول مرة يشهد دفناً على الطقوس الروسية ، باستثناء احتفال معائل يذكر أنه رآه أثناء طفولته فى كنيسة قرية •

قال ليديف هامساً :

— كيف يصدق المرء أن الرجل الراقد فى هذا التابوت هو ذلك الرجل نفسه الذى اتخذه رئيساً منذ مدة قصيرة ؟ هل تتذكر ؟ ولكن عن تبحث ؟

— لا أبحث عن أحده ، ولكن خيّل الى أتى ...

— أتراك تبحث عن دوجوين ؟

- أهو هنا ؟

- هو في الكنيسة .

- خيل الى فعلاماً أننى رأيت عينيه ، ولكن كيف ... ماذا جاء به الى هنا ؟ هل دعوه ؟

كذلك سأل الأمير مدعماً وقد لاح الاضطراب في وجهه . فأجابه ليديف :

- لم يخطر ببال أحد أن يدعوه . ثم ان الأسرة لا تعرفه . كل انسان يستطيع أن يدخل الكنيسة . لماذا ذهبت هذه الدهشة كلها ؟ اننى ألقاه فى هذه الأيام كثيراً . فى الأسبوع الماضى رأيتُه أربع مرات ، هنا فى بافلوفسك .

تمتم الأمير قائلاً :

- لم أره حتى الآن مرة واحدة ... منذ ذلك اليوم .

واذ أن ناستاسيا لم تقلل للأمير يوماً انها لقيت روجوين مرة واحدة منذ ذلك اليوم ، فقد استنتج الأمير من ذلك أن روجوين قد غاب واختفى عامداً . وبدأ الأمير مشغول البال غارقاً فى التفكير طواى ذلك النهار . ولا كذلك ناستاسيا فيليوفنا فقد كانت مرحة مرحاً غير مألوف ، مرحاً امتدَّ طوال السهرة .

وكان كولا قد تصالح مع الأمير قبل موت أبيه ، واقترح عليه أن يتخذ كلاً من كيللر وبوردوفسكى فتى شرف لحفلة الزفاف (فالأمر هام ومستعجل لا يحتمل أى تأخير) . فأما عن كيللر فقد ضمن كولا حسن سلوكه وأضاف الى ذلك أنه ربما كان « مفيداً » . وأما عن بوردوفسكى فلا حاجة الى أى تركية له ، لأنه رجل « هادىء ومتواضع » . وقد قام ليديف ونيئا الكسندروفنا بنفيه الأمير الى أنه ، اذا كان قد عزم أمره على

على الزواج فلا يمكن تبيته عنه ، يستطيع على الأقل أن يعفى نفسه من الاحتقال به هنا بإفلوفسك ، فى هذا الفصل الذى يكثر فيه توافد أبناء المجتمع الراقى الى بافلوفسك . أليس الأفضل أن يتم الاحتقال بالزفاف فى بطرسبرج ، بل وفى البيت أيضاً ؟ ولم يفك الأمير أن يدرك السبب الذى يكمن وراء هذه المخاوف ، ولكنه اقتصر على أن أجابها موجزاً بأن ناستاسيا فيليوفا ترغب فى إقامة الحفلة هنا قطعاً .

حين علم كيلر فى الغداة أنه اختير فنى شرف لحفلة الزفاف جاء يمثل أمام الأمير . توقف أولاً فى العتبة ، فما ان أبصر الأمير حتى رفع يده اليمنى ونصب إبهامه فى الهواء ، وهتف يقول بصوت من يحلف يميناً ويقطع على نفسه عهداً :

— لن أشرب قط !

ثم دنا من الأمير وشدَّ على يديه كليهما وهو يهزهما هزاً قوياً ، وقال انه فى حقيقة الأمر قد غضب فى البداية حين علم بما حدث ، حتى لقد أعلن غضبه أثناء لعبة بلياردو ؟ ولكن هذا الغضب انما يرجع الى أن ما يحمله للأمير من صداقة تتصف بنفاد الصبر واستمجال الأمر كان يجعله يتمنى أن يرى الأمير يتزوج أميرة من أسرة روحان أو من أسرة شايو على الأقل . ولكنه أدرك الآن أن أفكار الأمير أبطل اثنتى عشرة مرة على الأقل من أفكار جميع من يحيطون به « جملة واحدة » ! لأن ما يسعى اليه الأمير ليس هو الشهرة ولا هو الفنى حتى ولا هو المجد ، وانما هو الحقيقة . ان ميول الشخصيات السامية معروفة ، وان للأمير من سعة ثقافته ما يجعله شخصية من تلك الشخصيات السامية ، بوجه عام . « ولكن الأوباش والأوغاد لهم رأى آخر يختلف عن هذا الرأى كل الاختلاف . ففى المدينة ، فى البيوت ، فى الاجتماعات ، فى الفيللات ، فى حفلات الموسيقى ، فى الحانات ، فى صالات البلياردو ، لا يتكلم الناس ولا يثرثرون

الا عن الحدث المقبل ، حتى لقد سمعت أنهم يهيئون لك زينة موسيقية
قيحة تحت نوافذك ، وذلك في الليلة الأولى !... فاذا كنت ، يا أمير في
حاجة الى مسدس رجل شريف فأنا مستعد لأن أبادل مبادلةً نبيلة نصف
دسته من طلقات النار قبل أن تغادر مضجع عرسك في صباح الغد ، + حتى
لقد نصح كيللر الأمير باعداد مضخة من مضخات اطفاء الحريق في فناء
البيت، كندبير وقائي ضدّ الجمهور الغضوبى عند العودة من الكنيسة. ولكن
ليديف اعترض على هذا الاقتراح قائلاً ان بينه سيهدم من أساسه اذا
استعملت هذه المضخة .

قال كيللر :

— أؤكد لك يا أمير أن ليديف هذا يدبر لك مؤامرات + انهم
يريدون أن يحجروا عليك ويجعلوك تحت وصاية + هل تستطيع أن
تخيل هذا ؟ سوف يحرمونك من ممارسة حريتك واستعمال مالك ، أى
من الشئئين الذين يميّزنا جميعاً عن الدواب ! لقد سمعت ذلك ، سمعته
تماماً ! هذه هي الحقيقة خالصة !

تذكر الأمير تذكراً غامضاً أنه سبق أن سمع شيئاً من هذا القيل ،
ولكنه لم يلق اليه بالآ بطبيعة الحال . ولم يزد الآن على أن ضحك للملاحظة
كيللر ، ثم سرعان ما نسبها فوراً .

وواقع الأمر أن ليديف كان يتحرك ويسمى هنا وهناك منذ مدة .
ان خطط هذا الرجل تنشأ في نفسه دائماً بنوع من الوحي والالهام ،
ولكنه من فرط حرارته واندفاعه في انفاذها يعثر جهوده في كل اتجاه ،
ويبتعد عن الهدف الذى يكون قد رسمه لنفسه في البداية . لذلك لم
ينجح في حياته كثيراً . وقد جاء يعترف للأمير فيما بعد ، يوم الزواج
تقريباً (لقد كان هوساً عنده أن يأتى الى من تأمر عليهم ، فيعبر لهم عن

ندمه وتوبته ، لا سيما حين تخفق مؤامراته) ، فأعلن له أولاً أنه قد خلق ليكون تاليران ، ولكنه لتعثر خطه تعثراً لا يُفسّر قد بقي ليديف لا أكثر ، ثم كشف له عن تفاصيل مكيدته التي أثارت اهتمام الأمير وشافته كثيراً . قال انه بدأ يبحث في أول الأمر عن حُماة يستند اليهم ويعتمد عليهم عند الحاجة ، فذهب لهذا الغرض الى الجنرال ايفان فيدوروفتش . فبدأ على الجنرال الارتباك ، ثم قال له انه « رغم ما يتمناه للشباب من خير كثير ، ومهما تكن رغبته في انقاذه قوية ، فانه لا يستطيع أن يتدخل ، لأن الأعراف لا تسمح له بذلك . » ، ولم تشأ الزبابت أن تراه ولا أن تسمع عنه . أما أوجين بافلوفتش والأمير « شئت . . » فقد رفضا هما أيضاً . ولكنه ، هو ليديف ، لم يفقد شجاعته ولا خارته عزيزته : كان قد استشار رجلاً خبيراً من رجال القانون هو شيخ محترم كان صديقاً حميماً له ، بل وكان يدين له ببعض المنة . فأنهى رجل القانون هذا الى أن الحجز على الأمير ممكن تماماً ، بشرط أن يشهد شهود اكفاء بأن عقله مختل ، وأن جونه كامل ؛ والمهم على كل حال أن يكون هنالك اشخاص من أصحاب النفوذ يمكن الاتكال على نفوذهم . ولم يفقد ليديف صبره ، حتى لقد جاء الى بيت الأمير في ذات يوم بطبيب . كان الطبيب هو أيضاً شيخاً محترماً يصطاف في بافلوفسك ، ويحمل وسام القديسة حنة . لقد جاء به تحت ستار أنه يريد أن يريه منزله ، متفقاً معه على أن يدرس حالة المريض وأن يطلعه على النتائج التي يصل اليها لا بصفة رسمية بل بصفة ودية مؤقتاً .

لقد تذكر الأمير زيارة الطبيب تلك . تذكر أن ليديف قد ألحَّ عليه بالأمس ليقضه بأنه مريض ، فبعد أن رفض الأمير رفضاً قاطعاً أن يستعين بالطب ، رأى ليديف يدخل عليه بصحبة طبيب ، مدعيًا أنهما قادمان من عند السيد تيرتيف الذي ساءت حالته كثيراً ، وأن الطبيب يريد

أن يقول للأمير شيئاً في موضوع المريض • وقد أتى الأمير على ليديف ، واستقبل الطبيب استقبالاً يبلغ غاية المودة والبشاشة • وسرعان ما أخذوا يتكلمون عن هيبوليت • فطلب اليه الطبيب أن يقص عليه مشهد الاحتجار تفصيلاً • فتكلم الأمير ففتن الطبيب بوصفه للحادث وتأويله إياه • ثم دار الحديث على طقس بطرسبرج ، ومرض الأمير ، وسويسرا ، وشنايدر • فبلغ الطبيب من شغفه بما ذكر الأمير عن طريقة شنابير في المعالجة أنه بقي معه قرابة ساعتين ، مدخناً أثناء ذلك لفائف سيجار الأمير الممتازة ، ومحسباً ما قدمه اليه ليديف من شراب طيب جاءت به فيرا • ولم يفت الطبيب في هذه المناسبة ، رغم أنه متزوج ورب أسرة ، أن يقدق الثناء على فيرا اغداً بلغ من الجرأة أن الفتاة استاءت استياء عميقاً • وافترق الطبيب والأمير صديقين •

قال الطبيب لليديف وهو يخرج : « إذا أردنا أن نضع تحت الوصاية أناساً كالأمير فمن هم الذين يمكن أن نجعلهم أوصياء ؟ » فلما عرض له ليديف جانب الأساة في الحادث الذي يوشك أن يقع ، هزّ الطبيب رأسه بمكر وخبت ، وقال : « يجب أن ندع للناس أن يتزوجوا كما يشاؤون ! ثم ان المرأة التي تتحدث عنها ليست جميلة جداً لا يضارع فحسب - وذلك وحده سبب كاف لأن يدير رأس رجل غنى - وإنما هي تملك عدا ذلك ، فيما سمعت ، أموالاً طائلة آلت إليها من تومسكي وروجويين ، وتملك عقود لؤلؤ ، وجواهر ماس ، وشالات ثمينة ورياشاً فاخرة • وهذا كله يشهد بأن الأمير ، اذ يختارها ، ليس رجلاً ضعيف العقل غريب الأطوار بل هو على عكس ذلك فتى حصيف الرأي ، له ذكاء رجل من أبناء المجتمع الراقى ، يعرف مصلحته ويجيد الحساب أيما اجادة ! » • اعتقد الطبيب اذن أن من حقه أن يستخرج من ذلك كله تشخيصاً يشهد للأمير لا عليه ، ويتركه تركية تامة •••

وقد أحدثت هذه النتيجة في ليديف تأثيراً قوياً . وها هو ذا الآن يختم اعترافه للأمير قائلاً : « لن تجدني بعد الآن الا رجلاً مخلصاً لك ، متفانياً في سبيلك ، مستعداً لأن يسفح دمه من أجلك . فلكي أقول لك هذا الكلام انما جئت اليك . . . »

وكان الأمير خلال هذه الأيام الأخيرة مشغولاً كذلك بهيوليت . كان هيوليت يستدعيه كثيراً . ان أسرة هيوليت تسكن في بيت صغير غير بعيد من بيته . فالأولاد (أى أخو هيوليت وأخته) يتمتعون هنا بلذة الحياة في الريف ، وفي وسعهم أن يهربوا من المريض بالنزول الى الحديقة على الأقل . ولا كذلك أمه ، « أرملة الكابتن » المسكينة ، فقد كانت أسيرة ارادته وضحية عسفه وطفائه . فكان الأمير يقضى وقته في التوفيق بينهما ورد الصلح الى علاقتهما . وقد استمر المريض ينادى الأمير باسم « نونو » ، مع عجزه عن منع نفسه من احتقاره لقيامه بدور الوسيط المصالح . وكان غاضباً على كوليأ غضباً شديداً ، لأن كوليأ انقطع عن زيارته انقطاعاً يكاد يكون تاماً ، للملازمة أباه حين كان على فراش الموت أولاً ، وللملازمة أمه الأرملة بعد ذلك . وقد أخذ هيوليت يصب مزاجاته أخيراً على زواج الأمير وناستاسيا فيليبونا في القريب . فاستاء الأمير وغضب غضباً قوياً وانقطع عن زيارته . وبعد ذلك بيومين جاءت « أرملة الكابتن » في الصباح المبكر ممثلة العينين بالدموع ، جاءت تترجو الأمير أن يأتي اليهم ، والا فإن ابنها سيشرّب دمه . وأضافت أن هيوليت يرغب في أن يكشف له عن سر كبير . فأذعن الأمير . فأعرب له هيوليت عن رغبته في أن يتصالحا ، حتى لقد أجهش باكياً وهو يقول ذلك الكلام . ولكن ما ان جفت دموعه حتى عاد أشد شراسة مما كان ، دون أن يرخي العنان لنضبه مع ذلك . كانت صحته سيئة جداً ، وكان كل شيء يدل على أنه لن يلبث أن يموت . ولم يكن لديه أي سر يكشف عنه ، ولكن طفق

يلج في « تحذير الأمير من روجوين » بانفعال لعله كان مصطنعاً . قال
يصف روجوين : « هذا رجل لا يتخلل عما يملك . انه ليس من طبيعتنا
نحن يا أمير . اذا أراد شيئاً فليس يزعه وازع ولا يردعه رادع » ، الخ .
أخذ الأمير يلقي عليه أسئلة مفصلة ليستخرج منه وقائع محدّدة . ولكن
هيوليت لم يذكر شئ دليل غير احساساته أو انطباعاته الشخصية . وقد
أرضاه كثيراً في النهاية أن ألقى في نفس الأمير رعباً شديداً . كان الأمير
في البداية يتحاشى الاجابة عن بعض الأسئلة الخاصة التي يلقيها عليه
هيوليت ، وكان يقتصر على الابتسام حين يسدى اليه هيوليت نصائح كهذه
النصائح : « اهرب ولو الى الخارج . سوف تجد في كل مكان كهنة
أرثوذكسين . في وسعك أن تتزوج هناك أيضاً » . ولكن هيوليت خلص
بعد برهة الى هذه الفكرة : « الحق أتني أخشى خاصة على آجلايا
ايفانوفنا . ان روجوين يعرف مدى ما تحمل لها من حب . العين بالعين ،
والسن بالسن ، والحب بالحب . لقد اتزعت منه ناستاسيا فيليوفنا فسيقول
هو آجلايا ايفانوفنا . ورغم أن آجلايا ايفانوفنا لن تمت اليك بسبب بعد
اليوم ، فسوف يؤلمك مقتلها كثيراً ، أليس كذلك ؟ » . حقق هيوليت
هدفه وبلغ مأربه : لقد خرج الأمير من عنده مضطرباً أشد الاضطراب .
هذه التحذيرات من روجوين حدثت عشية ازواج . وفي ذلك
المساء لقي الأمير ناستاسيا فيليوفنا آخر لقاء قبل حفلة الزفاف . أصبحت
المرأة الشابة لا تستطيع أن تهدئه . انها في هذه الآونة الأخيرة لا تغلغ الا
في مقاومة اضطرابه . كانت قبل ذلك ببضعة أيام ، أثناء خلوة بينهما ، قد
روّعها ما رآته في وجهه من حزن . فبذلت جميع ما تملك من جهود لتفرحه
وتبهجه . حتى لقد حاولت أن تسرّي عنه بالفناء . كانت في أكثر الأحيان
تبحث في ذاكرتها عما يمكن أن يسليه . وكان الأمير يتظاهر في جميع
الأوقات قهرياً بأنه يتبهج كثيراً . حتى انه كان يندفع أحياناً في ضحك

صادق تجره اليه قوة الفكاهة وحلاوة النكتة لدى المرأة الشابة حين تقص ما قصه متوقدة الفريجة ، وذلك ما يحدث كثيراً . فكانت اذا رأت ضحكه تُسرُّ سروراً عظيماً وتشعر بافتخار واعتزاز بنفسها لأنها استطاعت أن تحدث فيه أثراً طيباً . ولكنها تصبح الآن أشد حزناً وأكثر وجوماً وهماً ، ساعة بعد ساعة . وكان الأمير قد كوّن لنفسه رأياً نهائياً فيها ، فلولا ذلك لبدا له كل شيء فيها اليوم لغزاً لا سبيل الى فهمه قطعاً . ولكنه ظل مقتنعاً اقتناعاً قوياً بأنها قد تبعت بشأً جديداً . لقد كان على حق حين قال لأوجين بافلوفتش انه يحبها حباً صادقاً عميقاً . والواقع أن حبه هذا كان يشتمل على شيء من اندفاعه الحنان التي يشعر بها المرء نحو طفل ضعيف هزبل مريض يصعب بل يستحيل تركه وشأنه . ولم يشرح الأمير لأحد عواطفه نحوها في يوم من الأيام ، وكان يكره أن يتكلم في هذا الموضوع حين يستحيل تحاشيه . وكانا اذا خلا أحدهما الى الآخر لا يتكلمان في « العواطف » ، فكأنهما قد تعاهدا على ذلك ؟ وكان جميع الناس يستطيعون أن يشاركوا فيما يجري بينهما من حديث هو في العادة مرح زاخر بالنشاط . لقد روت داريا ألكسيفنا فيما بعد أنها لم تشعر وهي تراهما خلال تلك الأيام الا بالمسرة والفرح والافتتان .

وكان الرأي الذي قام في ذهن الأمير عن الحالة النفسية والمقلبة لئاستاسيا فيليوفا ، بمعنى فكره من كثير من أنواع الحيرة والبلبلة الى حد ما . انها الآن امرأة مختلفة كل الاختلاف عن التي عرفها منذ نحو ثلاثة أشهر . أصبح لا يدهشه أن يراها تلح على استعجال الزفاف بعد أن رفضت في الماضي فكرة الزواج بأكية لاعنة شاكية لائمة . انه يقول لنفسه : « اذن لقد أصبحت لا تخشى أن تسبب لي الشقاء بالزواج كما كانت تخشى ذلك في الماضي . » . فكانت هذه السرعة في استرداد الثقة بالنفس تبدو له غير طبيعية . ان ئاستاسيا فيليوفا لم تستمد هذه الثقة من

كرهها لآجلها فحسب ، لأنها قادرة على الشعور بمواطني أعرق ؛ لا ولا هي استمدتها من خشية الحياة مع روجوين . صحيح أن أمثال هذه العوامل وغيرها يمكن أن يكون لها أثر ووزن ؛ ولكن الأمير يرى أن السبب الأوضح في هذا الانقلاب الذي حدث لئاستاسيا فيليوفنا إنما هو السبب الذي اشتبه فيه منذ مدة طويلة : وهو أن هذه النفس المسكينة المريضة لم تستطع أن تتحمل المحنة .

ورغم أن هذا التفسير قد أعفى الأمير من كثير من أنواع الحيرة واللبلة ، ولو إلى حد ما ، فإنه لم يوفر له أثناء ذلك الوقت كله شيئاً من راحة أو هدوء . وكان في بعض الأحيان يحاول أن لا يفكر في شيء . أما الزواج فكان يبدو فعلاً أن الأمير يقبل عليه أقسالة على أمر شكلي لا قيمة له . إن مصير الأمير أهون شأنًا في نظر نفسه من أن يفكر غير هذا التفكير . وأما الاعتراضات والناقشات التي تشبه تلك التي أثارها أوجين بافلوفتش ، فما كان في وسع الأمير أن يجد لها أي جواب ، لأنه كان يشعر بأنه عاجز في هذا المضمار كل العجز ، لذلك كان يتحاشى أي حديث من هذا النوع .

ثم إنه قد لاحظ أن ئاستاسيا فيليوفنا كانت تعرف حق المعرفة وتدرش كل الإدراك مكانة آجلها في نفسه . إنها لا تتكلم في هذا الأمر ، لكنه قد قرأ في « وجهها » حين باعته مراراً (في الأيام الأولى) وهو يتهاً للذهاب إلى آل ايباتشين . وحين سافرت أسرة ايباتشين صفا مزاجها وأشرق محيطها . إنه مهما يكن ضعيف الملاحظة قليل الذكاء ، قد خطر بباله أن ئاستاسيا فيليوفنا ربما قررت أن تعتمد إلى القيام بفضيحة بغية أن تحمل آجلها على ترك بافلوفسك ، فأفلقت هذه الفكرة وعذبتة . ولا شك في أن الشائعات التي سرت في الفيللات عن الزواج قد ساهمت ئاستاسيا فيليوفنا في ترويجها من أجل أن تحق غريمتها . وإذا كان من الصعب

لقاء آل ايباتشين فقد أركبت الأمير في عربتها ذات يوم ، وأمرت الخوذة بأن يمرَّ بهما تحت نوافذ بيتهم . فكان هذا مفاجأة للأمير رهية . لقد أحس ذلك بعد قوات الأوان ، كالعادة ، أى بعد أن تجاوزت المركبة المنزل . ولم يقل شيئاً ، ولكنه بعد ذلك الحادث لبث مريضاً يومين ، وقد حاذرت ناستاسيا فيليوفنا أن تكرر التجربة .

وخلال الأيام التى سبقت الزواج أصبحت كبيرة الوجوم والتفكير . صحيح أنها كانت تفلح دائماً فى نفث حزنها واسترداد مرحها ، لكن هذا المرح غدا أكثر رصانة وأقل تعبيراً عن نفسه وأضال اشعاعاً واشراقاً . وضاعف الأمير اهتمامه بها ودعايته لها . وقد حيره أنه أصبح لا يسمعها تأتي على ذكر روجوين فى لحظة من اللحظات . مرة واحدة ، قبل الزواج بنحو خمسة أيام ، أرسلت إليه داريا ألكسيفنا من يقول له أن يأتي فوراً لأن حالة ناستاسيا فيليوفنا سيئة جداً . فلما وصل وجدها فى حالة تشبه الجنون : كانت تصرخ وترتجف وتصح قائلة ان روجوين مخبئ . فى الحديقة المجاورة للفيلا ، وانها رائته منذ هنيهة ، وانه سيقتلها فى الليل سيقتلها بالسكين ! ثم لم تسترد هدوءها طوال النهار . ولكن الأمير علم من « أرملة الكابتن » التى كانت عائدة من بطرسبرج بعد أن قامت فيها ببعض الأعمال الصغيرة ، علم منها حين مضى يزور هيبوليت لحظة ، أن روجوين قد زارها بطرسبرج وسألها عن بافلوفسك . فلما سألها عن الوقت الذى زارها فيه روجوين حددت له ساعة هى على وجه التقريب الساعة التى خيل لناستاسيا فيليوفنا فيها أنها ترى روجوين فى الحديقة . فما من شك اذن فى أن المرأة الشابة كانت رأت سراً لا أكثر ! وحين ذهبت ناستاسيا فيليوفنا بنفسها الى « أرملة الكابتن » لتسألها مزيداً من التفاصيل ، حصلت منها على وقائع دقيقة مطمئنة الى أبعد الحدود .

في عشية يوم الزواج ترك الأمير ناستاسيا فيليوفنا وهي على أحسن حال من الحماسة الشديدة : كانت قد تلقت من خياطتها بطرسبرج ما مستترين به غداً في حفلة الزفاف ، وهو ثوب العرس ، وطرحه الرأس وما إلى ذلك . لم يكن الأمير يتوقع أن يراها تتحمس لزيبتها هذا التحمس كله . وقد أظري كل ما اشتملت عليه هذه الزينة ، فازدادت سعادة المرأة الشابة . لكنها لم تفلح في إخفاء ما كان يدور في ذهنها : كانت قد سمعت أن سكان بافلوفسك مستأثرون وأن عدداً من الخليعين يهثون لها زينة تصاحبها موسيقى مع سماع قصيدة من الشعر نُظمت لهذه المناسبة . وكانت هذه الاعدادات كلها قد أبدتها باقى الناس وجئوها . ومن أجل هذا بعينه انما كانت تريد أن ترفع رأسها وأن تبهر الملأ كافة بما في زيتها من ذوق وأبهة وفخامة . « فليصرخوا ، وليصفروا » اذا تجرأوا ! ، . كانت عيناها تقدح شرراً من مجرد خطوط هذه الفكرة ببالها . وكانت عدا ذلك تمنى نفسها بأمل تتحاشى أن تفصح عنه . كانت تصور أن آجلانيا ، أو شخصاً ترسله آجلانيا ، سيكون مع الحفل في الكنيسة متخفياً يفحصها . ومن ثم كانت تتأهب ذلك التأهب كله .

تلكم هي الحواطر التي كانت تملأ رأسها في الساعة الحادية عشرة من المساء ، حين تركها الأمير . ولكن لم يكن الساعة قد بلغت الثانية عشرة حين هرع من عند داريا ألكسييفنا من يدعو الأمير أن يعجى . « بأقصى سرعة لأن الحالة سيئة جداً » . فوجد الأمير خطيبته غارقة في دموعها . كانت قد أوصدت على نفسها الباب ، واستولى عليها بأس شديد واعترتها نوبة عصية قوية . حتى لقد لبثت مدة طويلة لا تسمع شيئاً مما كان يقال لها من خلال الباب الموحد . وفتحت أخيراً ، ولم تدع لأحد غير الأمير أن يدخل ، وأسرعت تغلق الباب ثانية على الفور ، ثم سقطت جاثمة على

ركبتها أمام الأمير • (تلکم ہی علی الأکل الروایة التی أوردتها فیما بعد داریا ألكسیفنا التی استطاعت أن تلمح جزءاً من المشهد) •
كانت ناستاسیا فیلیوفنا تصیح قائلةً وهی تقبل قدمیه فی تشنج :
— ما هذا الذی أصنعه بك ؟ ما هذا الذی أصنعه بك ؟

بقى الأمير الى جانبها ساعةً كاملة • اتنا نجهل ما تبادلاه من كلام • ولكن داریا ألكسیفنا روت أنهما قد افترقا فی نهاية تلك الساعة هادئين معیدین ، وأن الأمير أرسل من یسأل عن أنباء خطیبته مرة أخرى فی اللیل ، غیر أن ناستاسیا فیلیوفنا كانت قد نامت • وفی الصبح ، قبل أن تستیقظ ، جاء الى داریا ألكسیفنا من عبد الأمير رسولان آخران • وأعقبهما ثالث كلّف بأن ینقل الى الأمير ما یلی : « ان ناستاسیا فیلیوفنا محاطة الآن بحشد من الحیاطات والمزینین وفدوا من بطرسبرج خصیصاً ، وانها قد برئت من التوبة التی اعترتها فی اللیلة البارحة ، وانها مشغولة بزیتها كما تُشغل بزیتها لزواجها امرأةً جميلة هذا الجمال ، وانها فی هذه اللحظة بعینها عاقدةً اجتماعاً للتشاور فیما یجب أن تختاره لزیتها من جواهر الماس ، وفیما یجب أن تتبعه من أسلوب فی تصنیف هذه الجواهر علیها وترتیبها ، • فاطمأن الأمير كل الاطمئنان •

ان كل ما سبلی سرده من تنمة قصة الزواج هذه انما نقله أشخاص مطلعون • ویبدو أن ما ذكروه صحیح • قالوا :

كان یجب أن یتم الزفاف فی الساعة الثامنة من المساء • وقد أكملت ناستاسیا فیلیوفنا استعدادها منذ الساعة السابعة • وكانت أفواج من العاطلین المتسکمین قد أخذت تتجمع حول فیلا لییدیف ثم قرب منزل داریا ألكسیفنا منذ الساعة السادسة • وحوالی الساعة السابعة أخذت تمتلئ الكنيسة أيضاً • ان مخاوف شدیدة قد استولت علی فیرا لییدیفا

وعلى كولا • انهما خائفان على الأمير • غير أن هناك أعمالاً كثيرة يجب أن بنجزاها فى البيت • فقد كُتِّفَ بترتيب شقة الأمير استعداداً للاستقبال والمأدبة ، رغم انه ليس مقررأ أن تقام حفلة بمضى الكلمة بعد الاحتفال الدينى فى الكنيسة • كان ليديف قد دعا ، عدا الأشخاص الذين كان حضورهم الزواج أمراً لا بد منه ، كان قد دعا بتسعين وزوجته ، وجانيا ، والطبيب الذى يحمل وسام القديسة حنة ، وداريا ألكسيفا • . وحين استغرب الأمير دعوة الطبيب فسأل ليديف عن السبب الذى حمله على دعوته أجاب هذا معجباً بنفسه راضياً عن تصرفه : « وسام فى العنق ، شخصية محترمة ، زينة للحفلة » ، فضحك الأمير •

وقد ارتدى كل من كيلر وبوردوفسكى رداء « فراك » ، فكانا مظهرهما لافتاً جداً • ان كيلر وحده ما يزال يوقظ فى نفس الأمير والذين حوله شيئاً من الخشية ، لا ينصف به مزاجه من حب للعراك ظاهر • وكان كيلر ينظر بكثير من العداء الى المتسكمين الذين كانوا يتجمعون حول المنزل •

وأخيراً ، فى الساعة السابعة والنصف ، مضى الأمير فى عربة الى الكنيسة • يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أنه كان قد حرص على أن لا يهمل أية عادة من العادات التقليدية • كان كل شىء يتم على مرأى من الجميع • بالطريقة اللازمة • استطاع الأمير أن يشق لنفسه ممراً فى الجمهور المزدحم ، وسط وشوشات وهمسات وصيحات تعجب متكررة • كان يسير أمامه كيلر ، ملقياً نظرات تهديد على يمينه وعلى شماله • وانسحب الأمير الى ما وراء الهيكل مؤقتاً ، ومضى الملاك ليحى بالعموس • فلما صار هذا أمام بيت داريا ألكسيفا رأى جمهوراً اكتف مرتين أو ثلاثاً وربما أوقع مرتين أو ثلاثاً من الجمهور الذى كان يربط حول فيلا الأمير • وحين صعد درجات المدخل سمع صيحات من نوع

جمله لا يستطيع أن يكظم غيظه فأوشك أن يوجه الى الجمهور تقريراً مناسباً ، لولا أن صدّه عن ذلك ، لحسن الحظ ، بوردوفسكى وداريا ألكسيفنا نفسها التى كانت قد هرعت تستقبله على درجات المدخل . أمسك به الاثنان واقتاده الى داخل المنزل . وكان مهتاجاً احتياجاً شديداً ، فاستمحل الذهاب ، فقامت ناستاسيا فيليبوفنا ، وألقت على المرأة نظرة أخيرة فلاحظت وقد تقصّلت شفتاها فى «ضحكة» ، أنها كانت « صفراء كميّة » . ثم انحنت أمام الأيقونة فى تقى وورع ، وخرجت فصارت على درجات الباب . فحيّ الجمهور ظهورها بوضوء . الحق أن ما سُمع فى أول الأمر كان ضحكاً وتصفيقاً ساخراً وربما صغيراً . ولكن صيحات أخرى انطلقت بعد لحظة :

— ما أجملها امرأة !

— ما هى بالأولى ولا بالأخيرة !

— الزواج يستر كل شئ ، يا حمقى !

— هاتوا جملاً كهذا الجمال ان استطعتم . مرحى !

بهذا الكلام الأخير كان يصيح القريبون منها .

وهتف موظف فى موظفى المكاتب يقول :

— أميرة ! ألا انتى مستعد لأن أبيع نفسى فى سبيل أميرة كهذه

الأميرة !

— أبيع حياتى بليلة واحدة ! ... *

تقدمت ناستاسيا فيليبوفنا . كان وجهها شاحباً شحوباً رهيباً ، لكن عينيها ترميان الفضولين بنضرات محرقة كأنها الجمر . لم يستطع الجمهور أن يحتمل هذه النظرات . وحلّت محلّ الاستياء صيحات حماسية . وكان باب العربة مفتوحاً ، وكان كيللر مدّ ذراعه الى العروس لمساعدتها

فى الركوب ، فاذا بالعروس تطلق صرخة على حين فجأة ، وتبارح درجات المدخل ، وتمضى تفتحهم الجمهور قدماً • تجعد الموكب ذهبلاً • وابتعد الناس من أمامها وظهر روجوين بفتة على مسافة خمس خطوات أو ست من درجات المدخل • لقد لمحت ناستاسيا فيليوفنا نظرتة بين هذا الحشد الكبير كله • فركضت اليه كالجنونة وأمسكت يديه وقالت له :

— أأخذنى ! أأخذنى ! أأخذنى الى حيث تشاء ! حالاً •••

فاختطفها روجوين حاملاً اياها بذراعيه تقريباً ، وطار بها نحو عربتها طيراً ان صبح التعبير • وفى مثل لمح البصر سرعة ، أخرج من محفظته ورقة مائة روبل ومدّها الى الحوذى قائلاً له :

— الى المحطة ! فاذا وصلت قبل سقر القطار نقدتك مائة روبل أخرى !

وقفز الى العربة قرب ناستاسيا فيليوفنا ، وأغلق باب العربة •

وبدون أى تردد ، ضرب الحوذى الحبل بسوطه فجرت العربة سريعة •

فيما بعد ، حين روى كيلر الحادث اعتذر عن أنه ذهل عن نفسه وأمكن أن يؤخذ بفتة ، وقال : • لو ألهت ثانية واحدة ، لعدت الى صوابى ، ولما سمحت بأن يقع ما وقع ! • وقد أوشك هو وبوردوفسكى أن يركبا عربة أخرى كانت واقعة هناك ، ليندفا فى ملاحقة الهارين ، ولكنهما لم يلبثا أن عدلا عن ذلك ، بحجة أنه • قد فات الأوان ، ولا مجال لاعادتها بالقوة • •

قال بوردوفسكى يحسم الأمر مضطرباً كل الاضطراب :

— ثم ان الأمير لن يريدنا بعد الآن !

وصل روجويين وناستاسيا فيليوفنا الى المحطة فى الوقت المناسب .
وبعد أن نزلا من العربة ، فى اللحظة التى همّا فيها أن يركبا القطار
استوقف روجويين بسرعة فتساءل كانت مارة وكانت تضع على رأسها
مندبلاً وترتدى خماراً قائم اللون بالياً بعض البلى لكنه ما يزال لائقاً ،
وقال لها وهو يمد إليها خمسين روبلاً :

— هل تبيعين خمارك هذا بخمسين روبلاً ؟

وقبل أن تفيق من ذهولها وتفهم ماذا يُراد منها ، كان روجويين
قد درس المال فى يديها ونضا الخمار والتدليل عن كفتها ورأسها وألقاهما
على كفى ناستاسيا ورأسها . فلولاً أن فصل روجويين هذا لكان من شأن
الثياب الفخمة التى كانت ترتديها ناستاسيا فيليوفنا أن تلفت الأنظار فى
المحطة وأن تحدث بلبله . ولم تفهم الفتاة السبب الذى حمل هذا الرجل
على أن يشتري منها بهذا الثمن الباهظ خرقاً لا قيمة لها ، الا فيما بعد .
وصلت أنباء الحادثة الى الكنيسة بسرعة لا يصدقها العقل . فحين
شق كيللر لنفسه ممراً الى الأمير استوقفه عدد كبير من الناس الذين
لا يعرفهم البتة ، استوقفوه ليسألوه عما حدث . كانوا يتكلمون بصوت
عال ، ويهزون رؤوسهم بل ويضحكون . ولم يشأ أحد أن يخرج من
الكنيسة . كانوا جميعاً يريدون أن يروا كيف سيستقبل الخطيب النبا .

اصغى الأمير ، ولكنه استقبل النبا بهدوء ، قائلاً بصوت لا يكاد
يُسمع : « كنت خائفاً ، ولكننى لم أكن أتوقع هذا مع ذلك . . . » .
ثم أضاف يقول بعد لحظة صمت : « على كل حال . . . اذا نظرنا الى حالتها
كان ذلك كله طبيعياً لا غرابة فيه . . . » . ان كيللر سيصف هذه النتيجة
التي خلص اليها الأمير بأنها « فلسفة لا نظير لها » .

غادر الأمير الكنيسة دون أن يخرج عن هدوئه ورباطة جأشه :

ان كثيراً من الناس على الأقل قد لاحظوا ذلك وعلقوا بعدئذ عليه • وكان
يبدو على الأمير أنه يرغب رغبة قوية في العودة الى بيته والخلو الى نفسه
بأقصى سرعة ممكنة • ولكنه لم 'يتمكن' من ذلك • ان كثيراً من المدعوين
قد تبعوه الى غرفته ، فمن هؤلاء بتسين وجبريل آرداليونوفتش والطبيب
الذي نوى مثل غيره أن لا يذهب • يضاف الى ذلك أن المنزل كله قد
هاجمه المتسكعون يريدون اقتحامه فعلاً • ها هو ذا الأمير يسمع كيلر
وليديف في مناقشة حامية حادة مع أشخاص مجهولين تماماً يريدون غزو
الشرفة عنوة • ان هيئاتهم تدل على أنهم من الموظفين في دوائر الدولة •
اقرب الأمير وسأل عن الأمر ، ثم أبعد ليديف وكيلر برفق وأدب ،
وتكلم بلهجة ملؤها الكياسة والتهذيب ، متجهاً الى سيد من التجمهرين
سمين الجسم شائب الشعر كان قد صعد درجات سلم المدخل على رأس
مجموعة من الفزاة المحتلين ، فرجاه أن يشرفه بزيارته • فضجل الرجل
ولكنه قبل الدعوة ، وجاء بعده ثان فثالث • وانفصل عن الجمهور سبعة
أفراد آخرين أو ثمانية ، فدخلوا كذلك وهم يحاولون أن يصطنعوا هيئة
عدم التحرج • ولم يقتد بهم الآخرون • وما لبث المتسكعون أن سمعوا
يلومون أولئك الدخلاء •

قدّمت للقادمين الجدد مقاعد يجلسون عليها ، وبدأ الحديث ،
وصبّ الشاي • وحدث ذلك كله بتواضع وبشاشة ، ولكن بطريقة
لائقة جداً ، فلم يملك هؤلاء الضيوف الطارئون الا أن يدهشوا • وقد
قامت محاولات عدة لجمل الحديث مرحاً ، وتوجيهه نحو الموضوع
« المنشود » ، وألقيت أسئلة فيها شيء من عدم التحفظ ، وقيلت ملاحظات
فيها شيء من « خبث ومكر » ، فكان الأمير يجيب جميع الناس ببساطة
كبيرة وطيبة عظيمة ، وكانت أجوبته في الوقت نفسه تشمل على وقار وعلى

ثقفة بحسن نية سامعية فلم تلبث الأسئلة النائرة أن اختفت من تلقاء ذاتها • وشيثاً فثبّت أخذ الحديث يدور على أمور هامة • فهاهو ذا واحد كثير الكلام منهم • ينتهز فرصة كلمة قيلت فيحلف فجأةً باستياء شديد • أنه لن يبيع أرضه في يوم من الأيام مهما يحدث من أمر • وأنه سيصبر وميصمد الى النهاية • وأن • كل استثمار خير من أى مال • • ذلك هو مذهبي الاقتصادى يا سيدى ان شئت أن تعرفه • • واذا كان يخاطب بكلامه الأمير فقد أيدته هذا بحرارة • دون أن يعباً بليديف الذى كان يهمس فى أذنه أن هذا السيد لا يملك مالاً ولا عقاراً • وأنه لم يملك أرضاً فى يوم من الأيام قط •

اتقضى ما يقرب من ساعة • كان الضيوف قد فرغوا من احتساء الشاي • وصاروا يشعرون بخرج من البقاء مدةً أطول • وجّه الطبيب والرجل الثائب الى الأمير كلمات وداع مؤثرة • واستأذن الباقون بالانصراف وودعوه بحرارة وصخب • وأعربوا له عن تمنيات وآراء من النوع التالى : • ليس لك أن تحزن • عسى أن تكررهما شيئاً وهو خير لكم • الخ الخ • • صحيح أنه وُجد بينهم أناس تجرأوا فطلبوا شمبانياً • ولكن سرعان ما ردّهم الى الصواب وذكرهم بقواعد الكياسة أولئك الذين كانوا اكبر سنّاً منهم •

حتى اذا انصرف الجميع مال كيللر على ليديف وقال له :

— لو ترك الأمر لنا نحن • أنا وأنت • لصرخنا وشتنا • وخضنا معركة • وجللنا أنفسنا بالحزى والعار • وجاءتنا الشرطة • أما هو فانه لم يلبث أن كسب أصدقاء جددًا • ويا لهم من أصدقاء ! اتنى أعرفهم !

فقال ليديف متنهداً وكان قد سكر :

— ان ما أخفى عن الحكماء والأذكياء قد كُشف عنه للأطفال • ذلك

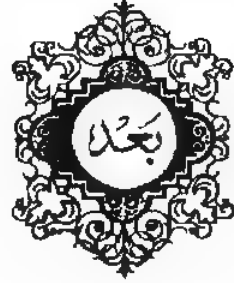
قول أدركت منذ مدة طويلة أنه يصدق عليه ، ولكننى أضيف إليه الآن
أن الله وجميع القديسين قد حموا الطفل نفسه فى هذه المرة وأقنوه
من الهوة !

وفى نحو الساعة العاشرة والنصف ترك الأمير ليجلو الى نفسه
أخيراً • انصرف كولىا آخر المنصرفين ، بعد أن ساعد الأمير فى خلع
ملابسه ، ملابس العريس • وافترقا بوداع حار • لم يلبث كولىا على
الحادث الذى وقع فى ذلك اليوم ، لكنه وعد بأن يعود فى ساعة مبكرة من
صباح الغد • وقد أكد فيما بعد أن الأمير لم ينس شيء ، وأنه تركه
جاهلاً بنبأته حين ودعه • وما انقضت برهة قصيرة حتى كاد يخلو البيت
خلواً تاماً : ذهب بوردوفسكى الى عند هبوليت ، ومضى كيلر وليديف
لا يدرى أحد الى أين • ولم يبق غير فيرا لبيديفا التى أخذت تمسك
الى البيت ترتيبه المألوف • وقبل أن تنصرف ، مضت تنظر ماذا يفعل
الأمير • فرأته جالساً الى مائدته ، مسداً عليها كوعه ، مخفياً رأسه بيديه •
فاقتربت منه برفق ، ولمست كتفه • فنظر اليها مستغرباً ، ولم يستطع أن
يجمع شتات ذكرياته الا بعد قرابة دقيقة • فلما تاب الى نفسه وفهم كل
شئ ، ظهر عليه انفعال مفاجئ • حاد • ورجاها أخيراً ، بالحاج شديد ،
أن تجيء فتقرع بابه صباح غداً فى الساعة السابعة ، موعد أول قطار •
فوعده الفتاة بأن تفعل • فاستحلفها عندئذ أن لا تكلم فى هذا الأمر أحداً ،
فوعده أيضاً • وأخيراً ، حين فتحت الباب وهمت أن تنصرف ، احتجزها
مرة ثالثة ، وتناول يديها فقبلهما ثم قبلها هى نفسها على جبينها وقال لها
بلهجة غير مألوفة « الى الغدا ! » • ذلك هو على الأقل ما روته فيرا • وقد
خرجت من عنده خائفة عليه خوفاً شديداً • ولكنها اطمأنت فى الغد بعض
الاطمئنان حين جاءت تقرر بابه بعد الساعة قليلاً لتنبيهه الى أن قطار
بطرسبرج سيسافر بعد ربع ساعة ، كما اتفقا على ذلك ، فبدا لها وهى

تفتح الباب أنه مرتاح بل وأنه يتسم • انه لم يكذ يخلع ثيابه للنوم ،
ولكنه نام مع ذلك •

قال انه يقدّر أن يعود في هذا اليوم نفسه • ان كل شيء يحمل على
الاعتقاد بأن فيرا هي الشخص الوحيد الذي رأى الأمير أن من الممكن
ومن الضروري أن يطلعه على أنه ينوي السفر الى بطرسبرج •

الفصل الحادي عشر



ساعة كان الأمير قد وصل الى بطرسبرج ؟ وبين الساعة التاسعة والساعة العاشرة كان يقرع جرس منزل روجوين • لقد دخل من الباب الرئيسي ، وانقضت برهة طويلة قيل أن يجييه أحد • وأخيراً شقَّ باب بيت المجوز ، أم روجوين ، وظهرت خادم مسنة مهية المظهر ، فقالت دون أن تفتح ابواب فتحاً كاملاً :

- ليس بارفون سيمونوفتش في بيته • من ذا تريد ؟

- بارفون سيمونوفتش •

- ليس في البيت •

وتفرست الخادم في الأمير باستطلاع غريب •

- هل تستطيعين أن تقول لي على الأقل أهو قضى الليلة هنا أم لا ؟

و ... هل عاد أمس وحده ؟

خلت الخادم تحديق اليه ، ولم تجب بشيء •

- هل كانت ناستاسيا فيليمونا معه هنا أمس • أمس مساءً ؟ ...

- ولكن اسمح لي على الأقل أن أسألك أولاً من أنت ؟

- الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين • أعرف بارفون ويرفني •

- ما هو في البيت •

وخفضت الخادم عينها •

- وناستاسيا فيليوفا ؟
- لا أدري •
- انتظري • اسمعى ! متى يعود ؟
- لا أدري أيضاً •
- وأغلق الباب • قرر الأمير أن يرجع بعد ساعة • ألقى نظرة على
فناء المنزل ، واللقى بالبواب •
- هل بارفيون سيميونوفتش فى بيته ؟
- نعم •
- فكيف قيل لى منذ لحظة انه غائب ؟
- قيل لك ذلك فى شقته ؟
- لا • ان خادمة أمه هى التى قالت لى ذلك • ولكننى قرعت باب
بارفيون سيميونوفتش أيضاً فلم يفتح لى أحد •
- قال البواب :
- جائز أن يكون قد خرج • فهو لا ينسى • أحداً بقيابه حين يغيب •
- حتى لقد يخرج بالفتاح أحياناً ، فتبقى الشقة منفلقة ثلاثة أيام متتالية •
- أأنت واثق أنه عاد أمس الى بيته ؟
- نعم • يحدث أحياناً أن يدخل من السلم الكبير فلا أراه •
- هل كانت ناستاسيا فيليوفا أمس معه ؟
- لا أدري • انها لا تجىء الا فى النادر القليل • فلو أنها جاءت
لكان من الجائز أن نلاحظ ذلك •
- خرج الأمير ، وراح يذرع الرصيف متحيراً • ان نوافذ شقة
روجوين مغلقة كلها ، وان نوافذ الشقة التى تشغلها أمه مفتوحة كلها

تقريباً • النهار مضى دافى • عبر الأمير الشارع ووقف على الرصيف المقابل ينظر الى زجاج النوافذ مرة أخرى • لم تكن النوافذ مغلقة فحسب ، بل كانت الستائر البيضاء مسدلة جميعها تقريباً •

لبث هنالك قرابة دقيقة • شئ غريب : خيل اليه أنه يرى أسفل إحدى الستائر يرتفع فيظهر وراءه وجه روجوين ثم ما يلبث أن يختبئ • انتظر الأمير قليلاً ، وهم أن يصعد وأن يقرع جرس الباب من جديد ، لكنه عدل عن رأيه وقرر أن يعود بعد ساعة • • من يدري ؟ لعل ذلك لم يكن الا وهماً ؟ • •

ان الأمر الأساسي في نظره الآن هو أن يسرع الى حى اسماعيلوفسكى ، الى آخر عنوان لئاستاسيا فيليوفنا • انه يعلم أن لئاستاسيا فيليوفنا ، حين رجاها أن تترك بافلوفسك قبل ثلاثة أسابيع ، قد نزلت فى هذا الحى عند إحدى صديقاتها ، وهى أرملة معلم مدرسة • ان هذه المرأة ربة أسرة محترمة ، تؤجر شقة مفروشة جميلة وتجنّب من كرائها القسط الأكبر من رزقها • فمن الجائز أن تكون لئاستاسيا فيليوفنا حين عادت تقيم فى بافلوفسك قد احتفظت لنفسها بذلك المسكن • ومن الجائز خاصة أن تكون قد قضت ليلتها فيها بعد أن صاحبها روجوين اليها فى أغلب الظن • ركب الأمير عربة • وحدث نفسه أثناء الطريق بأنه كان ينبغي له أن يبدأ تحرياته هناك ، اذ ليس محتملاً أن تكون المرأة الشابة قد ذهبت الى منزل روجوين فى الليل رأساً • وتذكر عندئذ أن البواب قال انها فى الأوقات العادية لا تجيء الا فى القليل النادر • فاذا كانت فى الأوقات العادية لا تجيء الا نادراً ، فلماذا يجب أن تكون الآن عنده ؟ ولكن الأمير ، رغم جميع هذه الاستدلالات المعزية المشجعة التى حاول بها أن يقوى نفسه ، قد وصل الى حى اسماعيلوفسكى وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة •

وهناك أدله أنه يعلم أن أرملة معلم المدرسة لم يلبثها شئ من أبناء

ناستاسيا فيليوفنا ، لا اليوم ولا أمس . أكثر من ذلك : لقد هرعت الأسرة كلها لترام كأنه انسان عجيب ، فجميع الأولاد ، وهم بنات ، تقف أعماهم بين السابعة والخامسة عشرة ، ولا يفصل بين واحدة وواحدة منهم في العمر الا سنة واحدة قد جشن في اثر أمهم وأحطن بالأمير ينظرون اليه فأغرات الأقنواء من الدهشة . وبعدهم جاءت خالة نجيلة صفراء ، تضع على رأسها منديلاً أسود ، ثم جاءت جدة الأسرة وهي سيدة طاعنة في السن جداً على عينيها نظارتان .

ألحت أرملة معلم المدرسة على الأمير راحية منه أن يدخل وأن يجلس . ففعل . وأدرك فوراً أن جميع هؤلاء الأشخاص يعرفونه معرفة تامة ، ويعلمون أنه كان يجب أن يتزوج أمس . وأدرك أنهم يحترقون رغبة في سؤاله عن ذلك الزواج ، وعن المعجزة التي وقعت فجعلته يجيب اليهم ليسألهم عن امرأة كان ينبغي في هذه اللحظة أن تكون معه في بافلوفسك ، ولكنهم يمتنعن عن سؤاله ذوقاً وأدباً .

وقد أرضى شوقهن الى الاطلاع ببضع كلمات قالها لهن عن ذلك الزواج . فكان من شأن صيحات الدهشة والاستغراب والتعجب التي رحن يطلقنها أنه اضطر أن يروي لهن الخطوط الكبرى من كل ماحدث . واستقر رأى هذا المجلس من السيدات المليئات بالحكمة والعاطفة على أن عليه ، مهما كلف الأمر وقبل كل شيء ، أن يذهب مرة أخرى الى منزل روجوين فما يزال يقرع الجرس حتى يفتح له فيحصل من روجوين على جميع الايضاحات . فاذا كان روجوين غائباً بالفعل (وهذا ما يجب التأكد منه) أو اذا هو رفض أن يتكلم ، كان على الأمير عندئذ أن يذهب الى حى سيمونوفسكى ، فيمضى هنالك الى بيت سيدة ألمانية تعيش عند أمها وهي صديقة لناستاسيا فيليوفنا ؟ فلعل الهاربة ، وقد عصفت بها الانفعال وأرادت أن تخفي عن أعين الناس ، قد ذهبت تبيت عند هاتين السيدتين .

كان الأمير مهذباً حين نهض ، وكان « شاحباً شحوباً رهيباً » كما ذكرت هاته السيدات فيما بعد . كانت ساقاه تلتويان تحته . واستطاع أن يفهم أخيراً من خلال كلامهن الكثير أنهن يعرضن عليه أن يساعدهن في البحث ، وأنهن يسألنه عن عنوانه بالمدينة . واذ لم يكن له بالمدينة عنوان فقد نصحنه بأن يستأجر غرفة في فندق . ففكر الأمير لحظة ثم ذكر لهن عنوان الفندق الذي سبق أن سكنه وأصيب فيه بنوبة .

ومضى متجهاً الى منزل روجوين .

في هذه المرة أيضاً لم يفتح له الباب ، حتى ان باب مسكن العجوز ظل مغلقاً كذلك . نزل الأمير الى الفناء وأخذ يبحث عن البواب الى أن عثر عليه بعد عناء . كان البواب منصرفاً الى عمله فتطرق اليه بغير اكتراث ولم يكده يجيبه عن أسئلته ، غير أنه أقهمه على نحو قاطع أن باريقيون سيميونوفتش قد « سافر في الصباح المبكر الى بافلوفسك وأنه قد لا يرجع منها طوال النهار » .

قال الأمير :

— سأنتظر . أتراه يعود في المساء ؟

— قد لا يعود قبل أسبوع . من يدري ؟

— لكنه قضى الليلة هنا على كل حال ، أليس كذلك ؟

— هذا ... نعم ! ...

ذلك كله مشبوه غامض . جائز جداً أن يكون البواب قد تلقى في هذه الفترة أوامر جديدة . كان منذ قليل كبير الكلام ، وهو الآن لا يكاد يفتح فمه . مع هذا قرر الأمير أن يعود مرة أخرى بعد ساعتين ، وأن يربط أمام المنزل اذا اقتضى الأمر ذلك . أما الآن فلا يزال عليه أن

يذهب الى الألمانية يسألها فحسب أن يعرف منها شيئاً • وها هو ذا يسرع الى حى سيمونوفسكى •

ولكنه لم يفلح هنالك حتى فى أن يفهم الألمانية شيئاً • وأدرك من بضع كلمات أفلتت منها أنها قد حدث شقاق بينها وبين ناستاسيا فيليوفنا قبل خمسة عشر يوماً ، فلم يمكنها أن تعرف عنها شيئاً منذ ذلك الحين ؛ وهى تعلن الآن جهاراً أنها أصبحت لا تهتم بها أى اهتمام ، « ولو تزوجت جميع أمراء العالم » •

أسرع الأمير يودعها • وخطر بباله أن من الجائز أن تكون المرأة الشابة قد سافرت الى موسكو ، كما فعلت ذلك من قبل ، وأن يكون روجوين قد تمها ، هذا اذا لم يكن قد صعبها • « ليتنا نستطيع على الأقل أن نهتدى الى أى أثر » •

وتذكر أثناء ذلك أن عليه أن يحجز غرفة فى فندق • فأسرع الى شارع لبتانيايا • فحُجزت له غرفة على الفور • وسأله خادم الطابق هل يريد أن يصيب وجبة خفيفة • فاذا هو من ذهوله يحييه قائلاً « نعم » ، ولكنه ما ان تاب اليه وعيه حتى غضب من نفسه غضباً شديداً ، لأنه يتناول هذه الوجبة قد ضيَّع نصف ساعة سدى ؛ ولم يدرك الا فيما بعد أنه ما من شئ كان يجبره على أن يتناول الطعام الذى جاء به الخادم • وقد شعر وهو يتنفس الهواء الحانق فى ذلك الممر المظلم أن احساساً غريباً مقلقاً يفزو نفسه ويَجَنِّح الى أن يصير فكرة • ولكن الأمير لم يستطع أن يتبين تلك الفكرة • وخرج من الفندق وهو فريسة اضطراب عميق وبلبلة شديدة • كان رأسه يدور • الى أين يجب أن يذهب ؟ وأسرع مرة أخرى الى منزل روجوين •

لم يكن روجوين قد عاد • قرع الأمير جرس الشقة مدة طويلة ، فلم يجب أحد • فقرع عندئذ جرس شقة المجوز • ففتَّح الباب ، وقيل

له مرةً أخرى ان بارفيون سيميونوفتش غائب ، وانه قد لا يرجع الا بعد ثلاثة أيام . وشعر الأمير بحرج وضيق لأنه لاحظ أن النظرة اليه تشتمل على استطلاع غريب غير مألوف . وظل البواب في هذه المرة مخفياً لا سبيل الى العثور عليه .

انتقل الأمير الى الرصيف المقابل كما فعل في المرة الماضية ، وأخذ يذرعه مدة نصف ساعة أو أكثر ، في ذلك الحر الحارق ، مثبتاً نظره على النوافذ . لم يتحرك في هذه المرة شيء : بقيت النوافذ مغلقة ، والستائر البيضاء ساكنة . اقتنع الأمير اقتناعاً حاسماً بأنه قد توهم في المرة الأولى توهماً . ثم ان الزجاج متسخ اتساخاً شديداً ، ولم يُفصل منذ مدة طويلة ، فلا يمكن أن يرى أحد من ورائه شيئاً ، هذا اذا كان وراءه أحد . اشتدت عزيمة الأمير بهذه الفكرة ، فعاد الى بيت أورملة معلم المدرسة في حي اسماعيلوفسكى . وكن ينتظره هناك . لقد ذهبت هذه السيدة الى ثلاثة أماكن أو أربعة ، ذهبت حتى الى منزل روجويين ، ولكنها لم تظفر بأية نتيجة . أصغى الأمير الى كلامها صامتاً ، ودخل الى الغرفة ، وجلس على الأريكة ، وأخذ ينظر فيما حوله نظرة من لا يفهم ماذا يُقال . شحذاً قوياً ، وتكون تارةً أخرى ذاهلةً ذهولاً شديداً لا يُصدق . لقد أكدت الأسرة كلها فيما بعد أن الأمير أدهشها يومئذ بغرابة حالته . له . هناك ظاهرة غريبة : ان ملكة الملاحظة عنده تكون تارة مشحودة لعل اختلاله العقلي قد أخذ يظهر منذ ذلك الوقت ، . ونهض أخيراً ، وطلب أن يرى الغرف التي كانت تشغلها ناستاسيا فيليوفنا . هما حجرتان عاليتان مضيئتان ، مؤثنتان تأثيثاً جميلاً ، فلا شك أنها كانت تدفع كراههما غالباً . وقد روت سيدات هذا البيت فيما بعد أن الأمير أنعم النظر في كل شيء من الأشياء التي رآها في الشقة . فلما لمح على منضدة صغيرة رواية فرنسية هي رواية « مدام بوفارى » التي كانت ناستاسيا فيليوفنا قد

استعارتها من قاعة مطالعة كفى زاوية الصفحة التي كان الكتاب مفتوحاً عليها ، واستأذن في أن يأخذ الكتاب ، ثم وضعه في جيبه رغم أنه قيل له ان الكتاب مستعار . وجلس قرب نافذة مفتوحة . فلما رأى على مائدة لعب ارقاماً مدونة بالطباشير سأل عمن كان يلعب هنا . فأجيب بأن نامتاسيا فيليوفا كانت تلعب مرة كل مساء مع روجوين . فهما يلعبان تارة لعبة « المتوه » ، وتارة لعبة الويست ، وتارة لعبة « الشبيه » ، أى كانا يلعبان كل اللعب ، وهما إنما ألغا هذه العادة في الآونة الأخيرة ، بعد مغادرة نامتاسيا فيليوفا صاحبة بافلوفسك للإقامة ببطرسبرج . لقد شكت نامتاسيا فيليوفا مرة من السأم لأن روجوين كان يقضى سهرات كاملة دون أن يقول كلمة واحدة ، فليس عنده موضوع يدير عليه الحديث ، وكانت هي تبكى في كثير من الأحيان . فلما جاء في الغد استل من جيبه ورق لعب فجأة ، فانطلقت نامتاسيا فيليوفا تضحك ، وأخذتا يلعبان . سأل الأمير أين الورق الذي كانا يلعبان به . فلم تستطع السيدات أن تريه ذلك الورق ، لأن روجوين كان عند انصرافه كل يوم يحمل الورق القديم ويحمله في اليوم التالي بورق جديد دائماً .

نصحت السيدات الأمر بأن يعود الى منزل روجوين مرة أخرى ، وأن يقرع الباب قرعاً أشد . ولكن « في المساء ، لا الآن ، فلعل شيئاً يكون قد عُرِف قبل حلول المساء » . وقد عرضت أرملة معلم المدرسة أن تذهب في النهار بنفسها الى بافلوفسك لترى داريا ألكسييفا ، فلطمح قد علموا هناك شيئاً . ودعى الأمير أن يعود في نحو الساعة العاشرة من المساء ، ولو لوضع خطة عمل مشتركة يتعاونون على تنفيذها في الغد .

كان يأس كامل يحتاج نفس الأمير رغم جميع هذه التشجيات . وها هو ذا يعود الى فندقه سيراً على الأقدام وقد أرهقه حزن لا سبيل الى مغالبته . كان يحس كأنه مسحوق بين فكي كلابة في بطرسبرج هذه

التي كان جوها خائفاً وكان هواؤها مثقلاً بالغبار في الصيف • اصطدم أثناء سيره بأناس أفظاظ أو سكارى • وكان يتفرس في المارة لا يدرى لماذا • لعله مشى خطى كثيرة لا فائدة منها ، ولعله لف ودار في غير طائل • فلما وصل غرفته كان المساء يوشك أن يهبط على المدينة • قرر أن يرتاح قليلاً ، ليعود بعد ذلك الى روجويين كما نُصح • فجلس على أريكة ، ووضع كوعيه على مائدة ، وغرق في خواطره وتأملاته •

لا يدرى الا الله كم قضى من الوقت وهو على هذا الوضع ، ولا ماذا دار في رأسه من أفكار • كان خائفاً من أشياء كثيرة ، وكان يشعر بتفاهم هذا الخوف ، فيعاني من ذلك ألماً مضاً وقلقاً شديداً • فكّر في فيرا ليديفا ، ثم تسائل ألا يمكن أن يكون ليديف قد بلغ الى علمه شيء عن هذا الأمر • وقال لنفسه : حتى لو كان لا يعلم شيئاً فإنه أقدر مني على أن يحصل على بعض المعلومات بسرعة وسهولة • ثم وافته صورة هيوليت فتذكر أن ليديف سيمضى يزوره • ثم تذكر أخيراً روجويين نفسه : كان قد رآه في الآونة الأخيرة ، مرة في الجنائز ، ومرة في الحديقة العامة ؛ ورآه مرة كذلك قرب غرفته ، في ذلك الممر المظلم ، حيث تربص به محتبئاً في ركن ممسكاً بيده سكيناً • تذكر عينيه ، عينيه اللتين كانتا تحدقان اليه في الظلمات • ارتعش : ان الفكرة التي كانت ترتسم في ذهنه غامضة منذ قليل ، تظهر الآن له واضحة بيّنة •

كانت تلك الفكرة هي التالية تقريباً : اذا كان روجويين في بطرسبرج فإنه مهما يختبئ زمناً طويلاً أو قصيراً ، لا بد أن يعود باحثاً عنه ساعياً اليه ، سواء أكانت نيته حسنة أم كانت نيته سيئة ، وربما عاد اليه وهو على تلك الحالة النفسية ذاتها التي كان عليها في المرة الأولى • وفي أقل تقدير ، اذا ارتأى روجويين لسبب من الأسباب أن يبحث عنه فسوف

يبحث عنه هنا طبيعاً ، فى هذا المنبر نفسه • « فانه » وهو لا يعرف لى
عنواناً ، سوف يفترض أنتى نزلت نفس الفندق الذى نزلته من قبل •
ومهما يكن من أمر ، فسوف يبحث عنى هنا ••• اذا شعر بحاجة قوية
الى رؤيتى • ومن يدري ؟ لعله يشعر بهذه الحاجة القوية أشد ما يكون
الشعور ••• •

كذلك كان يفكر الأمير ؟ وكان هذا التفكير يبدو له محتملاً •
لو سألته أن يحلل تفكيره لما استطاع أن يشرح لك مثلاً لماذا يرى أن
روجوين سيُشعر بمثل هذه الحاجة القوية اليه على حين فجأة ، أو لماذا
يستحيل أن يفترض أنهما لن يلتقيا بعد اليوم أبداً • غير أن الفكرة كانت
أليمة • كان الأمير يقول لنفسه : « اذا كان سعيداً فلن يأتى • وانما يأتى
اذا كان شقياً • وهو شقى حتماً ••• •

وما دام اقتاعه هو هذا فقد كان ينبغي له أن ينتظر روجوين فى
الفندق ، فى غرفته • ولكنه كان كمن لا يستطيع احتمال فكرته الجديدة
هذه ، فها هو ذا يندفع فيتناول قبضته ويخرج مسرعاً •

الظلام فى الدهليز أوشك أن يصبح حالكاً • فلما صار الأمير قرب
ذلك المكان المشؤم الذى سبق أن رأى فيه روجوين مشهوراً سكنه ،
قال يحدث نفسه : « ماذا لو ظهر من ذلك الركن فجأة وأوقفنى فى
السلم ؟ • ولكن لم يظهر أحد • وتجاوز الباب ، ومضى الى الرصيف ،
ونظر مدهوشاً الى ازدحام الناس فى الشوارع لحظة مغيب الشمس
(وهذا منظر مألوف ببطرسبرج فى أيام القيظ) ثم اتجه نحو شارع
جوروخوفايا • حتى اذا صار على مسافة خمسين خطوة من الفندق ، عند
أول مفرق ، شعر بأحد يلمس كوعه ، وسمع صوتاً يقول له هامساً
قرب أذنه :

- ليون يقول لا يفتش ، اتبعنى يا أخى ، يجب أن تتبعنى •

انه روجوين •

شيء غريب : لقد أخذ الأمير يروى له على الفور ، فرحاً مرحاً متدفقاً فى الكلام حتى ليكاد لا يتم النطق بألفاظه ، كيف استظروا منذ لحظة فى دهليز الفندق •

فقال له روجوين فجأة :

- كنت هناك فعلاً • هلم بنا !

فدُهِش الأمير من هذا الجواب ، غير أن دقيقتين على الأقل قد انقضتا بين اللحظة التى فهم فيها الجواب واللحظة التى دُهِش فيها من هذا الجواب • وشعر عندئذ بخوف وأخذ يلاحظ روجوين • كان روجوين يتقدمه نصف خطوة تقريباً • وكان ينظر الى أمام ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا ينتبه الى المارّة أى انتباه ، فذا اقترب من أحدهم تحاشاه بحركة آلية على غير شعور •

سأله الأمير فجأة :

- لماذا لم تسأل عنى فى الفندق ما دمت قد ذهبت اليه ؟

فتوقف روجوين ، ونظر اليه ، وفكّر ، ثم قال وكأنه لم يدرك السؤال ادراكاً واضحاً :

- اسمع يا ليون يقول لا يفتش • سيرُ أمامى قدماً الى أن تبلغ منزلى ، أتعرفه ؟ أما أنا فأسير فى الجهة الأخرى من الشارع • ولكن احرص على أن نمضى معاً ... انتبه !

قال هذا وعبر الشارع منتقلاً الى الرصيف الآخر ، متنبهاً مع ذلك الى الأمير ليرى هل سار كما أمره • فلما لاحظ أن الأمير واقف ينظر اليه

محملقاً دله بيده على اتجاه شارع جوروخوفايا ، ثم استأنف سيرة متلفتاً
بغير انقطاع ليراقب الأمير ويحضه على أن يتبعه • حتى اذا تأكد من أن
ليون يقول لا يقتش قد فهم عنه وأنه لا يعبر الشارع ليحقق به عادت اليه
طمأنينته • وقد خطر ببال الأمير أن روجويين يترصده مرور أحد وأنه
انتقل الى الرصيف الثانى حتى لا يفلت منه ، فتسائل : « ولكن لماذا لم
يحدد الشخص الذى يجب ترصده ؟ » • وسارا على هذا النحو قرابة
خمسماية خطوة ، فاذا بالأمير يأخذ يرتعش ارتعاشاً قوياً دون أن يعرف
لماذا يرتعش • وكان روجويين ما يزال يلتفت اليه ولكنه لا يلتفت اليه
الآن الا من حين الى حين • ونفذ صبر الأمير فحرك يده يستوقف صاحبه
ويدعوه اليه • فسرعان ما عبر روجويين الشارع قادماً نحوه •
سأله الأمير :

— هل ناستايا فيليوننا عندك فى البيت ؟

— نعم •

— وهل أنت الذى نظرت الى من وراء ستارة النافذة ؟

— نعم ...

— آف ... أفانت ...

ولكن الأمير لم يعرف كيف يكمل جملته ، ولا ماذا يلقي من
سؤال • وكان قلبه عبداً ذلك يخفق خفقاناً بلغ من القوة أن الكلام أصبح
يشق عليه •

صمت روجويين هو أيضاً ، ونظر اليه نظرة من يحلم ، كما فعل
منذ قليل ... ثم قال فجأة وهو يتهاى لعبور الشارع :

— هيس بنا • انا ذاهب الى هناك • اسبقنى انت • لنمش منفصلين ...
ذلك أفضل ... يمشى كل واحد فى جهة ... سوف ترى •

فلما دخلا شارع جوروخوفايا أخيراً ، واقتربا من منزل روجويين
شعر الأمير مرةً أخرى بأن ساقيه تتشبهان تحتته حتى ليكاد يمجّز عن
السير . كانت الساعة قريبة من العاشرة مساءً . وكانت نوافذ الجناح الذي
تقيم فيه العجوز ما تزال مفتوحة . وكان كل شيء في بيت روجويين
مغلّقاً ، وكانت الستائر المسدلة تبدو في ضوء النسيق أشدّ بياضاً .

ووصل الأمير الى مستوى المنزل وهو ما يزال على الرصيف المقابل .
فلما رأى روجويين يصعد درجات المدخل ويشير اليه أن يأتي بادر الى
اللاحاق به وأدركه .

همس روجويين قائلاً له وهو يتبسّم ابتسامةً فيها مكر ويكاد يكون
فيها رضى :

— البواب لا يعلم اننى عدت . قلت له منذ فترة اننى ذاهب الى
بافلوفسك ، وقلت هذا الكلام نفسه لخادمة أمى . سوف تدخل دون أن
يسمعنا أحد .

وكان قد أخرج المفتاح فهو الآن في يده . وحين صعد السلم
التفت نحو الأمير وأشار يأمره بأن يمشى بمزيد من الهدوء والرفق .
وفتح باب شقته دون ضوضاء ، وأدخل الأمير ، وتبعه محترساً ، فأغلق
الباب ثانية ووضع المفتاح في جيبه .
قال بصوت خافت :

— هلمّ !

كان يهمس همساً منذ أن أخذ يكلم الأمير على رصيف شارع
ليتينايا . ان المرء يدرك أن نفسه مضطربة اضطراباً عميقاً رغم هدوئه
الظاهر . وحين دخلا الصالة التى تقع قبل حجرة المكتب اقترب من
النافذة ، ودعا الأمير اليه وقد لاح في وجهه معنى السر . ثم قال :

- اسمع • حين قرعت بابي في هذا الصباح ، كنت أنا هنا ، وسرعان ما حذرت أن القارع هو أنت . • اقتربت من الباب ماشياً على رعوس الأصابع ، وسمعتك تكلم بأفئوتيفنا • وكنت قد أمرتها منذ مطلع الصبح أن لا تجيب أى انسان يقرع جرس بابي ، أياً كان المذر الذى يتحلل به ، سواء أكان القارع أنت أم كان شخصاً آتياً من عندك ، أم كان أى شخص آخر • وكان الأمر الذى أصدرته إليها يستهدفك أنت خاصة ، اذا بدا لك أن تجيء بنفسك سائلاً عني ، وقد سميتك لها • فلما خرجت ، خطر ببالي أنك ربما رحت ترابط في الشارع مترصداً مترقباً • فدنوت من هذه النافذة فأزحت ستارها لألقى نظرة ، فرأيتك واقفاً هناك تنظر الى فعلاً • هكذا جرت الأمور •••

قال الأمير بصوت مختق :

- ف ••• فأين ناستاميا فيديوفنا ؟

أجاب روجوين ببطء بعد تردد قصير :

- هي ••• هنا •

- آين ٩

فرفع روجوين عينيه الى الأمير ، وتفرس فيه محدقاً • ثم قال له :

- هيّا • تعال •

انه ما يزال يتكلم هامساً ، بطيئاً ، ذاهلاً ذلك الذهول نفسه • حتى حين روى كيف أزاح الستارة كان رغم ما باح به ، يبدو عليه أنه يريد أن يتكلم عن شئ غير هذا تماماً •

ودخلا حجرة المكتب • لقد أُجريت فيها تغييرات منذ الزيارة الأخيرة التى قام بها الأمير • ان ستارة من قماش البروكار تشطر الفرقة الآن شطرين ، فنفصل حجرة المكتب بمعنى الكلمة عن نخدع النوم الذى

يوجد فيه سرير روجويين • ان الظلام حالك في الغرفة • ان ليالى
بطرسبرج « البيضاء » هي الآن في نهايتها ، فلولا أن القمر كان بدرًا ،
لما كان في وسع المرء أن يميز أى شيء في هذه الشقة التي كانت ستأثرها
المسدلة تزيدها ظلامًا • الحق أنه ما يزال في امكان المرء أن يرى
الوجوه ، ولو رؤية غامضة • كان وجه روجويين أصفر كما عهد •
وكانت عيناه ترسلان الى الأمير نظرة ثابتة لكنها جامدة •

قال الأمير :

— ينبغي أن تشعل شمعة •

فأجابه روجويين وقد أمسكه من يده وأجبره على الجلوس :

— لا ، لا ينبغي •••

وجلس هو أمامه • ان كرسيه يبلغ من القرب أن ركبتيه وركبتي
الأمير تكاد تتلامس • وكانت توجد بينهما منضدة صغيرة مدوورة
الى جانب •

قال وكأنه يشجعه على البقاء :

— اجلس • لنسترح هنا لحظة •

وخيم الصمت دقيقة • ثم أضاف يقول بلهجة يصطنعها المرء حين
يجرى الحديث على تفاصيل تافهة فراراً من مواجهة المسألة الأساسية :

— قدّرت أنك قد تنزل ذلك الفندق نفسه • وحين ولجت الدهليز
قلت لنفسى : من يدري ؟ لعله هو أيضاً ينتظرني في هذه اللحظة هنا كما
انتظره ! هل ذهبت الى أرملة معلم المدرسة ؟

قال الامير بمشقة كبيرة بينما قلبه يكاد ينفجر من شدة الحقدان :

— نعم •••

- قدّرت ذلك أيضاً • قلت لنفسي : سيكون هذا مبعث هذر أيضاً
... ثم خطر ببالي أن أجيء بك الى هنا لتقضي هذه الليلة معاً ...

- روجوين ، أين ناستاسيا فيليوفا ؟

بذلك دمدم الأمير فجأة وهو ينهض • كانت أعضاؤه كلها ترتعش •
نهض روجوين هو أيضاً • وقال مومناً برأسه الى الستارة :

- هي هناك •

فهمس الأمير سائلاً :

- أهي نائمة ؟

- هيه ... هيّا بنا الى هناك ... ولكنك ... بل هيّا بنا ...

وأزاح الستارة ، وتوقف ، والتفت نحو الأمير • وقال له أخيراً
وهو يدعوّه بإشارة أن يتقدم :

- ادخل !

قال الأمير :

- الظلام دامس •

فقال روجوين مجعجماً :

- لكنك تستطيع أن ترى •

- لا أكاد أميز إلا ... السرير •

قال روجوين بصوت خافت :

- اقترّب أكثر •

فتقدم الأمير خطوة ، ثم تقدم خطوة أخرى ثم توقف • لبث دقيقة
أو دقيقتين جامداً لا يتحرك ، محاولاً أن يثقب بنظره الظلام • لم يقل
أحد من الرجلين كلمة واحدة طوال المدة التي بقيا خلالها قرب السرير •

كان قلب الأمير يخفق خفقاناً يبلغ من القوة أن دقاته تكاد تُسمع في صمت الموت الذي يخيم على الغرفة . حتى إذا ألفت عيناه الظلمة أمكنه أن يميز السرير . كان أحد ينام على السرير ساكناً سكوتاً مطلقاً لا صوت يُسمع ، لا نسمة ! كان النائم مغطى من الرأس الى القدمين بلاءة بيضاء ، لكن أعضائه لا ترسم الا ارتساماً غامضاً . كل ما يراه المرء من تنوءات الملاة أنه جسم انسانٍ مسجى تحتها . وفي كل جهة من حوله : على السرير ، في أسفل السرير ، فوق المقعد المقابل ، وحتى على أرض الغرفة ، بُشرت ثيابٌ متناثرة على غير نظام : فستانٌ فخم من حرير أبيض ، أزهار ، أشربة . وعلى منضدة صغيرة قرب السرير تلتصع جواهر ماسٍ وُضعت هنالك باهمال . وفي آخر السرير كتلة من تطريزات يخرج منها طرف قدمٍ عارية كأنها منحوتة من مرمر ، قدم جامدة جموداً رهيباً مربعاً .

كلما أمعن الأمير النظر ، بدا له صمت هذه الغرفة أعمق وأدلّ على الموت . واستيقظت ذبابة على حين فجأة وطفقت تدندن ، وحوّمت فوق السرير ، ثم حطت على المنضدة الصغيرة الى جانبه . سرت في جسم الأمير وعدة .

قال له روجوين وهو يلمس ذواعه :

- فلنخرج .

خرجا من مخدع النوم ، وعادا يجلسان على مقعديهما متقابلين كما كانا . ان الأمير يرتحف مزيداً من الارتجاف لحظةً بعد لحظة ، ولا يحوّل نظراته المستفهمة عن وجه روجوين .

قال روجوين أخيراً :

- أري يا ليون يقول لا يفتش أنك ترتجف ارتجافك عند دنوّ نوبة

مرضك + هل تتذكر كيف كان يحدث هذا بموسكو ؟ أو كيف حدث
هذا مرة قبل موافاة النوبة ؟ اننى أَسْأَلُ ما عسائى أقص بك اذا وقع لك
شئ من ذلك ...

كان الأمير يصغى اليه بانتباه ، جاهدآ أن يفهم عنه ، مستمراً على
مساأته بعينه .

وقال يسأله أخيراً وهو يومئ الى جهة الحاجز بإيمانه من رأسه :
— أأنت فعلت هذا ؟

فهمس روجويين خافضاً رأسه :
— نعم أنا .

ولبنا خمس دقائق لا يتبادلان كلمة .

ثم عاد روجويين الى فكرته كأن سؤال روجويين لم يقاطعه فيصرفه
عما كان بسيله ؟ قال يتابع كلامه السابق :

— اذا وافتك الآن نوبة ، فان صراخك سيُسمع فى الشارع أو فى
فناء المنزل ، فيدرك السامعون أن فى الشقة ناساً ، فيجيئون يقتحمون الباب
ويدخلون .. لأنهم جميعاً يظنون أننى غائب . اذا كنت لم أشعل شمعة ،
فمن أجل أن لا يرى أحد من الشارع أو من فناء البيت شيئاً . اننى حين
أغيب ، أحمل مفاتيحي فلا يدخل أحد الى هنا خلال ثلاثة أيام أو أربعة
ولو لترتيب الشقة + تلك هى القاعدة التى وضعتها + فيجب أن تدبّر
أمرنا بحيث لا يعلم أحد أننا نبيت الليلة ...

قال الأمير :

— انتظر + اننى سألت البواب والخادمة الحجور ألم تجيئ ناستاميا
فلييوفا لتبيت هنا ... فهما اذن يعرفان أنها جاءت +

- لا أجهل هذا • لقد قلت للخادمة بافوتيفا ان تاستاسيا فيليوفنا جاءت الى هنا أمس ثم سافرت ثانية الى بافلوفسك بعد عشر دقائق • لا يعرف أحد أنها باتت هنا • ولقد دخلت معها بالأمس خلصة كما دخلت معك اليوم • كنت أقدر ونحن في الطريق أنها لن تحب أن تدخل ، لكنني أخطأت التقدير ! كانت تتكلم هساً ، وتسير على رموس الأصابع ، وتشمر فستانها من حولها حتى لا يُسمع له حفيف ، حتى لقد فرضت على الصمت بإشارة من يدها حين كنا على السلم • منك أنت انما كانت ما تزال خائفة • حين كنا في القطار كان خوفها جنوناً مطبقاً • وهي التي طلبت أن تبيت هنا • كانت فكرتي الأولى أن أصحبها الى عند أرملة معلم المدرسة ، ولكنني لم أقفح في حملها على ذلك • قالت : « اذا ذهبت الى هناك فسيهتدي الى الأمير في الفجر • خبثتي عندك • وغداً أقرأ الى موسكو متى طلع الصبح ! » • وكانت تنوى أن تذهب من موسكو الى أوريل • لقد اضطجعت على السرير وهي تكرر أننا سنمضي الى أوريل •

- انتظر : ماذا تنوى أن تفعل الآن يا بارفيون ؟

- عجيب أمرك ! انك بهذا الارتعاد المستمر ترعبنى ! سنييت الليلة هنا معاً • ليس عندي سرير الا ذلك السرير • ولكنني دبّرت الأمر على هذا النحو : نأخذ وسائد الأريكتين فنجعل منها سريراً على الأرض قرب الستارة لي ولك ، وهكذا ينام أحدهنا الى جانب الآخر • حتى اذا جاؤا وفتشوا الترفة ، عثروا عليها وحملوها • وسيبألوني عما حدث فأقول لهم انني انا الفاعل ، فيقتادوني فوراً • أما الآن ، فلتترد الآن قرية منا ، قرية منك ومنى معاً ! • • •

قال الأمير مجبداً بحرارة :

- نعم ، نعم !

- يجب اذن أن لا نتعرف وأن لا ندع لأحد أن يأخذها .

قال الأمير :

- أبداً ! بحال من الأحوال ! لا ، لا ! ...

- ذلك ما عقدت عليه عزمي يا بنى ... لن نتبع لأحد أن يتزعجنا
منا بحال من الأحوال ، مهما كلف الأمر . سنقضى هذه الليلة بهدوء .
لقد ظللت بقربها النهار كله ، لم أخرج الا ساعة واحدة في الصباح ، ثم
خرجت في المساء لأبحث عنك وأجيبك . هناك شيء أخشاه : هو أن
تنتشر من الجمعان رائحة بسبب هذا الحر الحارق . هل تشم شيئاً ؟

- جائز . لست متأكداً . ولكن الرائحة ستشتد في الصباح حتماً .
لقد غطينتها بقماش مشمع ، قماش مشمع أمريكي ممتاز ،
وفرشمت الملاءة فوق ذلك النطاء . وحولها وضعت أربع زجاجات مفتوحة
من سائل جدانوف ؟ وما تزال الزجاجات في موضعها ...

- نعم ... كما فعلوا هناك ... في موسكو ..

- بسبب الرائحة يا عزيزي . لبتك ترى كيف ترقد ! .. غداً في
الصباح ، حين يطلع النهار ، انظر اليها . هيه ، ماذا ؟ أصبحت لا تستطيع
النهوض ؟

قال روجوين ذلك مذهوشاً خائفاً حين رأى الأمير يرتعد ارتعاداً
يبلغ من الشدة أنه أصبح لا يستطيع النهوض على قدميه .

دمدم الأمير يقول :

- ساقاني لا تطاوعان ... مرد هذا الى الرعب ... أنا أعرف
ذلك . فمتى زال الرعب أمكنني أن أنهض ...

- انتظر .. سأصنع سريرنا ، فتتعدد .. وأتعدد أنا بقربك ...
ونصفى ... لأننى يا صديقى .. لا أعرف .. يا صديقى .. لا أعرف
الآن كل شئ بعد .. لذلك ألفت نظرك ... حتى تعرف أنت ...
سلفاً ..

كان روجويين وهو يتعمم بهذه الأقوال المضطربة المفككة قد أخذ
يهيئ السرير . واضح أنه ربما كان منذ الصباح يفكر فى طريقة ترتيب
الوسائد ليجعل منها سريراً . لقد قضى الليلة البارحة رافداً على الديوان .
ولكن الديوان لا يتسع لشخصين ، وهو يحرص حرصاً مطلقاً على أن يرقدا
معاً . لذلك أخذ ينتزع عن الديوانين جميع وسائدهما المختلفة الأحجام ،
ويجرها من أول الفرقة الى آخرها بكثير من العناء ، ليصنع منها سريراً
أمام الستارة . حتى اذا فرغ من ذلك كيفما اتفق ، اقترب من الأمير
بحنان وحماسة فأمسكه من تحت ذراعيه وأنهضه وساعده على الوصول
الى ذلك السرير . فلاحظ عندئذ أن الأمير كان قد استرد قدرته على
السير وحده ، فقال لنفسه : « انقضى اذن رغبه » . ولكن الأمير كان
ما يزال يرتعد .

أرقده روجويين على الوسادة اليسرى ، أفضل الوسادتين ، ورقد
هو على الوسادة اليمنى مرتدياً جميع ملابسه عاقداً يديه وراء عنقه .
واستأنف كلامه قائلاً على حين فجأة :

- الجو حار حقاً يا صديقى ، وسوف تنتشر الرائحة لا محالة ...
انى أخشى أن أفتح النوافذ . عند أمى أصعب أزهار كثيرة ، عندها
أزهار كثيرة عطرة عبقة . خطر ببالي أن آتى بها الى هنا . لكن ذلك
يمكن أن ينبّه بافئوتينا ، فهى شديدة حب الاطلاع .

قال الأمير مؤكداً :

- هي شديدة حب الاطلاع •

- كان يمكن شراء باقات أزهار ... واحاطتها بها احاطة تامة •
لكنني قدّرت يا صديقي أنه أمر يمزّق القلب تمزيقاً ... أن تُرى
منظارة بالأزهار هكذا !! ...

- قل لي ...

كذلك بدأ الأمير يسأله مرتبكاً ، كانسان يبحث في ذاكرته عن شيء
يريد أن يسأل عنه ولكنه لا يكاد يتذكره حتى ينساه •

- قل لي ... بأي شيء فعلت ؟ بسكين ؟ بتلك السكين نفسها ؟

- نعم بتلك السكين نفسها •

- انتظر أيضاً ! أريد أن أسألك يا باريون ... هناك أسئلة كثيرة
أريد أن ألقها عليك ... أسئلة عن أمور كثيرة ... ولكن قل لي أولاً
لأعرف : هل كنت تنوى أن تقتلها قبل زواجنا ، بطعنة سكين ، على عتبة
الكنيسة ؟ أنعم أم لا ؟

أجاب روجوين بخشونة ، مدهوشاً من السؤال ، حتى لكأنه لم
يدركه :

- لا أعرف أكنت أنوى ذلك أم لا ...

- ألم تصطحب سكينك أبداً حين جئت الى بافلوفسك ؟

- لم أصطحبها أبداً •

وأضاف يقول بعد لحظة صمت :

- عن هذه السكين ، اليك كل ما أستطيع أن أقوله لك يا ليون
نيقولايفتش : لقد تناولتها في هذا الصباح من درج مقفل بالفتاح ، لأن
كل شيء قد تم بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة • كنت أحتفظ بها دائماً
بين صفحات كتاب ... و ... اليك شيئاً آخر أدهشني : لقد نفذت

السكين تحت الثدي الأيسر ، الى عمق سبعة سنتيمترات تقريباً *** فلم يكذب ينسكب دم • لم ينسكب من الدم أكثر من نصف ملعقة ***

قال الأمير وهو ينصب قامته بتأثير انفعال فظيع رهيب :

— هذا أعرفه *** أعرف هذا *** قرأت عنه *** ذلك ما يسمى نزيفاً داخلياً *** حتى ليتفق أن لا تنسكب قطرة دم واحدة • يحدث هذا حين تنفذ الطعنة الى القلب مستقيمة ***

قاطعه روجوين يقول فجأة وهو يجلس على مضجعه مذعوراً :

— صه ! هل تسمع ؟ هل تسمع ؟

أجابه الأمير وهو ينظر اليه ، قائلاً بلهجة الذعر تلك نفسها :

— لا ! ••

— صوت مشى ! هل تسمع ؟ فى الصالة ***

أصاخ الاثنان بسمعيهما •

وقال الأمير بثقة :

— سمعت !

— صوت مشى !

— هل يجب أقفال الباب ؟

— نعم ***

أحكما وضع المزلاج ، وعادا يرقدان • وأعقب ذلك صمت طويل •

وفجأة عاد الأمير يهمس بلهجة اتمجل والاضطراب تلك نفسها ، كأنه وقد استرد تسلسل تفكيره كان يخشى أن يغيبه من جديد • قال وهو يشب عن مضجعه :

- ها ... نعم ... أودت أن أطلب منك ورق اللعب ا ورق اللعب
... قيل لي انك كنت تلاعبها بالورق .

قال روجوين بعد لحظة :

- نعم .

فساله الأمير :

- فأين هو ... ذلك الورق ؟

قال روجوين بعد صمت أطول :

- هو ذا ... خذ ...

قال ذلك ، وأخرج من جيبه ورق لعب ملفوفاً بغلاف ، ومستعملاً
من قبله ، ومدّه الى الأمير . فتناوله الأمير ، ولكن دون أن يبدو عليه أنه
يدرك ما يفعل . ان شموراً أليماً بالحزن قد عاد يخنق صدره ويهصر
قلبه . وأدرك أنه في هذه اللحظة ومنذ مدة غير قصيرة كان يقول ويفعل
غير ما كان ينبغي أن يقول وما ينبغي أن يفعل . مثال ذلك أن ورق اللعب
هذا الذي يسكه الآن بيديه والذي أسعده كثيراً أن يحصل عليه لن
ينفعه بعد اليوم في شيء . وها هو ذا ينهض ويضم يديه أحداها الى
الأخرى بحركة تدل على لوعة لا حدود لها . وكان روجوين مضطجماً
جامداً فلم يد عليه أنه أبصر هذه الحركة ، غير أن عينيه الثابتين
المحملتين كأننا تنقدان في الظلام . جلس الأمير على كرسى ونظر الى
رفيقه مرتاعاً . وانقضى على هذا نصف ساعة . وفجأة قال روجوين وهو
ينفجر في ضحك صاخب ، ناسياً أن عليه أن يتكلم بصوت خافت :

- الضابط ... هل تذكر ذلك الضابط ...؟ هل تذكر كيف

جلسته بالسوط في حفلة الموسيقى ؟ ها ها ها ...؟ هل تذكر ؟ وطالب

كلية الحربية ... طالب الكلية الحربية ... الذي وثب ...

اتنفّض الأمير وقد اعتراه رعب جديد • وهذا روجوين فجأة •
فمال نحوه برفق • وجلس الى جانبه • وأخذ يلاحظه • كان قلبه يدق
دقاً قوياً • وكان يتنفس بشقة وعناء •

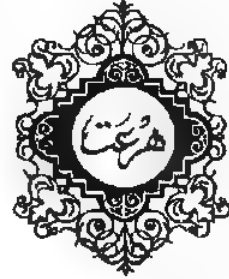
كف روجوين عن الالتفات اليه • حتى لكأنه نسيه • لكن الأمير
ظل يرمقه منتظراً • وكان الوقت يمضي • وأقبل الصبح • كان روجوين
يأخذ يدمدم بين الفينة والفينة على حين فجأة • فيقول بصوت ناقب كلمات
مفككة • ويطلق صرخات تتخللها ضحكات : فكان الأمير عندئذ يبسط
عليه يده المرتعشة • فيمسح له رأسه برفق • ويلعب بأصابعه شعره
وخديه ••• ذلك كل ما كان يستطيع أن يفعله • وكانت تعاوده
الرعيدات التي تسرى في جسمه • ومرة أخرى أصبحت ساقاه تتثبان
تحتنه • ان احساساً جديداً كل الجدة كان قد غزا قلبه • وملأ نفسه بقلق
غير ذي نهاية •

وطلع النهار أثناء ذلك • اضطجع الأمير أخيراً على مرقد • وقد
هدأ التعب وأنهكه الألم • وأطبق بوجهه على وجه روجوين الشاحب
الجامد • وسالت دموع من عينيه على خدي روجوين • ولكن لعله كان
لا يحسن امسكابها بل ولا يشعر بها •••

المهم على كل حال أنه حين فُتح الباب بعد بضع ساعات وُجد القاتل
هاذياً ممسكاً عليه • ووُجد الأمير جالساً بقربه • جامداً صامتاً على مضجعه :
فكلما صرخ المريض أو هذى أسرع الأمير يمسح يده المرتعشة شعره
وخديه ملاطفاً مهدئاً • ولكن الأمير كان قد أصبح منذ ذلك الحين لا ينهم
شيئاً من الأسئلة التي ألقيت عليه ولا يتعرف الناس الذي دخلوا وأحاطوا
به • فلو جاء شنايدر في تلك اللحظة من سويسرا ليرى المريض الذي
كان يعالجه في الماضي لتذكر الحالة التي كان عليها هذا المريض في السنة
الأولى من معالجه بسويسرا • ولقال بحركة تتم على اليأس كما فعل
حينذاك : « أبله ! » •

الفصل الثاني عشر

خاتمة



أرملة معلم المدرسة الى بافلوفسك ومضت رأساً الى بيت داريا الكسيفنا التي كانت ما تزال مشدوكة منذ الليلة البارحة . فقصت عليها كل ما كانت تعسرفه ، وألقته بذلك الى رعب لم يستطع شيء أن يهدئه . وقررت المرأتان فوراً أن تقابلا ليديف الذي اضطرب هو أيضاً من جهتين ، جهة أنه صديق للأمير ، وجهة أنه مالك للشقة التي يسكنها الأمير . وارتأى ثلاثة أشخاص هم داريا الكسيفنا وقيرا وليديف (بنصيحة من ليديف) أن يسافروا الى بطرسبرج ليمنعوا بأقصى سرعة ممكنة « ما قد يحدث فعلاً » . وهكذا فتحت الشرطة باب بيت روجويين منذ الغداة في الساعة الحادية عشرة من الضحى ، بحضور ليديف والسيدات وأخى روجويين ، سيميون سيميونوفتش ، الذي يقيم في الجناح الآخر من المنزل . ومما شجع على اتخاذ هذه المبادرة أكثر من أي شيء آخر ما ذكره البواب من أنه رأى بارفيون سيميونوفتش يرجع الى البيت متسللاً بخطى كخطى الذئب ، من جهة سلم الباب ، في صحبة رفيق . فلم يبق عندئذ أي تردد ، فافتحهم باب الدخول الذي طالما قُرع جرسه بالأمس في غير طائل .

أُرقد روجويين مدة شهرين مصاباً باحتقان دماغي . فلما شُفي حُقق معه وحُكم عليه . وقد جاءت أقواله في التحقيق صادقة كل

الصدق دقيقة كل الدقة مقننة كل الاقتناع ، فأخرج الأمير من القضية منذ البداية . أما في المحاكمة فقد كان صامتاً طول الوقت . لم يمارض المحامي البارع البليغ المكلف بالدفاع عنه حين برهن بكثير من الوضوح ومن المنطق في آن واحد على أن الجريمة إنما ارتكبت على أثر نوبة حمى دماغية سبقت بداياتها وقوع الكارثة بحدة طويلة ، وليست تلك الحمى إلا نتيجة للأحزان والأشجان التي زخر بها قلب المتهم . ولكن روجويين لم يصف شيئاً لتدعيم هذا الرأي ، واقتصر - كما فعل في التحقيق - على أن يبسط تفاصيل الحادث بوضوح وجلاء ودقة وتحديد .

استفاد روجويين من الظروف المخففة فحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً في سيبيريا . وقد سمع الحكم دون أن يهتز أو يتأثر ، وكان شارد الفكر « حالم » الهية . وآلت ثروته الضخمة إلى أخيه ، إلا جزءاً يسيراً كان قد بدّده في مجون الآونة الأولى . وقد سُرَّ أخوه سيميون سيميونوفتش بذلك سروراً عظيماً .

إن أمه العجوز ماتزال حية ، ويبدو أنها تذكر ابنها الحبيب بارفيون سيميونوفتش في بعض الأحيان ، ولو تذكراً غامضاً مبهماً . لقد صان الله فكرها وقلبها من ادراك النازلة الفظيعة التي زارت بيتها .

وليديف وكيللر وجانيا وتسين وآخرون كثيرون من أشخاص روايتنا ، ظلوا يعيشون كما كان يعيشون في الماضي . انهم لم يتغيروا كثيراً ، فلا نكاد نجد ما نقوله عنهم . ومات هيبوليت وهو في حالة اضطراب شديد واهتياج رهيب ، قبل الموعد الذي كان يتوقعه بقليل ، بعد نحو خمسة عشر يوماً من مقتل نامتاسيا فيليوفا . وتأثر كولا بهذه الأحداث كلها تأثراً عميقاً . فاقرب من أمه اقرباً حاسماً . إن نينا ألكسندروفا قلقة عليه ، فهي تجده مسرفاً في التأمل والتفكير بالقياس إلى سنه . ومن يدري ؟ قد يصبح في المستقبل رجلاً ذا شأن . يجب أن

تذكر في هذه المناسبة أنه هو الذي عني بترتيب الإجراءات التي حددت
مصير الأمير في المستقبل . كان منذ مدة طويلة قد ميّز أوجين بافلوفتش
رادومسكى على جميع الناس الذين عرفهم في الآونة الأخيرة . فكان أول
من ذهب اليه فقص عليه كل ما يصرفه عن الحادث وعن حالة الأمير
الراحنة . ولم يخطيء ظنه : فقد أظهر أوجين بافلوفتش اهتماماً كبيراً
وعناية حارة بمصير « الأبله » المسكين ؛ وبفضل جهوده ومساعدته وضع
الأمير مرة أخرى في معهد شنايدر بسويسرا .

وسافر أوجين بافلوفتش هو نفسه الى الخارج متوياً أن يقيم في
أوروبا مدة طويلة . كان يمت نفسه ، مخلصاً كل الاخلاص ، بأنه
« رجل لا تحتاج اليه روسيا » . وكان يزور صديقه المريض عند
شنايدر في أحيان كثيرة ، مرة « كل بضعة أشهر على الأقل » ولكن
شنايدر يبدو أكثرهما وغمماً في كل مرة ، فهو يهز رأسه ، ويفهم
الزائر أن أعضاء التفكير عند مريضه معطلة تعطلاً كاملاً ، وأنه اذا كان
لا يقطع بأن حالة المريض لا يمكن أن تشفى ، فهو متشائم في تخميناته
أشد التشاؤم . فكان أوجين بافلوفتش يبدو متأثراً تأثراً شديداً ، لأنه
رجل ذو قلب حساس . وقد برهن على ذلك اذ قبل أن يكتب اليه كوليا ،
واذ كان يجيب على رسائله أحياناً .

وقد ظهرت في هذه المناسبة إحدى صفات طبيعه . ونحن نسمع
لأنفسنا بأن نشير اليها لأنها صفة حسنة . ان أوجين بافلوفتش ، بعد كل
زيارة من زيارته لمعهد شنايدر ، كان - عدا ما يكتبه الى كوليا - يرسل
الى شخص آخر ببطرسبرج رسالة تشرح حالة الأمير الصحية شرحاً
مفصلاً ولطيفاً الى أبعد الحدود . وكانت مراسلاته هذه - الى جانب
ما تشتمل عليه من احترام - تعبر (بحرية متزايدة) عن بعض الآراء
يسطها بصراحة وعن بعض الأفكار وبعض العواطف يعرضها بصدق .

فذلك اذن أول مظهر لشيء يمكن أن يشبه علاقة صداقة حميمة . والشخص الذي كان يبعث اليه أوجين بافلوفتش بتلك الرسائل (وان تكن قليلة متباعدة) ، ويستحق منه كل هذا الاهتمام وكل هذا الاحترام لم يكن الا فيرا ، بنت ليديف . لا نعرف على وجه الدقة كيف انعقدت هذه الصلات . لا شك في أن منشأها هو كارثة الأمير التي حزنّت لها فيرا حزناً سقطت بسببه مريضة . أما الظروف الأخرى التي لا يست انقاد تلك الصلة فنحن نجهلها .

واذا كنا قد تكلمنا عن تلك المراسلات فلأنها قد نقلت في بعض الأحيان أبناء عن أسرة ايباتشين ، ولا سيما عن آجلايا ايفانوفنا . ففي رسالة مكتوبة بباريس ، غامضة بعض الغموض ، يذكر أوجين بافلوفتش أن آجلايا ايفانوفنا قد عصفت بها غرام قوى فتزوجت رجلاً بولندياً مهاجراً ، رغم ارادة أهلها ، وأن أهلها لم يوافقوا على هذا الزواج أخيراً الا لاتقاء فضيحة ضخمة . وبعد صمت دام ستة أشهر ، بعث أوجين بافلوفتش الى فيرا رسالة ملأى بالتفاصيل يذكر فيها أنه أثناء زيارته الأخيرة للبروفسور شنايدر في مويسرا ، التقى بأسرة ايباتشين ، (عدا ايفان فيدوروفتش طبعاً ، لأن أعماله تحتجزه في بطرسبرج) ، والتقى كذلك بالأمير « شتش . . . » ؛ وأن لقاءهم هذا كان غريباً : لقد استقبلوه جميعاً بحماسة ، حتى ان آديلايد وألكسندرا وجدتا أنه يقع على عاتقهما أن تشكرا له « اهتمامه الملائكي بالأمير المسكين » . أما اليزابت بروكوفيتسا فانها حين رأت الأمير مريضاً مذلاً هذا الاذلال قد طفقت تبكي من كل قلبها . لقد زال حقدما عليه زوالاً تاماً . وأما الأمير « شتش . . . » فقد قال في هذه المناسبة آراء صادقة وعبر عن حقائق وُفق فيها كل التوفيق فجاء كلامه زاخراً بسلامة الحس وحسن الفهم . وقد بدا لأوجين بافلوفتش أنه لم يقم بين

الأمير « شتت » وبين آديلايد اتفاق تام حتى الآن • ولكن بدا له في الوقت نفسه أنه لا بد أن يأتي يوم نرى فيه آديلايد الحارة المندفعة تدعن بارادتها ادعائاً صادقاً أمام ذكاء الأمير « شتت » • وتجربته وخبرته • ثم ان المحن التي ألمت بالأسرة قد أثرت فيها تأثيراً كبيراً ولقتها دروساً كثيرة • ولا سيما مغامرة آجلايا مع الكونت البولندي المهاجر • ان ما كانت الأسرة ترتجف خوفاً منه حين رضى أن تزوجه آجلايا قد تحقق في ستة أشهر • مع مفاجآت ما كان لأحد أن يتجرأ يتصورها أو يخطر له ببال • لقد اتضح أن هذا الكونت ليس « كوتاً » • وإذا كان مهاجراً فإنه لم يهاجر الا في أعقاب قصة مشبوهة غامضة • لقد استطاع أن يستولى على آجلايا بالنبل العظيم الذي تتصف به نفسه الممزقة ألماً على وطنه • وبلغ من استيلائه على الفتاة أنها حتى قبل الزواج قد أصبحت عضواً في لجنة من المهاجرين أنشئت في الخارج لاصلاح بولند • وعدا ذلك أصبحت مريدة من مريدات كاهن كاثوليكي شهير استولى على قلبها وفكرها حتى ملأها بالاندفاع والتعصب • أما الثروة الضخمة التي يملكها « الكونت » • والتي قدم لأليزابيت بروكوفينا والأمير « شتت » • براهين على وجودها تكاد تكون قاطعة • فقد تبين أنها لم توجد في يوم من الأيام • أكثر من ذلك أن الكونت وصديقه الكاهن الشهير • قد أقفلا • بعد زواج آجلايا بستة أشهر لا أكثر • أن يفسدا علاقات آجلايا بأعضاء أسرتهما افساداً كاملاً • فهم الآن لم يروها منذ عدة أشهر ! • • • الخلاصة : هناك أشياء كثيرة يمكن أن تروى • ولكن اليزابيت بروكوفينا وبشيتها والأمير « شتت » • كانوا قد بلغوا جميعاً من شدة الارتياح لهذا « الهول » الرهيب أنهم خسبوا حتى من الالاع الى بعض الأمور في حديثهم مع أوجين بافلوفتش • مع علمهم بأن أوجين بافلوفتش كان • دون أن يتحدثوه بشيء • مطلعاً اطلاعاً تاماً على آخر ما وصلت اليه آجلايا

باندفاعات هواها • ان اليزابت بروكوفينا المسكينة تود لو ترجع الى
روسيا • يقول أوجين بافلوفتش انها قد انتقدت بمرارة وحدة وتجزئ كل
ما هو أجنبي • • انهم في أى مكان هنا لا يعرفون كيف يجب أن يُخبِز
الحُبز • وهم في الشتاء يتجمدون كالقثران في قبر • على الأقل أُمسح لى
الآن أن أبكى على هذا الشاب المسكين كما يبكى الروس • • كذلك قالت
اليزابت بروكوفينا متأثرةً وهى تومىء الى الأمير الذى لم يعرفها •
ثم ختمت كلامها شبهً غاضبةً وهى تودع أوجين بافلوفتش : • كفى
حماسات سخيفة ! آن لنا أن نسمع صوت العقل ! كل هذا ، كل هذه
البلاد الأجنبية التى تشيدون بها ، كل أوروبا هذه التى تعظمونها ، كل
هذا ليس الا سراياً • • • ونحن أنفسنا لسنا فى البلاد الأجنبية الا سراياً
• • • تذكروا ما أقوله لكم • • • ولسوف ترون بأعينكم ! • • •

حواش

الصفحة

- ٩ ★ « مصرف لومبارد » : هو المؤسسة الحكومية التي كانت صندوق ادخار واقراض ثم توقفت عن العمل حين ظهرت البنوك الحديثة .
- ١٨ ★ واحدة من الجزر التي يشكلها فرعاً نهر نيفا ، وفيها قصر من القصور الامبراطورية . وكان في تلك الجزيرة فيلات كثيرة لموظفين يمنحهم عملهم من الابتعاد عن بطرسبرج .
- ٢٠ ★ كانت توجد في بافلوفسك قاعة كبيرة تجاور المحطة ، وكانت توجد حديقة عامة . والقاعة والقصر يتبعان املاك الدوق الكبير قسطنطين ، ولكن القاعة والحديقة مفتوحتان للجمهور تقام فيهما اثناء الصيف حفلات موسيقية سمفونية ذات شهرة كبيرة .
- ٢٣ ★ في رسالة كتبها دوستويفسكي الى ن. ن. ستراخوف في ٥ نيسان - أبريل ١٨٧٠ ، يعبر عن مثل هذا الرأي بصدد لومونوسوف وبوشكين ، ويتكر على تولستوي حق أن يقارن بهما .
- ٢٤ ★ « فاموسوف » : شخصية من شخصيات مسرحية جريبيودوف الهزلية « كثير من الذكاء ضرر » .
- ٤٢ ★ « وحيدين » : بالفرنسية في الأصل
- ٥٣ ★ بالفرنسية في الأصل
- ٦١ ★ جرح بوشكين في مبارزته مع دانتيس يوم ٢٧ كانون الثاني

المصفحة

- (يناير) ١٨٣٧ ؛ ومات يوم ٢٩ في الساعة الثالثة بعد الظهر ،
ان رصاصة خصمه قد ثقبت أحشاءه .
- ٩٢ * يجرى المشهد فى فترة « الليالى البيضاء » بمدينة بطرمبرج .
- ٩٢ * ذكرى بيت من الشعر ورد فى « فاوست » جوته .
- ١٠٠ * ان حصار كارسي ، أثناء حرب ١٨٤٥ - ١٨٥٥ قد انتهى بتسليم
القلعة للجنرال مورافيف فى ٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ، لأن
الذخائر والمؤن قد نفذت عند المحاصرين نقادا تاما .
- ١٠٥ * ربما كانت هذه الفكاهة تقوم على الصلة اللغوية التى لا يمكن
ترجمتها ، بين كلمة بوروك الروسية (ومعناها الرذيلة) ، وكلمة
بوروكهود (ومعناها السفينة البخارية) .
- ١١٧ * بالفرنسية فى الأصل
- ١٢٣ * أغلب الظن أنه الدكتور بوتكين ، طبيب الاسكندر الثانى .
- ١٣١ * قطع ذهبية قيمة الواحدة منها عشرة روبلات .
- ١٤٩ * «جبل العصفير» : تل صغير فى ضاحية بجنوب شرق موسكو،
منه تأمل تابوليون وأوكان حربه المدينة فى اليوم الحادى عشر
من شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٨١٢ ؛ وفى ذلك ائتل كان
يجمع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة قبل ترحيلهم الى سيبيريا .
ان هذا التل هو اليوم مرتع نزهة ردياضة ، ويسمى « جبل
ليتين » .
- ١٥٧ * « قومي طليتا » انجيل مرقس ، الاصحاح الخامس ، ٤١
- ١٥٧ * « اخرج لعازر » : انجيل يوحنا ، الاصحاح الحادى عشر ، ٤٣
- ١٨١ * واضح أن أوجين بافلوفتش يرجع هنا الى « شرح » هيوليت
(صفحة ١٦٣ سطر ١٠) ولكن يجب أن نذكر أنه يستعمل هنا
كلمة Chtouka التى تعنى « مقلبا » ، فى حين أن هيوليت

الصفحة

- كان قد استعمل كلمة Choutka التي تعنى مزاحا • فتشابه
اللفظين يبعث المرء على أن يقدر أن الناشر ارتكب خطأ مطبعيا •
فلعل المؤلف إنما استعمل كلمة واحدة •
- ٢٥١ * « بودكوليوسين » : بطل مسرحية جوجول الهزلية «زواج» •
انه نموذج الطبع الضعيف ، مع انتفاضات استقلالية : لقد قفز
من النافذة في لحظة الزواج •
- ٢٥٢ * بالفرنسية في الاصل •
- ٢٥٤ * « بيروجوف » : شخصية رئيسية في قصة عنوانها « شارع
نفسكي » •
- ٢٧٣ * « نوزدريوف » : شخصية مضحكة هزلية من شخصيات رواية
جوجول « النفوس الميتة » : نموذج بوهيمي ، متشدد ، شرير •
- ٢٨١ * « ياروشكا » : تصغير اسم ياروم ، وهو من يسمى بالفرنسية
جيروم •
- ٢٨١ * « كابيتوشكا » : تصغير اسم كابيتون •
- ٣١٤ * ضاحية من ضواحي موسكو
- ٣١٦ * « الأرشييف الروسي » : مجلة تاريخية أسسها سنة ١٨٦٣ ،
ب • بارتنييف • ورغم أن عدد النسخ التي كان يطبع منها
ضئيل ، فقد كانت تعد على الدوام أفضل نشرة من هذا النوع •
- ٣٢٢ * هو كتاب « تاريخ حملة ١٨١٥ ، واترلو » ، تأليف الليوتنان
كولونيل شاراس ؛ صدر الكتاب بباريس سنة ١٨٦٤
- ٣٢٤ * بالفرنسية في الاصل :
- ٣٢٥ * بالفرنسية في الاصل
- ٣٢٦ * بالفرنسية في الاصل
- ٣٢٧ * بالفرنسية في الاصل

الصفحة

- ٣٢٧ ★ « هي اذن بنت صغيرة » : بالفرنسية فى الأصل
- ٣٢٧ ★ « اياك والكذب ، صديقك المخلص نابوليون » بالفرنسية فى الأصل .
- ٣٣٠ ★ « لان يكون المرء مع نساء ، خير من ان يخطب هنا وهناك يخطب عشواء » : يستغل الجنرال فى هذه العبارة جناسا لفظيا بين كلمة bobami وكلمة babami (ومعناها : نساء) .
- ٣٣١ ★ « جريشا » : تصنيف جريجورى
- ٣٣٢ ★ « ملك روما » بالفرنسية فى الأصل
- ٣٣٨ ★ « كامنى أوستروف » : جزيرة فى نهر نيفا شمال بطرسبرج .
- ٣٣٨ ★ « حاميتها » : بالفرنسية فى الأصل .
- ٣٤٠ ★ « بعد كل ما جرى » : بالفرنسية فى الأصل .
- ٣٤١ ★ فريدرىك شلوسر (١٧٧٦ - ١٨٦٠) : مؤرخ المانى وضع كتابا بعنوان « التاريخ العام » .
- ٣٤٧ ★ « جلاشا » تصنيف آجلايا
- ٣٦٢ ★ ان جلييوف ، عشيق المرأة التى طردها بطرس الأكبر ، واسمها أودوكسيا ، قد اشترك فى الثورة التى أقامها رجال الكهنوت على هذه الأميرة وابنها الكسى . وقد حوكم جلييوف سنة ١٧١٨ فى كينين ، وحكم عليه بالخازوق .
- ٣٦٣ ★ آندره ايفانوفتش أوسترمان (١٦٨٦ - ١٧٤٧) ، ابن قسيس من قسطنطينية ، جاء الى روسيا فى السنة الثامنة عشرة من عمره . وقد ألحقه بطرس الأكبر بوزارة الخارجية . فاشترك فى مباحثات صلح نيستاد سنة ١٧٢١ ومعاهدة ١٧٢٣ مع ايران . وقد ترأس الحزب الالماني فى عهد آنا ايفانوفنا ، ونال لقب كونت ورتبة مستشار . ونفى الى سيبيريا بعد أن تم اسقاط ايفان الرابع على يد اليزابيث بشروفنا .

الصفحة

- ٣٧٧ ★ يقال ان توماس موروس الذى حكم عليه بالاعدام قد تضرع الى الجلالد أن لا ينال لحيقته بسوء ، قائلا له : « ليس يهمنى كثيرا أن يصيب لحيتى اذى ، ولكن يهكم أنت أن يقول الناس عنك انك تجيد مهنتك اجادة تامة ، لأن القرار ينصر على أن عليك أن تقطع رأسى لا لحيتى » .
- ٣٧٧ ★ « هذا ذنبى » : بالفرنسية فى الأصل .
- ٤٠٠ ★ باللاتينية فى الأصل .
- ٤٠٤ ★ « الخليين » Khlistes : مله يرجع عهدها الى نهاية القرن الثامن عشر ، وفى عقيدتها يمتزج نوع من التصوف المسف والانحلال الجنسى .
- ٤١٣ ★ « دعوه يتكلم » : بالفرنسية فى الأصل .
- ٤١٨ ★ ان الدعوة السلافية التى كان ينتمى اليها دوستويفسكى لا تقتصر على أن تكون مذهبا يهدف الى الانبعاث السياسى لجميع السلافين ، بل كان كذلك فلسفة قومية تتضمن حلا روسيا للمشكلات الاجتماعية والأخلاقية .
- ٤٣١ ★ « هذه الأبيات السخيفة » : ان هذه الأبيات جزء من قصيدة بوشكين التى عنوانها « انطفاء فرح الأيام المجنونة » ، والتى تعد من أجمل القصائد الغنائية . فلعل الفتى هيبوليت متأثر هنا بالتيار النقدى الأدبى الذى طلع فى ذلك الزمان والذى يمثله بيسارييف وأمثاله الذين كانوا يسفّهون بوشكين .
- ٤٨٦ ★ « أبيع حياتى بلبلة واحدة » : بيت من قصيدة للشاعر بوشكين : « ليالى مصر » .

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المذنبين" فاذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشتربه ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لو يدرك أن الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس..

الكاتب في سولزيف